الروضة الغناء في سيرة خاتم الأنبياء

د. عبد الملك القاسم

دار القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار القاسم للنشر والتوزيع
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، عبد الملك محمد
الروضة الغناء في سيرة خاتم الأنبياء./ عبد الملك محمد القاسم. - الرياض، ١٤٣٤هـ
ص..؛ .. سم
ردمك: ١ - ٠٦٢٠ - ٥٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - السيرة النبوية أ - العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٣٤/٢٢٨٨

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٢٢٨٨
ردمك: ١ - ٠٦٢ - ٥٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

دار القاسم للنشر والتوزيع
المكتب الرئيس: هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ - فاكس: ٤٠٣٣١٥٠
فروع دار القاسم للنشر
السويدي: هاتف: ٤٢٤٣٥٥٥ - فاكس: ٢٦٧٦٧٠٩
الربوة: هاتف: ٤٤٥٢٠٤٥ - فاكس: ٤٤٥٢٠٤٥
جدة: هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ - فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام: هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١
بريدة: هاتف: ٣٢٦٢٨٨٨ - فاكس: ٣٦٩٢٨٨٨
خميس مشيط: هاتف: ٢٢٢٢٢٦١ - فاكس: ٢٢٢٣٠٥٠

www.dar-alqassem.com
sales@dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّوضةُ الغَنَّاءُ

في سيرةِ خاتمِ الأنبياءِ

د. عبد الملك القاسم

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً كما يحب ربنا ويرضى، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فمن نعم الله ـ عز وجل ـ أن أرسل نبينا محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

فقام بهذا الأمر ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ خير قيام؛ فأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ومن تأمل واقع حياة الناس اليوم، يجد كتباً كثيرة تُقرأ ـ ولله الحمد ـ، ولكن من أقل ما يقرأ في المساجد، والمنازل، والمنتديات ما كان في سيرة المصطفى ﷺ مع عِظَم حقه ورفيع منزلته.

ورغبة في تقريب سيرته ﷺ ودقائق حياته إلى عامة الناس، كتبت هذه الورقات من مصادرها الأصلية وجمَّلتها برفيع العبارات، وجمعت بينها بعيداً عن كثرة الهوامش والإحالات؛ ففي قراءتها حياة للنفوس، وبعث للهمم، وزرع لمحبة النبي ﷺ في القلوب، وطاعته واتباع سنته، والشوق إلى لقائه.

وفي تتبع وقائع وأحداث حياته زاد لأهل الدعوة وأبناء الإسلام في معرفة دعوته وصبره وجهاده. فقد كانت حياته ﷺ حياة أمة، وقيام دعوة، ومنهاج حياة، ومعلم طريق. وكل سيرة حسيرة كسيرة أسيرة أمام سيرته، وكل رجل راجل حاف أمام مقدمه ﷺ.

وقد ركَّزت في ثنايا هذه السيرة على ثلاثة أمور مهمة:

أولها: التوحيد لأنه أساس دعوته ولب رسالته. وما دعا داع إليه وسعى في نشره إلا رفع الله قدره في الدنيا والآخرة، والأنبياء منارات في ذلك.

والثاني: الاتباع للأمر الإلهي في وجوب طاعته ﷺ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

والثالث: السير على معالم منهج دعوته ﷺ في تبليغ الرسالة، فهي طريق آمنة غير موحشة، تغبرت فيها قدمه الشريفة جهاداً ودعوة.

ولا شك أن معرفة فضائله وشمائله ﷺ من أسباب محبته، وهو القائل: «المرء مع من أحب» [رواه مسلم].

وقد كان السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ يدركون ما لسيرة خاتم الأنبياء، وسير الصحابة النبلاء؛ من آثار طيبة في تربية النشئ وغرس المعان السامية لهذا الدين في النفوس.

روي عن عليّ بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنا نُعلِّم مغازي رسول الله ﷺ، كما نعلِّم السورة من القرآن».

وروي عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهم ـ أنه قال: «كان أبي يُعلمنا المغازي والسير، ويقول: يا بني هذه شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها».

وقد أتممت هذه السيرة المباركة بذكر موجز للخلفاء الأربعة وسيرهم العطرة، وفضائلهم وحقهم على الأمة.

أسأل الله ـ عز وجل ـ بمنِّه وكرمه أن يجعلنا ممن يتبع هديه ﷺ، ويطيع أمره، ويحذر مخالفته، وأن يجعلنا من أتباع سنته، ومن يحشر في زمرته، ويشرب من حوضه، وينال شفاعته.

د. عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

دعوة الأنبياء

خلق الله ـ عز وجل ـ آدم وخلق منه زوجه حواء، وأسكنهما الجنة، يأكلان منها رغداً، ونهاهما أن يقربا شجرة من أشجارها. لكن الشيطان وسوس لهما وأغواهما فأكلا من الشجرة، فأخرجهما ـ تعالى ـ من جنته وأنزلهما أرضه: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٩].

وقد استخلف الله ـ عز وجل ـ آدم في الأرض بعد أن أهبطه من الجنة، كما ذكر ذلك ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

ولما أهبط آدم وزوجته إلى الأرض كانت العبادة لله ـ عز وجل ـ، ووهب الله آدم وزوجته نسلاً مباركاً موحداً، عابداً لله مقيماً لحدوده، ومع تطاول الزمن ومرور عشرة قرون من وفاة آدم ـ عليه السلام ـ حصل انحراف الناس عن عقيدة التوحيد التي فطروا عليها. في الحديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين، وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة» [رواه الحاكم].

وقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقد ذكر الله - عز وجل - في كتابه بعضاً من الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم، وهم خمسة وعشرون رسولاً، ذكروا بأسمائهم، أما غيرهم فكثير كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

ومن هؤلاء الأنبياء أولو العزم وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد - عليه الصلاة والسلام -.

وقد توالت الرسل إلى بني آدم يدعون إلى عبادة الله وحده، يتفقون في أصول التوحيد والعبادات: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ومن هؤلاء الرسل ألو العزم.

نــوح

وأولهم نوح - عليه السلام - الذي دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، دعاهم سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، ما ترك طريقاً ولا فجاً إلا سلكه حتى يعبدوا الله - عز وجل - ويدعوا ويتركوا أوثانهم وأصنامهم، لكنه واجه الصدود والعناد خاصة من كبرائهم أهل القوة والبطش والسيادة فيهم. قال - عز وجل - في سورة نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

ولما استنفد نوح - عليه السلام - كل سبل الدعوة، وسدت في وجهه كل الطرق؛ دعا على قومه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٣٦].

فاستجاب الله دعاءه، وأمره ببناء السفينة، وقومه يسخرون منه ويستهزئون ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩].

وأمره ـ عز وجل ـ بعد أن صنع السفينة أن يعمد إليها مع أهله المؤمنين من قومه، وأن يحمل من كل زوجين اثنين محافظة على نسل ذوات الأرواح من طير ودواب وغير ذلك.

ثم كان العقاب الإلهي؛ إذ أغرق ـ عز وجل ـ الكفار بالطوفان بالماء المنزل من السماء والخارج من الأرض؛ فكان أن ارتفعت السفينة وغرق من على ظهر الأرض. قال ـ تعالى ـ في وصف ما جرى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٠ ـ ٤٤].

إبراهيم

ولم تمضى مدة وحقبة من الزمن حتى بعث الله من أولي العزم إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ

مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٤]. فدعا قومه إلى ترك الأصنام وإخلاص العبادة لله وحده، ودعا قومه بلين ورفق وبحجة قوية ظاهرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٥].

وعندما وجد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن أرض بابل وأهلها لم يسمعوا ويطيعوا دعوة التوحيد، ترك وطنه مهاجراً حتى حط رحاله في بيت المقدس بفلسطين. وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجته سارة قبل ذهابهما إلى بيت المقدس قد استقرا في بلاد مصر. وقد رزقه الله بولديه إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة بعد أن تقدم به العمر وكبر سنه.

وإسماعيل يتصل به نسب نبينا محمد ﷺ، وإسحاق ينتسب إليه يعقوب وأسباط بني إسرائيل الذين فيهم كثير من الأنبياء وختموا بعيسى ـ عليه السلام ـ.

موسى

وكانت جماعات من بني إسرائيل وهم ذرية أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ قد نزحت من بلاد الكنعانيين واستقرت في مصر، وكان هؤلاء موحدين حنفاء على دين إبراهيم، بخلاف المصريين الذين كانوا مشركين يعبدون الأصنام والأوثان.

ولما تكاثر بنو إسرائيل في مصر خشي الفراعنة أن يكونوا قوة دينية وسياسية تنافسهم وتسلبهم ما بأيديهم؛ فعهدوا إلى اضطهادهم والتنكيل

بهم. وقد ولد موسى ـ عليه السلام ـ في مصر في وقت تعاظم فيه بطش الفراعنة ببني إسرائيل.

وقدر الله ـ عز وجل ـ أن ينشأ موسى ـ عليه السلام ـ في قصر فرعون مصر حتى بلغ أربعين سنة وآتاه الله العلم والحكم والنبوة. فدعا فرعون وقومه، فجادل فرعون واستكبر ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٣].

فأرى موسى فرعون المعجزة تلو المعجزة لعله يؤمن ويصدق، لكنه طغى وبغى فأهلكه الله ـ عز وجل ـ، قال ـ تعالى ـ عن نهايته ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

عيسى

أما عيسى ـ عليه السلام ـ وهو آخر أنبياء بني إسرائيل فقد ولد في فلسطين، حملت به مريم كما قص الله ـ عز وجل ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢١].

وقد ظهرت لعيسى علامات ومعجزات عظيمة؛ منها أنه تكلم وهو صبي في المهد عندما طعن اليهود في براءة أمه ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٩ ـ ٣١].

وعندما جاوز عيسى ـ عليه السلام ـ الثلاثين من عمره دعا قومه إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وأنزل عليه الإنجيل لدعوة قومه، فقد جاء لإحياء شريعة موسى بعد أن عطل اليهود أحكامها، قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

وهكذا كان حال الأنبياء: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٥ ـ ٦]. وكفر بعيسى قومه ولم يستجب له إلا قلة من الناس هم الحواريون، كما ذكر ذلك عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣].

وقدر الله ـ عز وجل ـ أن يدخل عيسى ـ عليه السلام ـ بيت المقدس في يوم عيد اليهود، فدعاهم وعرض عليهم دعوته، وقد أثار ذلك الكهنة فطاردوه لكن استعصى عليهم؛ فكان يدعوا في كل مكان يذهب إليه. وعندها حاربوه كما هي عادة الكفار مع أنبيائهم، وحاصروه في دار بيت المقدس وأرادوا صلبه وقتله، رفعه الله إليه، فألقى شبَهَه على أحد أصحابه فصلبوه بدلاً منه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥].

محمد ﷺ

ثم بعد أن درست معالم التوحيد بعث الله آخر الرسل وأولي العزم نبينا محمد ﷺ القائل: **«مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلّا وضعت هذه اللبنة، قال: وأنا اللبنة فأنا خاتم النبيين»** [رواه مسلم].

محمد رسول الله

خلق الله الخلق لعبادته، وأرسل الرسل بشرائعه وأحكامه، فجميع الرسل يدعون إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال عز وجل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل: ٢].

الرحمة المهداة

وكان إرسال الرسل رحمة من الله ـ عز وجل ـ للعباد، كما قال ـ سبحانه ـ عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: اقتضت رحمة العزيز الرحيم، أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ومن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم، معرفة المعبود ـ سبحانه ـ، بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها.

وقد اصطفى الله ـ عز وجل ـ نبينا محمد ﷺ وخصه بأعظم الرسالات، وبوّأه مكاناً علياً ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٧٤] و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فجمله وكمله، وطيبه خلْقاً وخلقا، وجمع له الفضائل كلها نسقاً متسقاً؛ فلرسول الله ﷺ عند ربه المكانة العلية والمنزلة السامية الجنية، فقربه واصطفاه، أسرى به وناجاه، ومن كل فضل حباه، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝﴾ [النجم: ١ ـ ٥] الآيات. صلى بالأنبياء ثم عرج به إلى السماء ووصل إلى سدرة المنتهى، ودنا واقترب، وراجع ربه في عدد الصلوات، وقال لموسى ـ عليه السلام ـ: «**قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه**» [رواه مسلم].

وقد شرح الله صدره، وغفر ذنبه، ورفع ذكره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾ [الشرح: ١ ـ ٤].

وقرن الله اسمه باسمه: في شهادة التوحيد، وفي الأذان، وفي الإيمان: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

وفي الطاعة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢].

وصلى الله عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وجعله شاهداً على الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٤٦].

واقسم الله ـ تعالى ـ به: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾ [الحجر: ٧٢].

ولاطفه بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

ووعده بالعطاء حتى الرضا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾ [الضحى: ٥]، ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝﴾ [القلم: ٢].

وطمأنه ربه بالحفظ والرعاية والأمن والكفاية ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝﴾ [الحجر: ٩٥]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وجعله في رعايته: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وكانت حياته أماناً لأهل الأرض من الهلاك العام، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

واعطاه الله الكوثر، وأتاه السبع المثاني والقرآن العظيم، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأتم نعمته عليه، وهداه ونصره، وجعله رحمة للخلق ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولــه المنزلة العالية التي أنزله الله فيها؛ فهو عبد الله ورســوله، وخيرته مــن خلقه، وهو رســول الله إلى الناس كافة، وإلــى جميع الثقلين الجن والإنس، وهو أفضل الرســل، وخاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، قد شرح الله لــه صدره ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وهــو صاحب المقام المحمود، وهو الواســطة بيننا وبين الله، ولا طريق لنا لمعرفــة ما ينجينا من غضب الله وعقابه، ويقربنا من رضى الله وثوابه، إلا بما جاء به ﷺ.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وســيرته وشــأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشــيعته وحزبه، والناس في هذا بين مســتقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ولقد فاضت بمحبته نبينا ﷺ القلوب، وامتلأت بإجلاله الصدور، وأسبغ الله عليه من الحسن والجمال في منظره ومخبره، وخلْقه وخُلقه، وجعله آية في جميل الصفات وكريم الفعال.

معرفته

ومعرفته ﷺ تنتظم أشياء عديدة: منها معرفة اسمه ونسبه، وعمره وبقائه فــي الدنيا، ووفاته، ومعرفة ما نُبِّئ به، وما أرســل به، وبلده ومهاجره، ومنها ـ وهو أعظمها ـ معرفة ما بُعث به، وغير ذلك.

وكل محبة وتعظيم للبشـــر؛ فإنما تجوز تبعاً لمحبة الله وتعظيمه، كمحبة رســـول الله ﷺ وتعظيمه، فإنها من تمام محبة مرســـله وتعظيمه، فإن أمته يحبونه لمحبة الله له، ويعظمونه ويجلونه لإجلال الله له، فهي محبة لله من موجبات محبة الله.

في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...**».

وقال ﷺ عمن أخبره بحبِّه له: «**أنت مع من أحببت**» [متفق عليه].

ولهذا كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أشد الناس حباً له، فعظموه ووقروه، وكان ملء أســـماعهم وأبصارهم، وخالط حبه شـــغاف قلوبهم، فقدموه على أنفسهم وأهليهم، وفدوه بأرواحهم وأولادهم.

تعظيمه

ومن تعظيمه ﷺ: تعظيم ســـنته واعتقـــاد وجـــوب العمل بهـــا، لأنها وحـــي من الله تعالـــى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

ولهذا كانت هـــذه الورقات زاداً في الطريق ومُعرِفـــةً بالحبيب، ومقربة لسيرة سيد الأولين والآخرين ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ.

وكل ما قيل ويقال قليلٌ في حقه، فحســـبه أنه عبد الله ورســـوله ﷺ، وكفى بذلك شرفاً ومنزلة، وعزاً ورفعة.

جـــزا الله عـــنـــا كـــل خـــيـــر مـــحـــمـــداً
فـــقـــد كـــان مـــهـــديـــاً دلـــيـــلاً وهـــاديـــاً

وكـــان أبَـــر الـــنـــاس بـــالـــنـــاس كـــلـــهـــم
وأكـــرمـــهـــم بـــيـــتـــاً وشـــعـــبـــاً وواديـــا

شبه جزيرة العرب

أرض جزيرة العرب محط بعثة النبي ﷺ ومولده ونشـــأته، وهي أرض الرسالات، ومهبط الوحي، وبلاد الحضارات.

يحدهـــا من الجنـــوب: البحر العربي (المحيط الهندي). ومن الشـــرق: الخليج العربي ونهر الفرات، ومن الغرب: البحر الأحمر وقناة الســـويس. ومن الشمال: البحر الأبيض المتوسط. وهي بهذا تحيط بها البحار والأنهار مـــن جميع نواحيهـــا إلا جزءً قليلاً منها، ولهذا أطلـــق عليها تجوزاً جزيرة العرب.

وتمثل شـــبه جزيـــرة العرب موقعاً هامّاً في الزمـــن القديم والحديث؛ إذ أنها تربط بين قارات ثلاث: آســـيا وأفريقيا، وأوربا. وهي ملتقى تجاراتهم وواسطه عقدهم.

أقسام العرب

ويسكن العرب في هذه المنطقة من العالم وينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العرب البائدة: وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطسم، وجديس وغيرهم، وهذه القبائل بادت قبل الإسلام، وقص الله ـ عز وجل ـ علينا بعض قصصهم وما جرى لهم مع أنبيائهم، قال ـ تعالى ـ عن قوم عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وكذلـــك ذكر الله ـ عز وجل ـ قصـــة ثمود أصحاب الحجر، وما كانوا يتمتعـــون به من القـــوة والقدرة على نحت الجبـــال. ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٣].

القسم الثاني: القحطانية: وهم أولاد قحطان الذين كانوا يسكنون جنوب الجزيرة في اليمن وما حولها، ومنهم من ذكره الله ـ عز وجل ـ في كتابه الكريم مثل قوم سبأ وغيرهم حيث كانوا أهل زروع وخير وفير، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٧].

قصة بلقيس

وذكر ـ عز وجل ـ قصة ملكتهم بلقيس مع سليمان ـ عليه السلام ـ، وذلك في سورة النمل. حيث دعاها سليمان إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وعبادته، وكانت وقومها يعبدون الشمس، فاستجابت وآمنت واتبعت ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤].

الغساسنة

ومنهم أيضاً: «أولاد جفنة» ملوك الغساسنة الذين كانوا يسكنون على حدود بلاد الروم، ومنهم ملوك كندة الذين كانوا بحضرموت، ومنهم أبو الشاعر الجاهلي امرئ القيس، كما أن منهم (الأزد) الذين تفرع منهم الأوس والخزرج، ومنهم الجراهمة الذين حطوا رحالهم بالقرب من وادي مكة، واتصل بهم نبي الله إسماعيل لما كبر وصاهرهم.

القسم الثالث: العدنانية: نسبه إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وموطنهم الأصلي مكة وهم إسماعيل وأبناؤه، ومنهم نبينا محمد ﷺ.

وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه خرج على قوم من أسلم يتناضلون بالسهام، فقال: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً**» [رواه البخاري].

هذه هي جزيرة العرب مهبط الرسالات ومنزل الأنبياء، بها نزل الشرع، وأرسلت الرسل، وكتبت الكتب.

أرض حوت الزمان والمكان، فكانت متنزل الكتب والرسالات، وأرض حضارات وخيرات، وأعظم الخيرات والهبات إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين.

إبراهيم ـ عليه السلام ـ في مكة

حريٌّ أن نبدأ قراءة سيرة الرسول ﷺ من مكة؛ من جوار الكعبة حيث يتجه المسلمون في صلاتهم المفروضة كل يوم خمس مرات شطر البيت الحرام.

نعود قروناً مضت، ونطل إطلالة سريعة على أول من بنى الكعبة، وكيف بُنيت، ولماذا بُنيت؟

كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقيم في الشام؛ ولكنه قصد إلى مكة وهي بلد تقع في بلاد الحجاز في بطن واد، وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي فإلى الشرق يمتد جبل أبو قبيس، وإلى الغرب يحدها جبل قعيقعان.

وتعرف المنطقة المنخفضة من الوادي بالبطحاء، ويقع فيه البيت العتيق.

إبراهيم وهاجر

جاء إبراهيم بزوجته هاجر وبابنها إسماعيل من أرض الشام وهو طفل رضيع؛ جاء بهم لهدف سام ومبدأ عظيم ورسالة خالدة، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، لا بشر ولا شجر، وليس بها ماء؛ فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم ـ عليه السلام ـ مستسلماً لأمر ربه منطلقاً في طريقه.

وقلب الأب ينظر إلى مكان ابنه وزوجته في هذه الأرض المقفرة والمكان الموحش، ثم هو بإيمانه بربه ويقينه بلطفه وحكمته، يصنع ما قيل له، فربه

يعلم ويحكم؛ ويحفظ ويلطف.

وعندما قفى تبعته أم إسماعيل، فقالت تسأل زوجها مستوضحة الأمر: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟!

قالت له ذلك مراراً، وكأنها تذكره بوحشة المكان وقلة الزاد.

وجعل لا يلتفت إليها. وسرى إلى قلبها أن هذا تدبير العزيز الحكيم، وأن زوجها لن يتركها هكذا.

فسألته: آلله الذي أمرك بهذا؟

قال: نعم. وقطع الشك باليقين وسلَّم لأمر ربه.

وعندما سمعت ذلك قالت في رضا وقبول وحسن توكل: إذاً لا يضيعنا.

ثم رجعت حيث طفلها الصغير.

لقد كان منه ـ عليه السلام ـ عِظَمْ التوكل على الله ـ عز وجل ـ، وكان منها التسليم بأمر الله وقضاءه، موقنة بفرجه وعطائه، وجزيل فضله وإحسانه.

وكان لها ما أحسنت الظن بربها؛ الذي فرج كربتها وآنس وحشتها، ورزقها رزقاً واسعاً، وأسكنها مكاناً مباركاً.

دعاء الأب

ثم إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ انطلق حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، وكانت بواعث الأبوة في قلبه، وحسن رجاءه بربه.

عندها استقبل بوجهه البيت، ثم دعا ربه وتضرع إليه بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أظهر الفقر والحاجة، وربه ـ سبحانه ـ أعلم بذلك، لكنه سؤال بالحال والمقال. إنها مناجاة أب كبير في السن، رزقه الله الولد على كبر فخشى عليهم وخاف. . لكنه استودعهم رب عظيم لطيف خبير.

أسكنهم بواد موحش مقفر لا أنيس ولا صاحب، في مكان اختصه الله ـ عز وجل ـ. كل ذلك طاعة وعبادة ليقيموا الصلاة؛ فهذه قرة عينه.

ثم وهو الناصح المشفق دعا أن تهوى قلوب من الناس إليه، وأتم الدعاء بطلب الرزق ورغد العيش.

ليس للمأكل والمشرب. . بل لإقامة توحيد الله وعبادته، والشكر له ـ عز وجل ـ على نعمه وأفضاله.

من الخضراء إلى الجرداء

أتى بهم من الشام حيث الظلال الوارفة والأشجار الكثيرة، والمياه المتدفقة والخيرات الوفيرة إلى هذا المكان المقفر الموحش ليقيموا الصلاة!

وعادت أم إسماعيل وجعلت ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعل يتلوى من شدة العطش. وللوالدة رحمة وشفقة برضيع صغير. .

عندها هرعت الأم تنظر ذات اليمين وذات الشمال علها ترى شيئاً.

ماذا ترى؟!

جبال جرداء، ووادي مقفر؛ لا أثر فيه لشجر أو بيت مدر.

فانطلقت كراهية أن تنظر إلى رضيعها لما ترى من بكائه وشدة توجعه، وهي أشد توجعاً وألماً.

فسعت إلى بذل الأسباب وقامت بالبحث والنظر؛ ووجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فصعدت على هذا الجبل المرتفع ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً.

عندهـــا اتجهت للجهة الأخرى فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامـــت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

ســماء صافية وشــمس محرقة.. وأمٌّ ملهوفة، وطفل يتلوى من الجوع والعطش! هذا كل ما في ذلك المكان.

لطف اللطيف

لكن الله لطيف بعباده وأوليائه لم يتركهم ولن يضيعهم. فإنه لما أشرفت هاجر على المروة ســمعت صوتــاً، فقالت: صه؛ تريد نفســها، تريد أن تستوثق مما سمعت فرحاً بذلك الصوت.

ثم تسمعت فسمعت أيضاً.

فقالت: قد أســمعت إن كان عندك غواث. فــإذا هي بالملك عند موضع زمــزم، فبحث بعقبه وقيل بجناحه حتى ظهر المـــاء فجعلت تحوضه بيدها، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قـــال النبي ﷺ: «**يرحم الله أمَّ إســماعيل لو تركت زمــزم**»، أو قال: «**لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً**» [رواه البخاري].

ثم شربت وأرضعت ولدها، وسمعت البشير.

قال لهـــا الملك: لا تخافوا الضيعة؛ فإنَّ هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله.

فقرت عينها، وسكن قلبها.. نبع ماء، وخير ربها قادم.

وبقيت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائقاً.

فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء؛ لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، وأمُّ إسماعيل عند الماء.

فقالوا: أتأذنين لنا أنْ ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال ﷺ: «**فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه منهم**» [رواه البخاري].

إبراهيم يزور ابنه

لما ترك إبراهيم ـ عليه السلام ـ زوجه هاجر وابنه إسماعيل في ذلك المكان بأمر الله ـ عز وجل ـ، وهو الموقن بأن الله لا يضيعهم، بدأ يتعاهدهم بالزيارة والمتابعة وتفقد الأمور.

وهذا ديدن الأب الصالح الذي يعلم أن ذلك واجب شرعاً وعقلاً وفطرة وجبلة. يرغب الخير لابنه ويسعى له، ويخاف الشر على ذريته ويحذرهم منه، ولذلك كان من دعواته عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

ومن حرصه على ابنه إسماعيل. جاء زائراً بعد حين، وقد ماتت أمُّ إسماعيل بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه. فقالت: خرج يبتغي لنا.

ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، متفقداً لأحوالهم، ناظراً في أمورهم.

فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه.

عندهـا عرف أيـن ابنه، وعرف من زوجته أنها كثيرة الشـكاية لا تقنع بعيش، ولا ترضى بما قسم الله.

قال ناصحاً وهو يُكني عما يريد: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له: يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم جاءنا شـيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا في جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشـيء؟ قالت: نعم، أمرني أنّ أقرأ عليك السـلام ويقول: غير عتبة بابك. ففهم إسماعيل ما أراد والده.

فقال: ذاك أبي وقد أمرنـي أنْ أفارقك؛ الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شـاء الله ثم أتاهم بعد زائراً سـائلاً، فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا.

قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله.

قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم.

قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء.

قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قـال ﷺ: **«ولم يكن لهم يومئذ حبٌّ ولـو كان لهم دعا لهم فيه: قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه»** [رواه البخاري].

قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته.

فسألني: كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير.

قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك.

قال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

ولقد ضرب إبراهيم ـ عليه السلام ـ المثل في متابعة الأبناء وتفقدهم، ورعاية مصالحهم، وحسن توجيههم والنصح لهم، وهو يدعوا الله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]. ويدعوا: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقد كان من قبل يدعوا ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠].

وكما أن المرأة العاقلة الرشيدة من أسباب صلاح البيوت والأسر، فإن المرأة الشكاية الجزاعة قليلة الصبر من أسباب ضياع الأسر وعدم استمرار حياتها واستقامة حالها.

والمرأة العاقلة المتوكلة (هاجر) التي سلمت لأمر الله عندما قالت لإبراهيم ـ عليه السلام ـ آلله أمرك بهذا، إذهب فلن يضيعنا.. هي التي أنجبت الابن الذي قال: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢] وفي هذا تربية وزرع لليقين بالله وبموعوده.

بناء الكعبة

بعد زيارة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لابنه إسماعيل وتفقد أحواله، لبث إبراهيم عنهم ما شاء، ثم جاء بعد حين وإسماعيل قد شب وكبر، وهو يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد من الترحيب والتقدير، وبث الشوق والمحبة.

ثم قال: يا إسماعيل إنَّ الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعينني؟ سأله وهو يعلم بره بأبيه، لكنه أراد أن يستوثق؟

قال الابن البار بلا تردد ولا مسائلة: وأعينك.

قال: فإنَّ الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً؛ وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

البناء والدعاء

وتحول القول إلى فعل، والطلب إلى عمل. فكان أن شمرا عن ساعد الجد والعمل. وبدأ بناء بيت الله ـ عز وجل ـ. ورفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني؛ حتى إذا ارتفع البناء جاء بحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة.

فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

وهكذا ارتفع بناء البيت الحرام، أقامه إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ لعبادة الله وتوحيده، وإخلاصها له وحده ـ جل وعلا ـ.

ومع أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ نهض ببناء الكعبة هو وابنه امتثالاً لأمر الله ـ عز وجل ـ، إلا أنهما يدعوان ربهما أن يتقبل منهما ذلك العمل، فليس صواب العمل كاف في القبول، بل لا بد أن يصاحبه الإخلاص لله وحده لا شريك له.

وتقبل الله وأجاب دعاء إبراهيم حيث قال في دعائه: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

فكانت أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس، وكان ﷺ خاتم الأنبياء ودعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

نداء إبراهيم

ولما فرغ الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ من بناء البيت جاء جبريل، وأرى الخليل المناسك كلها، وأمره أن يؤذِّن في الناس بالحج. فقال: يا رب وما يبلغ صوتي؟

فقال الله ـ عزَّ شأنه ـ: «أذِّن يا إبراهيم وعليَّ البلاغ».

فوقف الخليل على جبل أبي قُبَيس وصار ينادي: يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجُّوا، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن، ومن كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة.

قال ابن عباس عند قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ لو قال أفئدة الناس؛ لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

ودعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهم بالتوحيد؛ لأنه الأساس والمبتدأ ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ودعا لهم بالأمن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ودعا لهم بالرزق: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

واستجاب الله دعاء نبيه إبراهيم فجعل هذا المكان الموحش بلداً آمناً مطمئناً، وجعله موحداً نابذاً للشرك.

ورزقهم من الخيرات في وادي غير رزع، تجبى إليه الثمرات من كل حدب وصوب، حتى تجد فيه فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فسبحان الواحد الأحد، الفرد الصمد مجيب من دعاه، الواهب لمن سأله ودعاه.

فأكرم بمكة من بلد، وأعظم بها من بقعة مباركة فيها الكعبة التي:

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها
حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً

مكة؛ بلد أقام الله ـ عز وجل ـ فيها صروح التوحيد وأزهق فيها الشرك.

وفي تطهير إبراهيم ـ عليه السلام ـ لبيت الله وأذانه للناس بالحج أعظم دلالة وأصدق برهان ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج: ٢٦].

فالبيت لا يخلو على مدار الدهور والعصور من طائف وعاكف، وراكع وساجد في عبادة لله ـ عز وجل ـ في أمن وطمأنينة، وراحة وسكينة، وأجور عظيمة، في الحديث أنه ﷺ قال: «.. **وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه**» [رواه أحمد].

أصحاب الفيل

امتن الله ـ سبحانه ـ على عباده بعمارة الكعبة وإقامة شعائر الدين، وأفاض ـ عز وجل ـ على البيت الحرام مزيد عناية وحفظ على مر العصور والدهور، فجعله بلداً آمناً محاطاً بحفظه ورعايته، ورزق أهله وأسبغ عليهم من نعمه وفضله.

ومن حفظه ـ تعالى ـ ومنعته لهذا البيت العتيق ما جرى لأصحاب الفيل من النكال والعذاب الشديد.

وذلك أن أبرهة الحبشي لما غلب على بلاد اليمن، ورأى الناس يقصدون الكعبة البيت الحرام زرافات ووحداناً، ورجالاً وركباناً.

قال متسائلاً: إلامَ يقصدون؟

قالوا له: إلى الكعبة بمكة يحجون.

قال: وما هو؟

قالوا له: بيت من الحجارة.

قال: وما كسوته؟

قالوا: ما يأتي ههنا من الوصائل [وهي ثياب مخططة يمانية].

قال: لأبنينَّ خيراً منه.

فبنى لهم كنيسة بصنعاء تفنَّن في بنائها، وتزيينها، وسماها (القُلَّيْس) قاصداً صَرْف العرب عن الكعبة.

ولكن أعرابياً عمد إليها فتغوَّط فيها، فلما علم أبرهة استشاط غضباً، وعزم على هدم الكعبة، وسار في جيش لجب، لا قبل لأهل مكة والعرب

بــه، وقد تعرض له في الطريق بعض قبائــل العرب، ولكنه تغلب عليهم حتى بدت له جبال مكة.

عبد المطلب

وعند مشــارف مكة وجدوا إبلاً لعبد المطلب ابن هاشــم فاســتاقوها، فذهب عبد المطلب إليه، وكان رجلاً وســيماً جميلاً تعلوه المهابة والوقار، فاستعظمه أبرهة، وأكرمه، فلما كلَّمه في الإبل عجب، وقال له: أتكلمني في الإبل، ولا تكلمني في بيت فيه عزك وشرفك وشرف آبائك؟!

فقال عبد المطلب الكلمة التي ســارت مســيرة الأمثال: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه.

ثم رجع عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده.

ثم أرسل حلقة البيت وانطلق هو ومن معه من قريش إلى الجبال ينظرون مــا أبرهة فاعل بالبيــت، وكان في جيش أبرهة فيــل عظيم، فصار كلما وجَّهوه إلى الطريق المؤدِّي إلى مكة أبى وبرك، وإذا وجَّهوه إلى غير طريق مكة ســار وجرى، وكانت هذه آية واضحــة ودلالــة بينة لحفظ الله ـ عز وجل ـ لبيته.

العقاب

ومع هذه الآية أصر أبرهة وجيشــه على المضي قدماً لهدم الكعبة، فما هــي إلا أن أرســل الله عليهم طيراً أبابيل، فــي مناقيرها وأرجلها حجارة صغــار، فصارت ترميهم بهذه الحجارة، وليــس كلهم أصابت، فكان من صادفه حجر تمزَّق جســمه ومات، وخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، ونكَّل الله بأبرهة وجيشه شر تنكيل.

وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ هذه القصة في سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾.

وهذه الحادثة تدل على كرامة الله للكعبة، وفيها عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه بأضعف جنوده؛ وهي الطير التي ليست من عادتها أن تقتل.

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: «**إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلّط عليهما رسوله والمؤمنين**».

فهي لمَّا أراد بها أبرهة وجنده سوءاً أهلكهم الله، ولمَّا أراد رسول الله ﷺ وأصحابه بفتحها خيراً أُعينوا ونصروا.

وقد وقعت حادثة الفيل في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يوماً، أو خمسة وخمسين يوماً.

وقد كانت حادثة الفيل وما جرى من حماية الله ـ عز وجل ـ لبيته إرهاصاً بين يدي ميلاد نبينا محمد ﷺ، ودلالة على يُمْنه، وخيره، وبركته.

ذرية إسماعيل

بارك الله في ذرية إسماعيل فتناموا وصاروا قبائل، وانتشروا في الجزيرة العربية، وصاروا يسمون العرب المستعربة، وقد بقوا على دين أبيهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ مدة من الزمن.

ثم مع تقادم الزمن وانتشار الجهل بدأ النقص عندهم، ودخلت عليهم البدع من المجاورين لهم شيئاً فشيئاً، حتى دخلت عليهم عبادة الأصنام، وكان أول من أدخل الشرك إلى العرب عمرو بن لُحي الخزاعي.

وقد كانوا يحللون ويحرمون ما لم يأذن به الله. قال ـ تعالى ـ عن حالهم: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

والبحيرة: هي التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس.

والسائبة: التي كانوا يسبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء.

والوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول إنتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسبونها لطواغيتهم إن وصلت إحدهما بالأخرى ليس بينهما ذكر.

والحام: الفحل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي.

قال ﷺ: **«أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر، وإني رأيته يجر أمعاءه في النار»** [رواه أحمد]. وهذا بسبب عمله، ومن تبعه في عمله، فإن من دل على خير كان له أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيء، ومن دل على سوء وشر ومنكر كان عليه من

الوزر والإثم مثل ما على من فعل ذلك المنكر.

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعهم لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»** [رواه مسلم].

قال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ: طوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه، والويل لمن مات وبقيت ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة.

أديان العرب في الجاهلية

انقســمت العرب في جاهليتها فرقاً وأدياناً: منهــم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشــور، مؤمن بأن الله يثيــب المطيع ويعاقب العاصي. ومنهــم من أقر بالخالق وأنكر الرســل، وعكف على عبــادة الأصنام طلباً للشفاعة، وهم الذين حكى الله ـ تعالى ـ قولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

ومنهم ـ أيضاً ـ من أقر بالخالق والبدء، وكذب بالرســل والبعث، قال تعالــى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس: ٧٨].

ومال بعضهم إلــى قول أهل الدهر، وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ومنهم من مال إلى النصرانية واليهودية.

وقد عبــدت قبائل من العرب: الشــمس والقمــر، والملائكة والجن، والكواكب، وبعضهم عبد أضرحة من ينسب إليهم الصلاح.

قــال ابن عبــاس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالــى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النجم: ١٩] قال: كان رجلاً صالحاً يلت الســويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره.

وكان الجهل والغلو هما السبب في اندراس معالم التوحيد بعد إسماعيل ـ عليه السلام ـ وذريته.

عمرو بن لحي

وبسبب الجهل وطول الزمن دخلت على العرب عبادة الأوثان، وذكر أن عمرو بن لحي كان ملكاً من ملوك العرب وكان له سلطان على الحجاز، وكان في أول أمره رجلاً ناسكاً على دين قومه، ولكن ذهب إلى الشام للعلاج فوجد أن أهل الشام يعبدون الأصنام فدخل في فكره هذا الشيء، فجاء إلى الحجاز والجزيرة فدعاهم إلى الشرك.

وقيل إنه كان له تابع من الجن يقال له: أبو ثمامة، فأتاه ليلة، فقال: أجب أبا ثمامة.

فقال: لبيك من تهامة.

فقال: ادخل بلا ملامة.

فقال: ائت سيف جدة، تجد آلهة معدة، فخذها ولا تهب، وادع إلى عبادتها تُجَب.

فتوجه إلى جدة، فوجد الأصنام التي كانت تعبد في زمن نوح وإدريس، فنشرها بين العرب، وهي: وَدّ، وسُوَاع، ويَغُوث، ويَعُوق، ونَسْر. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

الأوثان

وصارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ:

أما وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل.

وأما سُواع فكانت لهُذيل.

وأما يغوث فكانت لمراد لبني غطيف بالجرف عند سبأ.

وأما يعوق فكانت لهَمْدان.

وأما نسر فكانت لِحِميْر لآل ذي الكلاع.

واتخذت العرب أيضاً طواغيت مع الكعبة، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويهدى لها، ويطاف بها، وينحر عندها.

فكانت لقريش وبني كنانة (العزى) بنخلة، وكان سدنتها وحجابها من بني شيبان، من سليم، حلفاء بني هاشم.

وكانت (اللات) لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها من بني متعب، من ثقيف.

وكان (مناة) للأوس والخزرج ومن دان بدينهم، بناحية المشلل بقدير.

وهذه الأصنام هي التي أشارت إليها الآيات الكريمة ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠].

وهذه الأصنام كانت أسماء أناس من عظماء قوم نوح، وصالحيهم، فلما ماتوا صنعوا لهم هذه التماثيل لتكون تذكاراً لهم، وعظة، اعتباراً لغيرهم، ليفعل مثل فعلهم. وبتوالي الزمن تنوسي هذا المعنى وعبدت من دون الله.

وقيل: أن منشأ عبادة الأصنام، ذلك أنهم كانوا لا يضعن من مكة ضاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، وصبابة به، فحيثما حل وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون، ثم لم يلبثوا أن عبدوا ما استحبوا من هذه الحجارة، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل وغيره، فعبدوا الأوثان، وصارت إلى ما صاروا إليه الأمم قبلهم.

وكانت العرب تقصد بعبادة الأصنام عبادة الله والتقرب إليه عن طريقها، أو بواسطتها، وهم على طرق مختلفة:

فبعضهم يقول: ليس لنا أهلية لعبادة الله ـ تعالى ـ بلا واسطة لعظمته، فاتخذناها لتقربنا إلى الله.

وفرقة قالت: إن للملائكة عند الله جاهاً ومنزلة فاتخذنا أصناماً على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله.

وبعضهم جعلوا الأصنام قبلة في عبادة الله مثل الكعبة قبلة في عبادته.

وفرقة أخرى اعتقدت أن على كل صنم شيطاناً موكلاً بأمر الله، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حاجته بأمر الله.

ومنهم من يقصدون بذلك شفاعتهم عند الله، واتخاذهم زلفى إليه ـ سبحانه ـ، قال تعالى عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨].

ولم يكن العرب يعتقدون أنها تخلق أو تدير الكون، وإنما كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٦١﴾ [العنكبوت: ٦١].

بل كانوا عند الشدائد ينسون آلهتهم ويتخلون عنها، ويستغيثون بالله ـ عز وجل ـ. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥].

انحرف العرب عن الحنيفية

وهكذا كانت جزيرة العرب مرتعاً خصباً للوثنية، وتلاعُبُ الشيطان بالمشركين، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم، وغالبهم دعاهم إلى عبادتها

مـــن جهة تعظيم الموتى الذين صور تلـــك الأصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح، ولهذا لَعن النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج، ونهى عن الصـــلاة إلى القبور، ونهى أمته أن يتخـــذوا قبره عيداً، وقال: «اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [رواه الإمام مالك].

وقال ﷺ كما عند الإمام البخاري: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام مســـلم: «**ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مســـاجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**».

وأمر ﷺ بتسوية القبور وطمس التماثيل، فعن جابر بن عبد الله الأنصارى ـ رضي الله عنهما ـ قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يُبنى عليه» [رواه مسلم].

وقـــد بعث الله ـ عز وجل ـ في كل أمة رســـولاً يدعوا قومه إلى عبادة الله وحـــده، قال تعالـــى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم لما تطاول عليهم الأمد اجتالتهم الشـــياطين في كل ناحية، وكان أول ما كادهم به الشيطان تعظيم الصالحين والغلو فيهم.

وضابـط الغلـو: تعدي ما أمر الله به، وينقســـم الناس تجاه الصالحين إلى ثلاثة أقسام:

القســـم الأول: الغـلاة: وهم الذين يرفعون الصالحين فـــوق منزلتهم التي أنزلهـــم الله إياها، فيعظمون قبورهـــم بدعائها، والذبـــح لها، والطواف حولهـــا، بل وصل الأمر إلى اعتقاد بعضهم أن هـــؤلاء الصالحين يُجيبون

الداعـي، وينجون الغريق، ويطفئون الحريق، ويتصرفون في الكون؛ وهذا هو الشرك الأكبر.

القسـم الثاني: الجفاة: وهم الذيـن ينتقصون الصالحين ويجحدون فضلهم ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة.

وكلتا الطائفتين قد ضلت عن سواء السبيل.

والقسم الثالث: الوسط: وهم الذين يقتدون بالصالحين في أقوالهم وأعمالهم الصالحـة، ويحبونهم ويحترمونهم ويدافعون عنهـم، ولا يرفعونهم فوق منزلتهـم التي أنزلهم الله إياها؛ وهذا هو الواجب تجاه الصالحين فلا إفراط ولا تفريط.

وقد نهى الله ـ سبحانه ـ اليهود والنصارى عن مجاوزة الحد مع الصالحين، وعن رفع المخلوق فوق منزلته التي أنزلها الله إياها.

غلو النصارى

والغلـو كثيـر في النصارى، فإنَّهم غلوا في عيسـى ـ عليه السـلام ـ فرفعـوه من مرتبة النبوَّة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله، واليهود انتقصوا منه، فالنصارى أفرطوا واليهود فرَّطوا. قال ـ تعالى ـ في محكم التنزيل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

والخطاب وإن كان لأهـل الكتاب، فهو تحذير لهذه الأمة من أن يفعلوا مع نبيهم محمد ﷺ كما فعلت النصارى مع المسـيح ـ عليه السـلام ـ، واليهود مع عزير، ومن تشـبَّه بهم من هذه الأمة وغلا في الدين بإفراط أو تفريط فهو منهم.

والنبي ﷺ مع مكانته العظيمة ومنزلته السامية نهى عن الغلو فيه، فقال عليه الصلاة والسـلام: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد؛**

فقولوا: عبد الله ورسوله» [رواه البخاري ومسلم].

وقد حـذر ﷺ أمته من ذلك، فقال: «**إياكم والغلـو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**».

ونهـى ﷺ عن مجاوزة الحد فـي مدحه كما تجاوزت النصارى الحد في مدح عيسى ـ عليه السلام ـ فقالت طائفة: هو الله، وقالت أخرى: هو ابن الله؛ وهذا شـرك عظيم كفّرهم الله به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢].

ولا شك أن أشـرف مقامات الرسول ﷺ العبودية والرسالة، وقد أرشد ﷺ أمته إلى أن يصفوه بما وصفه به ربه: عبد الله ورسـوله؛ وهذه أشـرف مقاماته ﷺ؛ فالعبد لا يستحق أن يُعبد، والرسول يجب أن يُصدَّق ويُطاع.

وذهب أقوام ممن ينتسـب إلى الإسلام إلى الغلو في الرسول ﷺ فدعوه واستغاثوا به، وطلبوا الشفاعة منه، وحلفوا باسمه، ونذروا له، فوقعوا في الشرك الأكبر المنافي للتوحيد.

وذهب أقوام آخرون إلى ترك طاعته والإعراض عن هديه ومجانبة سنته، والواجب على المسلم الحذر من ذلك كله.

فإن الواجب طاعته ﷺ كما أمر، والتمسك بسنته كما ذكر من غير غلو ولا جفاء.

كثرة الأصنام

وهكذا ترك العرب دين أبيهم إسماعيل، وابتعدوا عن الحنيفية دين أبيهم إبراهيم، وانتشـرت بينهم عبادة الأصنـام والأوثان، وعددوا فيها إلى حد يثير السخرية؛ حيث كان الواحد منهم في سفره يجمع أربعة أحجار، ثلاثة لقدره وواحداً يعبده، وإن لم يجد حلب الشاة على كوم من تراب ثم عبده،

ووجد أحدهم يوماً صنماً له وقد بال عليه الثعلب فرمى به وقال:

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه
لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

وهكذا تنحدر العقول إذا أعرضت عن شرع الله.

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قوله: كنا نعبد الحجر فإذ وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به، فإذا دخل شهر رجب قلنا منُصل الأسنة، فلا ندع رمحاً فيه حديدة ولا سهماً فيه حديدة إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب.

وروى الترمذي عن عمران بن حصين قال: قال النبي ﷺ لأبي: يا حصين «**كم تعبد اليوم إلهاً؟**» قال أبي: سبعة؛ ستة في الأرض وواحداً في السماء، قال: «**فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟**» قال: الذي في السماء، قال: «**يا حصين أما إنَّك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك**»، قال: فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: «**قل: اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي**».

خرافات

وقد كان أهل الجاهلية مأسورين لخرافات وأوهام لا حقيقة لها كالتشاؤم بالطيور والأيام، ويؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين، وكثر عندهم السلب والنهب والتعدي لأتفه الأسباب، وكان وأد البنات وشرب الخمر وأكل الربا وغيرها من فواحش الآثام التي تفشت وانتشرت في ديارهم حتى أبطلها الإسلام.

قال ابن عباس: إذا سـرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام.

وقـد وصف جعفر بن أبي طالـب ـ رضي الله عنه ـ حياة الجاهلية في خطابه لملك الحبشـة بقوله: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونـأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسـيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.

دين قريش

وهذا هو دين قريش فهم يتعبدون، ويحجون، ويعتمرون، ويتصدقون، ويصلون الرحم، ويكرمون الضيف، ويذكرون الله كثيراً، ويعترفون أن الله وحده هو المتفرد بالخلق والتدبير، ويخلصون لله العبادة في الشدائد، لكنهم يتخذون وسائط بينهم وبين الله؛ يدعونهم، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويسـتغيثون بهم؛ ليشفعوا لهم ويسـألون الله لهم، زعماً أنهم أقرب منهم إلى الله وسيلة.

فبعـث الله محمداً ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم ـ عليه السـلام ـ ويخبرهم أن هذه التقرب والاعتقاد محض حق الله، وأن فعلهم هذا أفسد جميـع ما هم عليه من العبادة، وصاروا بذلك كفـاراً مرتدين حلال الدم والمال، وقاتلهم رسـول الله ﷺ ليكون الدعـاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله.

بقايا شريعة إبراهيم

مع هذا الظلام الدامس والتخبط والتيه في العرب؛ إلا أنه بقيت فيهم بقايا من سنن إبراهيم وشريعته؛ ومن ذلك: خصال الفطرة، كالاستنجاء وتقليم الأظافر، ونتف الإبط وحلق العانة والختان، وكانوا يغتسلون للجنابة، ويغسلون موتاهم ويكفنونهم، وكانوا يصومون يوم عاشوراء، ويطوفون بالبيت، ويسعون بين الصفا والمروة، ويمسحون الحجر، ويلبون، إلا أنهم يشركون في تلبيتهم يقولون: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» ويقفون المواقف كلها، ويعظمون الأشهر الحرم.

وكانوا يُحرمون نكاح المحارم، وعملوا بالقسامة، واجتنب بعضهم الخمر في الجاهلية وكانوا يغلظون على النساء أشد التغليظ في شرب الخمر.

لا حساب ولا جزاء

وكان القاسم المشترك بين تلك الأمم الجاهلة أنهم كانوا جميعاً لا يؤمنون بالله ـ تعالى ـ وحده، ولا باليوم الآخر والبعث والنشور والجزاء والحساب، ولذلك كانت نواحي حياتهم بعيدة عن نظر الله ـ عز وجل ـ ومراقبته والخوف من جزائه والطمع في ثوابه. وإن وجدت عندهم من الأخلاق والعادات ما أكسبهم حياة أفضل من غيرهم كنجدة المستغيث، والوفاء بالعهد، وفك العاني، وإطعام الطعام، والإباء وعزة النفس، وعدم قبول الضيم، والكرم والشجاعة وغير ذلك.

تلك الحياة الجاهلية بكل صورها وفي جميع أماكنها وبقاعها، قد ذكرها المصطفى ﷺ في الحديث العظيم الذي رواه الإمام مسلم عن عياض بن

حمار المجاشـــعي حيث قال: إن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربــي أمرني أن أعلمكــم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْت لهم، وأَمَرَتْهُمْ أن يشــركوا بي ما لم أُنَزِّل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**».

وقد أشـــار ﷺ في هذا الحديث إلى انحراف الناس عن الشريعة ونبذها وراءهم ظهريّاً، فحرموا الحلال وأحلوا الحرام.

كمـــا يوضح الانحـــراف عن التوحيد والردة الكاملـــة عن الدين، وأن الشـــياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، كما يشير إلى الفساد العظيم الذي غطى وجه الأرض مما استحق الناس مقت الله لهم جميعاً إلا بقايا من أهل الكتاب.

وأصبحت البشـــرية بحاجة ماسة إلى منقذ لها من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الشـــرك إلى نور التوحيد والإيمان، ومن الشقاء إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

الاصطفاء

في هذا الجو القاتم والزمن المدلهم المليء بالشرك والكفر، بعث الله ـ عز وجل ـ المصطفى ﷺ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

وقد أتاهم في زمن قال عنه الشاعر:

أتيتَ والناسُ فوضى لا تمر بهم ... إلا على صنم قد هام في صنم

مُسيطر الفرس يبغي في رعيّته ... وقيصر الروم من كبر أصم عمي

في هذا الظلام الحالك والفساد العريض اختار الله ـ عز وجل ـ نبينا محمد ﷺ، واصطفاه اصطفاءً لا مزيد عليه، واختياراً لا نقص بعده.

في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**.

وروى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً؛ حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»**.

قلوب العباد

وروى أحمد عن عبدالله بن مسعود قال: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً

فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء».

وقد اختار الله ـ عز وجل ـ صاحب النسب العالي، والشرف العظيم، والخصال الحميدة لحمل رسالته والقيام بأمر دعوته، فاختار محمداً ﷺ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان تلك الأسئلة عن صفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فقال: كيف نسبه فيكم؟

قال: هو فينا ذو نسب.

قال: كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها، يعني: في أكرمها أحساباً وأكثرها قبيلة ـ صلوات ربي عليهم أجمعين ـ فهو سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: **«إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل، فجعلني من خير القبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»** [رواه الترمذي].

نسبه الشريف

هـو أبو القاسـم: محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشـم بن عبد مناف، ابـن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة، ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وعدنان من نسل إسماعيل ـ عليه السلام ـ.

قصي بن كلاب

ونبغ في ذريته فهر بن مالك، ومن أولاده قصي بن كلاب، وقد ولي أمر مكة وكان سيداً مطاعاً، كانت إليه حجابة البيت، وعنده مفاتيحه، وسقاية زمـزم، والرفادة (وهو طعام كانت قريش تقدمه لأهل المواسـم، ويقولون هم أضياف الله ـ تعالى ـ). والندوة التي يجتمعون فيها للمشورة والرأي، واللواء في الحرب، فحاز شرف مكة كله.

عبد مناف

وبرز في أولاده عبد مناف، وكان هاشـم أكبـر أبناء والده عبد مناف، وكان كبير قومه، وكانت عنده الرفادة والسقاية، وهو والد عبد المطلب جد الرسـول ﷺ، وقد ولي السقاية والرفادة بعد عمه المطلب بن عبد مناف. وقد أحبه قومه، وشَرُفَ فيهم شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه.

قريش

وسـمي أولاد فهر بن مالك (قريشـاً)، وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء، فاشتهرت هذه القبيلة بـ (قريش).

وأقر أهل العرب كلهم بعلو نسب قريش، والسيادة، والفصاحة، وكرم الأخلاق، والشجاعة.

اسم نبينا

ونبينا ﷺ اسمه محمد، ومعناه: الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره، وله عدة أسماء: هذا أشهرها وأفضلها وأعظمها، ولهذا جاء في القرآن بهذا الاسم، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، [الأحزاب: ٤٠] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وفي قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. ولقبه أبو القاسم.

عبد الله

ووالده عبد الله، وهو الذبيح الثاني المفدى بمائة من الإبل، وكان أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه. وقد مات ولم يدرك الرسالة.

عبد المطلب

وجده عبد المطلب واسمه شيبة، ويقال له: شيبة الحمد، لجوده وجماع أمر قريش إليه، وإنما سمي بعبد المطلب؛ لأن عمه المطلب قدم به مكة وهو رديفه وقد تغير لونه بالسفر فحسبوه عبداً له فقالوا: هذا عبد المطلب. أي: عبدٌ للمطلب، فعلق به هذا الاسم.

وكان عبد المطلب أوسم الناس، وأجملهم، وأعظمهم قدراً، وكان ذا فضل في قومه، شريفاً، مطاعاً، جواداً يسمى بالفياض لسخائه، وقد شرف في زمانه شرفاً لم يبلغه أحد، فقد كان سيد قريش، وصاحب عير مكة، وقد حفر بئر زمزم بعد أن درسها جرهم عند جلائهم من مكة، وقد شهد حادثة الفيل المشهورة.

هاشم

ووالد عبد المطلب هو هاشم، واسمه عمرو وإنما سمي هاشماً، لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في أعوام الجوع وأيام الحاجة، وهو الذي سن الرحلتين؛ رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وكان يعرف

بســيد البطحاء. وقد تزوج هاشم حين قدم المدينة من امرأة من بني النجار هي سلمى بنت عمرو، فولدت له عبد المطلب.

قريش

وهاشــم من قبيلة قريش وهي أشــهر وأشــرف قبائل العرب، وقريش أصلها من العرب، والعرب من ذرية وسلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل، ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ.

نسل الأنبياء

فإبراهيم ـ عليه الســلام ـ بعد كبر سنه وهبه الله بولدٍ سماه إسماعيل، وإســماعيل هو الملقب بالذبيح وعاش مع العرب، ثم من بعده وهبه الله ـ عز وجل ـ إسحاق.

وإسماعيل ـ عليه السلام ـ خرج من نسله نبينا محمد ﷺ، وخرج بقية الأنبياء من نسل إسحاق، فلم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته.

قال ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] لذا سُــمي إبراهيم أبو الأنبياء، لأن الأنبياء من بعده من نسله، إما من طريق إسماعيل وهو محمد ﷺ أو من طريق إسحاق، وهم جميع الأنبياء عدا نبينا محمد ﷺ، وفي الحديث أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**» [رواه مسلم].

فنبينا أشرف الناس نسباً، فهو هاشمي قرشي، وهكذا الرسل تبعث في أكرم قومها أحساباً.

ولادته ﷺ

اختــار عبد المطلب لابنه عبد الله آمنة بنت وهب، وكانت أفضل نســاء قريش شرفاً وموضعاً، وكان أبوها وهب سيد بني زهرة نسباً وشرفاً.

فتمت الخطبة والزواج، وبنى بها عبد الله بمكة وعمره ثماني عشرة سنة، فحملت برسول الله ﷺ. ولم يلبث عبدالله أن توفي بعد الحمل بشهرين، ودفن في المدينة عند أخواله بني عدي بن النجار. بعد أن كان عائداً من الشام بتجارة.

وقد ولد نبينا ﷺ يوم الاثنين كما ورد ذلك في صحيح مسلم، لما سُئل ﷺ عن صيام يوم الاثنين قال: «**ذاك يوم ولدت فيه، وأنزل عليَّ فيه**».

وكان مولده ﷺ في دار أبي طالب بشِعب بني هاشم في عام الفيل وهو أرجح الأقوال، وجاء به جده عبد المطلب مستبشراً مسروراً، فأدخله الكعبة وشكر الله ودعاه، وسماه محمداً. ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبل عند العرب.

بدعة المولد

ولا يجوز أن يقام احتفال بمولده ﷺ؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقم لمولده في حياته احتفالاً. والصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وهو أحب الناس إليهم وهم أحب الناس إليه، لم يفعلوا ذلك لا في حياته ولا بعد مماته ﷺ؛ ولأنه يجهل تاريخ ولادته من الشهر.

وعلى هذا فإن المولد بدعة لم يأمر بها رسول الله ﷺ، ولا أمر بها ولا فعلها الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ولا أصحاب القرون الثلاثة الأولى المفضلة، بل أتت في الأزمنة المتأخرة في زمن الشيعة الفاطميون في القرن الرابع الهجري، والهدي هو اتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده. وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» [رواه مسلم]. وفي الحديث الأخر: «**إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة**» [رواه أبو داود].

وفـــي هذا اليـــوم العظيم الذي ولد فيه نبي البشـــرية ﷺ، لم يجعل له ولا أصحابه عبادة خاصة أو اجتماعاً لقراءة ســـيرته، ولم يؤثر عن السلف الصالح فعل شـــيء من العبادات عدا الصوم الذي ذكره ﷺ في الحديث. ومن متابعته ومحبته عدم إحداث أمور لم تشرع حتى وإن كان ظاهرها عند الناس حسناً.

موت أبيه

وقد فقد ﷺ طعم الأبوة الحانية، فقد توفى أبوه ﷺ وهو حمل في بطن أمه، وجميع ما خلفه والده عبد الله خمســـة أجمال وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة، وهي حاضنة الرسول ﷺ.

آيات ليلة مولده

وقــد وقعت بعض الآيات ليلة مولــده ـ عليه الصلاة والســـلام ـ منها ما رواه حســـان بن ثابت حيث قال: والله؛ إني لغلام يَفَعَة؛ ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديّاً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك مالك؟

قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به.

وعن أســـامة بن زيد قال: قال زيد بن عمرو بن نفيل: قال لي حبر من أحبار الشـــام: قد خـــرج في بلدك نبي، أو هو خـــارج، قد خرج نجمه، فارجع فصدقه واتبعه.

ومـــن الآيات والإرهاصـــات التي صاحبت ميـــلاده ﷺ ارتجاس إيوان كسرى، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، فقد كان هذا إيذاناً بأنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشـــر، وهذا ما كان فقد ملك منهم عشـــرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى سقوط دولتهم.

ومن الآيات أن فاضت بحيرة ساوه من بلاد فارس، وخمدت نيران فارس التي كانوا يعبدونها، ولم تخمد منذ ألف عام.

وقد احتفى الشاعر بمولده ﷺ في قوله:

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء
بك بشر الله السماء فزينت
وتضوعت مسكاً بك الغبراء

رضاعته

وأول من أرضعت رسول الله ﷺ بعد أمه هي ثويبة: مولاة أبو لهب بلبن ابن لها، يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وبعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فهم أخوته ﷺ من الرضاع.

وقد أعتق أبو لهب أمته هذه فرحاً بولادة رسول الله ﷺ، ولكنه فيما بعد أصبح من ألد أعداءه ﷺ، حينما دعا إلى التوحيد وعبادة الله ـ عز وجل ـ.

كما أرضعته ﷺ مولاته أم أيمن، واسمها بركة بنت ثعلبة بن عمرو؛ وقد أعتقها ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد ما كبر.

مرضعته حليمة

وقد التمس عبد المطلب لحفيده اليتيم مرضعاً من البادية على عادة العرب.

وكان من عادة العرب أن يتلمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد، وأصح لبدنه، وأفصح للسانه، وأزكى لسلوكه وأخلاقه.

وعُرض رسول الله ﷺ على جميع المراضع فزهدن فيه، وذلك لأنهن

كن يرجون المعروف والنوال من أبي الصبي.

فقلن: يتيم، وما عسى أن تصنع أمه وجده.

وهكذا فعلت حليمة السعدية، فانصرفت عنه أول مرة مع من انصرف عنه، ثم انعطف قلبها عليه، وألهمها الله حُبه، وأخذه، ولم تكن وجدت غيره. فأخذته حليمة السعدية إلى بني سعد، واسم زوجها أبو كبشة، وهو الذي كانت قريش تنسب له الرسول ﷺ حينما يريدون الاستهزاء به، فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلَّم من السماء.

بركته ﷺ

وهكذا أرضعته حليمة، وأنزل الله عليها الخيرات ودُرَّت البركات على أهل هذا البيت الذين أرضعوه.

تقول حليمة السعدية لما أخذته من أمه: فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا نام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا أنها لحافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ريّاً وشبعاً فبتنا بخير ليلة.

إلى أن قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير.

وهكذا أنزل الله عليهم البركة في أنفسهم وأموالهم، وأسبغ عليهم من جوده وكرمه بسبب قيامهم بأمر صفيه ونبيه ﷺ.

وبركته ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد حلت على حليمة السعدية وأهلها وهو صغير، ثم عادت على هوازن ـ بكمالهم ـ فَوَاضلُهُ حين أسرهم بعد

وقعتهم، وذلك بعد فتح مكة بشـــهر، فَمَتُّوا إليه برضاعه فأعتقهم، وتحنن عليهم، وأحسن إليهم.

وأطلـــق لهم الذرية، وكانت ســـتة آلاف ما بين صبي وامرأة، وأعطاهم أنعاماً وأناســـي كثيراً، فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته على من اتبعه في الدار الآخرة.

بعد الرضاعة

وكانت حليمة تأتي بالنبي ﷺ إلى أمه وأسرته كل ستة أشهر، ثم ترجع به إلى باديتها في بني سعد.

فلمـــا اكتملت الرضاعة وفطمته، وجاءت به إلى أمه حرصت على بقائه ﷺ عندها لما رأت من الخير والبركة، فطلبت من أمه ﷺ أن تتركه عندها حتى يشتد ويقوى وحتى تبعده عن وباء مكة.

وهكذا بقي ﷺ بعد ذلك نحو سنتين في بادية بني سعد؛ نشأ فيها على البســـاطة والفطرة، وحياة البادية السليمة، واللغة الفصيحة التي اشتهر بها بنو سعد بن بكر.

وكان ﷺ إليفاً ودوداً ! أحبه إخوته وأحبهم. وكان مثال القناعة والبعد عن السفاســـف التـــي تغلب على الأطفال عادة، كمـــا روت ذلك أم أيمن حاضنته، فكان إذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون ويتزاحمون وهو قانع بما يسره الله له.

تهيئته لحمل الرسالة

الرسالة حمل عظيم وشأنها كبير، ولهذا هيأه الله ـ عز وجل ـ منذ صغره لحمل هذا الأمر، فبينما هو في بني سعد كانت الحادثة العظيمة في شق صدره، ونزع حظ الشيطان منه تهيئة له للقيام بأعباء النبوة والرسالة.

سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن نفسه فقال: «**نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ـ عليهما السلام ـ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني، بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنهم**» [رواه الدارمي].

شق الصدر

وثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج معه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني: ظئره ـ فقالوا: إن محمد قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدره.

وبعد هذه الوقعة خشيت عليه مرضعته حليمة أن يصيبه سوء وهو عندها، فردته إلى أمه وإعادته إليها، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين.

وقد أدرك أمه آمنة الموت وهي عائدة من يثرب، إذ خرجت من مكة، ومعها ولدها اليتيم محمد ﷺ وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبد المطلب، فمكثت شهراً في يثرب، لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار.

ثم قفلت، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض في أوائل الطريق، ثم اشتد بها حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة.

كفالة جده

وعاد به جده عبدالمطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم، الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة، فرقَّ عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه رحمة وشفقة ومحبة ولوعة، فكان يؤثره على أولاده، ويكرمه غاية الإكرام ويؤانسه ويقربه، ومن ذلك أنه يوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له.

فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني هذا، فوالله إن له لشأناً، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

وفاة جده

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره فُجع ﷺ بمصاب آخر، فقد توفي جده عبد المطلب بمكة.

ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه فكان نعم الكافل له، المعتني بحاله، المتفقد لأموره.

خروجه إلى الشام

بقي رسول الله ﷺ مع أمه آمنة، ومع جده عبدالمطلب في كلاءة الله وحفظه، وينبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من الكرامة والرسالة، حتى توفيا.

ثم قام بكفالته عمه أبو طالب شقيق أبيه، واختصه بمزيد عناية ورحمة ومودة، وكان مقلّاً من المال، ضعيف الحال فبارك الله في قليله حتى كان الطعام الواحد يشبع جميع أسرته.

وكان عمه أبو طالب يحبه حبّاً جمّاً، ويتلطف به ويرفق، ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج عمه أبو طالب في تجارة له إلى الشام، فاستعظم الرسول ﷺ فراق عمه، فرق له وأخذه معه، وهذه هي الرحلة الأولى له ﷺ.

فلما بلغ بُصرى رآه بَحيرا الراهب ـ واسمه جرجيس ـ فعرفه بصفته، فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

فقال: ومن علمك بذلك؟

فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخر ساجداً، ولا تسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا.

وسأل أبا طالب أن يردّه خوفاً عليه من اليهود.

حرب الفِجَار

وفي فترة ما قبل الإسلام كانت الحروب قائمة بين أحياء العرب لأتفه الأسباب، ومن ذلك ما وقع في سوق عكاظ بين قبائل قريش وكنانة من

جهة، وبين قبائل قيس عيلان من الجهة الأخرى، وسميت بحرب الفجار لأنهم انتهكوا فيها حرمة حرم مكة من الشهر الحرام.

وقد قتل فيها العدد من رجالاتهم واستشرت فيها حمى القتال، وقد وقع بينهم صلح على أن يحصو القتلى من الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد.

ووضعوا الحرب، وانتهى ما وقع بينهم من العداوة والشر. وقد شهد ﷺ هذه الحرب، وكان ينبل على أعمامه؛ أي يجهز لهم النبل بالرمي، وكان عمره حينئذ عشرون عاماً. وبذلك عرف الحرب وجرب وقعها.

حلف الفضول

وفي شهر القعدة على إثر هذه الحرب تم عقد حلف الفضول بين خمسة بطون من قبيلة قريش وهم: بني هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تيم.

وسبب هذا الحلف أن رجلاً من زبيد جاء بسلعة إلى مكة، فاشتراها منه العاص ابن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه ببني عبد الدار، وبني مخزوم، وبني جمح، وبني سهم، وبني عدي، فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، وذكر ظلامته في أبيات، ونادى من يعينه على حقه.

فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في دار عبد الله بن جدعان رئيس بني تيم، وتحالفوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته.

ثم قاموا إلى العاص بن وائل السهمي، فانتزعوا منه حق الزبيدي، ودفعوه إليه.

وقد حضر رسول الله ﷺ هذا الحلف مع أعمامه، وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**».

وذلك لأنه ﷺ مبعوث بمكارم الأخلاق، ولمحبته ﷺ أداء الحقوق لأهلها؛ ونصرة الضعيف وأخذ حق المظلوم ممن ظلمه.

خروجه في تجارة خديجة

ثم خرج ﷺ للشام مرة ثانية، ومعه ميسرة غلام خديجة في تجارة لها، حتى بلغ سوق بصرى وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، فنزل تحت ظل شجرة، فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.

وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يظلانه ﷺ من الشمس، فلما رجعوا إلى مكة ساعة الظهيرة وخديجة في علية لها رأت رسول الله ﷺ وهو على بعيره وملكان يظلانه، وكان ذلك عناية من الله ـ عز وجل ـ بنبيه، وإرهاصات ومقدمات لبعثته ﷺ.

زواجه ﷺ من خديجة

ولد ﷺ يتيماً، ونشأ في كفالة جده ثم عمه، ولم يرث عن أبيه شيئاً مذكوراً، فكانت حياته ﷺ حياة جد وعمل، ومشقة وتعب.

رعي الغنم

فهو في مطلع شبابه رعى الغنم لأهل مكة كما ذكر ذلك ﷺ عن نفسه، حيث قال: «**ما بعث الله نبيّاً إلا رعى الغنم**».

فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟

قال: «**وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط**» [رواه البخاري].

ورعي الغنم من سنن الأنبياء في أوائل حياتهم، والغنم من أضعف البهائم، فمن رعاها سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً.

ولعل في ذلك تعويد على الصبر، واستعداد لتحمل المشاق، مما يهيىء ويعين على دعوة الناس، فإن سياسة الناس أشد من سياسة الدواب فكانت هذه كالمقدمة لتلك.

ووجود الأنبياء في حال التجرد من الدنيا ومشاغلها أمر لا بّد منه، لأن المال يُطغي ويُلهي، ويشغل عن السعادة الأبدية. وهذه حال الأنبياء من قبله ﷺ، فكان عيسى ـ عليه السلام ـ أزهد الناس في الدنيا، وكذلك موسى، وإبراهيم، وكانت حالتهم في صغرهم ليست سعة، بل كلهم سواء. ومن منحه الله الملك وسعة الدنيا كسليمان ـ عليه السلام ـ فإنها لم تفتنه ولم تلهه بل كانت له عوناً على الطاعة والعبادة.

التجارة

ثم لما شب ﷺ وكبر، كان يتجر، ومن ذلك أنه كان يتجر مع السائب ابن أبي السائب، فكان خير شريك له، لا يجارى ولا يمارى.

وقد ظهرت أمانته، وبرزت خصاله الحميدة، وشمائله الكريمة حتى اختاره أهل التجارات لرعاية تجارتهم والمحافظة على أموالهم.

فقد خرج في تجارة لخديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ وكانت سيدة غنية لديها تجارة عظيمة، واختارت النبي ﷺ للخروج بتجارتها لما سمعته وعرفته من صدقه وأمانته.

وخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع غلامها ميسرة إلى الشام، فباع وابتاع، وربح ربحاً عظيماً، وحصل في مالها من البركة ما لم يحصل من قبل.

الزواج

ورأت خديجة من أمانته وبركته وصدقه، وذكر لها ميسرة من كرم الشمائل وحسن المعاملة ما أنست به وجعلها تفكر بالزواج منه.

وقَبلُ كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ تحت أبي إهابة بن زرارة التميمي، وتوفي في الجاهلية.

ثم تزوجها عتيق بن عائذ المخزومي فولدت له هنداً، فأدركه الأجل ومات.

وقد تقدم لخديجة كثير من أشراف قريش وسادتها، يطلبون الزواج منها. فتأبى عليهم ذلك، واختارت نبينا محمد ﷺ وقدمته عليهم. فأرسلت إليه إحدى صديقاتها وهي نفيسة بنت منية؛ تبدي رغبتها في الزواج.

وتزوج رسول الله ﷺ خديجة بعد عودته من رحلة الشام، بشهرين وأيام، وأمهرها أبو طالب اثنتي عشرة أوقية ونَشاً، يعني خمسمائة درهم.

وأصدقها رســول الله ﷺ زيادة على ذلك عشرين بكرة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً، وكان عمرها حينئذ أربعون سنة.

فقام الأمين ـ عليه الصلاة والســلام ـ مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسعد، فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب، فزوجها عمها.

وقــد خطب أبو طالب فــي ذلك اليوم فقال: الحمــد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزَرع إســماعيل وضِئضِئ (أصل) مَعدّ، وعنصر مُضر، وجعلنا حضَنَة بيته، وسُــوّاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي لا يوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قُلّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائر، وعارية مسترجعة، وهــو بعد هذا له نبــأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطــب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق خمس مئة درهم.

وهكذا تم الزواج المبارك بحضور الأقارب. وكان ممن شــهد عرسه ﷺ وزواجه بخديجة مرضعته حليمة الســعدية ففازت بالحضور ورجعت قافلة لديارها بأربعين رأساً من الغنم هدية لمن أرضعت.

وقد دخل النبي ﷺ بخديجة ـ رضي الله عنها ـ وعاشــت بجواره وفي كنفه خمســاً وعشــرين ســنة، فكانت له نعم الزوجة، وأكرمها الله ـ عز وجل ـ بالذرية، فقد ولدت لرســول الله ﷺ بنين وبنات، وكل أولاده من خديجة، حاشا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.

أبناؤه

فالذكور من ولده: القاسم ـ وبه كان يكنى ـ ولد قبل النبوة، وهو أكبر ولده، عاش أياماً يسيرة ثم توفي.

وولدان آخران اختلف في اسمهما. وعبدالله والطيب والطاهر.

وأما إبراهيم فولد له بالمدينة وعاش عامين غير شهرين، ومات قبل موته ـ عليه الصلاة السلام ـ بثلاثة أشهر يوم كسوف.

بناته

وبناته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أربع:

زينب: تزوجها أبو العاص بن الربيع، وكانت خديجة خالته، ومات أبو العاص في خلافة عمر، وولدت له عليّاً مات فتى. وأمامة تزوجها علي ـ رضي الله عنه ـ بعد فاطمة ولم تلد له، ومات عنها فتزوجها المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب فماتت عنده، ولم تلد له، وماتت زينب في حياة أبيها ﷺ.

ولرسول الله ﷺ أيضاً رقية: وتزوجها عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ولم يكن لها زوج غيره، فولدت له ابناً مات وله أربع سنين، ثم ماتت رقية بعد بدر بنحو ثلاثة أيام.

وكان له ـ عليه الصلاة والسلام ـ فاطمة: تزوجها علي بن أبي طالب، فولدت الحسن والحسين، وزينب وأم كلثوم، وابناً مات صغيراً اسمه المحسن، فتزوج زينب عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، فولدت له علي ابن عبدالله له عقب، وتزوج أم كلثوم عمر بن الخطاب، وماتت فاطمة بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر.

وكان لرسول الله أيضاً أم كلثوم: وروى أنها أصغر بناته، كانت مملكة بعتبة بن أبي لهب فلم يدخل بها وطلقها، فتزوجها عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فماتت عنده في حياة رسول الله ﷺ ولم تلد له.

من فضائل خديجة

وخديجة ـ رضي الله عنها ـ أول امرأة تزوجها ﷺ، وأول امرأة ماتت من نسائه، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، وأمر جبريل أن يقرأ عليها السلام من ربها.

وكان ﷺ وفيّاً لهذه الزوجة الكريمة حية وميتة، وكان يحفظ ودها، وود صويحباتها بعد موتها.

روى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة، وإني لم أدركها، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**» قالت: فأغضبته يوماً فقلت: خديجة؟ فقال: «**إني رزقت حبها**».

وفاء النبي

وكان ﷺ مثالاً عالياً في الوفاء لهذه الزوجة الرؤوم خديجة ـ رضي الله عنها ـ حيث كان كريماً في معاملتها يحترم رأيها ويقدر لها منزلتها، بل ويظل يذكرها ويثني عليها بعد وفاتها.

روى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة**» وبشرها ﷺ ببيت في الجنة حال حياتها، وأبلغها سلام الله ـ جل وعلا ـ وسلام جبريل ـ عليه السلام ـ.

وتذكر عائشة ـ رضي الله عنها ـ وفاء النبي ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: «ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة

وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشــاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة.

فربمــا قلت له: كأنه لم يكن فــي الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «**إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**» [رواه مسلم].

بل إنه أظهر البشاشــة والسرور لأخت خديجة لما استأذنت عليه لِتَذَكُّره خديجة، كما أخرج الإمام مســلم من حديث عائشة قالت: استأذَنت هالة بنــت خويلد أخت خديجة على رســول الله ﷺ فعرف اســتئذان خديجة فارتاح لذلك وقال: «**اللهم هالة بنت خويلد، فَغِرْت**».

فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشــدقين هلكت في الدهر فأبدلك الله خيراً منها.

فتَمعَّر وجهه تمعراً ما كنت أراه إلا عند نزول الوحي، أو عند المخيلة [أي السحاب] حتى ينظر أرحمة أم عذاب.

وهذا يصور مقدار غضب رســول الله ﷺ لخديجة ـ رضي الله عنها ـ. ووفائه، وحفظه لحقها حية وميتة ـ رضي الله عنها ـ.

حفظ العهد

وكان ﷺ يُظهر الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة ويبين أن حفظ العهد من الإيمان. عن عائشــة ـ رضــي الله عنها ـ قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رســول الله ﷺ: «**من أنت؟**» قالت: أنا جثامة المزنية.

فقال: «**بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟**».

قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فلما خرجت قلت: يا رسول الله تُقبِل على هذه العجوز هذا الإقبال؟

فقال: **«إنها كانت تأتينا زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»**.

وهكذا كان رسول الله ﷺ حفيّاً بأمته، وفيّاً لزوجته.

وصـــادق الوفاء ونبله وبقائه يكون بعد تباعد الديار. كما كان ﷺ يفعل بعد موتها ـ رضي الله عنها ـ.

والمتأمل في حياة النبي ﷺ الأسرية يجد الاستقرار والاطمئنان، وطيب المعشـــر، ولين الجانب والمعاشرة بالمعروف. وهو يرى في الطرف الآخر ما لاقاه النبي ﷺ من كرب أصابت أســـرته من موت بعض أولاده، وتطليق بعض بناته، وموت زوجاته.

وهكذا حياته ﷺ التي عاشها شاكراً ربه، حامداً له، صابراً على القضاء والقدر، راضياً عن ربه، يختار ـ سبحانه ـ ما يشاء ويفعل ما يريد.

تعبده في غار حراء

في أجواء مكة التي تعج بالشرك والمنكرات، حُبِّب إليه ﷺ الخلوة والتعبد لربه، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور، وهو جبل مرتفع جدّاً على بعد نحو ميلين من مكة، فيقيم فيه؛ يطيل التبتل والعبادة، والتفكر في ملكوت السموات والأرض.

وبُغضت إليه الأوثان ودين قومه، فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك، وأنبته الله نباتاً حسناً حتى كان أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً، وأعزهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً؛ حتى سماه قومه «الأمين» لما جمع الله فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرْضِية.

وكانت رعاية الله تحوطه وعنايته تحفه؛ فأبعد عنه رجس الأوثان وجهالة الصبيان. وحفظه ـ تعالى ـ من فساد الأخلاق والأدواء، وترقى في درجات المحامد حتى نال أعلاها.

كان يتيماً فآواه الله ـ عز وجل ـ، وعائلاً فأغناه، وأكرمه بأعظم الكرامات وهي منزلة النبوة.

حفظ الله لنبيه

ولما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة قامت قريش في بناء الكعبة بعد أن تصدعت وتهدمت.

ومن حفظ الله ـ عز وجل ـ لنبيه ما ذكره جابر بن عبدالله حيث قال: لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة، فقال العباس لرسول الله ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة، ففعل، فخرَّ إلى الأرض،

وطمحت عيناه إلى السماء.

ثم قام فقال: «إزاري» فشد عليه إزاره. وذلك حتى لا تبدو عورته.

هجر الأصنام

وروى البيهقي عن زيد بن حارثة قال: كان صنم من نحاس ـ يقال له: (إساف) و(نائلة) ـ يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه».

قال زيد: فطفنا، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته.

فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْهَ؟!».

قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب؛ ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله ـ تعالى ـ بالذي أكرمه وأنزل عليه.

الوقوف بعرفات

وكفى الله نبيه وأحاطه بحفظه ورعايته منذ ولادته وحتى نشأته وعندما بلغ أشده، وقد قام بدعوته وهو في كنف الله وتحت عنايته.

ومن ذلك ما ثبت في الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة؛ بل كان يقف مع الناس بـ (عرفات).

قال جبير والد مطعم ـ رضي الله عنهما ـ: لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه، وهو يقف على بعير له بـ (عرفات) من بين قومه، حتى يدفع معهم؛ توفيقاً من الله ـ عز وجل ـ له. وكانت قريش لا تقف مع الناس في عرفة، بل تقف في المزدلفة ولا يخرجون من الحرم.

ترك ما يذبح لغير الله

وعن سالم بن عبدالله أنه سمع ابن عمر يحدث عن رسول الله ﷺ: أنه لقي زيد بن عمر بن نفيل بأسفل (بلدح) ـ وهو واد قبل مكة ـ، وذلك قبل

أن ينزل على رسـول الله ﷺ الوحي، فقدم إليه رسول الله ﷺ سفرة فيها لحـم، فأبى أن يأكل منه، وقـال: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه. وقد جانبت نفسه الشريفة شرب الخمر ومعاقرتها رغم شيوعها في قومه شيوعاً عظيماً.

فهذه وأمثالها مـن حفظ الله ـ عز وجل ـ وصيانته على أردان الجاهلية ورجس الشرك وسفاسف الأخلاق. مع ما وهبه الله ـ عز وجل ـ من نبل الأخلاق، وحلـو الشـمائـل، وليـن الجانب، ـ صلـوات ربي وسـلامه عليه ـ.

خلق الرسول

كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحسن قومه خُلُقاً، وأبعدهم عن الفحش والأخـلاق التي تدنس الرجال، حتى كان أفضـل قومه مروءةً، وأكرَمهم مخالطةً، وخيرَهم جواراً، وأعظمهم حِلماً، وأصدقَهم حديثاً، وأعظَمهم أمانة، فسمّوه الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السـديدة، من الحلم، والصبر، والشـكر، والعدل، والتواضع، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء.

حتى شـهد له بذلك ألـدُّ أعدائه النضر بن الحارث مـن بني عبدالدار حيث يقول: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثـاً، وأعظَمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صُدْغيه الشـيبَ وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر.

قـال ذلك في معرض الاتفاق على مـا يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم، حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه.

شهادة أبي سفيان

ولما سـأل هِرَقْلُ ملكُ الروم أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

فقال هرقل: ما كان ليدعَ الكذبَ على الناس ويكذبَ على الله.

وقـد حفظـه الله في صغره مـن كل أعمال الجاهلية التي جاء شـرعه الشـريف بصدها. وبُغِّضَتْ إليه الأوثان بغضاً شديداً، حتى ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عبَّادُها.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«لما نشأت بغضت إليّ الأوثان، وبغض إليّ الشـعر، ولم أهم بشـيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما هممت سوء بعدها حتى أكرمني الله برسالته.**

قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشـباب، فخرجت لذلك، حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلسـت لذلك فضرب الله على أذنيّ فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرّة أخرى مثل ذلك».

وكل تلـك الفعال الحميـدة والصفات الجميلة مـن الصفات والأفعال التـي يُحَلّي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاسـتعداد لتلقي وحيه، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها.

أما قبل النبوة: فليتأهّلوا للأمر العظيم الذي سيسند إليهم.

وأما بعدها: فطاعـة لأمر ربهم وليكونوا قدوة لأممهم، ـ عليهم أفضل الصلوات وأتم التسليم ـ.

بناء الكعبة

للكعبة مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة حتى عند كفار قريش، فهم يعظمونها ويعرفون منزلتها، ولهذا كانوا يتسابقون على صيانتها والعناية بها.

ولما انهدم البيت بعد جرهم بَنَتْهُ قريش، وكان ذلك قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين.

ولما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة جاء سيل عارم فصدع جدران الكعبة وأوهن أساسها، وكان قد أصابها حريق من قبل.

بناء الكعبة

فقررت قريش هدمها وبناءها من جديد، وليرفعوها، ويسقفوها فإنها كانت مبنية بحجارة مصفوفة من غير ملاط يمسكها. وكان ارتفاعها فوق القامة.

واتفقوا أن لا يدخلوا في نفقتها إلا طيباً، فلا يدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد.

ثم لما كان البدء هابوا هدمها لما في قلوبهم من تعظيمها ومنزلتها.

فقال الوليد بن المغيرة: إن الله لا يهلك المصلحين، ثم بدأ يهدم، فلما رأت قريش أنه لم يصب بأذى تبعوه في هدمها حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم أخذوا في البناء وجعلوا لكل قبيلة جزءاً منها، وكان الأشراف يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان رسول الله ﷺ وعمه العباس فيمن يحمل.

وقد أخرجوا منها الحِجْر ـ وهو ستة أذرع، أو سبعة أذرع من ناحية الشام حيث قصرت بهم النفقة فلم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم ـ.

وجعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية المشرق، وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد، فيدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا.

فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا وتنازعوا؛ من يضعه؟

فقال بطن من قريش: نحن نضعه.

وقال آخرون: نحن نضعه. واستمر التنازع أربعة أيام وخمسة حتى كادت تقع بينهم الحرب، وقربت قبيلة من قبائل قريش وهم بنو عبدالدار جفنة كبيرة مملوءة دماً، وتعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، وكان ذلك آية الموت ونذير الشر.

ولا عجب من تنافس قريش هذا، لأن البيت قبلة العرب، وكعبتهم التي يحجون إليها، وهو لهم شرف وسيادة.

وضع الحجر

إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي وكان أسنَّ رجل في قريش؛ عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد.

فدخل رسول الله ﷺ من باب بني شيبة.

فقالوا: أتاكم الأمين، رضيناه؛ لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يداري ولا يماري. فذكروا له الأمر، وجعلوه حكماً بينهم.

فما كان منه ﷺ إلا أن تصرف بحكمة وروية وعقل واتزان، فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب، فرفعوه. ولما وصلوا إلى مكانه، أخذه رسول الله بيده ﷺ فوضعه في مكانه.

وبهذا التصرف الحكيم منه ﷺ حل معضلة كادت أن تسيل بسببها الدماء وتقوم العدوات.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال لها: «**ألم تَرَيْ قومك قصرت بهم النفقة؟ ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة، وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وأدخلت فيها الحِجْر**».

ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ، وجاءت في غاية البهاء والحسن والسناء، كاملة على قواعد الخليل، لها بابان ملتصقان بالأرض شرقاً وغرباً، يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر.

فلما قتل الحجاج ابن الزبير؛ كتب إلى عبد الملك بن مروان ـ وهو الخليفة يومئذ ـ فيما صنعه ابن الزبير ـ واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه ـ فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه فهي إلى الآن كذلك.

نور الصبح وبداية البشارات

أرسل الله ـ عز وجل ـ الرسل قبل محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبشر بقدومه في كتبهم، وكان اليهود والنصارى أهل كتاب، وقد بُشِّر في كتبهم بنبي يأت من بعد أنبيائهم.

وقبل مبعثه تحدث الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب بأمر رسول الله ﷺ وأن مجيئه أقبل، وذلك لمّا تقارب زمان مبعثه.

أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى؛ فمما وجدوا في كتبهم من صفته، وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

وعن ابن عباس قال: «ما بعث الله نبيّاً إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بُعث محمد وهو حي لَيُؤْمِنَنَّ به ولَيَنْصُرَنَّهُ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق: لئن

بُعثَ محمدٌ وهم أحياء لَيُؤمِنُن به ولَيَنْصُرُنهُ».

وقد قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيما دعا به لأهل مكة: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

صفته في التوراة

وحين سأل عبدالله بن عمرو بن العاص عطاء بن يسار عن صفة رسول الله ﷺ قال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في القرآن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥].

موقف الملوك من رسالته

ولما راسل ﷺ ملوك الأرض بعد أن هاجر إلى المدينة واستقر أمره فيها، لم يُهن كتابه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب، وأما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر ملك الروم، فأكرموا وفادة رسله، ومنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم من رد ردّاً لطيفاً وكاد أن يُسلم لولا غلبة الملك كقيصر، ومنهم من أرسل بهدية للرسول ﷺ كالمقوقس، ولم يكن في المدينة له قوة ولا منعة ليرهبه هؤلاء الملوك، وما ذاك إلا أنهم يعلمون أن هناك رسولاً يأتي بعد عيسى ابن مريم، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم من العلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي أسامة قال: قلت: يا رسول الله! ما كان بدء أمرك؟

قال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام**».

ومعنى هذا أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره.

فذكر دعوة إبراهيم الذي تنسب إليه العرب، ثم بشرى عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل. يدل هذا على أن مَنْ بينهما من الأنبياء بشروا به أيضاً.

الملأ الأعلى

أما في الملأ الأعلى؛ فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً مِنْ قَبْلِ خَلْقِ آدم ـ عليه السلام ـ؛ كما روى أحمد بسنده عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك؛ دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت...**».

وروى أحمد عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله! متى كنت نبيّاً؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**».

حال الكهان

وأما الكهان من العرب؛ فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع، إذ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره، ولا يلقي العرب لذلك فيه بالاً حتى بعثه الله ـ تعالى ـ، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها.

حجب الشياطين

ولما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر زمان بَعْثه؛ حُجبَتِ الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها، فرموا بالنجوم، فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدث من أمر الله ـ عز وجل ـ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨

وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن: ٨ ـ ٩].

وفي ذلك أنزل الله على رسـوله ﷺ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن: ١ ـ ٢] إلى آخر السورة.

شهادة أن محمداً رسول الله

نبينا محمد ﷺ هو المبعوث رحمة للعالمين، وقد وجبت محبته وطاعته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

وقد ذكر وبين ﷺ حدود المحبة اللازمة عندما قال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله أنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي.

فقال ﷺ: **«لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»**.

فقال له عمر: فإنك الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي.

فقال: **«الآن يا عمر»** [رواه البخاري].

وفي الحديث الذي رواه الإمام البخاري أنه ﷺ قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ قال: **«المرء مع من أحب يوم القيامة»**.

وقد فرح الصحابة بهذا الحديث فرحاً عظيماً.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: وإنما كان فرحهم بهذا القول عنه ﷺ أشدَّ من فرحهم بسائر أعمال البر، أنهم لم يسمعوا أن في أعمال البر ما يحصل من ذلك المعنى من القرب من النبي ﷺ والكون معه إلا حبّ الله ورسوله.

معنى شهادة أن محمداً رسول الله

شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ليس المقصود منها هو التلفظ بها فقط، بل العمل بما اقتضاه معناها.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: الشهادة لرسول الله بأنه نبي، لا تدخل الإنسان في الإسلام مالم يلتزم طاعته ومتابعته، فشهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق وأن دينه من خير أديان البرية ديناً لم تدخله هذه الشهادة في الإسلام.

ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة، من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق، ولم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد، والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً.

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع.

طاعته

وهي طاعته فيما أمر من الواجبات والمستحبات، وقد قرن الله طاعته بطاعة الرسول، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: الإيمان يرجع إلى أصلين: طاعة الرسول ﷺ فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر.

التصديق

أي: وتصديقه فيما أخبر به من أخبار الأمم الماضية، أو الأمور المستقبلة، فأخباره حق وصدق ولا كذب فيها ولا خلف.

النهي

ومعنى اجتناب ما عنه نهى وزجر، أي: اجتناب كل ما نهى عنه ﷺ وحذر منه، قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقال ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم**» [متفق عليه]. ويجب أن يعظم أمره ﷺ ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد.

وأن لا يعبد الله إلا بما شرع ـ سبحانه ـ في كتابه وما جاء به رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء؛ فمن الله الرسالة، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم.

فأول ما يجب على العبد، معرفته معنى الشهادتين مع النطق بها بلسانه، وأن يعمل بما دلت عليه. ومن علم معناها وعمل بمقتضاها فهو السعيد حقاً، فأسعد الخلق وأعظمهم نعيماً وأعلاهم درجة أعظمهم اتباعاً وموافقة له علماً وعملاً.

وجماع دين الإسلام، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعبده بما شرعه ـ سبحانه وتعالى ـ، من الواجبات والمستحبات والمندوبات.

ومن سلك غير طريق المصطفى ﷺ لم يفتح له الباب، فإن الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سننه ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه.

بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليـــه، وكان عامة دعوته بمكة الدعوة إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وإفراده بالعبادة، ونبذ الشرك والأوثان، وإخلاص العبادة للملك الديان.

الرؤيا الصادقة

وكان بـــدء الوحي وله ﷺ من العمر أربعون ســـنة. روى البخاري عن عائشـــة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحـــي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يـــرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

غار حراء

ثـــم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان رســـول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه؛ لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام. وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه، ـ صلوات الله وســـلامه عليه ـ، لما في الخلوة من صفاء النفس، وهدوء البال، والتفكير في ملكوت الله وعظيم خلقه، وجليل قدرته، وكان ذلك قبل تكليفه بالرســـالة بثلاث سنوات.

فكان يخلو بغار (حراء)، وهو جبل شـــاهق الارتفاع في أطراف مكة. فيتحنث فيه ـ وهـــو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع ويعود إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، فيمكث بالغار عشراً، وتارة أكثر إلى شهر حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، وكان ذلك في شهر رمضان.

أول الوحي

وكان من أمره ﷺ ما ذكره حين جاءه الملك فقال: «اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]».

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، لا يلوي على أحد، قد أصابه هم ونزل به أمر عظيم أرهبه وأزعجه؛ فدخل على زوجته خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ فقال: «زَمِّلوني زمِّلوني». (أي غطّوني) فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع.

فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ: «لقد خشيت على نفسي». وذلك لأنه شاهد أمراً لم يعهده قبل ذلك، ولا كان في خلده، ولأن الملك غطه حتى كاد يموت، ولم يكن لديه ﷺ علم قبل ذلك بجبريل ولا بهيئته وشكله. مع أن النبي ﷺ كان أشجع الناس وأقواهم قلباً.

وما كان من خديجة عندما رأت وسمعت ما قال إلا أن قالت: كلا؛ أبشر والله، لا يخزيك الله أبداً.

فطمأنته وواسته بل وأفرحته، وهي تعلم مكان الخير في عقله وقلبه وفعله؛ وأكدت له على أنه ما كان الله ليخزيه أبداً.

وذكرت له من صفاته الجليلة وما كان من سجاياه الحسنة، وهي من أجمع الصفات وأنبلها وأكملها وأشرفها.

قالت له ﷺ: كلا؟ أبشر؛ فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم،

وتصدق الحديث، وتقري الضيف، وتحملُ الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق.

ورقة بن نوفل

ولـــم تكتف خديجة ـ رضي الله عنها ـ بهذه المواســاة، بل انطلقت به حتى أتت على ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتـــب كتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانيةْ ما شـــاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موســى، ياليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ وكأن أمراً نزل عليه: «**أَوَمُخْرِجي هم؟!**».

فقـــال: نعم؛ لم يـــأت أحد بمثل ما جئت به إلا عُـــودِيَ، وإن يدركني يومُك أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم يلبث ورقة أن توفي، ولم يدرك ما كان يؤمله.

وفتر الوحي فترة؛ حتى حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً.

وقـــد كان لهذه الزوجة الوفية العاقلـــة ـ رضي الله عنها ـ أثراً كبيراً في تثبيت النبي ﷺ وإزالة ما نزل به.

الجزاء والثواب

وكـــان جزاء هـــذه المـــرأة العاقلة الرزينة التي واســـته وهونت عليه، ووقفت المواقف العظيمة مؤيدة ومناصرة ومـــواســـية لرســـول الله ﷺ أن بشـــرها بـــأعظم بشارة: قـــال ﷺ: «**أمرتُ أن أبشـــر خديجة ببيت من قَصَب؛**

[أي من لؤلؤ أو ذهب] **لا صخب فيه ولا نصب**» [رواه مسلم].

ـ رضـــي الله عنها وأرضاها ـ فقد كانت لها مواقف عظيمة في بدايات الدعوة وصدر الإسلام. وقد توفيت قبل أن ترى انتصارات الإسلام وارتفاع رايته.

الوحـي

الوحي أمره عظيم، والرسالة حملها ثقيل، قال ـ تعالى ـ عنها: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ [المزمل: ٥].

وقال ﷺ وهو يتحدث عن فترة الوحي وبدايته وما أصابه من الفزع، وما ناله من الخوف: «**بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري؛ فإذا الملك الذي جاءني بـ (حراء) جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعبتُ منه، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني. فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝﴾ [المدثر: ١-٥]. فحمي الوحي وتتابع**».

وقد أمره الله ـ عز وجل ـ بالصدع بهذه الدعوة وتبليغها؛ قال ـ عز وجل ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾ [المدثر: ١-٧].

أمره ـ عز وجل ـ بذلك لأن الدعوة تحتاج إلى همة وقيام، وإنذار وإعذار، يستلزم معها طهارة الظاهر والباطن من الأوساخ المستقذرة في الثياب والجسد والمظهر، ومن أردان الشرك وسيء الأخلاق.

ثم أمره ربه بالصبر على ذلك، فإن الصبر مطلوب لأداء الرسالة، وهو علامة على أن الصبر لازم له في دعوته لما يلحق من أذى ومشقة حتى يظهر الله دينه ويعلي كلمته، فهو يدعو أقواماً جفاة لا دين لهم، يسجدون للصنم ويعبدون الوثن، ولا حجة لهم إلا أنهم وجدوا آبائهم على ذلك.

وقد ظل ﷺ قائماً بأمر الدعوة أكثر من عشرين عاماً، لاقى فيها الويل والعنت والمشقة حتى أزال الله به الشرك وأنار برسالته طريق الحق والهدى.

من المعجزات

وقد كان رســول الله ﷺ يرى عجائب قبل بعثته، وقبل نزول الوحي، وذلك من معجزاته ﷺ ومن إرهاصات نبوته.

فمن ذلك ما في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن**».

وروى البيهقــي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرج في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله!

وفي رواية: لقد رأيتني أدخل معه الوادي، فلا يمر بحجر ولا شــجر إلا قال: السلام عليكم يا رسول الله! وأنا أسمعه.

حمل الرسالة

ثم تتامَّ الوحي إلى رســول الله ﷺ وهو مصدق بما جاء منه، وقد قبله بقبوله، وتحمل منه حمله على رضا العباد وسخطهم.

وللنبوة أثقال ومؤونة لا يحملها ولا يســتضلع بها إلا أهل القوة والعزم من الرســل - بعون الله وتوفيقه - لما يلقون من الناس، وما يُرَدُّ عليهم مما جاؤوا به عن الله - عز وجل -.

فمضى رســول الله ﷺ على ما أمر الله بــه على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى.

وفي هذه عبر ودروس لمن أراد أن يسلك طريق الدعوة إلى الله - عز وجل - أن يثبت ويستقيم على أمره، لا يعبأ بالمستهزئين ولا ترده كثرة المخالفين، يسير فــي طريق آمن غير موحش، طرقته أقدام الأنبياء وأتباعهم من بعد، يتحلى بالصبر ويتجمل بالحلم، يدعو إلى الله على بصيرة ولا ينتظر النتائج.

تنزل الوحي

تحمل النبي ﷺ أعباء الرسالة وحملها الثقيل، وصبر على قومه وأذاهم، واستهزائهم ومكرهم، ووقف كالجبل الأشم في قومه، حتى دانت له الرقاب وذلت له البلاد، وفتح الله له القلوب.

شدة الوحي

وكان ﷺ يجد المشقة في نزول الوحي عليه. عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال: **«أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ؛ فينفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً يكلمني؛ فأعي ما يقول»**.

وروي في الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد؛ فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وفي حديث الإفك قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فوالله؛ ما رام رسول الله ﷺ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء، حتى إنه كان يتحدَّر منه مثل الجُمان من العرق ـ وهو في يوم شات ـ من ثقل الوحي الذي أُنزل عليه.

وفي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي كرب لذلك، وتربّد وجهه.

وفي رواية: وغمض عينيه، وكنا نعرف ذلك منه.

وفي الصحيحين حديث زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ حين نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، فلما شكى ابن أم مكتوم ضرارته نزلت: ﴿غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ﴾.

قال: وكانت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي، وأنا أكتب، فلما نزل الوحي كادت فخذه ترض فخذي.

وفي صحيح مسلم عن يعلى بن أمية قال: قال لي عمر: أيسرك أن تنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه؟ فرفع طرف الثوب عن وجهه وهو يوحى إليه بـ (الجعرانة)؛ فإذا هو محمر الوجه، وهو يغط كما يغط البَكر.

ثقل الوحي

وروى أحمد وأبو نعيم عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه (المائدة) كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة.

وروى أحمد أيضاً عن عبدالله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة (المائدة) وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها.

وكل هذا يدل دلالة أكيدة على تحمله ﷺ أعباء الوحي، ويجد حين نزوله من الشدة والكرب الشيء الكثير، فجزاه الله خيراً عن أمته خير ما جزى نبي عن أمته.

ومع هذه المشقة وتلك الشدة التي تنال النبي ﷺ حال نزول الوحي إلا أنه لم يكن يغيب عنه إحساسه بالكلية.

ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة لما نزل الحجاب، وأن سودة خرجت بعد ذلك إلى المناصع (وهو صعيد أفيح) ليلاً، فقال عمر: قد عرفناك يا سودة! فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فسألته وهو جالس يتعشى والعَرْق في يده، فأوحى الله إليه، [ثم رفع عنه]، والعَرْق في يده [ما وضعه]، ثم رفع رأسه فقال: «**إنه قد أذن لَكُنَّ أن تخرجن لحاجتكن**».

وروى أبو يعلى عن الفَلَتان بن عاصم قال: كنا عند رسول الله ﷺ وأنزل عليه، وكان إذا أُنزل عليه دام بصره وعيناه مفتوحة، وفرغ سمعه وقلبه لِمَا يأتيه من الله ـ عز وجل ـ، فكنا نعرف ذلك منه.

أقسام الوحي:

والوحي الذي هو مصدر الرسالة، ومداد الدعوة؛ مراتبه أقسام:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكان مبدأ وحيه ﷺ.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**».

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضُّها.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر ـ عز وجل ـ ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

وقد زاد بعض العلماء مرتبة سابعة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف.

حرصه ﷺ على تلقي القرآن

في ابتداء نزول القرآن؛ كان ـ عليه الصلاة والسّلام ـ من شدة حرصه على أخذه من المَلَك ما يوحى إليه عن الله ـ عز وجل ـ يسابقه في التلاوة، فأمره الله ـ تعالى ـ أن ينصت لذلك حتى يفرغ من الوحي، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسر عليه تلاوته وتبليغه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، ويوقفه على المراد منه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: جمعه في صدرك ثم تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾: فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ قال: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله ـ عز وجل ـ.

في الصدور والسطور

وهكذا فإن مدارسة القرآن وحفظه من سنن المصطفى ﷺ التي سنها لأمته، وكان الصحابة من بعده يتدارسون القرآن ويحفظونه، فهو ولله الحمد في صدور الرجال تناقلته الأمة جيلاً بعد جيل، وهو بين دفتي المصحف ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

فهو محفوظ في الصدور وفي السطور، يسر الله حفظه على الصغير والكبير، والمتعلم والأمي، والعربي والأعجمي، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]. وهذه من الآيات والمعجزات الباهرات لهذه الأمة.

استراق السمع

كان من رحمة الله وفضله ولطفه بخلقه أن حجب الجان ومردة الشياطين عن السماء واستراق السمع؛ كما قال ـ تعالى ـ إخباراً عنهم في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢].

قال ابن عباس: كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي، فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقّاً، وأما ما زادوا فتكون باطلة.

فلما بُعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس ـ ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك ـ.

فقال لهم إبليس: هذا لأمر قد حدث في الأرض.

فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الأمر الذي حدث في الأرض.

وعنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلتْ عليهم الشهب، فرجعَت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟

قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسِلتْ علينا الشهب.

فقالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟! فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها.

الاستماع

فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة ـ وهو بنخل ـ عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي ﷺ بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء.

فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝﴾ [الجن: ١-٣]، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝﴾ [الجن: ١].

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس أيضاً أنه قال: إنه لم تكن قبيلة من الجن إلا ولهم مقاعد للسمع، فإذا نزل الوحي؛ سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديد ألقيتها على الصفا، قال: فإذا سمعت الملائكة خروا سجداً، فلم يرفعوا رؤوسهم حتى ينزل، فإذا نزل؛ قال بعضهم لبعض: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ:٢٣] فإن كان مما يكون في السماء ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝﴾، وإن كان مما يكون في الأرض من: أمر الغيب، أو موت، أو شيء مما يكون في الأرض تكلموا به، فقالوا: يكون كذا وكذا. فتسمعه الشياطين، فينزلونه على أوليائهم.

الخوف مما جرى

فلما بُعِثَ النبي محمد ﷺ دُحِروا بالنجوم، فكان أول من علم بها ثقيف، فأصابهم الخوف والذعر؛ فكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه، فيذبح كل

يوم شاة، وذو الإبل فينحر كل يوم بعيراً، فأسرع الناس في أموالهم.

فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا؛ فإن كانت النجوم التي يهتدون بها وإلا فإنه لأمر حدث.

فنظروا؟ فإذا النجوم التي يُهتدَى بها كما هي لم يَزُلْ منها شيء، فكفوا.

وصرف الله الجن فسمعوا القرآن، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وانطلقت الشياطين إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا حَدَثٌ حَدَث في الأرض، فأتوني من كل أرض بتربة، فأتوه بتربة تِهامة، فقال: ها هنا الحدث.

الشهب

وثبت في الحديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه من الأنصار، فَرُمي بنجم عظيم فاستنار، قال: «**ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟**».

قال: كنا نقول: يولد عظيم، أو يموت عظيم.

قال معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم؛ ولكن غلظت حين بعث النبي ﷺ ـ قال: «**فإنه لا يرمى بها لموت أحد، ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ﴾ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماءً؛ حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، ويخطف الجن السمع فيرمُون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون**».

وفي الحديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء؛ ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله؛ كأنه سلسلة على صفوان [ينفذهم ذلك]، فـ ﴿ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ للذي قال: ﴿ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سبأ: ٢٣]. فيسمعها مسترقوا السمع، ومسترقوا السمع هكذا: بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفه ـ فحرفها وبَدَّدَ (وفي لفظ: وفرَّج) بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة، فيلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهابُ [المستمعَ] قبل أن يُلقيَها [إلى صاحبه فيُحرق]، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فَيُصَدَّق بتلك الكلمة التي سمع من السماء» [رواه البخاري].

الكهان

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «ليسوا بشيء».

قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً الشيء يكون حقّاً؟ قال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فَيَقُرُّها في أذن وليه قَرَّ الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة» [أخرجه الشيخان].

الإيمان

ولما سمع الجن بهذا القرآن العظيم آمن به من آمن، فقالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن: ١ ـ ٢] فإنهم لما سمعوا الآيات شرح الله صدورهم للإسلام، وكانت هذه الخطوة الأولى منهم أن آمنوا به وصدقوه، ومن أحسن الاستماع والبحث عن الحق فإن الله ـ عز وجل ـ يعينه ويشرح صدره، فكانت الهداية التي أرادها الله ـ عز وجل ـ لهم.

التبليغ

ثم كانت الخطوة الثانية التي تلزم من آمن وصدق، ألا وهي القيام بأمره وتبليغـــه، فإنهم علموا أن أمراً ارتضوه لأنفســـهم وقبلـــوه منهجاً لحياتهم ومماتهم لابد من السعي له والقيام به، وهذا فهم واسع من أولئك النفر.

ثم إنهم انصرفوا إلى قومهم كما ذكر ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ ﴾ [الاحقاف:٢٩] آخذين بأمر الدعوة إلى الله، قائمين بها، داعين إليهـــا منادين بالدخول في دين الله: ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ [الاحقاف: ٣٠].

تلـــك هي همم أولئك النفر من الجن ممن آمنوا وصدقوا؛ وهم بهذا أفقه مـــن بعض الإنس الذين آمنوا وصدقوا، ولم يعملوا لهذا الدين ولم يقوموا بأمره.

الرعيل الأول

بُعث النبي ﷺ إلى قوم ضرب الشرك أطنابه في حياتهم، وأخذت عبادة الأصنام والأوثان بمجامع قلوبهم، هذا مع ما هم فيه من حدة الطبع والاقتتال لأتفه الأسباب.

قومٌ يتفاخرون بالأحساب والأنساب وبوقائع الأيام؛ فمن أتى في هذا الجو المشحون بالأنفة والعزة وتراث الآباء ومفاخرهم فسوف يُصد ويُرد، بل ربما يقتل؛ ولهذا بدأ النبي ﷺ دعوته سرّاً فيمن حوله.

فأقرب الناس إلى الداعية هم أهله وذوو رحمه، ولهم القدم الأولى في الدعوة، ومنهم القبول والتصديق من الداعي لمعرفتهم بحاله وصفاته، ويومه وأمسه، ومدخله ومخرجه.

وكان مما عني بهم النبي ﷺ في بادئ أمر الرسالة والبلاغ أقرباؤه وأهل بيته؛ لأن الأقربون أولى بالمعروف ولأن ذلك سوف يعينه ويشد أزره، وهذا ما كان من النبي ﷺ حيث دعا أقرب الناس إليه؛ وفي مقدمتهم زوجه خديجة ـ رضي الله عنها ـ، وصديقه الحميم أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ. ومن ذلك أيضاً ما أخرجه أحمد والشيخان عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه.

ثم نادى: «يا صباحاه!».

فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه؛ وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: **«يا بني عبدالمطلب! يا بني فهر! يا بني لؤي! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟»**. قالوا: نعم.

قال: «فإني ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦]».

فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم! أما دعوتنا إلا لهذا؟! وأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [رواه أحمد].

وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فعم وخصَّ، فقال: **«يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبدالمطلب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني ـ والله ـ لا أملك لكم من الله شيئاً؛ إلا أن لكم رَحِماً سأبلها ببلالها»**.

وروى أحمد ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] قام رسول الله ﷺ فقال: **«يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبدالمطلب! يا بني عبدالمطلب! لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»**.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن علي قال: جمع رسول الله ﷺ ـ أو: دعا رسول الله ﷺ ـ بني عبدالمطلب؛ فيهم رهط كلهم يأكل الجَذَعَة، ويشرب الفَرَق.

قال: فصنع لهم مدّاً من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس، ثم دعا بغُمر، فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب.

فقال: **«يا بني عبدالمطلب! إني بعثت لكم خاصة؛ والى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟»**.

قال: فلم يقم إليه أحد، قال: فقمت إليه، وكنت أصغر القوم.

قال: فقال: «اجلس»، قال ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه، فيقول لي: «اجلس»، حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي.

دعوة الأقارب

عن إياس بن عفيف عن أبيه عُفَيف ـ وكان عفيف أخا الأشعث بن قيس لأمه ـ أنه قال: كنت امرءاً تاجراً، فقدمت منىً أيام الحج، وكان العباس بن عبدالمطلب امرءاً تاجراً، فأتيته أبتاع منه.

فبينا نحن إذ خرج رجل من خِباء، وقام يُصلي تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت تُصلي، وخرج غلام فقام يُصلي معه.

فقلت: يا عباس! ما هذا الدين؟! إن هذا الدين ما أدري ما هو؟!

فقال: هذا محمد بن عبدالله يزعم أن الله أرسله، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به.

قال عفيف: فليتني كنت آمنت يومئذ فكنت أكون رابعاً.

أبوبكر

قال أهل السير: وأول من آمن من الرجال الأحرار، الأشراف أبوبكر: عبد الله بن عثمان ـ المعروف؛ بأبن أبي قحافة التَّيمي من بني تيم بخامره.

وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: **«ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة، وتردد، ونظر، إلا أبابكر، ما عَتّم عنه ـ أي ما تلبث بل سارع ـ حين دعوته، ولا تردد فيه»**.

وكان أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ صدراً معظماً في قريش، على سعة من المال وكرم الأخلاق، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، مؤلفاً لقومه

محبباً سـهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير أو شر.

وله في الإسـلام يد لا تنسى، وقدم صدق، فقد أسلم بدعوته في بداية فجر الإسلام جماعة من أكابر الصحابة منهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسـعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وغيرهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

وقد بذل أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ ماله وجاهه في سـبيل خدمة الدين والقيام بأمره، ومن ذلك ما ذكره عروة بن الزبير بقوله: أسـلم أبوبكر وله أربعون ألفاً فأنفقها في سبيل الله وأعتق المماليك السبعة، وله مآثر وأعمال لا تنسى ـ رضي الله عنه ـ.

وأبوبكر ـ رضـي الله عنه ـ رفيق درب النبي ﷺ وصديقه منذ القدم، عارفاً بسـره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فكان إيمانه أعدل شـاهد على صدقه ﷺ. وكان سـنه مقارباً لسـن رسول الله ﷺ فهو أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين.

خديجة

وأول من أسلم من النساء خديجة ـ رضي الله عنها ـ وقد كان لخديجة ـ رضي الله عنها ـ سـماع الإرهاصات والمقدمات والبشـارات، وأبصرت ملامح النبـوة، وشـاهـدت تباشير الرسالة، وسمعـت من ورقة بن نوفل ما أخبرها بأن رسول الله ﷺ هو النبي المرتقب.

علي بن أبي طالب

أمـا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقد كان في كفالة النبي ﷺ يطعمه ويسـقيه ويرعاه ويقوم بأمره. وقد أوحي إلى النبي ﷺ وعمر علي ابن أبي طالب عشر سنوات.

الخمسة الأوائل

وقد اختلف في أول من أسـلم اختلافاً كثيراً، فقيل: خديجة، وقيل: أبوبكر، وقيل: علي.

ولعل الأنسـب ما روي عن أبي حنيفة حيث قال: أول من أسـلم من الرجـال الأحرار أبوبكر، ومن الصبيان علي، ومن النسـاء خديجة، ومن الموالي زيد، ومن العبيد بلال ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ.

عثمان بن عفان

وكان من أوائل الداخلين في الإسـلام غير الخمسة، عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، ولما علم عمه الحكم بإسلامه أوثقه كتافاً، وقال: ترغب عن ديـن آبائك إلى دين مسـتحدث، والله لا أُحُلّك حتـى تدع ما أنت عليه.

فقال عثمان: والله لا أدعه ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه، وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره.

الزبير بن العوام

ومنهـم الزبير بن العوام بن خويلد، وأمه صفية بنت عبدالمطلب، وكان عم الزبير يرسـل الدخان عليه وهو مقيـد ليرجع إلى دين آبائه، فقواه الله وثبته، وكان شابّاً لا يتجاوز سن الاحتلام.

خالد بن سعيد

ومن السـابقين للإسـلام: خالد بن سـعيد بن العاص بن أمية بن عبد شـمس الأموي القرشي، كان أبوه سـيد قريش، إذا اعتمَّ لم يعتم قرشي إجلالاً له، وكان خالد بن سـعيد قد رأى في منامه أن سـيقع في هاوية، فأدركه رسول الله ﷺ وخلّصه منها، فجاء إليه وقال: إلام تدعو يا محمد؟

قال: «أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، والإحسان إلى والديك، وألا تقتل ولدك خشية الفقر، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وألا تقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأن توفي الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل في قولك ولو حكمت على ذوي قرباك، وأن توفي لمن عاهدت».

فأسلم ـ رضي الله عنه ـ وحينئذ غضب عليه أبوه، وآذاه حتى منعه القوت، فانصرف إلى رسول الله ﷺ، فكان يلزمه ويعيش معه، وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد.

السابقون الأولون

وممن أسلم كذلك: عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وصهيب الرومي، وسعيد بن زيد العدوي القرشي، وزوجته فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر، وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوجة العباس بن عبد المطلب. وعثمان بن مظعون، والأرقم بن الأرقم وغيرهم ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ.

إبلاغ الرسالة

أمر الله ـ تعالى ـ رسوله محمداً ﷺ بتبليغ الدين ونشر الرسالة، فقام بها خير قيام؛ فأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ودعا لربه، وهاجر في سبيله، وتحمل الأذى من قومه، امتثالاً لقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد مرت الدعوة بأربعة مراحل:

المرحلة الأولى: الدعوة سرّاً واستمرت ثلاث سنين، ولم يكن النبي ﷺ يُظهر الدعوة في مجامع قريش وأنديتها. وقد أسلم فيها جمع ممن هم حول النبي ﷺ منهم زوجته خديجة، وأبوبكر، وعلي ـ رضي الله عنهم ـ حتى بلغوا الثلاثين ما بين رجل وامرأة، ولم يتمكن المسلمون من إظهار شعائرهم، واختار النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ وهو ممن أسلموا ـ مكاناً للتعليم والإرشاد.

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً والكف عن القتال واستمرت إلى الهجرة، ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤] وقد تحمل المسلمون فيها صنوف الأذى والتعذيب، وكان الصبر وتحمل الأذى أبرز سماتها وأوضح معالمها.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً مع قتال المبتدئين بالقتال، واستمرت إلى صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهراً، مع قتال كل من يقف في سبيل نشر الدعوة وقيام الدين والصد عنه، وهي إلى يوم القيامة متى ما وجدت

شروطها وانتفت موانعها.

السخرية

ولما جهر ﷺ بالدعوة سخرت منه قريش واستهزؤوا به في مجالسهم، وكان إذا مرّ عليهم يقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلَّمُ من السماء. وهذا غلام عبد المطلب يُكلَّم من السماء. لا يزيدون على ذلك، وأبو كبشة هو هو زوج مرضعته حليمة السعدية.

فلما عاب آلهتهم وسفه عقولهم وقال لهم: «والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم». ثارت في رؤوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها.

وهكذا بدأ الإيذاء لرسول الله ﷺ ورميه بالجنون والسحر، حتى وصل الأمر إلى التفكير في قتله. ثم محاربته في وقائع عدة، حتى قضى الله ـ عز وجل ـ أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

بلاء الأنبياء

إن الأذى بسبب الدعوة والحسبة هو طريق المرسلين، وبصبرهم ويقينهم نصرهم الله ـ تعالى ـ في الدنيا، ورفع ذكرهم في الناس، وأعلى درجاتهم في الجنة.

نوح

أرسل ـ عز وجل ـ نوحاً ـ عليه السلام ـ إلى قومه؛ فصبر على أذاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [الأعراف: ٦٠] وآذوه في صحبته وأتباعه، ورموه بالكذب، وقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝﴾ [هود: ٢٧] لم يتورعوا عن السخرية من نوح ومن معه ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] ورموه بالجنون وهوأكملهم عقلاً؛ فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ۝﴾ [المؤمنون: ٢٥] وهددوه إن استمر في دعوته بالرجم ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١١٦].

هود

وأوذي هود ـ عليه السلام ـ في الله ـ تعالى ـ، وأتهمه قومه بالسفه في عقله، والكذب في قوله؛ فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٦٦].

صالح

وأوذى صالح ـ عليه السلام ـ في الله ـ تعالى ـ؛ فرماه قومه بالكذب، فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾ [المؤمنون: ٣٨]، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣﴾ [الشعراء: ١٥٣] واجمعوا على قتله وأهله في ليل مظلم ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩].

الخليل

وأوذي الخليل ـ عليه السلام ـ في الله ـ تعالى ـ فهجره أبوه وهدد برجمه؛ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: ٤٦] وعزم قومه على قتله وحرقه؛ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وأوذي لوط ـ عليه السلام ـ في الله ـ تعالى ـ، فتواصى قومه على طرده وتشريده بسبب طهارته من فواحشهم؛ ﴿قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل: ٥٦] وآذوه في ضيفه بمحاولة الاعتداء عليهم، حتى علاه الهم وركبه الكرب: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾ [هود: ٧٧ ـ ٧٩]. وبلغ من همه وكربه ـ عليه السلام ـ أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾ [هود ٨٠].

شعيب

وأوذي شعيب ـ عليه السلام ـ في الله ـ تعالى ـ؛ فرماه قومه بالكذب، وزعموا أنه مسحور؛ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا

وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٦] وعزموا على إخراجه ومن معه وهددوه بالرجم لولا تقديرهم عشيرته ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقالوا ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١].

موسى

وأوذي موسى أشد الأذى من فرعون وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف: ١٠٩] ورماه بالجنون لما عرفه بالله ـ تعالى ـ، وقال: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧] وادعى أنه مسحور فقال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١] وزعم أنه في دعوته كذب؛ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨] واستصغر فرعون موسى ـ عليه السلام ـ وحقر شانه وعيره فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢].

وبلغ الأذى بموسى ومن معه منتهاه حين توعدهم فرعون قائلاً: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وتامروا على قتله قبل هجرته ـ عليه السلام ـ إلى مدين وبعد عودته منها؛ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [عافر: ٢٦]. ورحم الله موسى، فقد استمر أذى قومه له حتى بعد هلاك فرعون بتعنت بني إسرائيل، وكثرة سؤالهم وأختلافهم،

وبطئهم في الامتثال، وعبادتهم للعجل، ورميهم موسى بالسخرية فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧]، وعصوه في الجهاد، وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]، ومن صور أذاهم لموسى ما أخبر به النبي ﷺ بقوله: «**إن موسى كان رجلاً حيياً ستيرا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه لياخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملاء من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون..**». فذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩]. [رواه البخاري].

وأوذي المسيح ـ عليه السلام ـ في الله ـ تعالى ـ فصبر، ووأذي في أمه وعرضها، وما أشد ذلك على النفوس؛ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦] وسعى اليهود في قتله، فاختبأ وطورد وأذوى حتى رفعه الله ـ تعالى ـ إليه، ونجاه من مكرهم.

تلك مواقف المرسلين، وصور من صبرهم على أذى الكافرين ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

محمد

وأوذي محمد ﷺ كما أوذي الرسل من قبله؛ فطورد وحورب، وهُجِّر وضرب وخنق وجرح، ووضع الأذى على ظهره وفي طريقه، واجمعت

قريش على قتله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ورموه بالشعر والجنون؛ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝﴾ [الصافات: ٣٦] وزعموا أنه مسحور؛ ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٨].

إنها سنة الله - تعالى - في المرسلين، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٣٤].

صبر الرسول على الأذى

ومع نال النبي ﷺ استمر يدعو إلى الله - تعالى - ليلا ونهاراً، وسرّاً وجهراً، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق في ذلك عنده سواء.

وتسلط عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم، الأشداءُ الأقوياء من مشركي قريش بالأذية القولية والفعلية، وقسو عليهم وتنوعت أساليبهم في البطش والتنكيل، ولم يراعوا في ذلك قرابة ولا رحماً.

وتفننوا في صد الناس عن دين الله، وكان من أذاهم للنبي ﷺ اتهامه بالجنون تارة، وأنه ساحر تارة أخرى، وبالكذب ثالثة، وبالإتيان بالأساطير رابعة، وهكذا مافتئت قريش في الصد عن دين الله والتحذير منه. وكان الاستهزاء بالنبي ﷺ وممن أسلم معه ديدن كفار قريش.

الاستهزاء

والاستهزاء خلق ذميم، تخلق به أعداء هذا الدين منذ القدم، ومن ذلك الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله، والاستهزاء بالصحابة، والاستهزاء بعباده المؤمنين، كما جرى في غزوة تبوك وغيرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: إن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر، يكفر به صاحبه بعد إيمانه.

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ في ذلك: إن الاستهزاء بالله ورسوله كفر يُخرج عن الدين، لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسوله، والاستهزاء بشيء مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة.

وقد سار المنافقون فيما بعد على خطى قريش واليهود والنصارى في أذية المسلمين القولية والفعلية بالاستهزاء والمكر والطعن في دين الله ـ عز وجل ـ، وفيمن حمله من العلماء والدعاة والمصلحين.

أبو لهب

وكان من أشد الناس عليه ﷺ وأكثرهم أذى عمه أبو لهب، واسمه عبدالعزى بن عبدالمطلب، وكنيته أبو عتبة؛ لكن الله ـ عز وجل ـ كناه أبو لهب، وامرأته ـ أم جميل ـ أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان.

وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع النبي ﷺ في الأسواق والمجامع ومواسم الحج ويكذبه ويحذر الناس منه.

وهو الذي نزلت فيه سورة المسد، وهو من الجاهلين المعاندين المكذبين الصادين عن دين الله.

ومن المفارقات أن أبا لهب هذا عم النبي ﷺ، وهو الذي أعتق جاريته (ثويبة) لما بشرته بميلاد ابن أخيه محمد.

فإنه لما توفي أبو طالب وخديجة ـ وكان بينهما شهر وخمسة أيام ـ اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان ولزم بيته وأقلَّ الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال، ولا تطمع فيه، فبلغ ذلك أبا لهب فأخذته الحمية وداعي القرابة فجاءه فقال: يا محمد امض لما أردت، وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حيّاً فاصنعه، لا واللّات لا يوصل إليك حتى أموت.

وأراد أبـــو لهـــب أن يقوم مقام أبي طالب ويدافـــع عن ابن أخيه، لكن قريـــش صرفته عن ذلك؛ فقد جاء عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل إلى أبي لهب في محاولة لإبعاده عن ابن أخيه محمداً ﷺ.

فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟

فقال له أبو لهب: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟

قال: **«مع قومه»**.

فخرج إليهما، فقال: قد سألته فقال مع قومه.

فقالا: يزعم أنه في النار.

فقال: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟

فقال رسول الله ﷺ: **«ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار»**، فقـــال أبو لهب: والله لا برحت لك إلا عدوّاً أبـــداً، وأنت تزعم أن عبد المطلـــب في النار، واشـــتد عند ذلك أبو لهب وســـائر قريـــش على النبي ﷺ.

وهكذا انصرف أبو لهب من الدفاع عن الرسول ﷺ ونصرته إلى مدافعته والقيام ضده حتى أصبح من ألد أعدائه.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: **«ما نالت قريش شـيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب ثم شرعوا»**.

وعن هشـــام بن عروة عن أبيه أن رســـول الله ﷺ قال: **«ما زالت قريش كاعين حتى مات أبو طالب»**.

أذى قريش

وكان النفر الذين يؤذون رســـول الله ﷺ في بيته عصبة من كبراء قريش وســـادتها منهم: أبو لهب، والحكم بن أبي العاص بن أميه، وعقبة بن أبي

معيط، وكانوا جيرانه لم يسلم منهم أحد.

وكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يُصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً يستتر به منهم إذا صلى، فكان إذا طرحوا شيئاً من ذلك يحمله على عود ثم يقف به على بابه، ثم يقول: «يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟» ثم يلقيه في الطريق.

وهذه حال الدعوة والدعاة في كل زمان ومكان، ومن كان يظن أنه يسلم من كلام الناس فهو مجنون، فقد قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦].

وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقالوا عن النبي ﷺ أنه ساحر، وكاهن، ومجنون.

ولهذا أمر ـ عز وجل ـ بالصبر في الدعوة وتحمل الأذى في سبيل ذلك.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

طلاق ابنتي الرسول

وقد كانت ابنتي الرسول ﷺ رقية، وأم كلثوم تحت ابني عمهما عتبة وعتيبة ابني أبي لهب، ولإلهاء النبي ﷺ وإشغاله عن رسالته؛ أمر أبو لهب ابنيه بتطليق ابنتي رسول الله ﷺ فطلقاها.

وكانت الأولى من نصيب عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، ولما توفيت تزوج بالأخرى. ولم يعرف أن أحداً أرخى ستره على بنتي نبي غير عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فمن ثم لقب بذي النورين.

أبو جهل

وكان من أعداء النبي ﷺ أبو جهل؛ وهو عمرو بن هشام بن المغيرة من بني مخزوم، بل هو ألد أعداء النبي ﷺ، ومن كبار المستهزئين والساخرين، وهو الذي قاد المشركين في غزوة بدر، وله مواقف ضد النبي ﷺ، وله أيضاً تأثير واضح وصوت مسموع، ورأي نافذ على سادات قريش، وامتاز بالدهاء والذكاء، وهو والد عكرمة بن أبي جهل ـ رضي الله عنه ـ.

أول شهيدة

ومن مواقفه ضد المسلمين؛ تعذيب المستضعفين منهم؛ ومن ذلك ما رواه جابر أن رسول الله ﷺ مر بعمار بن ياسر وأهله وهم يعذبون فقال: «**أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة**» فأما أمه سمية ـ أم عمار ـ فتأبى إلا الإسلام، فطعنها أبو جهل بحربة في قلبها فماتت، وهي أول شهيد في الإسلام.

شدة الأذى

وكان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفلين رأيك، ولنضعن شرفك. وإن كان تاجراً قال: والله لتكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.

وبلغ من أذاه للرسول ﷺ ما رواه البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يُصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**لو فعل ذلك لأخذته الملائكة عياناً**».

وفي رواية عنه قال: مر أبو جهل بالنبي ﷺ وهو يصلي، فقال: ألم أنهك أن تُصلي يا محمد!

فانتهـره النبي ﷺ، فقال له أبو جهل: لم تنهرني يا محمد! فوالله لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً مني.

قـال جبريـل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: ١٧ـ ١٨].

قال ابن عباس: والله؛ لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب.

وروى أحمد عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟! قالوا: نعم.

فقـال: واللات والعـزى؟ لئن رأيته يصلي كذلـك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه بالتراب. فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلي ليطأ رقبته.

قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه.

فقيل له: ما لك؟ قال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**».

واسـتمر أبو جهل على أذاه واسـتهزائه بالرسول ﷺ، ومن ذلك أنه لما سمع بشـجرة الزقوم، قال لقومه مسـتهزئاً: أتدرون ما الزقوم؟ هو ثمر يضرب بالزبـد، ثم قال هلموا فلنتزقم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٤].

صد الناس عن الإسلام

ومن مواقف أبو جهل ضد الرسول ﷺ ما ذُكر أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له.

فبلـغ ذلك أبا جهل فأتاه، فقال: يا عـم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟

قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمد لتعرض ما قبله.

قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له.

قال وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن.

والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلوا ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: قف عني حتى أفكر فيه.

فلما فكر وأطال النظر، قال: إن هذا إلا سحر يؤثر عن غيره، فنزلت الآيات تحكي واقعه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٢٥].

عتبة بن ربيعة

ومن مواقف أبي جهل التي يتحين فيها الفرص للنيل من الإسلام وأهله ومحاوله صد الرسول ﷺ أنه حرض عتبة بن ربيعة، وكان سيداً حليماً، أن يأتي النبي ﷺ فيغريه بمحاب الدنيا وملذاتها.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطه ـ أي المنزلة الرفيعة ـ في العشيرة، والمكان في النسب، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضي من آبائهم، فاسمع مني حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: «**يا أبو الوليد أَسْمَع**».

فقال عتبة: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوي منه.

حتى إذا فرغ عتبة. قال له النبي ﷺ: «**أفرغت يا أبا الوليد؟**».

قال: نعم!

قال: «**استمع مني**».

قال: أفعلُ!

فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: ١ - ٣]» فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها، فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمداً عليها ليسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجدها.

ثم قال: «**سمعت يا أبا الوليد؟**»

قال: سمعت.

قال: «**فأَنْتَ وَذَاكَ**».

ثم قام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما

هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هـذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزة عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم.

وضع سلى الجزور

ومن مواقف أبو جهل وشدة عداوته إيذاء النبي ﷺ ووضع سلى الجزور على ظهره وهو ساجد أمام الكعبة، فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال بينا النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور فقذفه على ظهر النبي ﷺ فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فأخذته من ظهره ودعت على من صنع.

فقال النبي ﷺ: **«اللهم عليك الملأ من قريش أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، أو أبي بن خلف»** ـ شعبة الشاك ـ فرأيتهم قتلوا يوم بدر فألقوا في بئر؛ غير أمية بن خلف أو أبي، تقطعت أوصاله فلم يلق في البئر.

موت أبي طالب

ومن مواقف أبو جهل في الصد عن دين الله ماجرى له مع عم النبي ﷺ عند وفاته، حيث دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل يطمع في إسلامه في لحظاته الأخيرة في هذه الدنيا.

فقال: **«أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»**.

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزال رفيق السوء يكلمه حتى قال آخر ما كلمهم به: على ملة عبد المطلب.

فحزن النبي ﷺ وقال: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣] ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] [رواه مسلم].

رفيق السوء

وفي هذه الحادثة عبرة للحذر من رفقاء السوء، فإن أبا طالب وأبا جهل كبار السن من سادة قريش، قد بلغوا من العمر عتياً، ولهم المكانة في قومهم، ومع هذا كله فإن رفيق السوء أبو جهل لم يزل بأبي طالب يصده عن الدين وينفره من الاستجابة لرسول الله ﷺ حتى مات على الشرك.

سبب عداوة أبي جهل

ولا شك أن أعظم العداوات عداوة الدين، وهذا ظاهر في عداوة قريش للنبي ﷺ وعلى رأسهم فرعون هذه الأمة أبو جهل، ومن أسباب عداوة أبو جهل للنبي ﷺ الحسد وكره ما جاء به.

ومن ذلك أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع منه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً.

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق.

قال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا.

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق.

فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها وأشياء لا أعرفها ولا أعرف ما يراد بها.

فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال ماذا سمعت، تنازعنا نحن وابن عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه.

عقبة بن أبي معيط

وكان من أشد أعداء النبي ﷺ عقبة بن أبي معيط وهو الذي وضع سلى الجزور على رسول الله وهو يصلي.

وقد اشتد أذى قريش للنبي ﷺ بعد موت أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وكان ناصراً له وقائماً في صفه ومدافعاً عنه بكل ما يقدر عليه من نفس ومال ومقال وفعال، بعدها اجترأ سفهاء قريش على رسول الله ﷺ ونالوا منه ما لم يكونوا يصلون إليه ولا يقدرون عليه.

قال عبد الله بن جعفر: لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه تراباً، فرجع إلى بيته فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول: «**أي بنية لا تبكين فإن الله مانع أباك**».

وذكرمن شدة عداوة أبي بن خلف أنه قال لعقبة بن أبي معيط: ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه؛ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك ـ واستغلظ من اليمين ـ إن أنت جلست إليه أو سمعت منه إلا أن تتفل في وجهه، ففعل ذلك عدو الله عقبة ـ لعنه الله ـ، فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨].

قال: ومشى أبي بن خلف بعظم بال قد أرم: فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم، ثم فته بيده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ.

فقال ﷺ: «**نعم! أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك النار**»، وأنزل الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩]. إلى آخر السورة.

أسلوب المداهنة

ورغبت قريش في مداهنة النبي ﷺ ومخادعته فقد اعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف عند باب الكعبة الأسود بن المطلب، والوليدة بن المغيرة وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فأنزل الله فيهم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: ١ ـ ٢] إلى آخرها.

الوليد بن المغيرة

ومن أشد أعداء النبي ﷺ الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان تأثير عدو الله أبو جهل عليه واضحاً لأنهما من بطن واحد وهو بني مخزوم، وهو والد الصحابي خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ.

وكان من أشد المستهزئين بالنبي ﷺ قال الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٦].

ومن مواقفه مع النبي ﷺ للصد عن دين الله تنفير الحجاج والقادمين إلى مكة من سماع حديث النبي ﷺ.

ذكر ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قول بعضكم بعضاً.

فقيل: يا أبا عبد شمس فقل واقم لنا رأياً نقوم به.

فقال: بل أنتم فقولوا وأنا اسمع.

فقالوا: نقول كاهن؟

فقال: ما هو بكاهن رأيت الكهان، فما هو بزمزمة الكهان.

فقالوا: نقول مجنون؟

فقال: ما هو بمجنون ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

فقالوا: نقول شاعر؟

فقال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه؛ فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول هو ساحر؟

قال: ما هو بساحر قد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا بعقده.

قالوا: فما نقول؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن فرعه لجني؛ فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا هذا ساحر، فتقولوا هو ساحر يفرق بين المرء ودينه، وبين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك.

فجعلوا يجلسون للناس حتى قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره.

وأنزل الله في الوليد: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٣].

الآيات المعجزات

والوليد بن المغيرة هو الذي أنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝﴾ [القلم: ١٠].

قال المفسرون: نزلت في الوليد بن المغيرة فقد كان دعيّاً في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة - أي تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يُعرف له أب - قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً، وإنما ذُمَّ بذلك؛ لأن النطفة إذا خبثت خبث الولد، وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة في أعرفها غير التاسع منها يريد أنه ﴿زَنِيمٍ ۝﴾ فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عِنيناً - أي لا يستطيع معاشرة النساء - فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسي فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أنه ابن زنى حتى نزلت الآية.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝﴾ أي لأن كان ذا مال وبنين قال في القرآن ما قال، وزعم أنه أساطير الأولين؟ وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾ أي: إذا قرئت آيات القرآن على ذلك الفاجر قال مستهزئاً ساخراً: إنها خرافات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلى الله، قال - تعالى - ردّاً عليه متوعداً له بالعذاب ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝﴾ أي سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يعرف بها إلى موته، وكنى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستخفاف به، لأن الخرطوم للفيل والخنزير، فإذا شبه أنف

الإنســـان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة كما يعبر عن شـــفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر.

قال ابن عباس: سنخطم أنفه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش، وقد خطم يوم بدر بالسيف.

وقــد هلك الوليد بن المغيرة بعد دعاء الرســول ﷺ عليه بعد أن وضع ســلى الجزور على ظهره ـ عليه الصلاة والســلام ـ فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له فأصاب أنمله فقطعها، فمات من بعد ذلك.

أمية بن خلف

ومن أشد أعداء النبي ﷺ أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمع، كان من ألد أعداء الإسلام وآذى النبي ﷺ وصحابته كثيراً في بداية الدعوة خاصة بلال بن رباح ـ رضي الله عنه ـ.

وهو من كبار المســـتهزئين بالنبي ﷺ. وممن شارك في وضع سلا الجزور على ظهر النبي ﷺ مما جعل الرسول يدعو عليهم، وهلك يوم بدر مع أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهم.

الأسود بن عبد يغوث

ومن المستهزئين بالرسول ﷺ الأسود بن عبد يغوث، من بني زهرة أخوال النبــي ﷺ، كان إذا رأى أصحاب النبي ﷺ مقبلين يقول: قد جاءكم ملوك الأرض، استهزاءً بهم لأنهم متقشفين، ثيابهم رثة، وعيشهم خشن.

وكان يقول لرسول ﷺ سخرية: أما كُلمت اليوم من السماء.

قريش واليهود

لم تفتأ وتكتف قريش بإيذاء النبي ﷺ وأصحابه جسـديّاً ومعنويّاً، بل تعـدى ذلك إلى صد ومنع من أراد الاسـتماع للنبـي ﷺ، ثم نظروا إلى جانب آخر وهو الاسـتعانة باليهود في يثرب وتأليبهم على رسول الله ﷺ لعلهم يجدون عندهم ـ وهم أهل الكتاب ـ ما يعين على محاربة الرسـول ﷺ وبطلان ما يدعيه، فقرروا بعث رجل منهم إلى اليهود في المدينة لينظر الأمر.

النضر بن الحارث

وكان رسـولهم لذلك النضر بن الحارث من شـياطين قريش وممن كان يؤذي رسـول الله ﷺ وينصب له العداوة. وكان من أسفاره أنه قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار.

فكان إذا جلس رسـول الله ﷺ مجلساً فذّكر فيـه بالله، وحـذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله؛ خلفه في مجالسه إذا قام.

وقال: أنا والله يا معشـر قريش أحسـن حديثاً منه، فهلم فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار.

ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟

فلما قال لهم النضر بن الحارث ذلك بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته وأخبراهـم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره وبعض قولـه، وقالا إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم.

أسئلة اليهود

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب.

وسلوه عن رجل طواف طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟

وسلوه عن الروح ما هي؟

فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها.

فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا. فسألوه عما أمروهم به.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أخبركم غداً بما سألتم عنه**» ولم يستثن فانصرفوا عنه.

الاختبار

ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه، وحتى أحزن

رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة.

ثم جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ من الله ـ عز وجل ـ بسورة الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف.

ونزل قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝﴾ [الكهف: ٩].

ثم شرع في تفصيل أمرهم، واعترض في الوسط بتعليمه الاستثناء تحقيقاً لا تعليقاً في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣ـ ٢٤].

ثم ذكر قصة موسى الخضر ثم ذي القرنين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝﴾ [الكهف: ٨٣] ثم شرح أمره وحكى خبره.

ثم أجاب عن سؤالهم الثالث عن الروح؛ بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٨٥].

أبو طالب وأبو لهب

عم النبي ﷺ أبو طالب بن عبدالمطلب شيخ قريش وسيدها، وكان رسول الله ﷺ أحب خلق الله إليه طبعاً، وكان يحنو عليه، ويحسن إليه، ويدافع عنه ويحامي دونه، ويخالف قومه في ذلك؛ مع أنه على دينهم وعلى خلتهم؛ إلا أن الله قد امتحن قلبه بحبه حبّاً طبعيّاً لا شرعيّاً.

وفي عدم إسلام أبو طالب عبر ودروس، فإن النبي ﷺ دعاه دعوة هداية ودلالة، أما هداية التوفيق وشرح الصدر فإنها بيد الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

فالداعي مأمور بالدعوة والقيام بإبلاغ الرسالة، وليس له خلق الهدى في القلب وإيثاره وشرح الصدر والقبول. فإنها إلى الله ـ عز وجل ـ وهو القادر على ذلك.

وكان استمرار أبو طالب على دين قومه من حكمة الله ـ تعالى ـ، ومما صنعه لرسوله من الحماية؛ إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولاجترؤوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، وقد قسم خلقه أنواعاً وأجناساً.

أبو طالب

وقد كان أبو طالب في غاية الشفقة والحنو الطبيعي؛ كما يظهر من صنائعه وسجاياه واعتماده فيما يحامي به عن رسول الله ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

قــال عقيل بن أبي طالب: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا، فانهه عنا.

فقال: يا عقيل! انطلق فأتني بمحمد.

قــال عقيل فانطلقت فاســتخرجته من كنس، أو خنــس ـ يقول: بيت صغير ـ فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فلما أتاهم قال: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم.

فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «**ترون هذه الشمس**».

قالوا: نعم.

قال: «**فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منها بشعلة**».

فقال أبو طالب: والله؛ ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا.

وفي ذلك دلالة على أن الله ـ تعالى ـ عصمه بعمه؛ مع خلافه إياه في دينه، وقد كان يعصمه حيث لا يكون عمه بما يشاء، لا معقب لحكمه.

وفــي تأليب الملأ من قريش على رســول الله ﷺ وأصحابه واجتماعهم بعمــه أبي طالب القائم في منعه ونصرته وحرصهم عليه أن يســلمه إليهم فأبى عليهم، كل ذلك بحول الله وقوته وحفظه وتأييده لرسوله ﷺ.

أبو لهب

أبــو لهب هو عم النبي ﷺ، ولم يراع حق القرابة والرحم فإنه لما مات عبد الله ـ الابن الثاني لرســول الله ﷺ استبشــر أبــو لهب، وذهب إلى المشركين يبشرهم بأن محمداً صار أبتر.

وكان من أذاه أن يجول ويسير خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه وتنفير الناس منه، بل كان يضربه بالحجر حتى يدمي قدمه.

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد من بني الديل ـ وكان جاهليّاً فأسلم ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «**يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**».

والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول، ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب.

فسألت عنه؟ فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

فهذان العمان أخوان كافران: أبو طالب وأبو لهب، ولكن هذا يكون في القيامة في ضحضاح من النار، وذلك في الدرك الأسفل من النار، وأنزل الله في عمه أبي لهب سورة في كتابه تتلى على المنابر، وتقرأ في المواعظ والخطب، تتضمن أنه ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝﴾ [المسد: ٣ـ٤].

وقد ذكر ﷺ جزء مما لاقاه في الحديث الذي رواه أحمد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد أوذيت في الله وما يُؤذَى أحد، وأُخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد؛ إلا ما يواري إبط بلال**».

وفي صبره ﷺ وتحمله الأذى في سبيل نشر هذا الدين والقيام بأمره دروس وعبر للدعاة من أمته، فهو نبي مرسل ويناله هذا الأذى وتصيبه تلك المشقة، ومع ذلك ما تراجع وما استكان. وكلها منارات وعلامات لمن سار على دربه وسلك طريقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

جدال قريش

قريش أهل جــدال وحجة، ولم يكن ذلك الجدال قصداً للحق وإظهاراً له، بل كان تعنتاً ومحاولة للنيل من الرسول ﷺ والمسلمين، وصداً للناس عن الدخول في دين الله. فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا، ولا ما إليه رغبوا؛ لعلم الحق ـ سبحانه ـ أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما أرادوا لاستمروا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يتردَّون.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام:١٠٩ـ١١١].

وقال تعالــى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦ ـ ٩٧].

وقــال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الاسراء: ٩٠ـ٩٣].

انشقاق القمر

اســتمرت قريش في عنادهــا وتعنتها وطلبوا من رســول الله ﷺ آية، فأراهم القمر شــقتين، حتى رأوا جبل حراء بينهما. فقال كفار قريش أهل

مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم، فسئلوا من قدم من كل وجهة: فقالوا: رأينا. وفي هذا قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾ [القمر: ١ ـ ٢].

الصفا ذهباً

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنحيَ عنهم الجبال فيزدرعوا.

فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم قال: «**لا؛ بل أستأني بهم**».

فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝﴾ [الإسراء: ٥٩].

وفي رواية لأحمد عنه قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادعُ لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال: «**وتفعلوا؟**». قالوا: نعم.

قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة. قال: «**بل باب التوبة والرحمة**».

وكان رسول الله ﷺ يطمع في إسلامهم، رغم ما يجد من الأذى والعنت من قريش، وقد أخذ ﷺ في دعوتهم، وبيان الشرك، والإنذار عنه، والتحذير منه، وبيان التوحيد، والدعوة إليه.

التوحيد أولاً

مكث في مكة عشـــر سنين وهو يدعو إلى التوحيد وينذر عن الشرك، قبل فرض الصلاة التي هي عماد الدين، وقبل بقية الشرائع.

وبهذا يتبين أن حقيقة ما بعث به النبي ﷺ ودعت إليه الرسل كلهم، هو الإنذار عن الشـــرك والتحذير منه، والدعوة إلى التوحيد وبيانه وتوضيحه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالـــى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وأخبر الله عن نوح وهود، وصالح وشـــعيب ـ عليهم السلام ـ أن أول شـــيء بدؤوا به أقوامهم أن قالوا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وخاتمهم محمد ﷺ أول شـــيء دعاهم إليه قال لهم: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» [رواه أحمد].

فالنبي ﷺ إنما بعث بالدعوة إلى التوحيد، وذلك لأنه هو أســـاس الملة الذي تبنى عليه، وبدونه لا ينبني شيء من الأعمال.

الأصل

فالتوحيد هو الأصل، وبقية شرائع الدين فرع منه، فإذا زال الأصل زال الفرع، وقد كان ﷺ يدعو إلى التوحيد وينذر عن الشـــرك عشر سنين قبل أن تفرض عليه الفرائـــض، وهذا يدل على أن التوحيد أوجب الواجبات، ومعرفتـــه أفرض الفرائض. وهناك من الناس من يظن أن التشـــدد في أمر التوحيد يخص بفئة من العلماء قالت بذلك.

والله ـ عز وجل ـ هو الذي شدد في ذلك وحذر وأنذر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨] في موضعين من كتابه الكريم.

وقال على لسان المسيح لبني إسرائيل ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فلأجل توحيد الله ـ عز وجل ـ وإفراده بالعبادة، خلقت الخليقة، ولتحقيقه شرعت كل عبادة، فالتوحيد هو الغاية العظمى والهدف الأسمى، والمقصد الأسنى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ١٥].

وما دعا داع إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وإفراده بالعبادة، وسعى في نشره، إلا رفع الله قدره في الدنيا والآخرة. والأنبياء منارات في هذا الأمر، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن تدبر أحوال العالم وجد كل سلاح في الأرض فيه توحيد الله وعبادته وطاعته، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدد وغير ذلك فسببه مخالفة الرسول والدعوة إلى غير الله. ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه عموماً وخصوصاً.

أذى المسلمين

لم يقف أمر الأذى والاستهزاء برسول الله ﷺ وحده؛ بل تعداه إلى كل من أسلم ودخل في دين الله.

فقد عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، خاصة من استضعفوه منهم ليفتنونهم عن دينهم. فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، فمنهم من يُفتن من شدة البلاء الذي يصيبهم، ومنهم من يصلُب لهم، ويعصمه الله منهم.

وفي حديث ابن مسعود أن أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد.

الرسول وأبو بكر

فأما رسول الله فمنعه الله بعمه، وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا؛ إلا بلالاً؛ فإنه هانت عليه نفسه في الله - تعالى -، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد.

آل عمار

وكذلك ما جرى لعمار بن ياسر وأهله من النكال والتعذيب. حتى رق لهم النبي ﷺ ورحمهم، فعن جابر: أن رسول الله ﷺ مر بعمار وأهله وهم يعذبون، فقال: «**أبشروا آل عمار وآل ياسر! فإن موعدكم الجنة**» [رواه البيهقي].

خباب

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعاً من التنكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذباً، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وقد ألقوه على النار، ثم سحبوه عليها فما أطفأها إلا ودك ظهره.

وقال ـ رضي الله عنه ـ عن نفسه: لم يكن أحد يمنعني، فلقد رأيتني يوماً أخذوني، وأوقدوا لي ناراً، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري ما اتقيت الأرض أو برد الأرض إلا بظهري.

أبو فكيهة

وكان أبو فكيهة، واسمه أفلح ـ مولى لبني عبدالدار ـ فكانوا يبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون عليه صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل. وقد ربطوا رجله بحبل وجروه، وألقوه في الرمضاء وخنقوه، حتى ظنوا أنه مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله.

وكان المشركون يلفون من أسلم في إهاب الإبل والبقر، ثم يلقونه في حر الرمضاء، ويلبسون بعضاً آخر درعاً من حديد، ثم يلقونه على صخرة ملتهبة.

ولا شك أن كل من أسلم ناله نصيب من التعذيب والاستهزاء والسخرية والبطش والتنكيل.

شدة الأذى

ومن شدة ما يجد الصحابة من الأذى ومما نزل بهم من التعذيب اشتكوا ذلك للنبي ﷺ.

قال خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «**لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب؛ ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتِمّنَّ الله هذا الأمر؛ حتى يسير الراكب من (صنعاء) إلى (حضرموت) ما يخاف إلا الله ـ عز وجل ـ: والذئب على غنمه**».

وفي رواية: «**ولكنكم تستعجلونه**».

وقد صدق رسول الله ﷺ وهذا من معجزاته، فلم تمر سنوات حتى سار الراكب من صنعاء إلى حضرموت آمناً مطمئناً.

وبين حديث الرسول ﷺ ويومنا هذا أربعة عشر قرناً فيها دروس وعبر لمن سار على نهجه، واقتفى أثره في دعوة الناس، والصبر عليهم، والشفقة بهم، والرحمة لهم ابتغاء ثواب الله وجزاءه.

الهجرة الأولى إلى الحبشة

في أواخر السنة الرابعة من النبوة بدأت تزداد حمأة التعذيب والاضطهاد بالمسلمين، ثم لم تزل تشتد حتى نبا بهم المقام في مكة من شدة ما يلاقونه، فأذن لهم رسول الله ﷺ وأشار عليهم بالهجرة الأولى إلى الحبشة. وقال لهم مشجعاً: «**إن بها ملكاً لا يظلم الناس**».

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة، فيهم اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهم ـ ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ.

وقد قال ﷺ فيهما: «**إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ**».

خرج القوم سرّاً متسللين في ظلمة الليل، بعيداً عن العيون والرصد، منهم الراكب والماشي؛ حتى انتهوا إلى الشعيبة على ساحل البحر الأحمر.

ووفق الله ويسر للمسلمين ساعة جاؤوا إلى الساحل سفينتين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار.

أمر قريش

ولما علمت قريش خرجت وجدّت في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحد. وانطلق المهاجرون عبر عباب البحر و أمواجه حتى وطئوا أرض الحبشة فنزلوا بها آمنين مطمئنين، وأقاموا في أحسن جوار.

ولم يمكث المهاجرون طويلاً، فقد بلغتهم الأخبار بعد ثلاثة أشـــهر بأن أهل مكة قد أسلموا، خاصة أنه بلغهم إسلام عمر ـ رضي الله عنه ـ عندها قرروا العودة إلى مكة في شوال من نفس السنة.

وعندما وصلوا إلى الســـاحل، واقتربوا من مكة علموا بأن الذي بلغهم غيـــر صحيح، وعلموا أن نار العداوة ما زالت مشـــتعلة، فرجع منهم من رجع إلى الحبشة، ومن دخل منهم مكة دخلها مستخفياً، أو في جوار رجل من قريش.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

عندما عاد بعض المسلمين إلى مكة ممن هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، ووجدوا أن الابتلاء الواقع على المسلمين أشد مما كان، وأن قريشاً استطالت وزاد أذاهم لمن أسلم خاصة للمستضعفين من المؤمنين، وما كانوا يعاملونهم به من الضرب الشديد والإهانة البالغة. وكان الله ـ عز وجل ـ قد حجزهم عن رسول الله ﷺ، ومنعه بعمه أبي طالب.

عندها أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة ثانية إلى بلاد الحبشة فراراً بدينهم من الفتنة لشدة ما يلاقون من الأذى.

وقال لهم ﷺ: «**إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه**».

فهاجر نحواً من ثمانين رجلاً، فيهم: عبدالله بن مسعود، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن عرفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ، فأتوا النجاشي وأقاموا عنده وفي جواره.

مطاردة قريش لهم

ولم يقر قرار قريش بأمر هذه الهجرة، بل تتبعوا المهاجرين وسعوا في عودتهم وتأليب النجاشي عليهم، وأرسلوا وفداً لملاحقتهم وطلبهم؛ فيه عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وجعلوا معهم الهدايا.

قالت الصحابية المهاجرة أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله ـ تعالى ـ لا نؤذى ولانسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ قريشاً ائتمروا بينهم أن

يبعثوا إلى النجاشـي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة.

وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم [وهي الجلود] فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية.

ثـم قدموا للنجاشـي هداياه، وقالوا له: أيها الملك إن فتية منّا سـفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجؤوا إلى بلادك، وقد بعثنا إليك فيهم عشـائرهم؛ آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فإنهم أعلم بهم عيناً، فإنهم لن يدخلوا في دينك فتمنعهم لذلك.

فغضـب، ثم قال: لا لعمر الله لا أردهم عليهم حتى أدعوهم فأكلمهم وأنظـر ما أمرهم؛ قوم لجـؤوا إلى بلادي، واختاروا جـواري على جوار غيـري، فإن كانوا كما يقولون رددتهم عليهـم، وأن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أدخل بينكم وبينهم، ولم أَنْعَم عيناً.

فدعاهم النجاشـي ليسـمع منهم. فلمـا دخلوا عليـه سـلمـوا ولم يسجدوا له.

فقـال: أيها الرهط! ألا تحدثوني ما لكم لا تحيوني كما يحييني من أتانا من قومكم؟! فأخبروني ماذا تقولون في عيسى؟ وما دينكم؟

أنصارى أنتم؟

قالوا: لا.

قال: أفيهود أنتم؟

قالوا: لا.

قال: فعلى دين قومكم؟

قالوا: لا.

قال: فما دينكم؟

قالوا: الإسلام.

قال: وما الإسلام؟

قالوا: نعبد الله لا نشرك به شيئاً.

قال: من جاءكم بهذا؟

قالوا: جاءنا به رجل من أنفسنا، قد عرفنا وجهه ونسبه، بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا، فأمرنا بالبر والصدقة، والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان، وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له، فصدقناه، وعرفنا كلام الله، وعلمنا أن الذي جاء به من عند الله، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا، وعادوا النبي الصادق، وكذبوه، وأرادوا قتله، وأرادونا على عبادة الأوثان، ففررنا إليك بديننا ودمائنا من قومنا.

قال: والله؛ إن هذا لمن المشكاة التي خرج منها أمر موسى.

قال جعفر: وأما التحية؛ فإن رسول الله ﷺ أخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام، وأشرنا بذلك، فحييناك بالذي يحيى بعضنا بعضاً.

وأما عيسى ابن مريم؛ فعبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وابن العذراء البتول.

فأخذ عوداً، وقال: والله، ما زاد ابن مريم على هذا وزن هذا العود.

فقال عظماء الحبشة: والله؛ لئن سمعت الحبشة لتخلعنك.

فقال: والله؛ لا أقول في عيسى غير هذا أبداً، وما أطاع الله الناس فيَّ حين رد عليّ ملكي؛ فأطيع الناس في دين الله؟! معاذ الله من ذلك!

وفي رواية أخرى: فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم، ولم يكن شيء أبغض لعمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم.

فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم فقالوا: ماذا تقولون؟

فقالوا: وماذا نقول؟! نقول ـ والله ـ ما نعرف وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا ﷺ كائن من ذلك ما كان.

فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية!

دين الإسلام

فقال له جعفر: أيها الملك كنا قوماً على الشرك نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، يستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نُحلل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبيّاً من أنفسنا، نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الأرحام، ونحمي الجوار، ونصلي لله ـ عز وجل ـ، ونصوم له، ولا نعبد غيره.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قال: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده لا شريك له، ولم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا.

فعـــدا علينا قومنا، فعذبونا ليفتنونا عن ديننا، ويردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونـــا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من ســواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك!

فقال النجاشي: هل معك شيء مما جاء به؟

فقرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، فبكى ـ والله ـ النجاشي حتى اخضَلَّتْ لحيته، وبكت أســاقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهــم.

ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى؛ انطلقوا راشدين، لا والله؛ لا أردهم عليكم، و لا أنعمكم عيناً.

فخرجنا من عنده، وكان أبقى الرجلين فينا عبدالله بن أبي ربيعة.

الفجور

فقـــال عمرو بن العاص: والله؛ لآتينه غداً بما أســـتأصل به خضراءهم، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد ـ عيسى ابن مريم ـ عبد!

فقـــال له عبدالله بن أبي ربيعـــة: لا تفعل؛ فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً، ولهم حقّاً.

فقال: والله لأفعلن.

فلما كان الغد دخل عليه، فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه.

فبعث ـ والله ـ إليهم، ولم ينزل بنا مثلها.

فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون في عيسى إن هو سألكم عنه؟

فقالــوا: نقول ـ والله ـ الذي قاله الله فيــه، والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه.

فدخلوا عليه وعنده بطارقته، فقال: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر: نقول: هو عبدالله ورســوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فدلى النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عوداً بين إصبعيه، فقال: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العويد.

فتناخرت بطارقته، فقال: وإن تناخرتم والله!

اذهبوا فأنتم شــيوم في الأرض، أي: الآمنون في الأرض، من ســبكم غرم، من ســبكم غرم، من ســبكم غرم ثلاثاً، ما أحب أن لي دَبْراً ـ أي ذهباً ـ وأني آذيت رجلاً منكم.

وهكذا رد الله كيد قريش في نحرها، ومكث المســلمون ما شاء الله لهم في أمن وطمأنينة، ثم بعد حين عاد من عاد منهم بعد هجرة المســلمين إلى المدينــة وقبل وقعة بــدر، وهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثماني نســوة، وعاد الباقون مع جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عندما فرغ رســول الله ﷺ من فتح خيبر في العام السابع الهجري.

من أذى وجدال قريش

بعد أن دعى النبـي ﷺ قراباته ومن حوله، بدأ يصدع بالدعوة ويعلنها على الملأ وفي المجتمعات، واســتمر رسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وســرّاً وجهاراً، منادياً بأمر الله ـ تعالى ـ، لا يتقي فيه أحداً من الناس.

فجعلت قريش حين منعه الله منها ـ وقام عمه وقومه من بني هاشم وبني عبدالمطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به فبقوا يهمزونه، ويستهزؤون به ويخاصمونه ويحذرون الناس منه.

وجعل القــرآن ينزل في قريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته، منهم من سمى لنا، ومنهم من نزل القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار.

فذكر ابن إســحاق أبا لهب ونزول الســورة فيه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد]، والعاص بن وائل ونزول قوله ـ تعالى ـ فيه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم:٧٧].

وأبا جهل بن هشــام، وقوله للنبي ﷺ: لتتركن ســب ألهتنا أو لنسبن إلهك الذي تعبد. ونزول قول الله فيه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [الأنعام:١٠٨].

حصب جهنم

وجلس الرســول ﷺ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر ابن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش.

فتكلم رســول الله ﷺ، فعرض له النضر، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ

جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٠].

ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبدالله بن الزِّبَعْرَى السهمي حتى جلس.

فقال الوليد بن المغيرة له: والله؛ ما قام النضر بن الحارث لابن عبدالمطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمداً أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم!

فقال عبدالله بن الزِّبَعْرَى: أما ـ والله ـ لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل من يعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى.

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعرَى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ... فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ـ١٠٢]؛ أي: عيسى ابن مريم، وعزيراً، ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ـ تعالى ـ.

ونزل ـ فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله ـ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ٢٩].

ونزل في إعجاب المشركين بقول ابن الزِّبَعْرَى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ـ٥٨].

وهذا الجدل الذي سلكوه باطل، وهم يعلمون ذلك؛ لأنهم قوم عرب، ومن لغتهم أن (ما) لما لا يعقل، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾: إنما أريد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صور أصنام، ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور، ولا المسيح، ولا عزيراً، ولا أحداً من الصالحين؛ لأن الآية لا تتناولهم لا لفظاً ولا معنى.

عيسى ـ عليه السلام ـ

فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدل باطل؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: بنبوتنا، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩]؛ أي: دليلاً على تمام لقدرتنا على ما نشاء، حيث خلقناه من أنثى بلا ذكر، وقد خلقنا حواء من ذكر بلا أنثى، وخلقنا آدم لا من هذا، ولا من هذا، وخلقنا سائر بني آدم من ذكر وأنثى؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]؛ أي: أمارة ودليلاً على قدرتنا الباهرة، ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ نرحم بها من نشاء.

سيدا قريش وثقيف

وذكر أن الوليد بن المغيرة قال: أَيُنْزَلُ على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمرو الثقفي سيد ثقيف؟! فنحن عظيما القريتين. ونزل قوله ـ تعالى ـ فيه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١ـ٣٢].

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: قد نعلم يا محمد! أنك تصل الرحم، وتصدق الحديث، ولا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به. فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

أبو معيط

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلاً حليماً، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبأ أبو معيط.

وقدم خليله من الشام ليلاً، فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشد مما كان أمراً.

فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبأ.

فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه، فلم يرد عليه التحية. فقال: ما لك لا ترد عليَّ تحيتي؟

فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟!

قال: أو قد فعلتها قريش؟! قال: نعم.

قال: فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلت؟

قال: تأتيه في مجلسه، وتبزق في وجهه، وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم!

ففعل، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البزاق، ثم التفت إليه فقال: «**إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً**».

فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج.

فقال له أصحابه: اخرج معنا.

قال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً.

فقالوا: لك جمل أحمر لا يُدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه.

فخـــرج معهم، فلما هزم الله المشـــركين، وحل بـــه جمله في جدد من الأرض؛ فأخذه رسول الله ﷺ أسيراً في سبعين من قريش، وقدم إليه أبو معيط، فقال: تقتلني من بين هؤلاء؟

قال: «نعم؛ بما بزقت في وجهي».

فأنزل الله فـــي أبي معيـــط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

عند الصفا

وكان رسول الله ﷺ يجلس عند المروة إلى مبيعة غلامٍ نصراني يقال له: جبر؛ عبد لبني الحضرمي، وكانوا يقولون: والله؛ ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر.

فأنزل الله ـ تعالى ـ في ذلك من قولهم: ، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

المستهزئون

وقـــد وقى الله ـ عز وجل ـ نبيه محمد ﷺ شـــر المســـتهزئين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٥].

قال ابن عباس: المســـتهزئون: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأســـود بن المطلب أبو زمعة، والحارث بن عيطل، والعاص بن وائل السهمي.

فأتاه جبريل، فشكاهم إليه رسول الله ﷺ، فأراه الوليد، فأشار جبريل إلى أكحله، وقال: كُفِيتَهُ.

ثم أراه الأسود بن المطلب، فأومأ إلى عينيه، وقال: كُفِيتَهُ.

ثم أراه الحارث بن عاطل، فأومأ إلى بطنه، وقال: كفيته.

ومر به العاص بن وائل، فأومأ إلى أخمصه، وقال: كفيته.

فأما الوليد؛ فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له، فأصاب أكحله، فقطعها.

وأما الأسود بن عبد يغوث؟ فخرج في رأسه قروح، فمات منها.

وأما الأســود بن المطلب فعمي، وكان سبب ذلك أنه نزل تحت سمرة، فجعل يقول: يا بَنِيَّ! ألا تدفعون عني؟ قد قتلت.

فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً.

وجعــل يقول: يــا بَنِيَّ! ألا تمنعون عني؟ قد هلكــت! هاهو ذا الطعن بالشوك في عيني.

فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً. فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه.

وأما الحارث بن عيطل؛ فأخذه الماء الأصفر في بطنه؛ حتى خرج خرؤه من فيه؟ فمات منها.

وأما العاص بن وائل؛ فبينما هو كذلك يوماً؛ إذ دخل في رجله شِــبْرِقة حتى امتلأت منها؟ فمات منها.

تكبر المشركين

وعــن خباب قال: جاء الأقــرع بن حابس التميمــي وعيينة بن حصن الفَزاري، فوجدوا رســول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حَقَرُوهم، فأتــوه فخلوا به، قالوا: إنا نريد أن تجعل لنا مجلســاً تعرف لنا به العرب فضلنا؛ فإن وفود العرب تأتيك، ونستحي أن ترانا العرب مع هذه الأَعْبُد!

فـإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شـئت.

قال: «نعم».

قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً.

قال: فدعا بصحيفة، ودعا علياً ليكتب ـ ونحن قعود في ناحية ـ فنزل جبرائيـل ـ عليه السـلام ـ فقـال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فألقى رسـول الله ﷺ الصحيفة من يده ثم دعانا.

قال: فدنونـا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبتـه، وهو يقول: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾.

قال خبـاب: فكنا نقعد مع النبـي ﷺ، فإذا بلغنا السـاعة التي يقوم فيها؛ قمنا وتركناه حتى يقوم.

تنزل الآيات

وكانت الآيات تتنزل على رسـولنا ﷺ فـي الإحداث والوقائع المهمة، مبينة الأحكام، وأسباب النصر والمواساة، وآيات الرحمة والتوبة وغيرها.

ومما كان يتنزل في الوقائع المشـهورة؛ منها نزلت سورة الأنفال في غزوة بدر، وبعدها وقعة قينقاع، ثم وقعة أحد نزلت فيها الآيات التي في سورة آل عمران، وفي بني النضير نزلت الآيات في سورة الحشر، ثم في الخندق

نزلت فيها الآيات في سورة الأحزاب، ثم وقعة الحديبية وفتح خيبر ونزلت فيها الآيات في سورة الفتح. وفتح مكة وغزوة حنين وأنزل الله فيها سورة النصر.

وذكر - عز وجل - حنين في سورة براءة وغزوة تبوك كذلك.

وهكذا كانت الآيات نوراً يستضاء به، وفرقاناً يهتدى به.

عزم الصديق على الهجرة إلى الحبشة

للصديق ـ رضى الله عنه ـ منزلة عظيمة عند رسول الله ﷺ وعند المسلمين، وله القدح المعلى والسهم الأوفر في نصرة هذه الدين والقيام به دعوة وإنفاقاً وصبراً وجهاداً. وهو رفيق درب النبي ﷺ وصاحبه في الغار، وله المآثر والمناقب المعلومة.

ولهذا ناله الأذى وصوبت نحوه السهام وبلغه من العنت والشدة الشيء الكثير، وحين ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى؛ استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة؟ فأذن له.

جوار ابن الدغنة

تقول ابنته عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ: لم أعقل أبواي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار؛ بكرة وعشية. فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ بَرك الغِماد لقيه ابن الدَّغنة، وهو سيد القارة.

فقال: أين تريد يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي.

فقال ابن الدَّغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخْرُجُ، ولا يُخْرَجُ مِثْلُهُ، إنك تُكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتَقْرِي الضيف، وتعين

على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلدك.

فرجـع وارتحل معه ابن الدَّغِنة، وطاف ابن الدغنة في أشـراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ ولا يُخْرَجُ، تخرجون رجلاً يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكَلَّ، ويَقْرِي الضيف، ويعين على نوائب الحق؟!

فلم تكذِّب قريش بجوار ابن الدَّغِنة.

وقالـوا لابن الدَّغِنة: مـر أبا بكر فليعبد ربه فـي داره، وليصلِّ فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعين به، فإنا نخشى أن يَفْتِنَ نساءنا وأبناءنا.

فقال ابن الدَّغِنة ذلك لأبي بكر.

فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يسـتعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره.

صلاة أبي بكر

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيجتمع عليه نساء المشركين وأبناؤهم؛ يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكَّاءاً لا يملك عينه إذا قرأ القرآن.

فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدَّغِنة، فقدم عليهم، فقالـوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك؛ فابتنى مسـجداً بفنـاء داره، فأعلن الصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشـينا أن يفتتن أبناؤنا ونساؤنا، فانْهَهُ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسـله أن يرد عليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدَّغِنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي قد عاقدتك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنى أُخفرتُ في رجل عقدتُ له.

فقال أبو بكر: فإني أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله ـ عز وجل ـ.

من معجزات الرسول ﷺ

ظل ﷺ يدعو قريشاً لا يتردد ولا يتراجع حتى لقي منهم العنت والمشقة، فلما رأى ﷺ من الناس إدباراً واستعصت قريشاً على رسول الله ﷺ، وأبطؤوا عن الإسلام؛ دعا عليهم وقال: «**اللهم! أَعِنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف**».

فأصابتهم سَنَةٌ حتى حَصَّتْ كلَّ شيء، فأكلوا الجيف، وأكلوا الميتة والجلود والعظام.

وحتى أن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فجاء أبو سفيان وناس من أهل مكة إلى الرسول، فقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة، وإن قومك قد هلكوا؛ فادع الله لهم.

فدعا رسول الله ﷺ، فانحدرت السحابة عن رأسه، فَسُقِيَ الناس حولهم. فأطبقت عليهم سبعاً، فشكا الناس كثرة المطر، فقال: «**اللهم! حوالينا ولا علينا**».

وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٥].

قال: فعادوا فكفروا، فَأُخِّرُوا إلى يوم بدر.

وقد مضت آية الدخان، وهو الجوع الذي أصابهم، وذلك قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٥].

الروم وفارس

وقد كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس ويترقبون ذلك؟ لأنهم أهل الكتاب.

وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؟ لأنهم أهل أوثان.

فذكر ذلك المسلمون لأبي بكر، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ، فقال: «**أَمَا إنهم سيظهرون**».

فذكر ذلك أبو بكر للمشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً؛ إن ظهروا كان لك كذا وكذا، وأن ظهرنا كان لنا كذا وكذا. فجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا.

فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فقال: «**ألا جعلته ـ أراه قال: ـ دون العشر؟**». فظهرت الروم بعد ذلك.

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ قصة فارس والروم في قوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: ١ـ٥].

الدعاء

لما استنفذ رسول الله ﷺ وسائل الدعوة وصبر على الأذى من قريش، دعا عليهم بالجوع والقحط لعلهم يرجعون، وفي أمرهم يتفكرون، ولربهم يوحدون.

أما قبيلة دوس فقد دعا لهم بالهداية، فقد جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى مكة، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في دَوْس، فاجتمع به أشراف قريش، وحذروه عن رسول الله ﷺ، ونهوه أن يجتمع به، أو يسمع كلامه، وكان

ذلك صدّاً عن سماع الحق قبل أن يبلغه، وبذل ﷺ الأسباب العظيمة في سبيل هداية الطفيل ومن معه.

فلما قدم الطفيل وأصحابه على رسول الله ﷺ قال: إن دوساً قد استعصت وأبت، فادع الله عليهم. فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ورفع يديه، فقال الناس: هلكوا، قال: «**اللهم! اهد دوساً، وائت بهم، اللهم اهد دوساً، وائت بهم**».

فهداهم الله ـ عز وجل ـ وأتى بهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إسلام حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ

لا زالت قريش تعلن الحرب على المسلمين وتضطهدهم وتعذب من استطاعت منهم، ورغم ذلك لم يقف انتشار الإسلام، ولم يمنع ذلك دخول صناديد قريش في الإسلام.

وفي هذه الجو المشحون بالأحقاد على المسلمين عامة والرسول ﷺ خاصة، شاء الله ـ عز وجل ـ أن يكون حقد أبي جهل على الرسول ﷺ سبباً في إثارة حمية حمزة عم النبي ﷺ ودخوله في الإسلام، وهو أحد أشداء قريش وبطل من أبطالها وصنديد من صناديدها.

سبب إسلامه

وكان من سبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره.

فلم يكلمه رسول الله ﷺ ولم يرد عليه، وكانت هناك امرأة تسمع ما جرى وترى ما حدث وهي مولاة لعبد الله بن جدعان قابعة في مسكن لها.

ثم انصرف أبو جهل إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له. وكان إذا رجع من قنصه لم يذهب إلى أهله حتى يطوف بالكعبة.

وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم.

وكان أعز فتى في قريش وأشده شكيمة. فلما مر بمولاة عبد الله بن جدعان وقد رجع رسول الله إلى بيته أخبرته بما سمعت وشاهدت، وقالت: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجده ههنا جالساً فآذاه وشتمه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

فاحتمل حمزة الغضب وأدركته الحمية لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف لأحد، معدّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا على دينه أقول ما يقول؛ فرد عليَّ إن استطعت.

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل.

فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً.

الهداية

قال حمزة: لما حملني الغضب وقلت أنا على قوله، أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي، وبت من الشك في أمر عظيم لا أكتحل بنوم.

ثم أتيت الكعبة وتضرعت إلى الله أن يشرح صدري ويذهب عني الريب، فما استتممت دعائي حتى زال عني الباطل وامتلأ قلبي يقيناً.

فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمري، فدعا لي أن يثبتني الله.

وكان إسلام حمزة ـ رضي الله عنه ـ بعد دخول الرسول ﷺ دار الأرقم في السنة السادسة من النبوة، وقد علمت قريش من إسلام حمزة أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنع عنه الأذى، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالونه منه.

إسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

كان دخول الرجال الأفذاذ في الإسلام نصراً وفتحاً وعزّاً وتمكيناً، ومن هؤلاء الرجال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ثاني الخلفاء وفاروق هذه الأمة، الذي نصر الله به الدين، وفتح الفتوح، وأرسى دعائم الدولة، ونظم أمورها ورتب دواوينها.

فبعد إسلام حمزة ـ رضي الله عنه ـ بثلاثة أيام؛ أسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وكان ﷺ يحرص على إسلام كل أحد، وكان يدعوا لمن يتوسم فيه نفع الإسلام والمسلمين؛ ومن ذلك دعائه المعروف حيث قال ﷺ: **«اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام»** [رواه الترمذي].

الفاروق

قال ابن عباس: قلت لعمر: لأي شيء سميت «الفاروق؟».

قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، فخرجت فإذا فلان المخزومي، فقلت له: أرغبت عن دين آبائك واتبعت دين محمد؟

فقال: إن فعلت فقد فعله من هو أعظم عليك حقّاً مني.

قلت: من ذلك؟

قال: أختك وختنك.

فانطلق عمر إلى داره يريد أن يستوثق من الأمر ويعلم الخبر، فوجد همهمة في بيته وصوتاً، فدخل فقالت: ما هذا؟

فمـا زال الكلام يتردد بينـه وبين أخته حتى أخذ بـرأس أختيّه فضربه وأدماهن وآذاهن.

فقامـت إليـه أخته فأخذت برأسـه فقالت: وقـد كان ذلك على رغم أنفك.

فاستحى عمر حين رأى الدماء. فجلس فقال: أروني هذا الكتاب.

فقالت له: إنه لا يمسه إلا المطهرون.

فقام فاغتسل، فأخرجوا له صحيفة فيها ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فقال: أسماء طيبة طاهرة ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طـه: ١ ـ ٨] فتعظمـت الآيات في صدره، فقال: ما هذا من كلام قريش. فأسلم ـ رضي الله عنه ـ.

إلى دار الأرقم

فذهب إلى رسول الله ﷺ وكان في دار الأرقم مع الصحابة.

يقـول عمر: فأتيته فضربت الباب فاسـتجمع القوم. وقال لهم حمزة: مالكم؟ قالوا: عمر.

قال: وعمر، افتحوا له الباب، فإنه إن أقبل قبلناه، وإن أدبر قتلناه.

فسـمع ذلك رسـول الله ﷺ، فخرج، فتشـهد عمر، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد.

ثم ما كان من صاحب القوة والشكيمة إلا أن رفع هامته بهذا الدين.

وقال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟

قال: بلى.

قلت: ففيم الاختفاء؟

فخرجنـــا في صفين: أنا في أحدهمـــا، وحمزة في الآخر، حتى دخلنا المســـجد، فنظرت قريش إليَّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شـــديدة. فسماني رسول الله ﷺ «الفاروق» يومئذ.

وفـــي روايـــة أنس فكبر رســـول الله ﷺ تكبيرة عرف أهـــل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم.

وكان عمر ذا شـــكيمة لا يرام، فلما أســـلم امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة ـ رضي الله عنهما ـ.

قال ابن مســـعود: إن إســـلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر؛ قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه.

وعن ابن عباس قال: أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب. وكان ذا شكيمة وقوة وأنفه.

القوة في الحق

ولما أسلم ـ رضي الله عنه ـ تذكر أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ فإذا هو أبو جهل فســـار إليه ثم ضرب عليه بابه فخرج، وقال: أهلاً وســـهلاً، وما جاء بك؟

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمـــد، وصدقت بما جاء به، فضرب أبو جهـــل الباب في وجهه وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به.

وعن عمر أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رســـول الله! إني لا أدع مجلســـاً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام.

فأتى المسجد، وفيه بطون قريش متحلقة، فجعل يعلن الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فثار المشركون، فجعلوا يضربونه ويضربهم، فلما تكاثروا خلصه رجل.

فقلت لعمر: من الرجل الذي خلصك من المشركين؟ قال: ذاك العاص ابن وائل السهمي.

وقد كان إسلام عمر ـ رضي الله عنه ـ في السنة السادسة من النبوة، وذلك بعد خروج مَنْ خرج مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة. وله سبع وعشرون سنة، وكان من أشراف قريش، فكانوا إذا أرادوا حرباً بعثوه رسولاً، وإذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر أرسلوه له منافراً ومفاخراً.

وفي الصحيح عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر اجتمع الناس إليه عند داره وقالوا: صبأ عمر، وأنا غلام فوق ظهر بيتي. فجاء رجل عليه قباء من ديباج فقال: صبأ عمر فما ذاك؟ فأنا له جار.

قال فرأيت الناس تصدعوا عنه، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا العاص ابن وائل.

رقة من عمر

وقد ذكرت أم عبدالله بنت أبي حَثْمَة موقفاً لعمر قبل إسلامه حيث قالت: والله؟ إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر، فوقف وهو على شركه، وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا.

فقال: إنه الانطلاق يا أم عبدالله؟

قلت: نعم؛ والله لنخرجن في أرض من أرض الله ـ إذ آذيتمونا وقهرتمونا ـ حتى يجعل الله لنا مخرجاً.

فقال: صحبكم الله. ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا.

قالت: فجاء عامر بحاجتنا تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله! ولو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا.

قال: . أَطَمِعْتِ في إسلامه؟ قلت: نعم.

قال: لا يُسلمِ الذي رأيت حتى يُسلم حمار الخطاب!

قال ذلك يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام، والله ـ عز وجل ـ يهدي من يشاء من عباده.

مساومة قريش

بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ قوي أهل الإسلام وأظهروا دينهم، فلما رأت قريش أن أمر رسول الله ﷺ يتزايد ويقوى، ساءهم ذلك ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى للمفاوضة رغبة في مساومة النبي ﷺ وترك ما يدعوا إليه.

فقالوا: يا أبا طالب، إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلة، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوته.

فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إن قومك جاؤوني وقالوا لي كذا وكذا ـ للذي كانوا قالوه له ـ فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بدء، وأنه خاذله ومسلمه، وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه.

فقال له رسول الله ﷺ: **«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه»**.

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام.

فلما ولى ناداه أبو طالب: أقبل يا ابن أخي.

فأقبل عليه رسول الله ﷺ.

فقال: أقبل يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

المساومة

واتجهت قريش لمساومة أخرى ظنوا أنها قد تنفع وتجدي في صرف النبي ﷺ عن دعوته.. فإن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة ابن الوليد فقالوا له: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل كرجل.

قال: والله لبئس ما تسومونني، تعطونني ابنكم أغذيه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا ما لا يكون أبداً.

فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فقال: والله ما أنصفتموني، ولكن قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لك.

فحقب الأمر وحميت الحرب وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضاً.

ثم بعد ذلك الحديث توالت قريش إيذاء المسلمين، واتفقوا مع القبائل أن تتولى كل قبيلة من أسلم منها، تعذبه وتفتنه عن دينه.

ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني عبد المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، إلا ما كان من أبي لهب وولده فإنهم ظاهروا قريشاً على قومهم.

الحصار في الشعب

بدأ الإسلام ينتشر في أوساط أشراف مكة وزعمائها؛ خاصة عندما أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ.

فقد امتنع بهم المسلمون وعز بهم الإسلام، وعندها نهضت قريش وبلغ منه مبلغها من محاربة الرسول ﷺ والسعي في إيذائه والنيل منه، حتى سعوا وأجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، وكانت تلك نهاية محاولاتهم وأغلى مطالبهم.

فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني عبد المطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله، فمنهم من فعل ذلك حمية، ومنهم من فعل ذلك إيماناً ويقيناً.

المقاطعة

فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا أن يعلنوا المقاطعة العامة وأن يكتبوا كتاباً على بني هاشم وبني عبد المطلب ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوا منهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ولا يقبلوا منهم صلحا أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

وكتبو ذلك في صحيفة بخط منصور بن عكرمة، وقيل بغيض بن عامر، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده.

ثم أنهم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وكان ذلك في سنة سبع من البعثة.

وانحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب مسلمهم وكافرهم إلى أبي طالب

فدخلوا معه شعبه، فأقاموا على ذلك ثلاث سنين، واشتد عليهم الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً.

وكانوا لا يخرجون من الشعب لشراء حوائجهم إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم الأثمان حتى لا يتمكنوا من شرائها.

وقطعت قريش عنهم الأسواق حتى بلغهم الجهد وأكلوا الأوراق والجلود، وكان يسمع أصوات نسائهم وأبنائهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، واشتدوا على من أسلم ممن لم يدخل الشعب، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً.

الخوف على الرسول

وكان أبو طالب، من شدة حرصه على ابن أخيه محمداً ﷺ إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد قتله، فإذا نام الناس أخذ أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم.

وقد سخَّر الله ـ عز وجل ـ أبو طالب عم النبي ﷺ لمناصرته والدفاع عنه، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: إن الله قد امتحن قلبه بحب النبي محمد ﷺ حبّاً طبيعيّاً لا شرعيّاً. وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله ـ تعالى ـ، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولتجرؤوا عليه، ومدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

النبي يدعوا

وفـي أثناء هذه المقاطعة وهذا الظلم الظاهر لم يتوقف ﷺ عن الدعوة، فقد كان يخرج في المواسم، ويلتقي القادمين على مكة، ويعرض عليهم الإسلام، ويعرض ذلك على كل من يتصل به من قومه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في وصف ما عاناه النبي ﷺ:

واختيار النبي ﷺ له ولأهله الاحتباس في شعب بني هاشم بضع سنين. لا يبايعون ولا يشارون؛ وصبيانهم يتضاغون من الجوع، قد هجرهم وقلاهم قومهم. وغير قومهم. هذا أكمل من حال يوسف ـ عليه السلام ـ.

فإن هؤلاء كانوا يدعون الرسول إلى الشرك، وأن يقول على الله غير الحق. يقول: ما أرسلني ولا نهى عن الشرك. وقد قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٤].

وكان كذب هؤلاء على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف؛ فإنهم قالوا: أنه ساحر، وأنه كاهن، وأنه مجنون، وأنه مفتر. وكل واحد من هؤلاء أعظم من الزنا والقذف؛ لا سيما الزنا المستور الذي لا يدري به أحد. فإن يوسف كذب عليه في أنه زنى، وأنه قذفها وأشاع عنها الفاحشة؛ فكان الكذب على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف.

نقض الصحيفة

مرت سنوات متتالية على الحصار، ولما كان رأس ثلاث سنين من الحصار تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن بني قصي، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساؤهم من بني هاشم، ورأو أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق واجتمع أمرهم من ليلتهم، وتألف قوم من قريش على نقض تلك الصحيفة، كان أحسنهم فيها بلاءً هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب، فإنه لقي زهير بن أمية بن المغيرة فعيره بإسلام أخواله، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فأجابه زهير إلى نقض الصحيفة.

ثم مشى هشام إلى المطعم بن عدي فذكره أرحام بني هاشم وبني عبد المطلب ابني عبد مناف فأجابه إلى ذلك.

ثم مشى إلى أبي البحتري بن هشام فقال له مثل ما قال للمطعم بن عدي.

ثم مشى إلى زمعة بن الأسود فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال: وهل معي على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

قال: نعم.

ثم سمى له القوم.

الاجتماع

وهكذا اتعدوا حطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة.

وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم.

فلمــا أصبحوا غدوا على أنديتهــم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت ســبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشــم هلكى لا يُباعون ولا يباع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق.

قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت.

فقال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به.

قــال المطعم بن عدي: صدقتم وكــذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

قال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، وتشوور فيه بغير هذا المكان.

وكان أبو طالب جالس في ناحية المســجد. فقــام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها فوجد أرضة قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم» وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

معجزة

وفي رواية أخرى إن الله أطلع رسوله على الذي صنع بصحيفتهم، فذكر ذلك لعمه، فقال: لا والثواقب ما كذبتني.

فانطلق يمشــي بعصابة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش، فلما رأوهم رأوا أنهم قد خرجوا من شدة الجوع وأتوا ليعطوهم رسول الله.

فتكلم أبــو طالب فقال: إنه قد حدث أمر لعلــه أن يكون بيننا وبينكم صلحــاً، فأتوا بصحيفتكم. وإنما قال ذلك خشــية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها.

فأتوا معجبين لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم، قالوا: قد آن لكـم أن تقبلوا وترجعوا، فإنما قطـع بيننا وبينكم رجل واحد قد جعلتموه خطراً لهلكة قومكم.

فقال أبو طالب: لأعطينكـم أمراً فيه نصف، إن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن الله بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم ومحا كل اسـم له فيها وتـرك فيه غدركم وقطيعتكم، فإن كان ما قال حقّاً فوالله لا نسـلمه إليكـم حتى نموت عن آخرنـا، وإن كان الذي يقول باطـلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه.

قالوا: قد رضينا.

ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر.

فقالوا: هذا سحر من صاحبكم.

فارتكسـوا وعادوا لشـر مما كانوا عليه. فتكلم عند ذلـك النفر الذين تعاقدوا، ومزقت الصحيفة؛ وانتهى حصار الشعب.

عام الحزن

سخَّر الله ـ عز وجل ـ عم النبي أبو طالب للدفاع والمنافحة عن رسوله ﷺ، مع بقائه على دين قريش.

فلما كان في رمضان بعد المبعث بعشر سنين زاد المرض على أبي طالب واشتد حتى حضرته الوفاة. فجاء رسول الله ﷺ إليه وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية.

فقال: «**يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**».

فقالا له: ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه رسول الله، فأعادا، فكان آخر ما كلمهم به هو: على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: «لا إله إلا الله».

فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك، مالم أنه عنك**». فأنزل الله ـ تعالى ـ قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] وأنزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] الآية.

وفي الصحيح عن العباس أنه قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟

قال: «**نعم، وجدته في غمرات من النار، فأخرجته في ضحضاح**».

وفي رواية «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه**».

وفي رواية «**ولولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار**».

موت خديجة

توفي أبو طالب بعد خروج النبي ﷺ ومن معه من الشعب، ثم بعد شهر أو يزيد توفيت أم المؤمنين؛ الزوجة العاقلة الرزينة خديجة ـ رضي الله عنها ـ، قبيل الهجرة بثلاث سنين، وكانت وفاتها في السنة العاشرة من النبوة، ولها من العمر خمس وستون عاماً، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره وكانت مدة إقامة خديجة معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ خمساً وعشرين سنة.

وقد كانت نعم الزوجة المؤازرة لرسول الله ﷺ حتى قال عنها ﷺ: **«آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها، وحرم ولد غيرها»**.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: **«يا رسول الله، هذه خديجة، فقد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»**.

وفي هذه المدة القصيرة اجتمع على النبي ﷺ موت عمه الذي كان يدافع وينافح عنه وزوجه التي تواسيه وتشد من أزره، فكانت مصائب متتالية، وشدائد متوالية. وسمي ذلك العام بـ «عام الحزن».

وقد اشتد البلاء على رسول الله ﷺ من قومه بعد موت عمه أبي طالب، وزوجه خديجة ـ رضي الله عنها ـ، فقد تجرؤوا عليه، وكاشفوه بالأذى، وطفق النبي ﷺ يتأثر بشدة حيث ناله الأذى من كل ناحيه وفي كل درب حتى أن سفيهاً من سفهاء قريش نثر التراب على رأسه الشريف، فجعلت إحدى بناته تغسله وتبكي، وهو ﷺ يقول: **«لا تبكي**

يا بنية، فإن الله مانع أباك».

ويقول بين ذلك: «ما نالت قريش مني شيئاً أكره حتى مات أبو طالب».

سودة بنت زمعة

وبعد أيام من موت خديجة تزوج ـ عليه السلام ـ سودة بنت زمعة ـ رضي الله عنها ـ.

وكانت ممن أسلم قديماً، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة وكان زوجها السكران بن عمرو قد هاجر معها إلى الحبشة ومات هناك، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة.

ولم يكن ثَمَّ أجمل مما صنعه الرسول ﷺ بزوج رجل آمن به وصدق برسالته، ولو تُركت لقومها مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الإسلام لفتنوها، وكرمُ نسبها في قومها يمنعها من التزوج برجل أقل منها نسباً وشرفاً.

وكانت امرأة عاقلة، ومن ذلك أنها بعد زواجها بالنبي ﷺ بعد عدة أعوام وهبت ليلتها لعائشة ـ رضي الله عنهن أجمعين ـ.

الدعوة المنصورة

كان النبي ﷺ حريصاً على إســلام كل من يراه ويقابله، بل وحتى من يستطيع أن يراســله؛ فقد وصلت رسائله إلى ملوك الشام والحبشة واليمن وغيرها.

وزاد هذا الحرص فيمن له منزلة ومكانه؛ لعله إن أسلم أن يكون به شوكة وقوة للمسلمين.

ويوماً وقف الوليد بن المغيرة وهو من سادات قريش مع رسول الله ﷺ يكلمــه وقد طمع في إســلامه. فبينما هو في ذلــك إذ مر به عبد الله ابن أم مكتــوم ـ رضــي الله عنه ـ، أحد بني عامر بن لؤي، وهو رجل كفيف البصر، ضعيف الحال، قليل المال.

فكلم رســول الله ﷺ وجعل يستقرئه القرآن فشق ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره، وذلك أنه شــغله عمــا كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه.

فلما أكثر عليه انصرف عنه عابســاً وتركه، فأنزل الله عز وجل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ إلى قوله ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾ [عبس: ١ ـ ١٤].

أي: إنما بعثتك بشــيراً ونذيراً ولم أختص بك أحداً دون أحد، فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تتصد به لمن لا يريده.

وقــد جاءت الآية ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب.

وفي هذا أسلوب رفيع في تعلم الأدب وحسن المعاتبة، وهو تلطف في حق النبي ﷺ وإجلالاً له.

وفي الآيات بيان حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها واستغنائها عن كل أحد، وعن كل سند، والعجب أن هذا في مكة، والدعوة مطاردة، والمسلمون قلة، ومع ذلك كانت المعاتبة للنبي ﷺ.

والعجب أيضاً أن ابن أم مكتوم كفيف لا يرى النبي ﷺ وتعابير وقسمات وجهه الشريف، وما فيها من عبوس عندما أضجره.

وكان من دأب رسول الله ﷺ أن يكرم ابن أم مكتوم ويتلطف به، وإذا رآه قال: «**مرحباً بمن عاتبني فيه ربي**».

ويستنطقه ليظهر ما يريد ويقول: «**هل لك من حاجة؟**».

وكان ﷺ يستخلفه على المدينة إذا غزا.

استهزاء قريش

وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد، وجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب وعمار، وأبو فكيهة، ويسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش.

وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق؟

لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء به وما خصهم الله به.

فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

الاسم الخالد

بلغت السخرية والاستهزاء بالرسول ﷺ إلى أن العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، فإن مات انقطع ذكره واسترحتم منه.

فأنزل الله في ذلك قوله ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١].

والكوثـر: هو الخير الكثير الذي أعطـاه الله نبينا محمد ﷺ. ومنه نهر الكوثر في الجنة، جعله الله كرامة لرسوله ﷺ وأمته.

ولما سُئل رسول الله ﷺ ما الكوثر الذي أعطاك الله؟

قال: «**نهر كما بين صنعاء إلى أيلة، آنيته كعدد نجوم السماء، ترده طير لها أعناق كأعناق الإبل**».

قال عمر ابن الخطاب: إنها يا رسول الله لناعمة؟

قال: «**آكلها أنعم منها**».

وقد ورد في الكوثر أن «**من شرب منه لم يظمأ أبدا**».

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ شـكراً لله علـى هـذه النعمة العظيمة، وهذا العطاء الجزيل أن تصلي وتنحر لله الإبل وغيرها، لا تصرف شيئاً منها لغيره - سبحانه وتعالى -.

وخـص هاتـين العبادتين بالذكر - الصلاة والنحـر - لأنهما من أفضل العبـادات وأجلّ القربات، ولأنهما أكثر العبادات التي يصرفها المشـركون لأوثانهم.

والذبـــح من أجل العبادات، وقربة مـــن أفضل القربات المالية، وصرفها لغير الله شـــرك أكبر ناقل عن الملة، كمن يذبح لقبر أو شجرة، أو حجر، أو ملـــك، أو نبـــي، أو جني، وكذلك من يذبح للشـــياطين أو الجن طلباً للشفاء كما يحدث عند السحرة، أو من يذبح عند حفر بئر أو عتبة المنزل، اســـترضاء للشياطين، وســـوءٌ أكان المذبوح من بهيمة الأنعام أو غير ذلك، فكله من الشـــرك الأكبر، ويحرم الأكل من تلك الذبيحة أو الشـــرب من مرقها أو استخدام جلدها، أو الانتفاع بها على أي وجه كان.

فمن صلى لغير الله فقد أشـــرك، ومن ذبح لغير الله فقد أشـــرك، وفي الحديث: «لعن الله من ذبح لغير الله» [رواه مسلم].

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾.

أي: مبغضـــك، وذامك ومنتقصك هـــو الأقطع. المنقطع من كل خير، والأبتر من الرجال الذي لا ولد له.

قال المفســـرون: لما مات «القاسم» ابن النبي ﷺ قال العاصي بن وائل: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ـ أي لا نسل له ـ فإذا هلك انقطع ذكره، فأنـــزل الله ـ تعالى ـ هذه الســـورة، وأخبر ـ تعالـــى ـ أن هذا الكافر هو الأبتـــر وإن كان لـــه أولاد؛ لأنه مبتور من رحمة الله ـ أي مقطوع عنها ـ، ولو خلف ألوفاً من النســـل والذرية، وليس الذكر والصيت ولسان الصدق بكثرة الأولاد والأنســـال والعقب. ولأنه لا يُذكر إلا ذكر باللعنة، بخلاف النبـــي ﷺ فإن ذكره خالـــد إلى آخر الدهر، مرفوع علـــى المآذن والمنابر، مقـــرون بذكر الله ـ تعالى ـ، والمؤمنـــون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه، فهو كالوالد لهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

قال حسان بن ثابت:

أغر عليه للنبوة خاتم
من نور يلوح ويشهدُ
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه
إذا قال في الخمس المؤذن أشهدُ
وشق له من اسمه ليُجِّله
فذوا العرش محمود وهذا أحمد

من معجزات الرسول ﷺ

قامت عداوة قريش للنبي أفراداً وجماعات. وبلغ منهم الأمر أشده، وكان من أولئك النفر الذين كفروا بما أنزل على محمد ﷺ وعادوه عمه أبو لهب ومعه جمع من أقاربه وعشيرته، منهم ركانة بن عبد يزيد بن هاشم ابن عبد المطلب بن عبد مناف أشد قريش.

وذكر أنه يوماً خلا برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة ودعاه إلى الله - عز وجل -.

فقال له رسول الله ﷺ: «**يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟**».

قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك.

فقال رسول الله ﷺ: «**أفرأيت إن صرعتك تعلم ما أقول حق؟**».

قال: فهلم حتى أصارعك.

فقام إليه ركانة يصارعه، وكان من أشد الناس وأقواهم، ويرى أن الغلبة له على رسول الله ﷺ من موفور صحته وبسطة جسمه وشجاعته.

فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن بطش به وأضجعه لا يملك من نفسه.

ثم قال: عد يا محمد. فأعاد فصرعه.

قال: والله يا محمد إن هذا للعجب، أتصرعني؟

معجزة أخرى

قال رسول الله ﷺ: «**وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمري**».

قال: وما هو؟

قال: «**أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني**».

قال: ادعها. فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ.

فقال لها: ارجعي إلى مكانك. فرجعت إلى مكانها.

فذهب ركانة إلى قومه فقال: يا بني عبد مناف، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله ما رأيت أسحر منه قط. ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع.

خروجه ﷺ إلى الطائف

حين اشتد البلاء من سفهاء قريش على رسول الله ﷺ وكاشفوه بالأذى وتجـــرؤوا عليه، خاصة بعد موت عمه أبي طالـــب. وقد ضاقت به الحيل وانقطعت به السبل؛ التفت يمنة ويسرة أين يذهب؟ وإلى أين يتجه؟

فــكان أقرب الحواضر إليه بلد الطائف، حيث تبعد عن مكة نحو ثمانين كيلاً، فخرج إليها في شـــوال في السنة العاشرة من النبوة، ورجا أن يؤووه وينصـــروه على قومه، ويمنعوه منهم. وأن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله ـ عز وجل ـ.

فخرج إليها ماشياً على قدميه جيئة وذهاباً، ومعه مولاه زيد بن حارثه ـ رضي الله عنه ـ. وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم يجد أحداً يستجيب له.

فلمـــا انتهـــى إلى الطائف دعاهم إلى الله وبلغ رســـالة ربه؛ فلم ير من يؤوي ولم يجد ناصراً، بل آذوه بأشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينل قومه.

فأقام ﷺ بينهم عشـــرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، لكنه لم ينل إلا صدوداً وإعراضاً.

رؤساء ثقيف

وعمـــد إلى ثلاثة إخوة من رؤســـاء ثقيف، وهم عبد ياليل، ومســـعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فلم ير منهم إلا إعراضاً، ولم يسمع منهم إلا استهزاءً.

فقال أحدهم مستهزئاً وهو يمرط ثياب الكعبة (أي يمزقها): إن كان الله أرسلك.

وقال الآخر متندراً: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك.

وقال الثالث ولعله كان أعقلهم: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك السلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فلما يئس من خير ثقيف ولم يجد استجابة، خشي وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ ذلك قومه فيزاد الأذى عليه ويشتد.

فقال لهم: «**إذا فعلتم ما فعلتم فأكتموا عني**».

فنهروه وقالوا له: أخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم. ورجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ.

وكان إذا أذلقته الحجارة وآذت قدمه قعد إلى الأرض ليحتمي بها، فيأخذونه بعضديه ويقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ يقيه بنفسه، ويدرأ عنه ويدفع حتى شج في رأسه شجاجاً.

فقرر ﷺ العودة وانصرف راجعاً من الطائف إلى مكة محزوناً؛ لأنه لم يجد من يقبل دعوته، ولما أصابه وناله من الأذى والعنت.

الدعاء

وسار ﷺ حتى وصل إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على بعد ثلاثة أميال من الطائف، وقد بلغ به الجهد حتى أتى إلى حبلة من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار، فلما جلس واطمأن دعا بالدعاء المشهور الذي يفيض إيماناً ويقيناً، ورضى بما ناله من جنب الله، وفي سبيل تبليغ دينه. فقال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني**

على الناس. أنت أرحم الراحمين، ورب المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك، أو يحل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

النبي مع عداس

فلما شاهده ابنا ربيعة ورأيا ما لقي من ثقيف تحركت له رحمهما، ورقا لحاله وما ناله؛ فبعثا إليه مع غلامهما عداس النصراني قطف عنب.

فلما وضع ﷺ يده في القطف قال: «بسم الله» ثم أكل.

ثم نظر عداس إلى وجهه، وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.

فقال له ﷺ: «من أي البلاد أنت، وما دينك؟».

قال: نصراني من أهل نينوى.

قال: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟».

قال عداس: وما يدريك؟

قال: «ذاك أخي، وهو نبي مثلي»، فأكب عداس على يديه ورأسه ورجليه يقبلهما. وكان ابنا ربيعة ينظران إلى ما جرى ويشاهدان ما وقع.

فتعجبا مما جرى وأهمها الأمر، فقال أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك.

فلما جاء عداس عاتباه، وقالا له: ويلك يا عداس مالك تُقِّبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

قال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا، فقد أخبرني ما لا يعلمه إلا نبي.

قالا: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

النبي في وادي نخلة

ثم يمَّم ﷺ قافلاً إلى مكة، وهو مهموم النفس، مكلوم الفؤاد، فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب بين الطائف ومكة.

ونزل ﷺ بنخلة في منتصف الطريق بين مكة والطائف وقام يصلي في جوف الليل، فصرف الله إليه نفراً من الجن فاستمعوا قراءته، وكانوا من أهل نصيبين، فاستمعوا له ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ. وإنما استمعوا قراءته وانصتوا لها.

فلما فرغ ﷺ من الصلاة ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا به وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه، فقال تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآيات.

ثم رجعوا إلى قومهم، وبعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج.

وأقام رسول الله ﷺ بنخلة أياماً يستريح مما ألم به وأصابه.

فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني قريشاً.

فقال: «**يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر نبيه ومظهر دينه**».

رأفة النبي وشفقته

وفي هذا الضيق وتلك الشدة التي أصابت النبي ﷺ، أرسل إليه ربه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، وهما الجبلان اللذان هي بينهما، جزاء مقابلتهما السيئة لرسول الله ﷺ.

فقال الداعي لهم بدعوة الحق ﷺ: **«بل أستأني بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»** [رواه البخاري ومسلم].

وفي هذا الصنيع تجلت شخصية النبي ﷺ وما هو عليه من الرأفة بأمته والشفقة عليهم. وكان هذا من أعلام النبوة فقد وقع ما كان ﷺ يأمله ويرجوه، وخرج منهم من يعبد الله ويجاهد في سبيله ويرفع رايته.

العودة إلى مكة

ثم سار ﷺ حتى انتهى إلى مكة، فأرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي: أدخل في جوارك؟

فقال: نعم. ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمداً.

فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ، حتى انتهى إلى المسجد الحرام.

فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمداً، فلا يهيجه منكم أحد.

فقصد رسول الله إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، والمطعم ابن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل أن أبا جهل سأل مطعماً: أمجير أنت أم متابع ـ أي مسلم ـ؟

قال: بل مجير، قال: قد أجرنا من أجرت.

وقد حفظ رسول الله ﷺ هذا الصنيع للمطعم، فقال في أسارى بدر بعد سنوات من هذا الموقف كما روى ذلك الإمام البخاري: **«لو كان المطعم بن عدي حيّاً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»**.

الإسراء والمعراج

بعد وفاة عم النبي ﷺ أبو طالب الذي كان ينافح عنه ويدافع، وموت زوجته خديجة ـ رضي الله عنها ـ التي كانت تواسيه وتشد أزره.

وبعد عودة النبي ﷺ مهموماً مغموماً مما وجد من أهل الطائف من الأذى والشدة والاستهزاء؛ جعل الله ـ عز وجل ـ لرسوله منفساً ليسري عنه ماوجد، فكانت حادثة الإسراء والمعراج التي شاهد فيها من آيات ربه الكبرى ما شاهد، ورأى من عظمة ملكوت السموات والأرض، مايزيد الإيمان ويقويه، وما رأى من الأمور التي يسر الله ـ عز وجل ـ له رؤيتها، ماملأ نفسه ﷺ رضى عن الله، وقلبه نوراً وطمأنينة، وصدره ثلجاً وانشراحاً. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨].

ونالـه من ربه ـ عز وجل ـ التكريم والتثبيت، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

والإسراء: هو إذهاب الله بنبيه محمداً ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بمدينة القدس؛ في جزء من الليل ثم رجوعه من ليلته.

والمعراج: هو إصعاده ﷺ من بيت المقدس إلى السموات السبع، وما دون السبع، حيث فرضت الصلوات الخمس، ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل.

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ قصة الإسراء في سورة الإسراء، وذكر قصة المعراج في سورة النجم.

الإسراء بالروح والجسد

وقد أسـري برسول الله ﷺ بجسده وروحه من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبـاً على البراق، وذلك قبل الهجرة بعـام، وقد وصف البراق بقوله: «**وأتيتُ بدابة أبيض، دون البغل، وفوق الحمار**».

وقـد صحبة جبريل ـ عليهما السـلام ـ، فنزل هنـاك وصلى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد.

السماء الدنيا

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السـماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح لهما، فرأى هناك آدم ـ عليه السـلام ـ أبا البشر فسلَّم عليه، فرحب به ورد عليه السلام وأقر بنبوته. وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن شماله.

السماء الثانية

ثم عرج به إلى السـماء الثانية فاسـتفتح له، فرأى فيها يحي ابن زكريا وعيسـى بن مريم ـ عليهما السـلام ـ، فلقيهما وسلم عليهما، فردا عليه السلام ورحبا به وأقرا بنبوته.

السماء الثالثة

ثـم عرج بـه إلى السـماء الثالثة، فرأى فيها يوسـف الصديق ـ عليه السلام ـ، فسلم ورحب به.

السماء الرابعة

ثم عرج به إلى السـماء الرابعة، فرأى فيها إدريس ـ عليه السـلام ـ، فسلم عليه ورحب به.

السماء الخامسة

ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فلقي فيها هارون بن عمران ـ عليه السلام ـ، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته.

السماء السادسة

ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى ـ عليه السلام ـ، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته.

فلما جاوزه بكى، فقيل ما يبكيك؟

قال: إن غلاماً بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما دخلها من أمتي.

السماء السابعة

ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته. وقال لنبينا ﷺ: أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

ثم رفع ﷺ إلى سدرة المنتهى. ثم رفع له البيت المعمور.

فرض الصلاة

ثم عُرج به إلى الجبار ـ جل جلاله ـ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة.

فرجع حتى مر على موسى، فقال: بم أمرت ؟

قال: بخمسين صلاة.

فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فالتفت إلى جبريل كأن يستشـــيره في ذلك، فأشـــار أن نعم إن شئت. فعـــلا جبريل حتى أتى به الجبار ـ تبارك وتعالى ـ وهو في مكانه. فوضع عنه عشراً. ثم نزل حتى مر بموسى فأخبره.

فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

فلم يزل يتردد بين موسى وبين ربه ـ تعالى ـ حتى جعلها خمساً.

فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف.

فقال: قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلم.

فلما نفذ نادى مناد: قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي.

فجعلت خمساً في العدد وخمسين في الأجر، لأن الحسنة بعشر أمثالها، وهذا من فضل الله وجوده ورحمته وكرمه على محمد ﷺ وأمته.

ما شاهده ﷺ

وكان من رحلته أن عُرض عليه ﷺ اللبن والخمر، فاختار اللبن، فقيل: هُديت الفطرة، أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

ورأى أربعـــة أنهار في الجنة: نهران ظاهران، ونهران باطنان. والظاهران هما: النيل والفرات.

والباطنان: نهران في الجنة، ولعل معنى رؤية النيل والفرات الإشارة إلى تمكن الإسلام من قطريهما.

ورأى مالـــك خازن النـــار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشـــر وبشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار.

ورأى أكلة أموال اليتامى ظلماً لهم مشـــافر كمشافر الإبل، يقذفون في أفواههم قطعاً من نار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم.

ورأى أكلــة الربا لهم بطون كبيرة، لا يقــدرون لأجلها أن يتحولوا عن مكانهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم.

ورأى الزنـــاة بين أيديهم لحم ســمين طيب إلى جنبــه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون الطيب السمين.

ورأى النساء اللاتي يدخلن الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بثديهن.

موقف قريش من الإسراء والمعراج

كذبت قريش بأمور محسوسة ملموسة مما أراهم النبي ﷺ من معجزاته، فكيف لهم أن يصدقوا بأمر فوق عقولهم وتفكيرهم، ومخالف لما جرت به العادة عندهم.

لذا خشي رسول الله ﷺ أن يكذبه قومه إن ذكر لهم حادثة الإسراء والمعراج؛ فأصبح في ذلك اليوم مهموماً مغموماً، لكنه استعان بالله وتوكل عليه، فلما كان في قومه أخبرهم بما أراه الله من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستهزاءهم.

موقف أبو جهل

ومر به أبو جهل عدو الله فجاء حتى جلس إليه.

فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟

قال ﷺ: «**نعم**».

قال: وما هو؟

قال «**أسري بي الليلة**».

قال: إلى أين؟

قال: «**إلى بيت المقدس**».

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: «**نعم**».

فلم يُظهر أبو جهل للرسول ﷺ أنه يكذبه مخافة أن ينكر الحديث إن دعا قومه إليه. فأراد أن يستوثق ليتندر القوم ويستهزئوا به.

قال: إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني به؟

قال: «**نعم**».

فرفع صوته ونادى القوم: يا معشر بني كعب بن لؤي.

فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما، وكانت دعوته بمثابة نداء لأمر عظيم وخطب جلل.

فقال لرسول الله ﷺ عندما جلس القوم: حدث قومك بما حدثتني.

فقال رسول الله ﷺ: «**إني أسري بي الليلة**».

قالوا: إلى أين؟

قال: «**إلى بيت المقدس؟**».

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: «**نعم**».

فوجموا كأنما على رؤوسهم الطير، فمن بين مصعق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً.

فالأمور فوق تصورهم، وهم لرسالته مكذبين محاربين، ولنبوته من الجاحدين.

فقال المطعم بن عدي: كل أمرك قَبلُ تماماً غير ذلك. أنا أشهد أنك كاذب. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً ومنحدراً شهراً، تزعم أنك أتيته في ليلة! واللات والعزى لا أصدقك.

موقف أبي بكر

فقال أبو بكر: يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك، جبهته وكذبته. أنا أشهد أنه صادق.

عندها راودت المشركين رد قول رسول الله ﷺ وإظهار خلاف ما يقول، فتفتقت أذهانهم عن أمر عجيب وطلب مادي غريب؛ وهذا حال من لم يؤمن بالغيبيات ومعجزات المرسلين.

قالوا: يا محمد، صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه، وكيف هيئته، وكيف قربه من الجبل؟ وكان في القوم من سافر إليه ويعرفه معرفة تامة. حيث رحلة الصيف وطلب التجارة.

فذهب ﷺ ينعت ويصف لهم: بناؤه كذا. هيئته كذا. وقربه من الجبل كذا.

فما زال ينعت ويصف لهم حتى التبس عليه النعت، فكرب كرباً ما كرب مثله، فجيء بالمسجد حتى وضع دون دار عقيل أو عقال.

فقالوا: فكم للمسجد من باب؟ ولم يكن عدها.

فجعل ينظر إليه ويعدها باباً باباً ويعلمهم.

وأبو بكر يقول: صدقت، أشهد أنك رسول الله.

فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب.

ولم تكن حيرتهم في وصف المسجد وعدد أبوابه فقد أخبرهم بما يعلمون، لكنهم كذبوا ذهابه وعودته في ليلة واحدة.

فقالوا لأبي بكر: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟

قال: نعم، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة وروحة. فبذلك سمي أبو بكر «الصديق» ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

ثم أرادوا أن ينظروا في أمر آخر.

فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن عيرنا.

فأخبرهم عنها في مسـراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وعن البعيـر الذي يقدمها. فلما قدمت العير فإذا بالأمر كما قال ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ.

وكان لا بد ولا مفر من التصديق أو التكذيب؛ فعدلوا ورموه بالسـحر وقالوا: صدق الوليد؛ أي في رميه بالسـحر وأنه ساحر. ولم يزدهم ذلك إلا ثبوراً، وأبى الظالمون إلا كفوراً.

الدعوة في موسم الحج

أقام رسـول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفياً، ثم أعلن في الرابعة وصدع بالرسالة؛ فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين.

وقد قامت قريش بمحاربة النبي ﷺ وصد الناس عن دعوته، ثم كان إباء أهل الطائف نصرته والدخول في دعوته، عندها يمَّم ﷺ وجهه نحو قبائل العرب الأخرى، لعل الله أن ينير قلوبهم وتدركهم رحمته.

فكان يدعوهم في المواسـم، وفي أسـواق العرب المشـهورة في عكاظ ومِجنة وذي المجاز؛ يتبع الناس في منازلهم ورحالهم يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلم يجد أحداً ينصره ولا يجيبه، حتى ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة.

وكان موسـم الحج من مواسـم الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ حيث تفد القبائل إلى مكة من شتى أرجاء الجزيرة العربية.

وكان ﷺ يقول: «**يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم، فإذا متم كنتم ملوكاً في الجنة**».

وعمـه أبو لهب وراءه يقوم بعمل الإعلام الفاسـد، ويقول: لا تطيعوه فإنه صابيء كذاب. وكان هذا العمل من عمه أبو لهب مما ينفر القبائل من سماع دعوته أو الجلوس إليه.

فيـردون على رسـول الله ﷺ أقبح الرد ويؤذونه، ويقولون: أسـرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك.

وهو يدعوهم إلى الله ويقول: «**اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا**».

قبائل دعاهم الرسول

وكان من تلك القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرض نفسه عليهم عاماً بعد عام، وموسماً بعد موسم بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة وغيرهم. فلم يستجب منهم أحد، ومع ذلك كله فما وهن ﷺ عن تبليغ الدعوة والقيام بأمر ربه. بل ظل يتلمس مواطن الخير في أفراد قلة.

وقد آمن به وصدق برسالته أناس من غير أهل مكة منهم سويد بن الصامت من سكان يثرب وكان شاعراً مفوهاً، قتل في وقعة بين الأوس والخزرج قبل يوم بعاث. وكذلك إياس بن معاذ من أهل يثرب وكان غلاماً حدثاً.

أبو ذر الغفاري

وكذلك ممن أسلم أبو ذر الغفاري ـ بلغ إليه خبر مبعث النبي ﷺ بسبب إسلام سويد بن الصامت وإياس بن معاذ. فأرسل أخاه إلى مكة ليأتي بالخبر. فذهب ورجع، ولم يشفه.

ولأن الأمر أهمه أخذ جراباً وعصاً وخرج بنفسه حتى نزل بمكة في المسجد الحرام يريد أن يستوثق ويسمع من النبي ﷺ مباشرة.

وبقي فيه نحو شهر، يشرب ماء زمزم، وهو طعامه وشرابه، ولا يسأل عن النبي ﷺ أحداً خوفاً على نفسه، فقد كانت قريش بالمرصاد، وتتبع كل من يقدم إلى مكة خوفاً من لقاءه النبي ﷺ وسماعه منه والجلوس إليه.

فمر به يوماً عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. وقد رأى حاله فقال: كأن الرجل غريب؟

قال أبو ذر: نعم.

فقال: فانطلق إلى المنزل، فانطلقت معه، لا يسألني عن شيء، ولا أسأله ولا أخبره.

فلما أصبحت غدوت إلى المسجد؟ لا أسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء.

فمر بي علي، فقال: أما زال الرجل لم يعرف منزله بعد؟ قلت: لا.

قال: فانطلق معي، (وكانت العرب لا تسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث).

فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟

قلت له: إن كتمت عليّ أخبرتك.

قال: فإني أفعل.

قال له أبو ذر: بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبي الله فأرسلت أخي يكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه.

فقال علي: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه، ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وأمض أنت.

فمضى، ومضى معه أبو ذر سائراً خلفه حتى دخل داراً، ودخل معه أبو ذر على النبي ﷺ، فقال للنبي: اعرض عليَّ الإسلام.

فعرضه عليه ﷺ وأخبره بهذا الدين. فما كان من أبي ذر إلا أن أسلم من وقته.

فقـال له ﷺ: يا أبا ذر! اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل.

فقال أبو ذر: والذي بعثك بالحق! لأصرحن بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسـجد وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش! إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وما أن نطق بالشهادة حتى تحول الأمر وتغيرت الحال.

يروى المشهد أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ بقوله:

فقالـوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فقامـوا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب عليَّ.

ثـم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار؟ ومتجركم وممركم على غفار.

فأقلعـوا عنـي، فلما أن أصبحت الغد، رجعـت، فقلت مثل ما قلت بالأمس.

فقالوا: قوموا إلى هـذا الصابئ، فُصنِّع بي ما صُنع بالأمس، فأدركني العباس، فأكب عليَّ وقال مثل مقالته بالأمس.

ثم أن أبا ذر رجع عائداً إلى مسـاكن قومه بني غفار، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه.

الإعلام المضاد

وممن أسـلم كذلك طفيل بن عمر الدوسي كان شاعراً لبيباً، وهو مقدم قبيلته دوس في ناحية اليمن. قدم مكة في السنة الحادية عشر من النبوة.

فاسـتقبله أهل مكة بالتحية والإكرام لمكانته ومنزلته. وحذروه من النبي ﷺ وقالوا: يا طفيـل؛ إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا

قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا.

وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئاً.

وبلغ التحذير مبلغه والنهي موقعه حتى أنه حشا أذنه الكرسف ـ وهو القطن ـ حين جاء إلى المسجد الحرام، كي لا يسمع من النبي ﷺ شيئاً.

ولما أراد الله هدايته؛ كان ﷺ قائماً يصلى عند الكعبة، فوقع في أذنه من قراءة الرسول ﷺ، فاستحسنه، وتعجب منه.

فقال في نفسه: إني لبيب وشاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسناً قبلته، وإن كان قبيحا تركته.

فلما انصرف النبي ﷺ إلى بيته تبعه حتى دخل بيته، وذكر قصته، وطلب منه ﷺ أن يعرض عليه أمره، فعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن فأسلم وشهد شهادة الحق.

وقال: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، فدعا له.

فلما قرب من قومه استنار وجهه كالمصباح. فدعا الله أن يجعله في غير وجهه، فتحول النور إلى سوطه.

فلما دخل على قومه دعاهم إلى الإسلام، فأسلم أبوه وزوجته، وأبطأ القوم، لكنه لما هاجر إلى المدينة بعد الحديبية كان معه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه.

ضماد الأزدي

وممن أسـلم كذلك ضماد الأزدي، من أزد شنوءة من اليمن، كان يرقي من الجنون والجن والشياطين. فجاء مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمداً مجنون، فبدا له أن يرقيه.

فجاء إلى النبي وقال: إني أرقي من هذا الريح، فهل لك؟

فقال النبي ﷺ: «**إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد**».

فاستعاد ضماد هذ الكلمات ثلاث مرات من رسول الله ﷺ.

ثم قال: سمعت قول الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، لقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه.

بيعة العقبة الأولى

انقضت عشر سنوات بذل فيها الرسول ﷺ وسعه في سبيل الدعوة وتبليغها؛ يلقى الناس في مجامعهم في المواسم، ومجنة، وعكاظ، وفي منازلهم من منى أيام الحج. ويقول: «**من يؤويني ومن ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة**».

يدعوهم أفراداً وجماعات غير مبال بما يلقاه في جنب الله، وما يجده من صد وصدود.

واستمر في طريق دعوته فلم يجد أحداً ينصره ولا يؤويه، وكان تحذير قريش للناس كافة صوتاً مسموعاً وأثراً مقبولاً خاصة في بداية دعوته، ومن ذلك إن الرجل ليرتحل من مصر واليمن إلى ذوي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك.

وكان ﷺ يمشي بين رجالهم يدعوهم إلى الله وهم يشيرون إليه بالأصابع: أن احذروه، ولا تسمعوا لقوله.

هداية الأنصار

وكان من مقدور الله ـ عز وجل ـ أن يقوم بهذا الدين أمة من الأوس والخزرج، ليسوا بمكة ولا قريباً منها؛ بل على بعد ثمان ليال مسيرة الإبل الجياد.

فإن الله ـ سبحانه ـ لما أراد إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ إلى الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، فعمد نحوهم حتى أدركهم

ولحقهم. وقال لهم: «من أنتم؟».

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: «أمن موالي يهود؟».

قالوا: نعم.

قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

يثرب وسكانها

يثرب بلدة ذات نخل وزرع يقطنها قبيلتان: إحداهما من ولد الأوس، والثانية من ولد الخزرج. وهما أخوان، وكان بين أولادهم من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين، وكان يجاورهم في المدينة أقوام من اليهود وهم: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير. وكان لهم الغلبة على يثرب أولاً، فحاربهم العرب حتى صاروا ذوي النفوذ فيها والقوة.

وكان اليهود إذا خُذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبي يبُعث قد قرب زمانه، ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشُقّت عصا الألفة، حالفوا اليهود على أنفسهم. فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع.

يوم بعاث

وكان آخر الأيام بينهم يوم بُعاث؛ قتل فيه أكثر رؤسائهم ولم يبق إلا عبد الله بن أبي بن سلول من الخزرج، وأبو عامر الراهب من الأوس. ولذا كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: كان يوم بُعاث يوماً قدَّمه الله لرسول ﷺ.

وكان مما صنع الله به في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم كانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله؛ قال بعضهم لبعض: يا قوم؛ تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا سبقنكم إليه.

فقال لهم النبي ﷺ: «أتمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي؟».

فقالوا: يا رسول الله إنما كانت بعاث، عام الهول؛ يوم من أيامنا اقتتلنا به، فإن تقدم ونحن كذا لا يكون عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى الله أن يجمعهم عليك، فإن جمعهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك، وموعدك الموسم العام القابل.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا.

وكان هؤلاء ستة نفر من الخزرج، منهم من بني النجار: أسعد بن زرارة وهو أبو أمامة، وعوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء.

ومن بني زريق رافع بن مالك.

ومن بني سلمة قطبة بن عامر بن حديدة.

ومن بني حرام بن كعب: عقبة بن عامر.

ومن بني عبيد بن غنم: جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا رسول الله، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله

ﷺ. حتى إذا كان العام المقبل وافى الموســم من الأنصار اثنا عشر، فلقوه بالعقبة الأولى، فبايعوا رســول الله ﷺ على بيعة النســاء، وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب.

البيعـة

قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نســرق، ولا نزني ولا نقتل أولادنــا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، والســمع والطاعة في العســر واليسر، والمنشط والمكره وأثرة علينا. وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق حيث كنا لانخاف في الله لومة لائم.

فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «**فإن وفيتم فلكم الجنة، ومن غشي من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه**».

سفير الإسلام

وبعد أن تمت البيعة وانتهى موسم الحج، وقد كان أسعد بن زرارة يجمع بالمدينة بمن أسلم.

عندهــا كتــب الأوس والخزرج إلى النبي ﷺ أن ابعــث إلينا من يقرئنا القرآن، فبعث إليهم شــاباً من فتيان المسلمين هو مصعب بن عمير - رضي الله عنه -، فنزل على أبي أمامة أسعد بن زرارة.

وكان عام خير وبركة وفتح ونصر، فأســلم على يدي مصعب بن عمير خلق كثير من الأنصار، وأسلم من كبرائهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل رجالاً ونساء في يوم واحد. ولم يبق منهم أحد إلا أسلم، حاشا الأصيرم وهو عمرو بن ثابت بن قيس فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم يومئذ واستشهد، ولم يسجد لله سجدة

فقال ﷺ عنه: «عمل قليلاً وأجر كثيراً». وأخبر ﷺ أنه من أهل الجنة. ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة.

إسلام أسيد

وما يروى من توفيق الله لمصعب بن عمير في الدعوة؛ أن أسعد بن زرارة خرج به يوماً يريد دار بني عبد الأشـهل ودار بني ظفر، فدخلا في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسـا على بئر يقال لها بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين ـ وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك ـ.

فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين الذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسـعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسـيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فأصدق الله فيه.

قال مصعب: إن يجلس أكلمه.

وجاء أسـيد فوقف عليهما متشـتماً. وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسـمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره.

فقال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن.

قـال: فـوالله! لعرفنا في وجهه الإسـلام قبل أن يتكلم، في إشـراقه وتهلله.

ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين.

فقام واغتسل، وطهر ثوبه، وتشهد وصلى ركعتين.

إسلام سعد بن معاذ

ثم قال: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن ـ يعني سعد بن معاذ ـ ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه، وهم جلوس في ناديهم.

فلما أقبل قال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد: ما فعلت؟

فقال: كلمت الرجلين فوالله! ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ـ وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ـ ليخفروك، فقام سعد مغضباً للذي ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رأهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهم متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله! سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد.

فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

قال: قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله! في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتهلله.

ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. ففعل ذلك.

ثم أخذ حربته، فأقبل إلى نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة؛ إلا رجل واحد ـ وهو الأصيرم ـ تأخر إسلامه إلى يوم أحد.

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق داراً من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر ـ وكانوا يطيعونه ـ فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

عودة مصعب

وقبل حلول موسم الحج التالي ـ أي حج السنة الثالثة عشرة ـ عاد مصعب بن عمير إلى مكة قادماً من المدينة، يحمل إلى رسول الله ﷺ

بشـــائر الفوز، ويقص عليه خبر قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، ومالها من قوة ومنعة. وما منَّ الله عليهم من الهداية والتوفيق.

وكان من أثر ذلك أن قدم على رسول الله ﷺ معه في ذي الحجة أوسط أيام التشريق منهم سبعون رجلاً، وكانت بيعة العقبة الثانية.

بيعة العقبة الثانية

بقي مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ في المدينة عاماً كاملاً يدعوا إلى الله ـ عز وجل ـ، كان فيه من الأثر والنفع الشيء الكثير. ثم عاد إلى مكة بعد أن أسلم على يديه جمع من الأنصار.

و لـما قرب موسـم الحج خرج من الأنصار من المسـلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة، وذلك في السنة الثالثة عشرة من النبوة.

فواعدوا رسـول الله ﷺ العقبة في سـريَّة تامة وبعـدٍ عن الأعين التي ترصـد، وكـان ذلك من أوسـط أيام التشريق حـين أراد بهم ـ سبحانه ـ ما أراد مـن كرامته ونصـر نبيه، وإعـزاز الإسـلام وأهلـه، وإذلال الشرك وجمعه.

فلمَّا فرغوا من الحج وكانت الليلة التي واعدوا فيها رسول الله ﷺ ناموا مع قومهم في رحالهم حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم لميعاد رسول الله ﷺ واحداً واحداً، يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى لا يلفت الأنظار خروجهم.

ثم اجتمعوا في الشعب عند العقبة، وكان عددهم ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان من نسـائهم هما: نسيبة بنت كعب أم عمارة، والثانية أسماء بنت عمر بن عدي.

قال كعب بن مالك: فاجتمعنا في الشـعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب

أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.

العباس يتكلم

فلما جلس كان أول متكلم العباس حيث قال: يا معشر الخزرج، - وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمداً منّا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

قال فقلنا له: سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

الرسول ﷺ يتكلم

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**».

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا. فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر.

وبينما البراء يكلم رسول الله ﷺ اعترض أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، ونحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

وهذا القول منهم يدل على عزمهم وتصميمهم وشجاعتهم في تحمل مسؤلية هذا الدين.

فتبسم رســـول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم. أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**». والهدم الحرمة، أي دمي دمكم وحرمتي حرمتكم.

ومن تتبع ســـيرة المصطفـــى ﷺ علم أنه قد وفى بما قـــال؛ بل وأكثر مما قال، فقد عرف للأنصار فضلهم وسابقتهم وأوصى بهم خيراً ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

تبيين الأمر

وكان العبـــاس بن عبادة قد أراد أن يؤكد لقومه أن المهمة صعبة والطريق طويل والأمر شاق، فقال: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.

قـــال مبيناً وموضحـــاً: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأســـود من النـــاس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشـــرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة.

وإن كنتـــم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف.

فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك يا رسول الله؟

قال ﷺ: «**الجنة**».

قالوا: ابسط يدك؛ فبسط يده فبايعوه.

وبعد ذلك تمت البيعة.

قـــال جابر: فقمنا إليه رجـــلاً رجلاً فأخـــذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنـــة. وأمـــا بيعة المرأتين اللتين شـــهدتا الواقعـــة فكانت قولاً، ما صافح

رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط.

النقباء

قال كعب بن مالك في حديثه: قال رسول الله ﷺ: «**أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيباً حتى يكونوا على قومهم بما فيهم**».

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس. وهم أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع ابن مالك، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر وكان إسلامه تلك الليلة، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وعبادة بن الصامت. فهؤلاء تسعة من الخزرج.

ومن الأوس ثلاثة: أسيد بن الحضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر. وقيل أبو الهيثم بن التيهان مكانه.

موقف الشيطان

قال كعب في حديثه: فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب «أي: المنازل» هل لكم في مذمم والصبأة معه، قد اجتمعوا على حربكم.

فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب، أتسمع أي عدو الله. والله لأفرغن لك**». وذلك لأن عدو الله إبليس علم أن هذا بداية عز الإسلام ونصره وفتحه.

ثم أذن لهم رسول الله ﷺ بالعودة قائلاً: «**ارفضوا إلى رحالكم**». وذلك مبالغة في الحيطة والحذر كي يبقى أمر الاجتماع سرّاً.

فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

قال فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا.

قريش والخبر

قرع هذا الخبر آذان قريش، ووقعت فيهم ضجة واستنفار لما هو قادم من العواقب من نتائج هذه البيعة. فأرادو أن يستوثقوا من الخبر قبل أن يصنعوا أمراً.

فلما أصبحوا غدت عليهم جلة قريش حتى جاؤوهم في منازلهم لمّا نُمي إليهم نبأ البيعة.

فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

قال جابر: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه.

وهذا مطابق للحقيقة والواقع؛ فإن مشركي الخزرج لا يعلمون شيئاً عن أمر هذه البيعة لأنها تمت في جنح الظلام وبسرية تامة.

قال: وصدقوا، لم يعلموا. وبعضنا ينظر إلى بعض، ولم يتحدث أحد منهم بنفي أو إثبات.

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين.

تأكد الخبر

رجعت قريش وهي تظن أن الأمر لم يقع، ولكن في ذلك المجمع العظيم بدأت تعلو علامات وأمارات أن الأمر جد، وأن البيعة قد تمت، وذلك بعد أن نفر الحجيج إلى ديارهم.

عندها انطلقوا؛ فأسرع فرسانهم في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه فيعذبونه بجمته وكان كثير شعر.

فجاء جبير بن مطعم، والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم، وكان يمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلاده إذا مروا بتجارتهم.

وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، ليستخلصوه منهم؛ فإذا هو قد طلع عليهم، فرحل القوم جميعاً إلى المدينة.

فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها، وفي قومهم بقايا من شيوخ على دينهم من الشرك، منهم عمرو بن الجموح، وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ.

عبادة الأصنام

وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له «مناة» كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهاً يعظمه ويظهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة؛ معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس منكساً على رأسه.

فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟

ثم يعود ويلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، وقال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه.

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه فعملوا به مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان عليه من الأذى، فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا

أمسى فيفعلون به مثل ذلك.

فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه وقال: إني والله ما أعلم من صنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عدوا عليه وأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل.

ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس، ثم غدا عليه عمرو فلم يجده في مكانه الذي كان فيه، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب.

فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم، وحسن إسلامه.

الهجرة إلى المدينة

لما اشتد أذى قريش للمســلمين المستضعفين، هاجر بعضهم إلى الحبشة الهجرة الأولى وهم قلة، ثم هاجر الكثيرون الهجرة الثانية.

ثم توالت بشائر النور في نصرة هذا الدين وقيامه بعد بيعة العقبة، فآمن من آمن من أهل المدينة، وعاهد من عاهد منهم مع الولاء والنصرة؛ عندها أضحى للمسلمين بالمدينة أهل ودار، ومنعة وملجأ.

وكان الصحابة يشتكون إلى النبي ﷺ ما يجدونه من المشركين من الأذى والعنت، فيثبتهم، ويصبرهم، ويعدهم فرجاً ومخرجاً من هذا الكرب.

الرضا

ولهــذا أكرمهم الله ـ عز وجل ـ بــأن ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

تلك صورة وضيئة راضية مطمئنة، ربهم راضي عنهم، وهم راضون عن ربهم. آية من آيات الولاء والبراء.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وفي الآية سر بديع، وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشــائر في الله ـ تعالــى ـ، عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم.

الرؤيا

وكان النبــي ﷺ قد رأى فيما يرى النائــم أنه هاجر من مكة إلى أرض بهــا نخل، فذهب ظنه إلى أنها اليمامة وهي بلد بنجد، أو هَجَر وهي بلد بالبحرين، ثم اســتبان له ﷺ أنها المدينة، ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ: «**أُريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين**» وهما الحرتان.

فخرج ﷺ إليهم بعد هذه الرؤية مسروراً وقال: «**قد أُريت دار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد أن يخرج فليخرج إليها**».

وقال: «**إن الله ـ عز وجل ـ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها**».

وهكذا نزل ﷺ على رغبة الصحابة لشدة ما يلاقونه من الأذى والعنت، فأذن لهم بالهجرة، وكان زمانها بعيد العقبة الأولى وقبل بيعة العقبة الثانية بنحو عام.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن الهجرة تصف حال أصحابها: كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله ـ تعالى ـ وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه...» [رواه البخاري].

وقد صادف هذا الإذن بالهجرة إلى المدينة رغبة في نفوسهم، فخرج الصحابة إلى المدينة أفواجاً وجماعات وفرادى.

منهم من خرج مستعلناً كالفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ ومن صحبه، ومنهم من خرج مستخفياً وهم الضعفاء والموالي كصهيب الرومي، ورجع الكثيرون ممن هاجر إلى الحبشة إلى مكة، ثم هاجروا منها إلى المدينة.

وأقام رسول الله ﷺ ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

هجرة أبو سلمة

وكان أول من هاجر إليها أبو سَلَمة بن عبد الأسد وهو أخو رسول الله ﷺ من الرضاع، أرضعتهما ثويبة جارية أبي لهب، وابن عمته برة بنت عبد المطلب، وهو من السابقين الأولين، ومن خيار المسلمين، استشهد بعد أحد في أوائل السنة الرابعة للهجرة، وكانت هجرته قبل بيعة العقبة الثانية بسنة، وكان قد عاد من الحبشة إلى مكة، فآذاه أهلها، فلما بلغة إسلام من أسلم من الأنصار، وعندما أذن النبي ﷺ لأصحابه كان أول مهاجر إليها،

وخرج بزوجه أم سلمة، ومعهما ابنهما سلمة.

فخـــرج يقود بهمـــا بعيره، فلما رأته رجال من بنـــي المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ وهم عشـــيرة زوجته وابنة عمه أم ســـلمة ـ قاموا إليه فقالوا: هذه نفســـك قد غَلَبْتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟

فنزعوا خطـــام البعير من يده وانتزعوها منه، فغضب عند ذلك بنو عبد الأســـد ـ رَهْط أبي ســـلمة ـ فقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا ـ ســـلمة ـ فيما بينهم حتى خلعت يده، وانطلق به بنو عبد الأسد.

أم سلمة

وأما أم ســـلمة فقد حبسها بنو المغيرة عندهم، وفرّقوا بينها وبين زوجها وولدها، ومع كل هذا انطلق أبو سلمة إلى الله مهاجراً، ولم يلو على أهل ولا ولـــد ولا مال؛ حتى وصل إلى قباء فأقـــام بها حتى قدمت إليه زوجه بعد عام.

وكانت أم ســـلمة تلك المســـلمة الضعيفة التي تفطر قلبها وذاب حسرة؛ كانت تخرج كل غداة فتجلس في الأبطح، فما تزال تبكي حتى تمسي، سنة أو قريباً منها، حتى مر بها رجل من بني عمها، فرأى ما بها، وحزنها على فراق زوجها، فـــرق لها ورحمها، وذهب لأهلها وقال لهم: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟

فقالوا لها: الْحقى بزوجك إن شـــئت، وحينئذ ردَّ بنو عبد الأســـد إليها ابنها سلمة.

تقول عن ذلك ـ رضي الله عنها ـ: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني ـ ســـلمة ـ فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي

أحد من خلق الله.

حتـــى إذا كانت بالتنعيم [هو موضـــع بالقرب من مكة] لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار.

فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟

فقالت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أوما معك أحد؟!

فقالت: لا والله إلا الله، وبُنيَّ هذا.

قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معها يهوي بها. تقـــول ـ رضي الله عنها ـ: فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل وهو المكان الذي يستريحون فيه في السفر أناخ بي ـ أي البعير ـ ثم اســـتأخر عني، حتى إذا نزلت اســـتأخر ببعيري فحطَّ عنه ـ أي الرحل ـ ثم قيده في الشـــجرة، ثم تنحَّى عني إلى شـــجرة فاضطجع تحتها.

فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فرحله ـ وضع عليه الرحل ـ، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت واســـتويت على بعيري أتى، فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي.

فلـــم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينـــة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو ســـلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

فكانت أم ســـلمة تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإســـلام أصابهم ما أصاب آل أبي ســـلمة، وما رأيت صاحباً قـــط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

عبدالله بن جحش

وممـــن هاجر أيضاً عبد الله بن جحـــش احتمل بأهله وبأخيه عبد الله بن جحش وكان رجلاً ضرير البصر، يطوف مكة أعلاها وأســفلها بغير قائد، وكان شـــاعراً، أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، وكانت عنده الفارعة بنت أبي ســفيان بن حرب، فغلقت دار بنـــي جحش هجرة، ولم يبق بها أحد.

فمر بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل ابن هشام، وهـــم مصعدون إلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال:

وكـــل دار وإن طـــالـــت ســلامـتـهـا
يــومـا ســتـدركـهـا الـنـكـبـاء والحـــوب(١)
كـــل امـــرئ بـــلـقـــاء المـــوت مـرتـهـن
كـــأنـــه غـــرض لـــلـمـــوت مـنـصـــوب

ثم قال عتبة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها.

فقال أبو جهل: وما تبكي من فل ابن فل.

ثم قال للعباس: هذا من عمل ابن أخيك هذا، فرّق جماعتنا، وشـــتت أمرنا، وقطع بيننا.

وقد عدا أبو ســفيان بن حرب على دار بنـــي جحش فتملكها، وقيل: باعها من عمرو بن علقمة العامري.

فذكر ذلك عبد الله بن جحش ـ لما بلغه ـ لرسول الله ﷺ فقال له: «**ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً في الجنة خيراً منها؟**» قال: بلى.

قال: «**فذلك لك**».

---

(١) الحوب: التوجع، وقيل الحاجة، ويقال الإثم أيضاً.

فلمــا فتحت مكة كلَّم عبد الله بن جحش رســول الله ﷺ في دارهم، فأبطأ عليه الرسول، فقال الناس: إن رسول ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء أصيب منكم في الله، فأمسك ـ رضي الله عنه ـ عن الكلام في ذلك.

صهيب بن سنان

وممن هاجر كذلك صهيب، فإنه لما عزم على الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيــراً، فكل مالك عندنا وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟

قالوا: نعم.

قال: فإني قد جعلت لكم مالي.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ربح صهيب، ربح صهيب**».

هجرة الفاروق

ثــم هاجر الفاروق عمر بــن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان قد تواعد هو وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي؛ على مكان من أضاة بني غفار، وهو موضع على عشر أميال من مكة.

وقالوا: أينا لم يصبح فقد حُبس، فليمض صاحباه.

قــال عمر: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند هذا المكان، وحبس هشام وفُتن فافتتن.

قــال علي ـ رضــي الله عنه ـ وهو يذكر هذا المشــهد العظيم والموقف الصــارم: ما علمت أن أحداً من المهاجريــن هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سـيفه، وتنكَّب قوسه، وأخرج أسهماً من كنانته، وجعلها في يديه، واختصر عَنَزته ـ أي: عصاه ـ، ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سـبعاً، ثم أتى المقام فصلى

ركعتين، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ـ أي: الأنوف ـ، من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي.

فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علَّمهم ما أرشدهم إليه، ثم مضى لوجهه، وقد صحبه في هجرته بعض أهله وقومه، كما صحبه بعض المستضعفين ليحتموا به.

وكان في ركب عمر نحو من عشرين راكباً، منهم زيد بن الخطاب، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وغيرهم.

استمرار الهجرة

ثم تتابع المسلمون سراعاً إلى الهجرة، فهاجر مصعب بن عمير، وعبد الله ابن أم مكتوم، وكانا يقرآن القرآن للأنصار، وبلال بن رباح، وسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهم ـ.

وهاجر آخرون حتى لم يبق في مكة إلا رسول الله ﷺ وأبوبكر وعلي ـ أقاما بأمره لهما ـ وإلا من احتبسه المشركون كرهاً.

وهكذا خرج المهاجرون من أوطانهم وأهلهم، وذويهم أموالهم ودورهم ابتغاء رضوان الله ـ عز وجل ـ. ولم يكن ذلك بالأمر الهين والسهل ـ فرضي الله عنهم وأرضاهم ـ.

وهكذا لم يمض شهران على بيعة العقبة الثانية إلا وقد هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة؛ إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وأهله، أو رجل محبوس، أو مريض، أو عاجز عن الهجرة.

قريش والمهاجرين

لا تزال قريش تتبع المهاجرين تارة بصدهم عن دين الله، وأخرى بمنعهم عن الهجرة إلى المدينة، ثم لما فاتها القوم وهاجروا، بدأت تتابع من هاجر منهـــم وتتقصى أخباره لتمنعه من الوصول إلـــى هدفه وتعيده إلى مكة إن استطاعت حيث العذاب والنكال.

وقد جرى لعياش بن أبي ربيعة موقفاً من ذلك. حيث خرج أبو جهل بن هشـــام وأخوه الحارث إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما المدينة، وكان رسول الله ﷺ لا يزال بمكة.

فكلم أبو جهل عياشاً، وقال له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل عن شمس حتى تراك؛ فرقَّ لها.

فقـــال له عمر: إنـــه ـ والله ـ ما يريـــدك القوم إلا يفتنـــوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشـــطت، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة لاستظلت.

فقال له: أبر قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

فقـــال له عمـــر: والله إنك لتعلم إني لمن أكثـــر قريش مالاً فلك نصف مالي، ولا تذهب معهما. ولكنه أبى عليه إلا أن يخرج معهما.

فقـــال له: أما إذا قد فعلت ما فعلت، فخـــذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم رَيْب فانجُ عليها.

فخـــرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بيَّت أبو جهل المكر والخديعـــة، وقال: يا ابن أخي ـ والله ـ لقد اســـتغلظت بعيري هذا، أفلا

تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ عياش، وأناخا ليتحول عليها، فلما استوى بالأرض عدوا عليه فأوثقاه، وربطاه، ثم دخلا به مكة وفتناه، فافتتن.

وكان دخولهما به مكة نهاراً موثقاً، فصارا يقولان: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

كتاب عمر لهشام

قال عمر: فكنَّا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولاعدلاً، ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله - تعالى - فيهم، وفي قولنا، وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٤].

فكتبها عمر بيده في صحيفة وبعث بها إلى هشام بن العاص.

قال هشام: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طُوى - مكان بأسفل مكة - أصعِّد فيها وأصوِّب، ولا أفهمها حتى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها.

قال: فألقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا.

قال: فرجعت إلى بعيري فركبت عليه، ثم لحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة.

وكان رســـول الله ﷺ قد قال وهو بالمدينة: «**من لي بعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن وائل العاصي؟**».

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة فدخلها مســـتخفياً، فلقي امرأة تحمـــل طعاماً فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟

قالت: أريد هذين المحبوسين ـ تعنيهما ـ فتبعها حتى عرف موضعهما، وكان محبوســـين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسوَّر عليهما، ثم أخذ مَرْوة ـ يعني قطعة من الحجر ـ فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعما، فكان يقال لسـيفه «ذو المروة» لذلك، ثـم حملهما على بعيره، وساق بهما، فعثر فدميت إصبعه فقال:

هـــل أنـــتِ إلا إصـــبـــع دَمِـــيـــتِ
وفـــي ســـبـــيـــل الله مـــا لـــقـــيـــت

ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة.

المشاورة في دار الندوة

بدأ نور الإسلام يظهر، وزاد عدد الداخلين في دين الله ـ عز وجل ـ.

ولم يبق بمكة من المسلمين إلا من فتن وحبسه المشركون عدا أبا بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ فقد تخلفا مع الرسول ﷺ.

وأقام رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين رجاء أن يؤذن له في الهجرة.

وكان الصديق ـ رضي الله عنه ـ قد همَّ بالهجرة إلى المدينة، فقال له النبي ﷺ: «**لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحباً**».

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ أصبح له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، خاصة بعد بيعة العقبة الثانية، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج فعرفوا أن الدار دار منعة، والقوم أهل حلقة وبأس وشوكة، بدأ الرعب يدب في أوساط قريش، وكان الخوف يسيطر عليهم فرقاً على أصنامهم وعلى مكانتهم الدينية وطرقهم التجارية.

وخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحوقه بهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم.

دار الندوة

عندها اجتمع أشرافهم ورؤساؤهم في دار الندوة، بعد بيعة العقبة الثانية بنحو شهرين ونصف تقريباً. يتشاورون في أمر النبي ﷺ الذي أقض

مضاجعهم وماذا يصنعون في الأمر.

ولم يتخلف أحد عن هذا الاجتماع من ذوي الرأي والحجا منهم، وكان من وجوههم أبو جهل بن هشام، وجبير بن مطعم، وأبو سفيان بن حرب وأمية بن خلف وغيرهم.

فلما اجتمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، اعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل عليه بتلة [وهي الكساء الغليظ]، فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفا على بابها.

قالوا: من الشيخ؟

قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، وكانت قريش تفرح بكل رأي، وتسر بكل طريق فيه خلاصها مما نزل بها.

قالوا: أجل فادخل؛ فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش.

التشاور في الأمر

وبدأ الحديث والتشاور في أمر محمد ﷺ، وماذا يصنعون.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً.

فتشاوروا؛ وكل منهم يدلي بدلوه ويطرح رأيه.

ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه

فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثرونكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

فتشاوروا في أمره، ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟

والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا.

رأي أبو جهل

فقال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابّاً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل منه ـ أي الدية ـ فعقلناه لهم.

فأعجب ذلك الشيخ النجدي وقال: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا رأي غيره.

فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له، وأخذوا في ترتيب الأمر والاستعداد لتنفيذه.

هجرة النبي ﷺ

بعد أن بيَّت المشركون مكيدة قتل النبي ﷺ والتي رأوا بعد التشاور أنها تفرق دمه بين القبائل، وينتهي أمره ويُمحى أثره.

قــدر الله ـ عز وجل ـ أمراً آخــر، رد كيدهم في نحورهم. حيث نزل الخبر من السماء. جاء جبريل رسول الله ﷺ مخبراً له بما كادوه به، ومخبراً له بأن الله أذن له في الهجرة. وأن لا ينام في فراشــه الذي كان يبيت عليه حتى لا يتمكنوا منه.

وقد أنزل الله ـ عــز وجل ـ في ذلك قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣].

وكان أبو بكر قد تجهز من قْبلُ يريد الهجرة إلى المدينة، ويلحق بأصحابه، فقال له رسول الله ﷺ: «**على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي**».

فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: «**نعم**».

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، واعتنى براحلتين كانتا عنده علفهما ورق السمر؛ وهو الخبط أربعة أشهر ليكون أقوى لها وأشد.

الإعداد للهجرة

وخرج رســول الله ﷺ يوماً في نحر الظهيرة ـ حين يستريح الناس في بيوتهــم ـ إلى بيت أبي بكر الصديق ـ رضــي الله عنه ـ ورتب معه أمور الهجرة، فجهز الراحلتين وأحســن الجهاز، واســتأجرا عبد الله بن أريقط الليثي ـ وكان على دين قريش ـ ليكون دليلاً لهما في الطريق، وكان هادياً ماهراً بالطرق. وواعداه جبل ثور بعد ثلاث ليال.

الترتيب للهجرة

تذكر عائشـــة ـ رضي الله عنها ـ ذلك اليوم بقولها: فبينما نحن جلوس فـــي بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رســـول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها.

ولعل أبو بكر ظن أن هناك شيئاً فقال: فدى له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل.

فقال لأبي بكر: أخرج من عندك.

فقال: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله.

قال: «**فإني قد أذن لي في الخروج**».

فقال أبو بكر: الصحبة بأبي يا رسول الله.

قال: «**نعم**».

قال: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين.

قال رسول الله ﷺ: «**بالثمن**».

قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطته بها على فم الجراب، فبذلك سميت «ذات النطاقين».

ثم استمر رسول الله ﷺ في أعماله اليومية وكأن الأمر ليس فيه ما فيه. حتى لا يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة، أو لأي أمر أخر اتقاء مما قررته قريش.

شجاعة علي

فلما اظلم الليل وأرخى ســـدوله، رأى رسول الله ﷺ مكانهم وتحينهم الفرصـــة، فقال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشـــي وتســـج ببردي هذا

الحضرمي الأخضر فنم عليه، فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا أتى فراشه.

فقبل علي ـ رضي الله عنه ـ ذلك بطيب نفس وانشراح، وشجاعة بالغة.

علي في فراشه ﷺ

فلما نام عامة الناس وهدأ الليل وجاء المتآمرون سرّاً إلى بيت رسول الله ﷺ وطوقوه، واجتمعوا له يرصدونه، وفيهم أبو جهل بن هشام.

فقال لهم أبو جهل وهم على باب بيت الرسول ﷺ: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها.

ورأوا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ نائماً على فراشه ﷺ متسجياً ببرده الحضرمي الأخضر، فظنوه رسول الله ﷺ وهم ينتظرون ساعة بعد منتصف الليل للانقضاض على رسول الله ﷺ، فأخذوا يختالون زهواً، ويرصدونه حتى إذا قام وخرج يثبوا عليه.

خروج النبي

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام في أوائل الليل بعد صلاة العشاء، ويخرج في النصف الأخير من الليل إلى المسجد الحرام، يصلي فيه صلاة التهجد ـ قيام الليل ـ.

وفي هجعة الليل خرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من سورة يس ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝﴾

حتى فرغ من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف من فوره إلى بيت الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان الصديق يترقب وصوله في أي لحظة بعد أن اتفقا على الصحبة في الهجرة وأعد للسفر عدته.

عندها خرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً حتى لحقا بغار ثور.

حال قريش

أما المشركون المتربصون بالنبي ﷺ القتل فكانوا يرصدونه وينتظرون خروجه. فما زالوا كذلك حتى أتاهم آت ممن لم يكن معهم.

فقال: ما تنتظرون ههنا؟

قالوا: محمداً.

قال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه التراب، وانطلق لحاجته. أفما ترون ما بكم؟

فوضع كل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم يطلعون وينظرون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى تنفس الصباح.

فقام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا فسقط في أيديهم، وسألوا علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ. فقالوا له: أين صاحبك هذا؟

فقال: لا أدري.

فعلموا وتيقنوا أنه أفلت منهم، فأصابهم الحزن والكمد ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

من الدار إلى الغار

لمـــا تطاول الأذى على رســـول الله ﷺ وعلى أصحابـــه، كانت هجرة الصحابة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، حيث وجدوا داراً ومنعة. وعندها أُذن لرسول الله ﷺ بالهجرة.

عـــن ابن عباس قال: كان النبـــي ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله عليه ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ وقال الحســـن وقتـــادة: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني مكة.

وقال قتادة: علم نبي الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله ســـلطاناً نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله، فإن الســـلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم.

وكان خروجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مكة بعد بيعة العقبة بشهرين وليال. حيث غادر بيته في ليلة الســـابع والعشرين من شهر صفر عام أربعة عشر من النبوة. وقدم المدينة لاثنتي عشرة خلت منه وذلك بعد رحلة طويلة شـــاقة، فقد أتى دار رفيقه وصاحبه أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ وأمنّ الناس عليه في صحبته وماله بعد أن تجهز بالزاد والماء.

وكان قد اســـتعد للهجرة فخرجا من داره، قبل أن يطلع الفجر، ولما كان ﷺ يعلم أن قريشاً ستبحث عنهما وسوف تجد في الطلب والبحث عنه، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو الطريق المعتاد إلى المدينة.

فقد سلك ﷺ وأبوبكر ـ رضي الله عنه ـ طريقاً غير معهودة، واتجها جنوباً حيث لحقا بغار ثور في جبل ثور وهو جبل شامخ، وعر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة، على بعد خمسة أميال من مكة.

وفاء أبي بكر

وقد وصف عمر ـ رضي الله عنه ـ بعض تلك المشاهد في تلك الليلة وما جرى فيها من أحداث فقال: خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر إلى الغار، فجعل يمشي مرة عن يمينه ومرة عن يساره، ومرة عن أمامه ومرة خلفه.

فقال له رسول الله ﷺ: **«ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من خلقك»**.

قال: يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن شمالك لا آمن عليك.

فقال: **«يا أبا بكر، لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟»**.

قال: نعم والذي بعثك بالحق.

وكان رسول الله ﷺ يمشي تلك الليلة على أطراف قدميه لتُخفي أثره حتى حفيت قدماه، وقد حمله أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ حين بلغ إلى الجبل وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار ثور في قمة الجبل. فأنزله وقال: يا رسول الله دعني أدخل قبلك، فإن كان فيه حية أو شيء كان بي دونك.

فقال: ادخل، فدخل أبو بكر وجعل يلتمس بيده، وكلما رأى جحراً قال بثوبه فشقه، ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع.

فبقي جحر فوضع أبوبكر عقبه خشية أن يخرج على النبي ﷺ منه شيء يؤذيه، وكان فيه حيات وأفاع، ثم دخل رسول الله ﷺ، وقد بلغ به

الإعياء والتعب مبلغه ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبوبكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: «**مالك يا أبابكر؟**» قال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجده.

فلما أصبح قال له النبي ﷺ: «**أين ثوبك يا أبا بكر**»، فأخبره بالذي صنع، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: «**اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنة**». فأوحى الله إليه: إن الله قد استجاب لك.

البحث عن الرسول ﷺ

أقض خروج النبي ﷺ وصاحبه مضجع قريش وثارت ثائرتها وجدَّت في طلبهما، وخرجوا يقتصُّون أثر رسول الله ﷺ وأبي بكر، وأخذوا معهم القافة. ونظراً لكثرة البحث والتتبع للنبي ﷺ فقد وصل المشركون إلى باب الغار نفسه الذي فيه الرسول ﷺ وصاحبه.

وفي مسند البزار: أن الله ـ تعالى ـ أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وإن ذلك مما صد المشركين عنه. فلما أتوا الغار طارت الحمامتان ورأوا البيض ونسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لتكسر البيض ولم يكن عليه نسج العناكب فصرفهم الله ـ عز وجل ـ بذلك عنه.

لا تحزن إن الله معنا

ويذكر أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ حاله وما مرّ بهما في الغار، في الصحيحين عن أنس أن أبا بكر قال: نظرت إلى أقدام المشركين فوق رأسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه أبصرنا.

فقال: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا**».

وروي أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة.

فعندها قال له رسول الله ﷺ: «**لا تحزن إن الله معنا**» أي بالمعونة والنصر، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ ـ وهي أمنة تسكن عندها القلوب ـ على أبي بكر؛

لأنـــه كان منزعجـــاً، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، يعني الملائكة ليحرســـوه في الغار، أو ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود، فهو ـ سبحانه ـ على كل شيء قدير لطيف لما يشاء، إن شاء ربط العالم بخيط عنكبوت، وإن شاء بأسباب غير ذلك.

البقاء في الغار

وهكذا مكث النبي ﷺ وأبوبكر في الغار ثلاث ليال: ليلة الجمعة، وليلة السبت، وليلة الأحد، حتى خمدت عنهما نار الطلب.

يبيـــت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهـــو غلام ثقف لقف، فيدلج من عندهما بســـحر، فيصبح مع قريش كبائت، فلا يســـمع أمراً يكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين يذهب ســـاعة من العشاء فيبيت عندهما يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

وكان عامـــر بن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفي عليه فلا يبقى أثر.

وكان دليلهـــم عبد الله بن أريقـــط الليثي هادياً خريتـــاً، عارفاً بالطرق والمســـالك، اســـتأجراه وأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث، وكان على دين قومه.

حب مكة

خرج النبي ﷺ وأبـــو بكر ـ رضي الله عنه ـ من الغار، وفي طريقهما وقبل أن تختفي مكة عن الأنظار نظر إليها رســـول ﷺ بعاطفة مشـــحونة بالذكريـــات وهو يودع الكعبة والبيت الحرام ومراتع الصبا والطفولة، وقف

ينظــر إليها ويقول: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت» [رواه أحمد].

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا ﷺ سنة إخوانه من الأنبياء قبله، فما من نبي منهم إلا نَبَتْ به بلاد نشــأته فهاجر عنها، كلهم على عظيم قدرهم ورفعه مقامهم أهينوا من عشــائرهم وأقوامهــم ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ١٠]. ونالهم من الأذى أشده وأعظمه؛ لكن العاقبة للمرسلين ومن تبعهم من المتقين.

حـــال مكـــة

أهم الأمر قريشـــاً فبقيت فتيانها منتظرين قيام رســـول الله ﷺ وخروجه حتى أصبحوا.

فلما أسفر الصبح قام عليّ من فراش رسول الله ﷺ فسقط في أيديهم، وســـألوه عن رســـول الله ﷺ فقال: لا علم لي به، فضربوه وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة، ولكن بدون علم وأثر.

وحين استعصى عليهم عليّاً ـ رضي الله عنه ـ ولم يجدوا جواباً، جاؤوا إلى بيت أبي بكر ووجدوا ابنته أسماء ـ رضي الله عنها ـ.

قالت أســـماء بنت أبي بكر: ولما خفي علينا أمر رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فخرجت إليهم فقال: أين أبوك؟

فقلت: والله لا أدري أين أبي.

فرفع أبو جهل يده وكان فاحشـــاً خبيثاً فلطـــم وجهي لطمة خرج منها قرطي.

هكذا وصل السفه بأبي جهل أن يؤذي امرأة، وأن يتخلَّى عن أخلاق العرب في الترفع عن مثل هذا، وأن ينزل بنفسه إلى هذا الدرك من الإسفاف.

هذه حال مكة تلك الأيام؛ حال مضطربة، وحديث عن محمد وأين هو؟

جدِّت قريش في الأمر وأهمها وبحثت في جلســـة طارئة لمواجهة الحدث المذهل الذي أفقدهم صوابهم، وقرروا مكافأة ضخمة قدرها مائة من الإبل لكل شـــخص يأتي بالنبي أو صاحبه حيين أو ميتين، فتتابع فرســـانهم في ملاحقة النبي ﷺ وصاحبه ـ رضي الله عنه ـ للظفر بالجائزة الكبيرة.

بيت الصديق

وكان من أمر بيت أبي بكر عجباً، قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبوبكر احتمل ماله كله معه، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه، فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لا أراه إلا قد فجعكم بماله مع نفسه.

فقلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً.

قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضَعْ يدك على هذا، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، وإذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم.

قالت أسماء: ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

هذا أنموذج من بيت أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فهم أهل بيت إيمان، ليس فيهم منافق، ولا يعرف هذا لغير بيت أبي بكر، وكان يقال: للإيمان بيوت وللنفاق بيوت، فبيت أبي بكر من بيوت الإيمان، وبنو النجار من بيوت الإيمان من الأنصار.

تخلف عليّ لردّ الودائع إلى أهلها

لم يكن أحد يعلم بخروج النبي ﷺ حين خرج إلا أبا بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، وقد أمره النبي ﷺ أن يتخلَّف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحد بمكة عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ لما يعلم من صدقه وأمانته؛ حتى كان يُلَقَّب بالأمين.

الطريق إلى المدينة

تفرق الجمع عن رسول الله ﷺ وصاحبه، وخمدت نار الطلب، وضعفت همـــة قريش في الوصول إليهما بعد ثلاثة أيام من البحث والمتابعة في مكة وما حولها.

أمـــا النبي ﷺ وأبوبكر - رضـــي الله عنه - فإنهما أقاما بالغار ثلاثة أيام حتى كانت ليلة الاثنين غرة ربيع الأول من الســـنة الأولى للهجرة، عندها تهيأ رســـول الله ﷺ وصاحبه لمغادرة الغار نحو المدينة، وجاءهما عبد الله ابن أريقط بالراحلتين.

وقدم أبو بكر - رضي الله عنه - أطيبهما وأحسنهما للنبي ﷺ ليركبها. وانطلـــق معهما عامر بن فهيرة فأخذ بهما الدليل طريق الســـاحل، وســـار بهم في طريق غير مأهولة وغير مطروقة لا يســـلكها أحد إلا نادراً، وســـار الدليل أمامهما، وعين الله تكلؤهما، وتأييده يصحبهما، وإسعاده يرحلهما وينزلهما.

قال أبي بكر: ارتحلنا من مكة فأحيينا أو سرينا ليلتنا ويومنا، حتى أظهرنا وقام قائـــم الظهيرة، فضربت هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا أنا بصخرة فأتيتها فإذا بقية ظلها، فسويته لرسول الله ﷺ، وفرشت له فروة، ثم قلت له: اضطجع يا رسول الله. فاضطجع.

ثم خرجت أنظر ما حولي هل أرى أحداً من الطلب، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا.

فسألته لمن أنت يا غلام؟

فقال: لرجل من قريش، فسماه فعرفته.

فقلت: هل في غنمك من لبن؟

قال: نعم.

قلت: فهل أنت حالب لنا؟

قال: نعم.

فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال هكذا. فضرب إحدى كفيه بالأخرى، فحلب لي كثبة من لبن، وقد جعلت لرسول الله إداوة على فمها خرقة فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فوافقته وقد استيقظ.

فقلت: اشرب يا رسول الله. فشرب حتى رضيت.

ثم قلت: قد آن الرحيل، فارتحلنا والقوم يطلبوننا.

وجعلت قريش مكافأة ضخمة لمن يقبض عليهما، مقدارها مائة من الإبل عن كل واحد منهما يؤتى به حيّاً أو ميتاً. وحينئذ جدَّت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب، وانتشروا في الجبال والوديان والسهول والهضاب.

ولم يدركهم أحد غير سراقة بن مالك المدلجي على فرس له، فقال أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله.

فقال ﷺ: **«لا تحزن إن الله معنا»**.

معجزة في الطريق

قال سراقة بن مالك بن جعشم يروي ما جرى له: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره.

فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس.

فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا.

ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي من وراء أكمة فتحبسها عليَّ، فأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، فدفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت بيدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها: أضرهم، أم لا؟ فخرج الذي أكره.

فركبت فرسي وعصيت الأزلام. حتى إذا سمعت رسول الله وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات؛ فدعا قائلاً: «**اللهم اصرعه، اللهم اكفناه بما شئت**».

قال سراقة: فساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين. فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان: قفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ.

فقلت لـــه: إن قومك قد جعلوا فيك الديـــة، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يســألاني إلا أن قالا: أخف عنا.

فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

فقيـــل: إن الكتاب كان معـــه إلى يوم فتح مكة، فجاء بالكتاب فوفى له رســـول الله وكان يوم وفاء وبر، فكان أول النهـــار جاهداً عليهما، وآخره حارساً لهما.

معجزة أخرى

ولما هم ســـراقة بالرجوع التفت إليه النبي ﷺ وقال: «**وكأني بك يا سراقة تلبس سواري كسرى**».

فقال سراقة متعجباً: كسرى بن هرمز، قال: «**نعم**».

قال ذلك ﷺ وهو مطارد مســـتخف من قومه، يخشـــى الطلب ويخاف الرصد. فكانت هذه من نبوءات الرسول ﷺ ومعجزاته.

فما أن أتى زمن الخليفة المجاهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وفتح الله على يديه بلاد فارس وأُتي إليه بالغنائم بين يديه وفيها ســـوارا كســـرى وتاجه وبســـاطه وجواهره الغالية. نادى عمر ـ رضي الله عنه ـ ســـراقة، وألبسه سواري كسرى.

وقال له رافعاً صوته: قل: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز. وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابيّاً من بني مدلج.

الفأل الحسن

وقد روي من تفاؤل النبي ﷺ في ســـفره ذلك أنه مر هو والركب بإبل لمالك بن الأوس الأسلمي بالجحفة ومعها غلام راع.

فقال: «ولمن هذه؟» قال: لرجل من أسلم.

فالتفت إلى أبي بكر وقال: «سلمت إن شاء الله».

قال: «ما أسمك؟» قال: مسعود.

والتفت إلى أبي بكر وقال: «سعدت إن شاء الله» وكان أبوبكر كذلك سعيداً في الدنيا والآخرة.

وقد كان ﷺ يحب التفاؤل؛ لأنه حسن ظن بالله، ويكره التشاؤم؛ لأنه سوء ظن بالله.

خيمة أم معبد

لم تمر هذه الرحلة الطويلة دون أحداث ودروس وعبر. فالطلب من كل مكان، والجوع والخوف يسـيران حذوهما، وقلة الزاد ومشقة الطريق وبعد المسافة كلها كانت في هذه الرحلة.

ورغم كل ذلك مضى رسول الله ﷺ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وارتحل معهمـا عامر بن فهيرة، وأخذ بهم الدليل ـ عبـد الله بن أريقط ـ متجهاً جنوباً نحو اليمن، ثم اتجه غرباً على طريق السـاحل، وسار مع طريق غير مطروق ولا مألوف لصرف العيون والبعد عن الطلب.

فمـروا بخيمـة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة جلـدة برزة تحتبي بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقي من مرَّ بها.

فسألاها: هل عندها شيء يشترونه؟

فقالت: والله لو كان عندنا شـيء ما أعوزكم القرى، والشـاء عازب، وكانت سنة شهباء، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة.

فقال: **«ما هذه الشاة يا أم معبد؟»**.

فقالت: هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم.

فقال: **«هل بها من لبن؟»**.

قالت: هي أجهد من ذلك.

قال: **«أفتأذنين لي أن أحلبها»**.

قالت: نعم، بأبي وأمي، إن رأيت بها حليباً فاحلبها.

فدعا رسـول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال: **«اللهم**

بارك لها في شاتها، فتفاجت فدرت واجترت».

فدعا بإناء لها يربض الرهط فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب ﷺ آخرهم، فشربوا جميعا عللا بعد نهل.

ثم حلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء فغادره عندها، ثم ارتحلوا عنها. فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزلاً.

فلما رأى اللبن عجب وقال: من أين لك هذا والشاء عازب ولا حلوبة في البيت؟

فقالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت.

قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه. صفيه لي يا أم معبد.

من صفاته ﷺ

فقالت تصفه بصفاته الجميلة كأن السامع ينظر إليه ﷺ وهو أمامه، قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة حسن الخلق لم تعبه ثجلة(١) ولم تزر به صعلة(٢) كأن عنقه إبريق فضة، وسيم جسيم، في عينيه دعج(٣)، وفي أشفاره(٤) وطف(٥)، وفي صوته صحل(٦).

ثم قالت عنه ﷺ: أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع وفي لحيته كثاثة. إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما به وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، حلو المنطق فصل، لا

(١) عظم البطن.
(٢) صغر الرأس.
(٣) شدة سواد العين.
(٤) رموش عينيه.
(٥) طول وغزارة.
(٦) بحة خفيفة.

نزر ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه عين من طول ولا تقتحمه من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذ قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا منفِّد.

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، وذُكر لنا من أمره ما ذكر. ولو كنت أنا وافقته لالتمست أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

قالت أم معبد: وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً وما في الأرض قليل ولا كثير.

ويروى أن الشاة التي لمس رسول الله ﷺ ضرعها وحلبها بقيت عند أم معبد حتى كان زمن الرمادة في سنة ثمان عشرة من الهجرة في خلافة عمر - رضي الله عنه - فهلكت.

ثم إن أم معبد هاجرت إلى النبي ﷺ وأسلمت.

الركب القادم

ولقي النبي ﷺ في أثناء الطريق الزبير بن العوام في ركب من المسلمين قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً.

هذه لمحة موجزة عن هجرة رسول الله ﷺ وما لاقاه من تعب ونصب ومشقة وعناء، - فصلوات ربي وسلامه عليه -.

يا طريداً ملأ الدنيا اسمه
وغدا لحناً على كل الشفاه
وغدت سيرته أنشودةً
يتلقاها رواةٌ عن رواه

لـيـت شـعـري هـل درى مـن طـاردوا
عـابـدوا الـلات وأتـبـاع مـنَـاْة
هـل درى مـن طـاردتـه أمـةٌ
هـبـل مـعـبـودهـا شـاهـت وشـاه
طـاردت فـي الـغـار مـن بـوأهـا
سـؤدداً لا يـبـلـغ الـنـجـم مـداه
طـاردت فـي الـبـيـد مـن شـاد لـهـا
ديـنـه فـي الأرض جـاهـاً أي جـاه
سـؤدداً عـالـى الـذرى مـا شـاده
قـيـصـر يـومـاً ولا كـسـرى بـنـاه

وصوله ﷺ إلى المدينة

ولما بلغ المسلمين خروج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، أصبحوا يترقبون مقدمه الميمون، ويتشوقون لرؤيته، فجعلوا يفدون مستبشرين كل غداة إلى الحرة خارج المدينة فينظرون ويصوبون النظر نحو الأفق ليروا رسول الله ﷺ؛ حتى يردهم حر الظهيرة وشمسٌ قائمة.

فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، صعد رجل من اليهود على أطم مرتفع من آطامهم ينظر لأمر يريده، فبصر رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن نادى بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم [أي صاحبكم] الذي تنتظرون.

فبادر المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فرحين مستبشرين. وذلك يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول، وكبر المسلمون فرحاً بقدومه وسمعت الوجبة والتكبير في بني عمرو بن عوف.

وخرج المسلمون للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، وأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه، والله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير.

فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس حينئذ رسول الله ﷺ.

النزول بقباء

ثم سار ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فنزل على كلثوم بن الهدم، وقيل على سعد بن خيثمة.

ونزل أبو بكر بالسنح على حبيب بن أساف أخي بني الحارث بن الخزرج، وقيل على خارجة بن زيد.

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام: الاثنين والثلاثاء، والأربعاء والخميس.

وكان أول عمل قام به ﷺ أن أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة، وقد صلى فيه ﷺ وأصحابه، قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨].

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله له، وأبو بكر على ردفه، وملأ بني النجار حوله. فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي وكانوا مائة رجل.

الدخول إلى المدينة

بعد أن أقام النبي ﷺ بقباء أربعة أيام؛ يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، خرج يوم الجمعة قاصداً المدينة.

وأتاه رجال من بني سالم بن عمرو بن عوف. فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، ويتشبثون بزمام ناقته القصواء.

فيقول لهم ﷺ: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**».

ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، وكلما مر بدار من دور الأنصار في الطريق عرضوا عليه أن ينزل عندهم مبالغة في إكرامه ورغبة في الخير.

وأرخى زمام ناقته لا يحركها وهي تنظر يميناً وشمالاً، فلم تزل سائرة، ولا يمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوه في النزول عليهم، ويتسابقون يأخذون بخطام راحلته محبة للنبي ﷺ، وإجلالاً لقدره ومنزلته.

ويقولون مهللين مرحبين: هلم إلى العوذ والعدة والسلاح والمنعة.

وهو ﷺ يجيبهم: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**».

وكان ذلك اليوم يوماً أغر في حياة أهل المدينة، فقد كانت البيوت والسكك ترتج بالتكبير والتحميد، والبشر يطفح على صفحات الوجوه.

فلم تزل ناقته سائرة به ﷺ حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول فنزل عنها، وذلك في بني النجار أخواله.

وكان ذلــك من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك.

وكان الأنصار مع قلة ذات اليد عندهم إلا أنهم يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وكلهم يتسابقون إلى هذا الخير العظيم والمنزلة العالية.

المرء مع رحله

وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحل رســول الله فأدخله، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله».

وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فكانت عنده.

وفــي روايــة أنس عند البخاري: فقــال نبي الله ﷺ: «أي بيــوت أهلنا أقرب؟».

فقال أبو أيوب: أنا يا رسول، هذه داري، وهذا بابي.

قال: «فانطلق فهي لنا مقيل».

قال: قوما على بركة الله.

فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه في منزله، وجاء أســعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده، وخرجت ولائد بني النجار يقلن:

نــحــن الجــوار مــن بــنــي الــنــجــار
يــا حــبــذا مــحــمــدٌ مــن جــار

فخرج إليهن رسول الله ﷺ وقال: «أتحببني؟».

فقلن: نعم.

فقال: «الله يعلم أن قلبي يُحبكن».

منزل أبي أيوب

واختــار ﷺ النزول فــي الدور الأســفــل مــن دار أبــي أيوب ليكون أقــرب لزائريه، ولكــن أبا أيوب لم يرض كرامة لرســول الله ﷺ إلا أنه

يسكنه في الدور الأعلى.

وقد أقام رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب حتى بنى مسجده وحجرته، وبعث رسول الله ﷺ وهو في منزل أبي أيوب زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد وأمه أم أيمن.

وأما زينب فلم يمكنها زوجها أبو العاص ابن الربيع من الخروج.

وخرج عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر وفيهم عائشة فنزلوا في بيت حارثة بن النعمان.

وفي الصحيح عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير، قالت: فخرجت وأنا متم، فأتيت المدينة فنزلت بقباء، ثم أتيت النبي ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ. ثم حنكه بتمرة.

قالت عائشة - رضي الله عنها -: أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما -.

ثلاثة أسئلة

وفي مقام النبي ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري جاءه عبد الله بن سلام وهو أحد أحبار اليهود وعلمائهم يسأله عن أشياء، قال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي:

ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟

قال أخبرني به جبريل آنفاً.

قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

قال: «أما أول أشــراط الســاعة فنار تحشرهم من المشــرق إلى المغرب، وأما أول طعــام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا ســبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه».

القول الحق

قال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وأنك جئت بحق.

وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وعالمهم وابن عالمهم، فادعهم فاســألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أســلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ.

فأرسل نبي الله إلى اليهود فدخلوا عليه.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فوالذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً وأني جئتكم بحق، فأسلموا».

قالوا: ما نعلمه. قالوا ذلك للنبي ﷺ ثلاث مرار.

قال: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟».

قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا.

قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم.

قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم.

قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم.

قال: «يا ابن سلام اخرج عليهم».

فقال: يا معشــر اليهود اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم تعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق.

فقالوا: كذبت. وقالوا: شرنا وابن شرنا ونقصوه.

فقال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله.

فأخرجهم رسول الله ﷺ.

مشهد مؤثر

وقال البراء وهو يذكر أوائل المهاجرين قدوماً إلى المدينة: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يُقرِئان الناس القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين راكباً.

ثم جاء رسول الله ﷺ، فما رأيت الناس فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون: هذا رسول الله، قد جاء رسول الله.

قال أنس: شهدته يوم دخل المدينة فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا، وشهدته يوم مات، فما رأيت يوماً قط كان أقبح ولا أظلم من يوم مات.

وكان رسول الله ﷺ قد غير اسم يثرب إلى طابة، والمدينة وطيبة، قال ﷺ: «**إن الله سمى المدينة طابة**» [رواه مسلم].

وفي الحديث الآخر قال عليه الصلاة والسلام: «**أمرت بقرية تأكل القُرى، يقولون يثرب، وهي المدينة...**» [متفق عليه].

التاريخ الهجري

ومن مقدمه ﷺ للمدينة، أرخ التاريخ في زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى يومنا. فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد قال: ما عدوا من مبعث النبي، ولا من وفاته؛ ما عدوا إلا من مقدمه المدينة.

بناء المسجد النبوي

عندما وصلت الناقة وبركت عند موضع مسجده، وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسـلمين. وكان مربداً لسهيل وسهل، وهما غلامين يتيمين من الأنصار، وكانا في حجر أسعد بن زرارة.

قال رسول الله ﷺ: «هذا إن شاء الله المنزل».

ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، لمكانة الصلاة في الإسلام وعظم أمرها.

فقالا: يا رسول الله بل نهبه لك.

فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً.

وفي حديث أنس في الصحيح: ثم أرسل إلى بني النجار فقال: «يا بني النجار ثامنوني في حائطكم هذا»، فقالوا: لا والله ولا نطلب ثمنه إلا من الله.

وكانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع.

فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقول:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة
فانصر الأنصار والمهاجرة

وفي حديث الزهري عن عروة: وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه، ويقول وهو ينقل اللبن:

هـذا الحمال لا حمال خيبر
هـذا أبـر ربنا وأطهر

ويقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة
فارحم الأنصار والمهاجرة

وكانوا يقولون:

لئن قعدنا والرسول يعمل
لذاك منا العمل المضلل

وصف المسجد

وجعلت قبلة المسجد إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخره، وباب يقال له باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع، وجعل عمده الجذوع، وسقفه بالجريد، وجعل عضادتيه الحجارة، وفرشت أرضه من الرمال والحصباء.

وقيل له ﷺ: ألا تسقفه؟

فقال: «لا، عريش كعريش موسى».

ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب، بل كان مدرسة لتعليم المسلمين وتوجيههم، تعقد فيه الرايات وتدار فيه شئون المسلمين، وتعقد الألوية والرايات وتأمير الأمراء، وفيه تستقبل الوفود القادمة وهو مكان للتشاور، ومجلس للقضاء للفصل بين المتخاصمين. وفيه يجتمع المسلمون إذا أهمهم أمر من أمور دينهم ودنياهم. وكان أيضاً مسكناً لمن لا دار له ولا مال ولا أهل. حيث كان في مؤخرة المسجد موضع مظلل يأوي إليه المساكين يسمى «الصفة»، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعوهم بالليل

فيفرقهم على أصحابه، ويتعشى طائفة منهم معه.

فضل المسجد

وهذا المسجد الشريف هو ثاني المساجد التي تشد إليها الرحال وقد ورد في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**».

وفي مسجده ﷺ الروضة الشريفة التي قال فيها كما في الصحيحين: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي**».

واستغرق البناء اثني عشر يوماً أتم فيها المسلمون بناء المسجد وإعداده للصلاة.

حُجر النبي

وبعد الفراغ منه بُني لرسول الله ﷺ حجر حول مسجده لتكون مساكن له ولأهله، فيها الزهد والبعد عن المظاهر والترف؛ لكن فيها أنوار الرسالة وإشراقات النبوة، فقد كانت مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النخل والجريد، قال الحسن ـ رحمه الله ـ: قد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي.

وبعد انتهاء بنائها انتقل إليها ﷺ من بيت أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ واستقر فيها ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ حتى مات ودفن في إحداها.

تنبيه

ومما ينبغي التنبيه له أن القبر الشريف ما كان في المسجد أولاً، وإنما دخل فيه لما اضطروا إلى توسعه المسجد، وإلا فالنبي ﷺ لعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. قال ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» [متفق عليه] وعن جابر بن عبد

الله ـ رضي الله عنهما ـ: «أن رسول الله نهى أن يجصص القبر وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه» [رواه مسلم].

والمسجد لم يبن على القبر بل بني في حياة النبي ﷺ، ولما مات ﷺ دفن في بيته وليس في المسجد؛ لأن بيوته ﷺ كانت خارج المسجد. كما أن إدخال بيوت النبي ﷺ ومنها عائشة مع المسجد ليس باتفاق الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم، وذلك في عام أربعة وتسعين للهجرة.

ثم أن القبر في وضعه الحالي ليس في المسجد؛ لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد، فليس المسجد مبني عليه. ولهذا جعل هذا المكان محفوظاً ومحوطاً بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة حتى لا يستقبله الإنسان إذا صلى؛ لأنه منحرف.

الزوجة عائشة

ولما فرغ من البناء؛ واستقر ﷺ في المدينة، وبنى حجرات لأزواجه دخل بعائشة ـ رضي الله عنها ـ في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد شارعاً إلى المسجد، وهو مكان حجرته اليوم، وجعل لسودة ـ رضي الله عنها ـ بيتاً آخر.

في الصحيح عن عائشة قالت: تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج، فوعكت فتمزق شعري، فأتتني أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي فصرخت بي، فأتيتها ولا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى وقفتني على باب الدار وإني لأنهج، حتى سكن نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن وأصلحن من شأني.

فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين.

قال عروة قال: توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث، فلبث سنتين أو قريباً من ذلك، ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين.

قال أبو عمرو: وكان نكاحه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لها في شوال، وابتنى بها في شوال، وكانت تحب أن تدخل النساء من أهلها في شوال على أزواجهن، وكانت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، وكانت إذا هويت الشيء تابعها عليه، ولم يتزوج بكراً غيرها.

وكانت مدة مقامها معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تسع سنين، ومات عنها ولها ثماني عشرة سنة. وكانت فقيهة عالمة فصيحة، كثيرة الحديث عن رسول الله ﷺ.

رد الودائع

وبعد أن أقام علي ـ رضي الله عنه ـ بمكة بدوره البطولي العظيم وفدا النبي ﷺ بنفسه، تأخر أياماً حتى أدى الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ للناس، ثم هاجر ماشياً على قدميه من مكة حتى لحق بالمدينة.

أذى المشركين

وأما في مكة فإن الحرب على الإسلام، قائمة فقد حبس المشركون بعض المسلمين عن الهجرة، وعذبوهم وفتنوهم عن دينهم، منهم الوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص، فكان رسول الله ﷺ يدعو لهم في الصلوات، ويدعو على من حبسهم من كفار قريش.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لما قدم النبي ﷺ المدينة كثر سكانها، وقصدها الكثير من المهاجرين وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم. تاركين الأهل والولد والدور والمال، بعضهم هاجر بزوجته وأسرته وبعضهم فرادى.

قدموا في حال غربة وضيق من العيش، فقد تركوا الأموال والدور وقدموا على إخوانهم الأنصار؛ وهم أولئك القوم من الأوس والخزرج الذين دخلوا في دين الله.

وكان من سجايا وخصال الأنصار وكرمهم أنهم كانوا يتنافسون في إنزال المهاجرين واستضافتهم في بيوتهم.

وقد أثنى الله ـ عز وجل ـ عليهم بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

وقد كان الأمر كما ذكر ـ عز وجل ـ فالأنصار ـ رضي الله عنهم ـ من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون إخوانهم المهاجرين، فقد أحسنوا إليهم وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم، بل ويؤثرون ويقدمون المهاجرين ويفضلونهم على أنفسهم في حظوظ الدنيا من مال ومسكن وغيره، ولو كان بهم حاجة وفقر وفاقه، فإيثارهم ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار ـ رضي الله عنهم ـ.

ثم زاد النبي ﷺ هذا الحب والإيثار قوة ومتانة بعقد المؤاخاة بينهم وبين المهاجرين.

وكما أن النبي ﷺ قام ببناء المسجد مركز التجمع والتآلف فقد قام ببناء آخر من أعظم الأعمال في هذا المكان والزمان، بناء توحدت فيه القلوب، وذابت فيه عصبيات الجاهلية، وفوارق النسب واللون والوطن! فكان الولاء والبراء للإسلام فحسب.

فقد آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً: نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى وقعة بدر. فلما أنزل الله ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] رد التوارث إلى الرحم دون عقدة الأخوة.

ولم تكن الهجرة إلى المدينة فراراً من التعذيب والتنكيل فحسب، بل كانت لإقامة دولة إسلامية ومجتمع متماسك قوي، ولا شك أن من أعظم ما يعين على ذلك هو ترابط أفراد المجتمع وتكافله في صورة بناء مترابط متراص، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

فآخى ﷺ بين جعفر بن أبي طالب وهو غائب بالحبشة ومعاذ بن جبل.

وآخى بين أبي بكر وخارجة بن زيد.

وآخى بين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك من بني سالم.

وآخى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع وهكذا.

مثل رائع

وكان الأنصاري سعد بن الربيع أكثر الناس مالاً، فقال لأخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف: أقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها.

قال عبد الرحمن: بارك الله في أهلك ومالك. أين سوقكم؟

يريد أن يعمل ويكسب من كد يده، فهو ليس كلٌّ على صاحبه.

فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، وما هي إلا أيام حتى اكتسب مالاً، وتزوج امرأة من الأنصار.

وروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا.

فقالوا: فتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة.

قالوا: سمعنا وأطعنا.

المعاهدة مع اليهود

بعد أن أرسى ﷺ دعائم المجتمع المسلم، وآخى بين المهاجرين والأنصار، اتجه ﷺ لتوطيد الأمن والطمأنينة في المدينة والدولة الوليدة.

فعقد مع اليهود وهم من يجاورون المدينة معاهدة قرر لهم النصح والخير، كما عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى خارج المدينة، وبهذا بدأت تظهر بشائر الدعوة وتستقر أمورها.

موت أبي أمامة

وهلك في تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زرارة والمسجد يُبنى، أخذته الذبحة أو الشهقة، قال ﷺ: «**بئس الميت أبو أمامة ليهود ومنافقي العرب، يقولون: لو كان نبيّاً لم يمت صاحبه، ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً**».

ولما مات اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله ﷺ وكان أبو أمامة نقيبهم فقالوا: يا رسول الله إن هذا الرجل قد كان منا حيث قد علمت، فاجعل لنا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أنتم أخوالي وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم**».

وكره رسول الله ﷺ أن يخص بها بعضهم دون بعض، فكان من فضل بني النجار الذي يعدون على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم، وحسبك بذلك فخراً وشرفاً، وعلوّاً ومنزلة.

رفع الأذان

كان المسلمون في مكة يصلون ولا يؤذنون ولا يظهرون الشعائر عامة لشدة أذى المشركين وتسلطهم عليهم.

فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وبدأت شمس الإسلام تشرق وتعم الربوع، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار واستحكم أمر الإسلام. قامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام.

وكان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة إنما يجتمع الناس للصلاة حين مواقيتها لغير دعوة، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجعل بوقاً كبوق اليهود الذي يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة.

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أولا تبعثون رجلاً ينادي بـ «الصلاة جامعة»، فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد ابن ثعلبة الأذان، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده، فقلت: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قال قلت: ندعو به إلى الصلاة.

فقال: أفلا أدلك على خير من هذا؟ قلت: بلى فما هو؟

قال تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي

على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «**إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك**».

فلما أذن بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج وهو يجر رداءه وهو يقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى. فقال رسول الله ﷺ: «**فلله الحمد**».

وفي الصحيح عن أنس قال: لما كثر المسلمون ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة بشيء يعلمونه، فذكروا أن يوروا ناراً، أو يضربوا ناقوساً، فذكروا اليهود والنصارى، فأمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة.

وعن ابن عمر: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلموا يوماً في ذلك فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقاً مثل بوق اليهود، فقال: أولا تبعثون رجلا منكم ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا بلال فناد بالصلاة**».

ومنذ ذلك الحين أصبح الآذن من شعائر الإسلام، وارتفع صوت الحق عالياً؛ فما أن يسمعه المسلمون حتى يُلبون النداء ويسارعون إلى الصلاة.

وباء المدينة

هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة بعد شدة وضيق، وعداء من أهلها، تركوا أهلهم وديارهم وأموالهم في هجرة إلى بلدة بعيدة عن بلادهم، فلما قدموا المدينة لم يكن الأمر ميسراً لهم، بل وجدوا فيها وباءً في أجوائها.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن المدينة: أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب الصحابة منها بلاءً وسقم، فصرف الله ذلك عن نبيه.

فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر مع أبي بكر في بيت واحد فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك، فدنوت من أبي بكر فقلت له: كيف تجدك يا أبت؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

قالت فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول.

قالت: ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه
إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه
كالثور يحمي جلده بروقه

قالت فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول.

قالت: وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت، ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادٍ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة
وهل تبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة: فذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم فقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى.

ثم أنه ﷺ دعا للمدينة وأهلها، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم وصححها وبارك لنا في مدها وصاعها، حُمَّاها فاجعلها بالجحفة**» [رواه البخاري].

قصة سلمان الباحث عن الحقيقة

من وفقه الله إلى البحث عن الحق يسَّر له الطريق وأعانه على ذلك. ها هي قصة سنوات طويلة من التعب والمشقة بحثاً عن الدين الحق يرويها الصحابي الجليل سلمان الفارسي - رضي الله عنه -. حيث أنعم الله عليه في نهايتها برفقة النبي ﷺ وصحبته؛ ووصل إلى الهداية الحقة متنقلاً بين الأماكن والبلدان والأديان.

يقول سلمانُ الفارسيُّ يروي ما جرى له: كنتُ رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها (جيّ) وكان أبي دهقانها (أي رئيسها وتاجرها)، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، فلم يزل بي حبُّه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبسُ الجارية، فاجتهدت في المجوسية، حتى كنتُ قاطن النار الذي يوقدها ويلازمها لا يتركها تخبو ساعة، وكانت لأبي ضيعةٌ عظيمة، فشغل في بنيانى له يوماً.

فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمرني ببعض ما يريد. فخرجت.

ثم قال: لا تحتبس عليّ، فإنك إن احتبست عليَّ أهمَّ إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

دخول الكنيسة

فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس بحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت إليهم انظر

ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلواتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هـذا والله خير من الدين الذي نحن عليه؛ فـوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها.

فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟

قالوا: الشـام، قال: ثم رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي وشغلته عـن عمله كله، فلما جئتُه قال: أي بني! أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟

قلت: يا أبت! مررت بناس يصلون في كنيسـة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.

قـال: أي بني! ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خيرٌ منه، قلت: كلا والله! إنه لخير من ديننا.

قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثتُ إلى النصارى، فقلت: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم.

من فارس إلى الشام

فقدم عليهم ركب من الشام، قال: فأخبروني بهم.

فقلت: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة، فأخبروني، قال: ففعلوا، فألقيت الحديـد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشـام، فلما قدمتها، قلت: مَنْ أفضلُ أهل هذا الدين؟

قالوا: الأسـقف في الكنيسـة، فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأصلي معك.

قال: فادخل، فدخلت معه، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئاً، اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع.

ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه.

فقلت لهم: إن هذا رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتم بها، كنزها لنفسه، ولم يعط المساكين، وأريتهم موضع كنزه سبع قلال مملوءة.

فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً.

فصلبوه ثم رموه بالحجارة، ثم جاؤوا برجل جعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً - يعني لا يصلي الخمس - أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً، وما أعلمني أحببت شيئاً قط قبله حبَّه، فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة.

فقلت: يا فلانَ، قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإني والله ما أحببت شيئاً قط حُبَّك، فماذا تأمرني وإلى من توصيني؟

قال لي: يا بني، والله ما أعلمه إلا رجلاً بالموصل، فائته، فإنك ستجده على مثل حالي.

إلى الموصل

فلما مات وغُيِّب، لحقت بالموصل (مدينة شمال العراق)، فأتيت صاحبها، فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهد.

فقلت له: إن فلاناً أوصاني إليك أن آتيك وأكون معك.

قال: فأقم أي بني، فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة.

فقلت له: إن فلاناً أوصى بي إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني به؟

قال: والله ما أعلم، أي بني، إلا رجلاً بنصيبين (بلاد في الشام).

إلى عمورية

فلما دفناه، لحقت بالآخر، فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت، فأوصى بي إلى رجل من أهل عمورية بالروم، فأتيته فوجدته على مثل حالهم، واكتسبت حتى كان لي غنيمة وبقيرات.

ثم احتضر فكلمته إلى من يوصي بي؟ قال: أي بني! والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، مهاجره بين حرَّتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإنَّ فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانه.

فلما واريناه، أقمت حتى مرَّ بي رجال من تجار العرب من كلب، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم غنيمتي وبقراتي هذه؟

قالوا: نعم فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا جاؤوا بي وادي القرى، ظلموني، فباعوني عبداً من رجل يهودي بوادي القرى، فوالله لقد رأيت النخل، وطمعت أن يكون البلد الذي نعت لي صاحبي.

إلى المدينة

فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من قريظة فابتاعني من صاحبي، فخرج بي حتى قدمنا المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفت نعتها.

فأقمت في رقي، وبعث الله نبيه ﷺ بمكة لا يذكر لي شيء من أمره مع ما أنا فيه من الرِّق، حتى قدم رسول الله ﷺ قباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخلة له، فوالله إني لفيها، إذ جاءه ابن عم له، فقال يا فلان! قاتل الله بني

قَيْلة (يعني الأنصـــار)، واللهِ إنهم الآن لفي قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة يزعمون أنه نبي.

فوالله ما هو إلا أن سمعتها فأخذتني العُرَوا ـ يقول الرِّعدة ـ حتى ظننت لأسقطن على صاحبي، ونزلت أقول: ما هذا الخبر؟

فرفع مولاي يده فلكمني لكمة شديدة، وقال: مالك ولهذا، أقبل على عملك: فقلت: لا شيء إنما سمعت خبراً، فأحببت أن أعلمه.

سلمان مع الرسول

فلما أمســيت، وكان عندي شيء من طعام، فحملته وذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فقلت له: بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحاباً لك غرباء، وقد كان عندي شيء من الصدقة فرأيتكم أحق من بهذه البلاد، فهاك هذا، فكل منه.

قال: فأمسك، وقال لأصحابه: «كُلُوا»، فقلت في نفسي: هذه خَلَّةٌ مما وصف لي صاحبي.

ثم رجعت، وتحوَّل رسول الله إلى المدينة، فجمعت شيئاً كان عندي، ثم جئته به فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية، فأكل رسول الله ﷺ وأكل أصحابه، فقلت: هذه خلتان.

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة، وعليَّ شملتان لي، وهو في أصحابه، فاستدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف.

فلما رآني استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فنكبتُ عليه أقبله وأبكي.

فقال لي: «تحول»، فتحولت، فقصصتُ عليه حديثي، فأعجب رســول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

إعانة الرسول له

ثم شغل سلمان الرِّق حتى فاته مع رسول الله ﷺ المشاهد العظيمة في بدر وأُحُد.

ثم قال رسول الله: كاتب يا سلمان، فكاتبت صاحبي على ثلاث مئة نخلة أحييها له بالفقير (أي الحفرة)، وبأربعين أوقية.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أعينوا أخاكم**»، فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين وديَّة، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاثة مئة وديَّة (أي نصبة).

فقال ﷺ: «**اذهب يا سلمان ففقِّرْ لها، فإذا فرغت فأتني أكون أنا أضعها بيدي**» ففقَّرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها، جئته وأخبرته، فخرج معي إليها نقرب له الوديّ، ويضعه بيده، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي عليَّ المال.

فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: «**ما فعل الفارسي المكاتب؟**» فدعيت له، فقال: «**خذها، فأدِّ بها ما عليك**».

قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليّ؟ قال: «**خذها فإن الله سيؤدي بها عنك**»، فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتهم حقهم وعتقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرّاً، ثم لم يفتني معه مشهد.

وفي إسلام سلمان الفارسي وبحثه وبذل الأسباب لمعرفة الدين الحق عبرة، وفي توفيق الله له وتيسير أمره هداية منه ومنّة.

موقف اليهود من النبي ﷺ

كانت اليهود تترقب بعثة نبي يخرج، يعلمون ذلك من كتبهم وكانوا يحبون أن يكون منهم، فلما خرج من غيرهم حسدوه، وأنكروا صفته التي في كتبهم، وعادوه وحاربوه وآذوه.

من أسباب الهداية

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا:

إن مما دعانا إلى الإسلام ـ مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ـ أن كنا نسمع من رجل من يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن؟ نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فكنا خيراً ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث الله رسول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال سلمة بن سلامة بن وقش ـ وكان من أهل بدر ـ: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل ـ وأنا يومئذ أحدث من فيه سنّاً، عليَّ فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي ـ فذكر القيامة والبعث، والحساب والميزان، والجنة والنار.

ثم قال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت.

فقالوا له: ويحك يا فلان! أوَ تَرَى هذا كائناً؛ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ويجزون فيها بأعمالهم؟!

قال: نعم؛ والذي يُحلف به وَيَوَدُّ أن له بحظه من تلك النار أعْظم تنور في الدار يُحمونه، ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً.

قالوا له: ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟

قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى نحو (مكة) واليمن. قالوا: ومتى تراه؟

قال: فنظر إليَّ وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: فوالله؛ ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغياً وحسداً.

قال فقلنا له: ويحك يا فلان! ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟

قال: بلى، ولكن ليس به.

قصة ابن الهيبان

قال عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال لي: هل تدري عَمَّ كان إسلام ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعيد، وأسد بن عبيد؟ ـ نفر من بني هدل إخوة بني قريظة؛ كانوا معهم في جاهليتهم، ثم كانوا ساداتهم في الإسلام ـ قال: قلت: لا والله.

قال: فإن رجلاً من اليهود من أرض الشام يقال له: ابن الهيبان قدم علينا قبل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرنا، لا والله؛ ما رأينا رجلاً قط

لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان! فاستسق لنا. فيقول: لا والله؟ حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة.

فنقول: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر، أو مدّين من شعير. قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقي لنا، فوالله؛ ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقي. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث.

قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهودي! ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟

قال: قلنا: أنت أعلم.

قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكَّف (أي: أتوقع وانتظر) خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجَره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهود! فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بُعِثَ رسول الله ﷺ، وحاصر بني قريظة؛ قال هؤلاء الفتية ـ وكانوا شباباً أحداثاً ـ: يا بني قريظة! والله؛ إنه لَلنَّبِيُّ الذي عهد إليكم فيه ابن الهيبان.

قالوا: ليست به.

قالوا: بلى والله؛ إنه لهو بصفته.

فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ

عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قصة الأعرابي

وروى الأمام أحمد عن رجل من الأعراب قال: جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه.

قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم، حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها؛ يعزي بها على نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجملهم.

فقَال رسول الله ﷺ: «**أنشدك بالذي أنزل التوراة؛ هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي**».

فقال برأسه هكذا؛ أي: لا. فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

فقال: «**أقيموا اليهودي عن أخيكم**». ثم وَلِيَ كفنه والصلاة عليه.

شهادة اليهودي

وذكر الفَلَتان بن عاصم، أن خاله قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ شخص بصره إلى رجل، فإذا يهودي عليه قميص وسراويل ونعلان. قال: فجعل النبي ﷺ يكلمه وهو يقول: يا رسول الله!

فقال رسول الله ﷺ: «**أتشهد أني رسول الله؟**».

قال: لا.

قال رسول الله ﷺ: «**أتقرأ التوراة؟**». قال: نعم.

قال: «**أتقرأ الإنجيل؟**». قال: نعم.

قال: «والقرآن؟». قال: لا؟ ولو تشاء قرأته.

فقال النبي ﷺ: «فبم تقرأ التوراة والإنجيل ستجدني نبيّاً؟».

قال: إنا نجد نعتك ومخرجك، فلما خرجت رجونا أن تكون فينا، فلما رأيناك عرفناك أنك لست به.

قال رسول الله ﷺ: «ولم يا يهودي؟». قال: إنا نجده مكتوباً: يدخل من أمته الجنة سبعون ألفاً بغير حساب. ولا نرى معك إلا نفراً يسيراً.

فقال رسول الله ﷺ: «إن أمتي لأَكْثَرُ من سبعين ألفاً، وسبعين ألفاً».

صفات الرسول

وروى أحمد والبخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو ابن العاص فقلت: أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: أَجَلْ؛ والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي! إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لا فظ، ولا غليظ، ولا صَخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً.

عداء اليهود والمنافقين

مجتمع المدينة الجديد حوى المسلمين من المهاجرين والأنصار، وهم الذين آخى النبي ﷺ بينهم، وقامت بينهم وشائج الإسلام ورحم الدين. وكان في المدينة مجموعات أخرى من اليهود والمنافقين وغيرهم.

ولم يكن الأذى للمسلمين في مكة فحسب، بل نصبت أحبار يهود العداوة لرسول الله ﷺ بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله به العرب من أخذه رسوله منهم، فالتقى اليهود مع المشركين من مكة وغيرهم وأجمعوا على حرب الرسول ﷺ ومنابذه هذا الدين.

وكان ﷺ قد كان وادعهم وكتب بينه وبينهم كتاباً، وهم ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة.

فحاربته الثلاث، فمنَّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة وسبى ذريتهم ونساءهم.

ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة.

وبادر حبرهم وعالمهم وسيدهم وابن سيدهم عبد الله بن سلام فدخل في الإسلام، وكان من بني قينقاع، وأبى عامتهم إلا الكفر والعناد.

وظاهرهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان على جاهليته فكانوا أهل نفاق وعلى دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جُنة من القتل. وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبي ﷺ.

وكانت أحبار يهود هم الذين يسـألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل عليه فيما يسألونه، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألونه عنها.

وكان من أولئك حيي بن أخطب وأخوه ياسر بن أخطب، وجدي بن أخطب، وسلام ابن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن أبي الحقيق أبو رافع الأعور.

إسلام مخيريق

وكان منهم مخيريق، وكان خيرهم وكان حبراً عالماً، وكان غنياً كثير الأموال، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم وقعة أحد، وكان يوم السبت، قال: يا معشر اليهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق.

قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم.

ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه إن قتلت في هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع بها ما أراه الله.

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، فكان رسول الله ﷺ يقول: «**مخيريق خير يهود**».

وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها.

وكان اليهود يستفتحون به ﷺ على الأوس والخزرج قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

فقال لهم معاذ بن جبل، وبشـر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته.

فقال سـلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي نذكره لكم.

فأنزل الله في ذلك ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال ابن صلوبا لرسـول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها.

فأنزل الله في ذلك من قوله ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

وقـال رافع بن حريملة ووهب بن زيد: يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه، وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك.

فأنـزل الله في ذلك من قولهمـا ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٨] الآية.

أشد اليهود حسداً

وكان حيي بن أخطب، وأبو ياسـر بن أخطب، من أشـد يهود حسداً للعـرب، إذ خصهم الله برسـوله ﷺ، فكانا جاهديـن في رد الناس عن الإسـلام بما اسـتطاعا، فأنزل الله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٩] الآية.

ودعا رسـول الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله ونقمته.

فقـال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليـه آباءنا، فهم كانوا أعلم منا وخيراً منا، فأنزل الله في ذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقـرة: ١٧٠] الآية.

ومر رجل عظيم الكفر، شـديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم هو: شـأس بن قيس وكان شيخاً قد عتا على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ مـن الأوس والخزرج فـي مجلس قـد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من إلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسـلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية.

فقـال: قد اجتمع ملأ بني قيلة في هذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار.

فأمر فتى شـاباً من يهود كان معه فقال: اعمـد إليهم اجلس معهم ثم ذكرهـم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشـدهم بعض ما كانـوا تقاولوا من الأشعار.

أذكاء الشر

وكان يـوم بعاث يومـاً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، فـكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سـماك أبو أسيد ابن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي فقتلا جميعاً.

وفي الصحيح عن عائشة قالت: «وكان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله، فقدم رسـول الله ﷺ المدينة وقد افترق ملأهم وقتلت سـراتهم وجرحوا؛

فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام».

ففعل الفتى، فتكلم القوم عند ذلك وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب؛ أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث بن الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا.

ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها جذعة، فغضب الفريقان جميعا وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة السلاح السلاح [والظاهرة: الحرة خارج المدينة].

فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: **«يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟»**.

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله.

أقسام الكفار

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة صار الكفار ثلاثة أقسام: قسم صالحهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه.

وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة.

وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره. ومن هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن.

الإذن بالقتال

مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشـــر عامـــاً يدعوا إلى التوحيد بالحكمة والموعظة الحســـنة، وناله من المشركين أشد الأذى وهو صابر متحسب يثبت أصحابه ويأمرهم بالصبر، وكان المســـلمون كثيـــراً ما يأتون إلى النبي ﷺ وهم ما بين مضروب ومشـــجوج ومعذب ويقول لهم: «**اصبروا فإني لم أؤمر بقتال**».

ولما هاجر ﷺ من مكة إلى المدينة، و آخا بين المهاجرين والأنصار وكانوا لحمة واحدة ويداً متماسكة. وأيده الله بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوســـهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى من أنفسهم.

عندها رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشـــمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة. وصاحوا بهم من كل جانب. وقد شرع الله الجهاد لعبادة وأمر به، وحث عليه، ومر المسلمون بثلاث مراحل في ذلك.

المرحلة الأولى

كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالصبر والعفو والصفح، اتقاء لشر المشركين مع شـــدة ما وجدوه من الأذى والتعذيب وهذه هي المرحلة الأولى وكانت في مكة.

المرحلة الثانية

لما قويت الشوكة، واشتد الجناح، أذن لهم حينئذ في القتال ولم يفرض عليهم، فقال تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ [الحج: ٣٩] وهذه أول آية نزلت في الجهاد. وهو جهاد الدفاع، وحكمه فرض عين على كل مسلم عموماً حتى يندفع شر الأعداء وهذا بإجماع علماء الإسلام.

وفي سنن النسائي والترمذي عن ابن عباس قال: لما خرج النبي ﷺ قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. فأنزل الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾.

وعلل الإذن بأنهم ظلموا، وكانوا يأتون النبي ﷺ ما بين مضروب ومشجوج، فيقول لهم: اصبروا، فإني لم أؤمر بالقتال. حتى هاجر فأذن له في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية.

المرحلة الثالثة

الأذن والأمر بقتال المشركين، وهو جهاد الطلب والابتداء، وهو تطلب الكفار في عقر دارهم ودعوتهم إلى الإسلام وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام. قال تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥].

وهي آية السيف، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله...**».

فإنه كما شرع أن يقاتلوا دفعاً عن النفس، فإنه في الآخر أذن في القتال وأمر به حتى يدخلوا في الإسلام.

وفي الآية الأخرى ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي لا يفتن مؤمن عن دينه، ويكون الدين لله، أي:

حتى يعبدوا الله لا يعبدوا معه غيره.

والمشركين يقاتلون لأجل شركهم، لا لأجل عدوانهم فحسب.

ومن أدلته الحديث المتفق عليه: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله...**».

ولم يقل: نقاتل من قاتلنا، ولا من نخشى شره.

وفي قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٩] دل على أن قتالهم بالوصف: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ هذا هو العلة.

وعند مسلم وأحمد: «**قاتلوا من كفر بالله**» هذا من البرهان على أن الكفرة يقاتلون لأجل كفرهم. والرسول أفهم الخلق، فلو كانوا لا يقاتلون إلا لأجل دفع شرهم لقال: إن قاتلوكم.

وقد وردت الآيات والأحاديث في فضل الجهاد، ومنزلة أهله، فهو ذروة سنام الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

وفـــي الحديث عنه ﷺ أنـه قال: «**إن أبـواب الجنة تحت ظلال السـيوف**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ حاثّاً على الجهاد، وما أعده الله للمجاهدين «**لغدوة في سـبيل الله، أو روحه خير من الدنيا وما فيها**» [متفق عليه].

ثمرة الجهاد

ومن تأمل في سـير المعارك والجهاد في صدر الإسلام، وفي عهد النبوة خاصة فإن عدد القتلى من المسلمين والمشركين واليهود والنصارى لا يتجاوز ألـف قتيل، ومدة الغزوات ثمانية أعوام تقريبـاً، ثم تأمل في ما آلت إليه الأمـور بعد ذلك من نشـر دين الله وتوحيـده، وعبادته على الوجه الذي يرضيه، مع ما أكرم الله به من تطبيق الحدود، وبسط الأمن، ورغد العيش، ونعمة العلم وغيرها في هذا المدة اليسـيرة من عهد النبوة من تأمل ذلك؛ علم نعمة الجهاد وفضله.

آداب الإسلام في القتال

شرع الله ـ عز وجل ـ الجهاد لأهداف معينة وغايات نبيلة؛ وهي ليست للتشفي أو إراقة الدماء بدون وجه حق، بل من كمال الشريعة ومحاسنها أن جعلت للقتال آداباً وتشريعات، وكان ﷺ يأمر ويوصي بها.

ومن ذلك أنه ﷺ كان يستحب القتال أول النهار كما يستحب الخروج للسفر أوله، فإذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى نزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر.

وكان يبايع أصحابه في الحرب على أن لا يفروا، وربما بايعهم على الموت. وبايعهم على الجهاد كما بايعهم على الإسلام، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح.

وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة الله ورسوله، وبايع نفراً من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً، وكان السوط يسقط من يد أحدهم فينزل فيأخذه ولا يقول لأحد ناولني إياه، وكان يشاور أصحابه في الجهاد ولقاء العدو أو تخير المنازل.

وفي المسند عن أبي هريرة: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

وكان من رفقه بأصحابه والعناية بهم أنه يتخلف في ساقتهم في المسير، فيزجي الضعيف ويردف المنقطع، وكان أرفق الناس بهم في السير.

وكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها حتى لا يستعد الأعداء ويستجمعوا قوتهم، وكان يقول : «الحرب خُدعة».

وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوه، ويطلع الطلائع ويبث الحرس.
وكان إذا لقي عدوه وقف ودعا واستنصر وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله، وخفضوا أصواتهم.
وكان يرتب الجيش والمقاتلة ويجعل في كل جنبة كفئاً لها، وكان يُبارز بين يديه بأمره.

الاستعداد

وكان يلبس للحرب عدة، وربما ظاهر بين درعين. وكان له الألوية.
وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً ثم قفل. وكان يُبيِّت عدوه وربما فاجأهم نهاراً.
وكان يحب الخروج بكرة يوم الخميس. وكان يستحب للرجل أن يقاتل تحت راية قومه.
وكان إذا لقي العدو يكثر من الدعاء، ويقول: «**اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم. اللهم أنزل نصرك، اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أقاتل**».
وكان إذا اشتد البأس وحمى الحرب وقصده العدو يُعلِّم بنفسه ويقول: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**».
وكان البأس إذا اشتد اتقوا به، وكان أقربهم إلى العدو، وكان يجعل لأصحابه شعاراً في الحرب يعرفون به إذا تكلموا.
وكان يحب الخيلاء في الحرب لما فيها من إظهار القوة والعزة في ذلك الموطن.
وكان ينهى عن قتل النساء والولدان، وكان ينظر في المقاتلة فمن رآه أنبت قتله ومن لم ينبت استحياه.

وكان إذا بعث سـرية يوصيهم بتقوى الله ويقول: «سـيروا بسم الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تمثلوا، ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً».

وكان ينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو.

وكان من رفقه ورحمته أن يأمر أمير سريته أن يدعو عدوه قبل القتال إما إلى الإسلام والهجرة، أو الإسلام دون الهجرة، ويكونوا كأعراب المسلمين ليـس لهم في الفيء نصيب، أو بذل الجزية. فـإن أجابوا إليه قبل منهم، وإلا استعان بالله وقاتلهم.

وكان ينهى في مغازيه عن النهبة والمثلة وقال: «من انتهب نهبة فليس منا»، وأمر بالقدور التي طبخت من النهب فأكفئت.

وكان يشدد في الغلول جدّاً ويقول: «عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة». ولمـا أصيب غلامه مدعم قال بعض أصحابه: هنيئـاً له الجنة، قال: «كلا والذي نفسـي بيده، إن الشـملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم من المقاسم لتشتعل عليه ناراً» فلما سمع ذلك المسلمون جاء رجل بشراك أو شراكين، فقال النبي ﷺ: «شراك أو شراكان من نار».

هذه بعض الآداب الشـرعية في الجهاد التـي أعظمها إخراج الناس من الظلمـات إلى النـور، وفيها من الرفق والأناة مـا لا يوجد في غيرها من دساتير العالم الوضعية، فسبحان من أنزل شرعه على عباده بالقسط والعدل والأحكام والإتقان.

البعوث والسرايا

كان المجتمع المدني يموج بفئات الكفار والمنافقين الذين يتحينون الفرص للنيل من رسول الله ﷺ والمسلمين، وكانت قريش كذلك، وكان ﷺ اتقاء لشرهم وكيدهم لا يبيت إلا ساهراً أو في حرس من الصحابة.

فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: «**ليت رجلاً من أصحابي يحرسني الليلة**».

قالت فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: «**من هذا؟**».

قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما جاء بك**».

فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام.

ولم تكن تلك الليلة يتيمة الليالي بل كان ذلك أمراً مستمرّاً، فقد قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان رسول الله ﷺ يُحرس ليلاً، حتى نزل ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: «**يا أيها الناس، انصرفوا عني، قد عصمني الله ـ عز وجل ـ**».

وكما جرى للنبي ﷺ، كان الحذر من الغدر والخيانة يهدد المسلمين أيضاً فكان لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه.

وفي هذه الظروف الحالكة والخطيرة التي تهدد الكيان الإسلامي الوليد، أنزل الله ـ عز وجل ـ الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرض عليهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج: ٣٩].

فكانت بداية للتحرك للمواجهة ودفع ورفع الظلم، ثم توالت آيات الأمر بالجهاد لإقامة الدين وإدخال الناس فيه.

ثم إن رسول الله ﷺ تهيأ لحربه، وقام فيما أمره الله به من جهاد عدوهم وقتال من أمره الله به ممن يليه من المشركين، ومشركي العرب.

أهداف الغزوات

كانت بداية الغزوات والسرايا إلى مناطق حول المدينة واستهدفت ثلاثة أمور.

الأول: ما يتعلق بإضعاف اقتصاد مكة التجاري وتهديد طريق تجارة قريش المتجهة إلى الشام.

والثانية: محاولة عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة لضمها إلى أحلاف مع المسلمين، أو تحييد موقفها من قريش، وبهذا لا تكون ضد المسلمين ولا تدخل في أي صراع معهم.

والفائدة الثالثة: في بعث هذه السريا إبراز قوة المسلمين وإظهار شوكتهم أمام اليهود والمشركين. ثم فيما بعد أصبحت لإعلاء كلمة الله ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

وقد غزى رسول الله ﷺ إحدى وعشرون غزوة، أولها غزوة الأبواء، وآخر غزوة غزاها ﷺ هي غزوة تبوك.

وما قامت راية الدين ولا ارتفعت إلا بالتضحية في سبيله والقيام بأمره حتى استوى على سوقه ورفرفت رايته، وكانت لهم العزة والغلبة فدانت لهم الأرض مشرقاً ومغرباً، وذلت لهم الرقاب، وحكموا فيها بأمر الله ـ عز وجل ـ.

ومن تلك الغزوات والسرايا ما يلي:

غزوة الأبواء

أقام ﷺ بعد قدومه المدينة اثني عشر شهراً ثم خرج غازياً، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ ودان وهي غزوة الأبواء يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فوادع فيها ضمرة وعقد ذلك معه سيد بني ضمرة مخشي بن عمرو الضمري، وكان سيدهم في زمانه ذلك.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً، فأقام بها بقية صفر وصدراً من ربيع الأول. وهي أول غزوة غزاها بنفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

أول سهم رمي

فلما انصرف رسول الله ﷺ بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المرة، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمي في سبيل الله.

وفر يومئذ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني حليف بني زهرة وعتبة بن غزوان بن جابر المازني وكانا قديمي الإسلام إلا أنهما لم يتمكنا من الوصول إلى المسلمين يومئذ.

وكانت راية عبيدة أول راية عقدها رسول الله ﷺ في الإسلام.

سرية سيف البحر

وبعث ـ عليه الصلاة والسلام ـ في مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم

مـــن الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بن هشـــام بذلك الســـاحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف القوم بعضهم عن بعض.

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رســـول الله ﷺ وكان أبيض، وكان بيد أبا مرثد كنَّاز بين حصين الغنوي.

سرية بواط

ثـــم خرج رســـول الله ﷺ في ربيع الآخر وهو صـــدر العام الثاني من مقدمه المدينة. واســـتعمل على المدينة السائب بن مظعون يريد عيراً لقريش آيبة من الشام حتى بلغ بواط من ناحية رضوى فوجد العير قد فاتته، فرجع إلى المدينة ولم يلق كيداً، فلبث بها بقية شـــهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى.

غزوة العشيرة

وأعقـــب رجوعه ـ عليه الصلاة والســـلام ـ خـــروجُ قريش بأعظم عير لها، فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقال فصاعداً إلا بعث به في تلك العير.

فخرج رســـول الله ﷺ قبل العشـــيرة، وهي ناحيـــة ينبع، في جمادى الآخرة على رأس ســـتة عشر شـــهراً، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، واستخلف على المدينة أبا سلمة ابن عبد الأسد، وخرج في خمسين ومائة، ويقال في مائتين من المهاجرين ولم يكره أحداً من الخزرج.

وخرجوا على ثلاثين بعيـــراً يعتقبونها، وكان هدفهم عيراً لقريش ذاهبة إلى الشـــام، وذلك أنه بلغه الخبر بفصولها من مكة، وفيها أموال لقريش، فسار ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه حتى بلغوا مكاناً يقال له: العشيرة

وهي من ناحية ينبع، فوجد العير قد فاتته بأيام.

وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام وهي التي وعده الله إياها، أو ذات الشوكة، ووفى له بوعده، فكانت غزوة بدر.

لم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العشيرة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة فاستاقه، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وحمل لواءه علي بن أبي طالب حتى بلغ وادياً يقال له سفوان في ناحية بدر ففاته كرز، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق حرباً.

سرية نخلة

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها جمادى الآخرة ورجباً وشعبان، وبعث ـ عليه الصلاة والسلام ـ في رجب المذكور عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة، على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة. في اثني عشر رجلاً من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير، فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش. وفي هذه السرية سمي عبد الله بن جحش أمير المؤمنين.

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فلما فتح الكتاب وجد فيه «**إذا نظرت إلى كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف فترصد بها عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم**» فقال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع. فمضوا كلهم.

وفي أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما، فتخلفا في طلبه، ونفذ عبد الله ومن معه حتى نزل بنخلة، فمرت عير

لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولي بني المغيرة.

فتشاور المسلمون فيهم وقالوا نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم.

ثم أجمعوا على ملاقاتهم، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل فأعجزهم. ثم قدموا بالعير والأسيرين.

أول قتل وأول أسير

وقد ذكر أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه: إن لرسول الله مما غنمنا الخمس، فكان ذلك أول خمس في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأول أسير في الإسلام.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**». فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين.

واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم وجدوا مقالاً. وقالوا: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام.

وتفاءلت اليهود على رسول الله بذلك فقالوا: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله.

ثم قالوا عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب، فجعل الله ذلك عليهم لا لهم، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ

وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلما نزل القرآن بذلك فرّج الله عن المسلمين، وقبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، ففادت قريش الأسيرين.

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة. وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً.

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا في حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا: يا رسول أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله فيهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢١٨] الآية.

وبعد نشر هذه السرايا وما وقع فيها علمت قريش أنها أمام خطر عسكري قادم يقطع عليها طريق التجارة ويهز مكانها لدى العرب.

وأما المسلمون فإنهم بهذه السرايا قد قويت شوكتهم وارتفعت معنوياتهم، وكأنها تهيئة ومقدمة لفتوح ومعارك أكبر. وهذا ما كان فيما بعد من غزوة بدر وما بعدها من غزوات الرسول ﷺ وأصحابه ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ.

قبلة المسلمين

كانت صلاة النبي ﷺ في مكة إلى بيت المقدس، ولكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس، وذلك بأن يقف بين الركنين الأسود واليماني.

ولما هاجر إلى المدينة استمر على ذلك حتى حولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة بعد سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة.

وروي أن أول من صلى نحو الكعبة سعيد بن المعلى الأنصاري، سمع رسول الله ﷺ يخطب بتحويل القبلة فقام فصلى ركعتين.

وكان ﷺ يحب أن يصرف إلى الكعبة، وقال لجبريل: وددت أن أصرف وجهي عن قبلة اليهود، فقال: إنما أنا عبد فادع ربك وسله.

فجعل يقلب وجهه في السماء يرجو ذلك، فنزل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية.

وفي قوله ـ عز وجل ـ لنبينا محمد ﷺ ﴿تَرْضَىٰهَا ۚ﴾، ولم يقل تهواها أو تحبها، دلالة على أن ميل الرسول ﷺ إلى الكعبة ميل لقصد الخير لا لهوى النفس، وذلك أن الكعبة أجدر بيوت الله بأن يكون قبلة، فهو أول بيت وضع للناس بالتوحيد.

وفي استقبال بيت المقدس أولاً ثم التحول إلى الكعبة إشارة إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب.

وفي البخاري أنه ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته تجاه البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت.

ومن صور الاستجابات التي كان الصحابة يقومون بها ويطيعون الرسول ﷺ فيها ما ذكر في الصحيحين عن ابن عمر قال: بينما الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاءهم رجل فقال: إن النبي ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة، ألا فاستقبلوها. وكان وجه الناس إلى الشام فاستداروا بوجوههم إلى الكعبة.

حكمة تحويل القبلة

وكان في جعل القبلة إلى بيت المقدس ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظيمة ومحنة للمسلمين والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، فأما المسلمين فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا آمنا به كل من عند ربنا، وهم الذين هدى الله ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا.

وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء.

وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه، إن كانت القبلة الأولى حقاً فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل.

وكثرت أقاويل السفهاء من الناس. وكانت كما قال الله ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليرى من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، فأنزل الله جواب السفهاء ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [البقرة: ١٤٢] أي أن الحكم والتصرف والأمر كله لله، فحيثما وجهنا توجهنا، ولو وجهنا كل يوم مرات إلى جهات عديدة فنحن عبيده وتحت طاعته ومراده.

حسد اليهود

وفي الحديث عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه أحمد من حديث عائشة أنه قال: «**إن اليهود لا يحسدوننا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين**».

وكان تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى تحول حال المسلمين وبداية دور وعهد جديد لهم في قيادة الأمة ورفعتها وعزتها، وهو ما كان ولله الحمد والمنّة.

فرض صيام رمضان

لا تزال شرائع الإسلام تتوالى وتتنزل على رسولنا محمد ﷺ، ففي شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض - عز وجل - شريعة من أعظم شرائع الإسلام وركناً من أركانه. وهو صيام رمضان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة:].

وكان نزول فرض شهر رمضان بعدما حولت القبلة بشهر في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من قدومه المدينة - عليه الصلاة والسلام -.

وفرضت زكاة الفطر قبل العيد بيومين طعمة للمساكين والفقراء، وطهرة للصائم من اللغو والرفث.

صلاة العيد

وفي هذه السنة صلى النبي ﷺ صلاة العيد، فكانت أول صلاة عيد صلاها، وخرج بالناس إلى المصلى يهللون ويكبرون الله ويعظمونه شكراً على ما أفاء عليهم من النعم العظيمة.

وبهذا بدأت معالم الشريعة تظهر وتتضح، ويرتفع صوتها في مجتمع ينمو ويكبر يوماً بعد يوم.

غزوة بدر الكبرى

هي أول معركة فاصلة بين المسلمين وقريش، وهي أكرم المشاهد. ويوم بدر هو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ودفع فيه الشرك وأهله، مع قلة عدد المسلمين، وكثرة العدو، مع ما كانوا فيه من سوابغ الحديد والعدة الكاملة، والخيول المسومة والخيلاء الزائدة.

فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي ﷺ وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله.

سببها

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التي خرج لها رسول الله ﷺ وهي متوجهة إلى الشام فلم يدركها، ولكنه لم يزل مترقباً رجوعها، ويتسمع أخبارها ويتابع سيرها.

فلما سمع برجوعها وبلغه خبر العير المقبلة من الشام مع أبي سفيان فيها أموال عظيمة لقريش، ندب أصحابه إليهم، وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو، فكانت قافلة كبيرة تزيد عن ألف بعير محملة بأموال تزيد عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً.

وقال ﷺ عن هذه العير: «**هذه عير قريش فيها أموال، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها**».

فخف بعض الناس وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، فأمر من كان حاضراً ظهره بالنهوض. فالأمر يتطلب السرعة وخفة الحركة والانقضاض سريعاً قبل فوت القافلة.

وكان خروجهم يوم السبت اثني عشر خلت من رمضان، وذلك في السنة الثانية للهجرة، واستخلف ﷺ على المدينة أبا لبابة، وخرج معه ﷺ الأنصار، ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكانت من غير قصد من المسلمين إليها ولا ميعاد، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فخرج ﷺ مسرعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وكانوا على سبعين بعيراً يعتقبونها. ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان: فرساً للمقداد، وفرساً للزبير ابن العوام. وكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي على بعير يتناوبون ركوبه.

فإذا جاء نوبته ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالا: أركب ولنمش عنك يا رسول الله، فيقول: «**ما أنتما بأقوى على المشي مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**» [رواه أحمد].

هروب القافلة

لما سار النبي ﷺ قاصداً القافلة، بلغ أبا سفيان مسيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ وخاف أن تقع العير في يد المسلمين بأحمالها وأموالها، عندها استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري أن يأتي قريشاً بمكة فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد اعترض لعيرهم في أصحابه، فنهضوا مسرعين في قريب من ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير، ولم يتخلف أحد من أشرافهم، إلا أبا لهب، وبعث مكانه العاص بن هشام كان له دين بذلك.

ولم تكتف قريش بمن معها بل حشدوا فيمن حولهم من العرب، ولم يتخلف من بطون قريش سوى عدي بن كعب، وبهذا تجهزت رجال قريش ومن معهم، فخرجوا على الصعب والذلول يحادون الله ورسوله.

وخرجوا من ديارهم كما وصفهم الله تعالى ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧] وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا، والله، ليعلمن غير ذلك. فكانوا بين رجلين، إما خارج بنفسه، وإما باعث مكانه رجلاً.

ولما أجمعوا على المسير ذكروا ما بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة من الحرب وقالوا: إنا نخشى أن نؤتى من خلفنا، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك وكان من أشرافهم فقال: أنا لكم جار أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهون.

أما رسول الله ﷺ فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون، ولم يكن خروجه إلا للعير، فعسكر ببيوت السّقيا خارج المدينة، واستعرض الجيش، فرد من ليس له قدرة على الحرب.

فخرجوا سراعاً وخرج رسول الله ﷺ فيمن خف معه من أصحابه، واستعمل على الصلاة بالناس عمرو بن أم مكتوم، ثم رد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة.

المسير

وسلك ﷺ طريقه من المدينة إلى مكة، حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً.

ونزل رسول الله ﷺ بئر الروحاء، ثم ارتحل منها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأخذ ذات اليمين على وادي ذفران وجزع، ثم نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش.

فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن.

ثم قام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن

معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسـرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: «**أشيروا عليّ أيها الناس**»، وإنما يريد الأنصار.

ثم استشـارهم ثالثاً، فتكلم المهاجرون فأحسـنوا، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. وهذا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية.

موقف الأنصار

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «**أجل**».

فقال له: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السـمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحـن معك، فوالذي بعثك بالحق لو اسـتعرضت بنا هذا البحر فخضتـه لخضناه معك، ما تخلف منا رجـل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونـا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك. وظهرت محبتهم لنصرة الدين ورغبتهم القتل في سبيل الله.

ثم قال: «**سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**».

وبعد أن سمع رسول الله ﷺ ما يسره ويشرح صدره من الأنصار؛ ارتحل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حتى نزل قريباً من بدر.

وقد أذن رسول الله ﷺ لحذيفة بين اليمان ولأبيه بعدم شهود بدر لأنهما كانا قد وعدا كفار قريش بعدم القتال معه فطلب منهما الوفاء بعهدهما.

استكشاف أمر قريش

وهناك قام بنفسه ﷺ مع أبي بكر باستكشاف أمر قريش حتى وقفا على شيخ من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغهم عنهم.

فقال: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما.

فقال له رسول الله ﷺ «**إذا أخبرتنا أخبرناك**».

قال: أو ذاك بذاك؟ قال: «**نعم**».

قال: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا؛ المكان الذي به رسول الله.

وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا؛ المكان الذي به قريش.

فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟

فقال رسول الله ﷺ: «**نحن من ماء**».

ثم انصرف عنه. والشيخ متعجب وهو يقول: من ماء؟ أمن ماء العراق؟

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى أصحابه.

إرسال العيون

فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا راوية

لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج، وعريض بن يسار غلام بني العاص بن سعيد فأتوا بهما فسألوهما لمن أنتما؟ ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء.

فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما حتى إذا لقوهما قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه ثم سلم، وقال: «**إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله، إنهما لقريش، أخبراني عن قريش**».

قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال لهما رسول الله ﷺ: «**كم القوم؟**».

قالا: كثير.

قال: «**ما عدتهم؟**».

قالا: ما ندري.

قال: «**كم تنحرون كل يوم؟**».

قالا: يوما تسعاً، ويوما عشراً.

قال رسول الله ﷺ: «**القوم ما بين التسعمائة والألف**».

ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم ابن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر ابن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود.

فأقبل رسول الله على الناس فقال: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**».

هروب أبو سفيان

أما أبو سفيان فحين علم بمسير الرسول ﷺ غير طريقه المعتاد، ولحق بساحل البحر بعيداً عن أعين المسلمين، ولما رأى أنه قد نجا وأحرز العير كتب إلى قريش أن ارجعوا فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم وليس لكم حاجة في قتال المسلمين.

فأتاهم الخبر وهم بالجحفة فهموا بالرجوع، لكن كبرائهم جعلوا قتال المسلمين والتشفي منهم، وكسر شوكتهم، وتخليص طرق التجارة من تعرضهم، وإظهار قوة قريش، هدفهم ومقصدهم.

النزول ببدر

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل أدنى ماء من مياه بدر، وسبق قريشاً إلى بدر، ومنع قريشاً من السبق إليه مطر عظيم أرسله الله تعالى مما يليهم، ولم يصب منه المسلمين إلا ما لبَّد لهم دهس الوادي وأعانهم على الحركة.

فنزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فأتاه الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح فقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**».

فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونغور ما وراءه من القلب، ثم تبني عليه حوضاً فتملؤه فنشرب ولا يشربون. فاستحسن رسول الله ﷺ هذا الرأي ونزل على رأي الحباب بن المنذر، وفعله.

العريش

وقال سعد بن عبادة: يا رسول الله، ألا تبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد

عنـــدك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فـــإن أظهرنا الله وأعزنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبّاً منهم، ولو ظنـــوا أن نلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعـــك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى رسول الله خيراً ودعا له بخير.

ثم بُني لرســـول الله عريشاً فكان فيه، يحرسه كوكبة من شباب الأنصار تحت قيادة سعد بن معاذ.

ومشـــى رسول الله ﷺ على موضع الوقعة فعرض على أصحابه مصارع رؤوس الكفر من قريش مصرعاً مصرعاً يقول: «**هذا مصرع فلان إن شاء الله، هذا مصرع فلان إن شاء الله**».

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: فوالذي بعثه بالحق نبيّاً ما عدا واحداً منهم مضجعه الذي حده رسول الله ﷺ.

ترتيب المقاتلة

وعقد رســـول الله ﷺ لواءً أبيضاً ودفعـــه إلى مصعب بن عمير، وكان أمام رســـول الله ﷺ رايتان: راية المهاجرين مع علي بن أبي طالب، وراية الأنصار مع سعد بن معاذ، وكانتا سوداوين.

وجعـــل على الســـاقة قيس بن أبـــي صعصعة أخا بني مـــازن من بني النجار.

موقف قريش

أمـــا قريش فإنها قد ارتحلت حين أصبحت، فلما رآها رســـول الله ﷺ تصـــوب من الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادلك وتكذب رسـولك، اللهـم فنصرك الذي وعدتني. اللهم أحنهم الغداة**».

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رســول الله ﷺ، منهم حكيم بن حزام، فقال رســول الله ﷺ: دعوهم، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل، إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني من يوم بدر.

عيون قريش

ولمــا اقامت قريــش بعثوا عمير بــن وهب الجمحي فقالــوا: احرز لنا أصحاب محمد. فجاء بفرســه حول العسكر فقال: ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصونــه. ولكن أمهلونــي حتى أنظر للقوم كمين أو مدد. فضرب في بطن الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً.

فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت. قوم ليس لهم منعة إلا ســيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم.

فشل المساعي

فلما ســمع حكيم بن حزام ذلك مشــى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فأشار عليه أن يرجع الناس ولا يكون حرب. فوافقه عتبة بن ربيعة.

وقام عتبة في الناس خطيباً، فأشار عليهم بالرجوع، فأبى أبو جهل ذلك ورفض وعاند، وقال: والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم به، ونطعم من حضرنا من العرب، وتخافنا العرب بعد ذلك.

وأشــار الأخنس بن شــريق عليهم بالرجوع فعصــوه. فرجع هو وبني زهرة، فلم يشهد بدراً زهري. فاغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً. وكان حليفاً لهم.

وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع. وساعده المشركون.

حال المسلمين

قرت أعين المسلمين بموعود الله، وحزموا أمرهم، ورتبوا صفوفهم. وبات رسول الله ﷺ إلى جذع شجرة هناك.

وقد وصف تلك الليلة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، بقوله: لقد رأيتنا يوم بدر وما منا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يُصلي إلى شجرة ويدعوا حتى أصبح.

ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر (أي قليل) فانطلقنا تحت الشجر والحجف [وهي التروس من الجلود ليس فيها خشب ولا عقب] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول: «**اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تُعبد**» فلما طلع الفجر نادي: «**الصلاة عباد الله**» فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال. وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها واصطف الفريقان.

وقال فتية من قريش وكانوا خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب محمد وكثرة عدوهم قالوا: غر هؤلاء دينهم.

وقدر الله من لطفه أن يقلل المشركين في أعين المسلمين، ويقلل المسلمين في أعين المشركين كي يتجرأ الجيشان وتقع الحرب، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا

وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٣ ـ ٤٤].

الشيطان يناصرهم:

وكان الشيطان معهم لا يفارقهم يرونه في كل منزل في صورة سراقة بن مالـــك لا ينكرونه، حتى إذا التقى الجمعان فر عدو الله ونكص على عقبيه فذهب فأوردهم، ثم أســـلمهم حين رأى الله أيد رسوله والمؤمنين بالملائكة وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨] الآية.

وفي صباح يوم الجمعة الســـابع عشر من شـــهر رمضان من السنة الثانية ترآي الجمعان وتزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابـــه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقـــال: «**إذا أكثبوكم [أي قربوا منكم] فارموهم، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم**».

ترتيب الصفوف

ووقف ﷺ بين الصفوف يعدلها بقضيب في يده، فمر بســـواد بن غزية حليف بنـــي النجار وهو خارج من الصف، فضربـــه بالقضيب في بطنه، وقال: «**اســتقم يا ســواد**». فقال: أوجعتني يا رسول الله، وقد بعثت بالحق والعدل، فأقِدني من نفسك.

فكشـــف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «**استقد يا سواد**». فاعتنقه سواد وقبَّل بطنه.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما حملك على ذلك؟**».

فقال: يا رســـول الله قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

الدعاء

ثم لما عدل رســـول الله ﷺ الصفـــوف، رجع إلى العريش فدخله ومعه

أبو بكر الصديق وليس معه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد**» ومازال يدعو ويتضرع إلى ربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه.

وقال أبو بكر: يا رسول الله يكفيك بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

المبارزة

بدأت المعركة بالمبارزة، وكان أول من تقدم الأسود بن عبد الأسد المخزومي وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، خرج قائلاً: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه.

فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ، فلما التقيا ضربه حمزة، فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبر يمينه، ولكن حمزه أدركه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض. وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة.

وكانت المبارزة التالية بداية المعركة الحقيقة حيث تقابل ثلاثة من خيرة فرسان المشركين؛ فقد خرج عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وابنه الوليد بن عتبة حتى نصلوا من الصف، فخرج إليهم فتية من الأنصار وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء. وعبد الله بن رواحة.

فقالوا: من أنتم؟

قالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: مالنا بكم حاجة؛ نريد بني عمنا.

ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا عبيدة بن الحارث** (ابن المطلب بن عبد مناف)، **وقم يا حمزة، وقم يا علي**».

فلما قاموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم؟

قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي.

فقالوا: أنتم أكفاء كرام.

فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد. فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه، فكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فقتلاه، وأما عبيدة فقد قطعت رجله، ومات بعد أربعة أيام بالصفراء راجعاً إلى المدينة.

وذكر أن أبا جهل قال لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة. فكان هو المستفتح على نفسه.

الهجوم

واستاء المشركون من نتيجة المبارزة، واستشاطوا غضباً فبدأت المعركة بالتحام الصفوف وبالرمي بالنبال، وشدوا على المسلمين شدة واحدة.

فكانت المعركة وحمي الوطيس ووقعت الهزيمة، فقتل الله فيها من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

وكان المسلمون على قلب رجل واحد، لا يبالون بالموت من أي طريق جاء، فقد وعدوا بإحدى الحسنيين؛ إما الظفر والنصر أو الموت والشهادة.

ثم رُمي مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقُتل؛ فكان أول قتيل من المسلمين، ثم رمى حارثة بن سراقة أحد بني النجار وهو يشرب من الحوض

فأصاب نحره فقتل فكان أول قتيل من الأنصار.

بث الحماس

ثم حرض رسول الله ﷺ الناس على القتال وقال: «**والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الجنة**».

فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل ـ رحمه الله ـ.

وكذلك سأله عوف بن الحارث ـ ابن عفراء ـ فقال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غمسة يده في العدو حاسراً. فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصى فاستقبل بها قريشاً ثم قال: شاهت الوجوه. ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال: شدوا.

قال ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «**يا رب، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً، فقال له جبريل: خذ قبضة من تراب**». فأخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

مدد السماء

واستجاب الله دعاء نبيه فامده بمدد من السماء، أمده الله بالملائكة عوناً ونصراً للمستضعفين. قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩].

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاء، ثم رفع رأسه، وقال: «**أبشر أبا بكر، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع**» [أي على أطرافه الغبار].

قال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين

أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه مستلقياً فنظر فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع.

فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: **«صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة»**.

قال عكرمة: كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدري من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدري من ضربها.

قتل أبي جهل

وبعد أن اشتدت المعركة وحمي الوطيس، وظهرت بشائر النصر للمسلمين، كان فرعون هذه الأمة أبو جهل يؤلب على قتل المسلمين ويحث على النزال والقتال ويقول: لا يهزمنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على ميعاد مع محمد، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد عجلوا، فو اللات والعزى، لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال، ولا ألفين رجلاً منكم قتل منهم رجلاً، ولكن خذوهم أخذاً، حتى نعرفهم بسوء صنيعهم.

ولما اشتد القتال وتلاحمت الصفوف وارتفعت السيوف كان من الهلكى فرعون هذه الأمة أبو جهل.

قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه: ياعم أرني أبا جهل.

فقلت: يا ابن أخي فما تصنع به؟

قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ.

قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى صرت الأعجل منا. فتعجبت لذلك.

قال وغمزني الآخر فقال لي مثلها. فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه. وكان هؤلاء الفتية: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء ـ رضي الله عنهما ـ.

فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ضرب أحدهما ساقه فطاحت رجله كما تطير النوى حين تدق، وأثخنه الآخر حتى تركه وبه رمق.

ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فقال: «**أيكما قتله؟**» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته.

قال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**» فقالا: لا.

فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال: «**كلاكما قتله**» [رواه البخاري].

وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، وقد استشهد في نفس المعركة.

وأما معاذ بن عفراء فعاش وامتدت به الحياة إلى زمن عثمان ـ رضي الله عنهما ـ.

ابن مسعود يعتلي أبا جهل

وفي الصحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ينظر ما صنع أبو جهل؟**» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد.

وقال: أأنت أبو جهل؟

قال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق، فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه. وكان ضبث بي (أي قبض علي ولزمني). مرة بمكة فآذاني ولكزني.

ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟

قال: وبماذا أخزاني، أعمد من رجل قتلتموه. أخبرني لمن الدائرة؟

قال قلت: لله ولرسوله.

وذكر أن عبد الله بن مسعود كان يقول: قال لي: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم.

قال عبد الله بن مسعود: ثم احتززت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل.

قال فقال: «آلله الذي لا إله غيره؟» قال: وكانت يمين رسول الله.

قال قلت: نعم والذي لا إله غيره.

ثم ألقيت برأسه بين يدي رسول الله، فحمد الله.

وفي رواية أخرى فقتله عبد الله ثم أتى النبي ﷺ فقال: قتلته.

فقال: «الله الذي لا إله غيره؟» فرددها ثلاثاً.

ثم قال: **«الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. انطلق بي فأرنيه»**. فانطلقنا فأريته إياه فقال: **«هذا فرعون هذه الأمة»**.

أمية بن خلف

وأسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف وابنه عليا، فأبصره بلال وكان يعذبه أمية بمكة فقال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا.

ثم خرج حتى وقف عند مجلس من مجالس الأنصار فقال: يا معشر الأنصار، أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية.

فخرج فريق من الأنصار واشتد بهما عبد الرحمن بن عوف يحرزهما منه فأدركوه، فشغلهم عن أمية بابنه ففرغوا منه، ثم لحقوهما.

فقال عبد الرحمن: ابرك، فبرك، فألقى عليه نفسه، فضربوه بالسيوف من تحته حتى قتلوه. وأصاب بعض السيوف رجل عبد الرحمن بن عوف.

الشجاع حمزة

وقال أمية قبل ذلك: من الرجل منكم المعلم في صدره بريش النعام؟

فقال: ذاك حمزة بن عبد المطلب. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

وكان مع عبد الرحمن أدراع قد استلبها، فلما رآه أمية قال له: أنا خير لـك من هذه الأدراع. فألقاها وأخذ بيده ويد ابنه وأمية يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟

فلما قتلته الأنصار كان يقول: يرحم الله بلالاً، فجعني بأدراعي وبأسيري.

معجزة

وكان رسول الله ﷺ قد أخبر بقتله قبل ذلك، وأخبره بذلك سعد بن معاذ لما قدم مكة معتمراً ونزل على أمية، فكان أمية إذا قدم المدينة نزل على سعد، فرآه أبو جهل يطوف فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟

فقال سعد: أنا سعد.

فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنا وآويتم محمداً وأصحابه؟

فقال: نعم، فتلاحيا بينهما.

فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي.

فقال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام.

قال فجعل أمية بن خلف يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه.

فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يزعم أنه قاتلك.

قال: إياي؟ قال: والله ما يكذب محمد.

وفي رواية: فإني سمعت رسول الله يقول: إنهم قاتلوك.

قال: بمكة؟ قال: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال أخي اليثربي؟

قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي.

قالت: فوالله ما يكذب محمد.

فلما جاء الصريخ وخرجوا إلى بدر، قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال أخوك اليثربي؟ فأراد أن لا يخرج، خوفاً مما ذكره له رسول الله ﷺ.

فقال له أبو جهل: إنك من أشـــراف الوادي، فسر يوماً أو يومين. فسار معهم حتى قتله الله.

معجزة أخرى

وانقطع يومئذ ســـيف عكاشـــة بن محصن فأعطاه النبي ﷺ جذلاً من حطـــب فقـــال: دونك هذا؛ فلما أخذه عكاشـــة وهزه عاد في يده ســـيفاً طويلاً، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل أيام أبي بكر، قتله طليحة الأسدي شهيداً.

القتل والأسر

ولما وضع المســـلمون أيديهم في العدو يقتلون ويأسرون، وسعد بن معاذ واقف على باب الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ وهي العريش متوشحاً في ناس من الأنصار، ورأى رسول الله في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «**كأنك تكره ما يصنع الناس؟**» فقال: أجل والله، كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين، وكان الإثخان في الحرب أحب إليَّ من استبقاء الرجال.

لقـــد كانت معركة بدر معركة فاصلة بين الحق والإيمان، معركة الفرقان، قاتل فيها الرجل عمه وأباه، وابنه وأخاه، وخاله وأدناه، قتل فيها عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنها ـ خاله العاص بن هشام، وواجه أبوبكر ابنه عبد الرحمن، وأسر فيها المسلمون العباس عم رسول الله ﷺ.

وهكـــذا انقطعت فيها صلة القرابة الدنيوية، وبقيت محبة الله ورســـوله وموالاة المسلمين ومعاداة الكافرين.

بعد المعركة

ولما انقضت الحرب والتي انتهت بنصر مؤزر للمسلمين، وهزيمة مخزية للمشركين أقبل رسول الله ﷺ، وكان اليوم الثالث من إقامته ﷺ ببدر.

ووقف على القتلى فقال: «**بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس**».

ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قلب بدر فطرحوا فيه.

وفي الصحيح عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان بدر في اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه.

وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟**».

قال فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها.

فقال النبي ﷺ: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**».

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً ونقمة وحسرة وندامة.

وقد قتل منهم في هذه المعركة سبعون، وأسر سبعون ومعظمهم كانوا من الصناديد. وقد سحبت جثث أربع وعشرين منهم وقذفت في القليب.

الشهداء

وقتل من المسلمين أربعة عشر شهيداً ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ولم يغسلوا ولم يصل عليهم كعادة الشهداء في المعركة وأمر

بدفنهم بدمائهم، ولم ينقل أحد منهم من بدر ليدفن في المدينة.

مصعب بن عمير

وكان ممن قتل مصعب بن عمير، صاحب لواء رسول الله ﷺ، ومن أنعم فتيان قريش قبل الإسلام، فكفن في بُردة، إن غطي رأسه، بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه، بدت رأسه، فقال النبي ﷺ: «**غطو بها رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر**».

وكان ﷺ يجمع بين الرجلين من شهداء أحد في ثوب واحد، ثم يقول: «**أيهم أكثر أخذاً للقرآن**» فإذ اشير إلى أحد قدمه في اللحد، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة**».

ولأهل بدر منزلة عظيمة ومكانة رفيعة أخبر النبي ﷺ أن الله اطلع على أهل بدر فقال: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» [رواه البخاري].

وفي الصحيح عن معاذ بن رفاعة الزرقي وكان بدريّاً، وكان أبوه شهد العقبة قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين. قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة. فكان رافع من أهل العقبة، وكان رافع يقول لابنه: ما يسرني أني شهدت بدراً بالعقبة.

وقد جاءت الآيات والأحاديث في فضل الشهيد وماله من الكرامة والمنزلة في الحديث أنه ﷺ قال: «**للشهيد عند الله سبع خصالك يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته**» [رواه أحمد].

* ملاحظة:

قُتل مصعب بن عمير - رضي الله عنه - في غزوة أحد، ووضع هنا بالخطأ؛ فمعذرة.

العودة بعد النصر

لما أنعم الله على نبيه ﷺ وصحابته بهذا النصر المؤزر في بدر، ورد كيد الكفار في نحورهم وأخزاهم وأذلهم؛ بعث رسول الله ﷺ يبشر أهل المدينة بهذه النعمة العظيمة، فأرسل عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله عليه وعلى المسلمين، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة.

وكان اليهود قد أرجفوا في المدينة بإشاعات باطلة، وأن الواقعة كانت على المسلمين، فلما وصل نبأ الفتح والنصر المؤزر عم الفرح والسرور، وارتجت المدينة بالتكبير والتهليل والحمد لله رب العالمين.

قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر ـ حين سوينا على رقية بنت رسول الله التي كانت عند عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ، وكان رسول الله ﷺ خلفني عليها مع عثمان ـ وعلمت أن زيد بن حارثة قد قدم، قال فجئته وهو واقف بالمصلى وقد غشيه الناس وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص بن هشام، وأمية ابن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج.

قال قلت: يا أبة أحق هذا؟ قال: نعم والله يا بني.

ثم قفل رسول الله إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين وفيهم عقبة ابن أبي معيط والنضر بن الحارث، واحتمل رسول الله ﷺ معه النفل الذي أصيب من المشركين، وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف من بني النجار، حتى إذا كان بالصفراء قسم الغنائم وضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة.

قتل عقبة

ثـــم لما نزل بعرق الظبية ضرب عنق عقبة بن أبي معيط، فقال عقبة حين أمر رســـول الله بقتله: من للصبية يا محمد! قال: النار. فقتله عاصم بن ثابت الأنصاري، ويقال علي بن أبي طالب.

فأين هذا الطاغية حين قتله، عن فعله الشنيع عندما كان يضع سلاة شاة على رأس النبي ﷺ ويشتد في ايذائه والسخرية منه.

ثم ســـار رسول الله ﷺ حتى دخل المدينة مؤيداً مظفراً منصوراً قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم كثير من أهل المدينة. وتظاهر عبد الله بن أُبي المنافق وأصحابه بالإسلام.

الوصية بالأسرى

وأقبل ﷺ بالأســـارى وفرقهم بين أصحابه وقال: «**استوصوا بالأسـارى خيراً**». فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى.

فقال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شد يدك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديك منه.

قـــال: وكنت في رهط من الأنصار حـــين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشـــاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة من خبز إلا نفحني بها.

قال: فأستحي فأردها عليهم فيردها علي ما يمسها.

فلما قال أخوه مصعب لأبي اليســـر وهو الذي أسره ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك؟

فقال له مصعب: إنه أخي دونك. فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها.

ولما ولي عمر بن الخطاب وثاق الأسرى وثاق العباس، فسمعه النبي ﷺ وهو يئن فلم يأخذه النوم، فبلغ الأنصار فأطلقوا العباس. فكأن الأنصار فهموا رضاء رسول الله ﷺ بفك وثاقه، وسألوه أن يتركوا له الفداء.

فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا فداءه، فقال: «**لا تدعون له درهماً**».

وفي حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: «**يا عباس افد نفسك وابني أخويك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمر**».

قال: إني كنت مسلماً، ولكن القوم استكرهوني.

قال: «**الله أعلم بما تقول إن يكن ما تقول حقّاً فالله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا**».

قال: ما ذاك عندي يا رسول الله.

قال: «**فأين المال الذي دفنته أم الفضل؟**» فقلت: إن أصبت فالمال الذي دفنته للفضل وعبد الله وقثم؟.

قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا شيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي.

قال رسول الله: «**ذاك شيء أعطانا الله منك. ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه**»، وأنزل الله فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠] الآية.

الاستشارة في أمر الأسارى

لما بلغ رسول الله ﷺ المدينة واستقر بها استشار أصحابه في الأسارى، وقال لهم: «**ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟**».

قال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، واستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم.

وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب فأضرم الوادي عليهم ثم ألقهم فيه.

فسكت رسول الله فلم يرد عليهم شيئاً.

ثم قام فدخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة.

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن شاء الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى بن مريم قال:** ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

وإن مثلك يا عمر مثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

وإن مثلك يا ابن رواحة كمثل نوح قال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦].

أنتم عالة فلا يفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق».

قال ابن مسعود: قلت يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام.

فسكت رسول الله ﷺ. فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «**إلا سهيل بن بيضاء**» فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] الآيات.

فنزل القرآن بقول عمر، قال عمر: فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت.

فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان.

قلت يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت و صاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة. [شجرة قريبة من النبي ﷺ]. وأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨] .

رأي عمر وسعد

ولم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فإنه أشار على رسول الله بقتل الأسرى، وسعد ابن معاذ الذي قال: الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال.

فقال رسول الله: لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ.

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: جاء جبريل إلى النبي ﷺ : فقال: خير أصحابك في الأسارى، إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم عاماً قابلاً مثلهم. قالوا الفداء ويقتل منا.

فنادى النبي ﷺ في أصحابه فجاؤوا أو من جاء منهم فقال: «**هذا جبريل يخيركم بين أمرين: أن تقدموهم فتقتلوهم، وبين أن تفادوهم ويستشهد في قابل منكم بعدتهم، فقالوا بل نفاديهم ونتقوى به عليهم ويدخل قابلاً منا الجنة سبعون**».

وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم.

وعن عامر الشعبي قال: أسر رسول الله يوم بدر سبعين أسيراً، وكان يفاديهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه.

الغدر

وكان ممن منَّ عليه رسول الله ﷺ المطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الجمحي، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً وكان محتاجاً ذا بنات.

فقال: يا رسول الله لقد عرفت مالي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامنّن عليَّ، فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً.

ثم أسره ثانية فقال: يا رسول الله أقلني، فقال: «**والله لا تمسح عارضك بمكة تقول خدعت محمداً مرتين، اضرب عنقه يا زبير**»، فضرب عنقه.

العاص بن الربيع

وممن منَّ عليه رسول الله ﷺ أبو العاص ابن الربيع زوج زينب ابنته بعد أن بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ بفدائه، وكان رسول الله قد أخذ عليه أو وعد رسول الله ﷺ أن يخلي سبيل زينب.

فلما خرج أبو العاص إلى مكة بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها.

فخرجا، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها.

سهيل بن عمرو

وقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل ابن عمرو وكان الذي أسره مالك ابن الدخشم وكان سهيل أعلم من شفته السفلى، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله انزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً.

فقال رسول الله ﷺ: «**لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبيّاً**».

وقال رسول الله ﷺ لعمر في هذا: إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه. وقد كانت هذه من معجزات الرسول ﷺ فقد وقع ما قال، ووقف سهيل ابن عمرو موقفاً عظيماً في تثبيت الناس في مكة يوم موت النبي ﷺ.

عمرو بن أبي سفيان

وكان عمرو بن أبي سفيان أسيراً في يدي رسول الله.

فقيل لأبي سفيان: أفد عمراً ابنك، فقال: يجمع عليَّ دمي ومالي، قتلوا حنظلة، وأفدي عمراً، دعوه في أيديهم يمسكونه ما بدا لهم.

فبينا هو كذلك إذ خرج سعد بن النعمان أخو بني عمرو بن عوف معتمراً، فعدا عليه أبو سفيان فحبسه بابنه عمرو، وقد كان عهد قريش لا يعرضون لأحد جاء حاجّاً أومعتمراً إلا بخير.

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبره وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان فيفكوا به صاحبهم، ففعل رسول الله ﷺ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد.

السائب بن يزيد

ومن الأسرى السائب بين يزيد، وكان صاحب الراية في تلك الحرب، فدى نفسه، وهو الجد الخامس للإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ.

الوليد بن الوليد

ومن الأسرى الوليد بن الوليد، افتكه أخواه خالد وهشام، فلما افتدي ورجع إلى مكة أسلم، فقيل له: هلَّا أسلمت قبل الفداء؟ فقال: خفت أن يعدوا إسلامي خوفاً.

من شهد بدراً

وجملة من حضر بدراً من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس واحد وستون ومن الخزرج مائة وسبعون. قالوا: وإنما قلَّ عدد الأوس عن الخزرج وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء أن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتة، وقال النبي ﷺ: «**لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً**» فاستأذنه رجال ظهورهم في عوالي المدينة، أيستأني لهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم.

من ضرب له بسهم

وقد ضرب النبي ﷺ بسهم لطلحة بن عبيد الله وكان بالشام في تجارة فضرب له رسول الله بسهمه وأجره.

وكان سعيد بن زيد أيضاً غائباً بالشام، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

وكان عثمــان ـ رضــي الله عنه ـ تخلف على امرأته رقية بنت رســول الله، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه من الغنيمة وأجره فهو بدري. وبقي ليمرضها، فتوفيت قبل رجوعه ﷺ.

قال أسامة: أتانا الخبر ـ أي بشارة الفتح ـ حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ.

زواج عثمان

ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وأطمأن بها، زوج عثمان بن عفان ابنته الأخرى: أم كلثوم. فلذلك ســمي ـ رضي الله عنها ـ بذي النورين، وقد بقيت معه حتى توفيت في شعبان سنة تسع من الهجرة ودفنت بالبقيع.

وصول خبر بدر إلى مكة

في حين عمَّ البشـر والفرح المدينة، خيم الحزن والجزع على أهل مكة. فقد قتل أبطالها وسـاداتها، وأسـر صناديدها ورجالها، وانخذلت قوتها؛ فقد تلقت الخبر المفزع والأمر المخزي.

وكان أول مـن قدم مكة بمصاب قريش الحيمسـان بن عبد الله الخزاعي فقالوا: ما وراءك؟

قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم ابن هشام، وأمية ابن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البختري ابن هشام.

فلمـا جعل يعد من أشـراف قريش أصابهم الذهول وعقدت ألسـنتهم المفاجأة، فكان أن قال صفوان بن أمية مستنكراً الأمر وهو قاعد في الحجر: والله إن يعقل هذا فاسألوه عني.

قالـوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: ها هو ذا جالس في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وفـي حديث أبي رافع: لما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر كبت الله أبا لهب وأخزاه، فقام يجر رجليه بشر حتى جلس.

فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قدم.

فقال أبو لهب: هلم إليَّ، عندك لعمري الخبر.

فجلـس إليه والناس قيـام فقال: يا ابن أخـي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟

قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاؤوا.

وايم الله مع ذلك مالمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض لا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع وكان غلاماً للعباس: وكان الإسلام قد دخلنا وسرنا ذلك، تلك والله الملائكة.

مقتل أبو لهب

قال: فرفع أبو لهب يده فضربني في وجهي ضربة شديدة، فقامت أم الفضل إلى عمود فضربت به في رأس أبي لهب وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده؟

قال: فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة وهي قرحة تتشاءم بها العرب فتباعد عنه بنوه حتى قتله الله.

وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه. فلما خافوا السبة في تركه حفروا له ثم دفعوه بعود في حفرته وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه.

من نتائج المعركة

وكان من نتائج معركة بدر أن دخل الكثير في الإسلام، وبعضهم دخل حماية لمصالحة بعد أن شعر برجحان كفة المسلمين.

وقبل بدر لم يكن هناك إلا إسلام وكفر، لكن بدأت بعد بدر نابتة النفاق، وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وعلى رأسهم عبدالله ابن أُبي بن سلول.

غزوة بني سليم

كانـــت غزوة بـــدر وما أنزل الله فيها من العز والتمكين للمســـلمين هي أول مواجهة حقيقة بين المســـلمين والمشركين، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين عزّاً، وأنزلت في القبائل ذعراً وخوفاً من قوة المسلمين المتزايدة.

وكان هناك الأعراب خارج المدينة وهم أصحاب ســـلب ونهب لا يلوون على شـــيء، فكان هذا النصر في بدر تحذيراً لهم وصدّاً يمنعهم ما هم فيه من سلب ونهب وإغارة على الغادي والرائح.

ولمـــا بلغـــه ﷺ أن بهذا الموضع جمعاً من بني ســـليم وغطفان يريدون الســـلب والنهب، ســـار إليهم، فبلغ ماء يقال له قرقـــرة الكدر، فلم يجد أحداً، وكان ذلك وفي أوائل شوال، وقيل بعد بدر بسبعة أيام.

فأقـــام بها ثلاث ليال وقيل عشـــراً وكانت غيبته خمس عشـــرة ليلة، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري وقيل ابن أم مكتوم. وحمل اللواء علي بن أبي طالب، وقيل إنه أصاب لهم نعماً يزيد على خمســـمائة وغلاماً يقال له يسار فأعتقه، ورجع ولـم يلق كيداً.

لكـــن هذه الغزوة لهـــا معان واضحة في ازدياد قوة المســـلمين ورغبتهم توطين الأمن.

غزوة السويق

بعدما أصاب مشركي مكة ما أصابهم في بدر، نذر أبو سفيان بن حرب أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتي راكب مــن قريش ليبر يمينه حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب من المدينة على بريد أو نحوه.

خرج تحت جنح الظلام حتى قدم إلى بني النضير، فأتى حيي بن أخطب فضــرب عليــه بابه فأبى أن يفتح له وخاف، فانصرف عنه إلى ســلام ابن مشــكم وكان ســيد بني النضير في زمانه وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس.

ثــم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً من قريش إلى المدينــة فأتوا ناحية فحرقوا في أســوار من نخل بهــا، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين.

وندر بهم رسول الله ﷺ فخرج في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدرة، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو ســفيان وأصحابه، وطرحوا كثيراً من أزوادهم يتخففون منها للنجاء، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة السويق.

فقال المسلمون: يا رسول الله أتطمع أن لنا غزوة؟ قال: «**نعم**».

صلاة العيد

وفــي ذي الحجــة من هذه الســنة صلــى رســول الله ﷺ العيد وأمر بالأضحية.

وفيها مات عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ.

وفيها تزوج علي بن أبي طالب بفاطمة وبنى بها بعد أن تزوجها بسبعة أشهر ونصف، وتزوجها وهي ابنة خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وسنه يومئذ نحو إحدى وعشرين وخمسة أشهر، ولم يتزوج عليها حتى ماتت ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

غزوة غطفان

استمر المسلمون في متابعة من تسول نفسه أذية المسلمين أو النيل منهم، ومن ذلك غـــزوة ذي أَمَرَ، أو غزوة أنمار، وهي بناحية نجد. وكانت لثنتي عشرة مضت من ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة.

وســـببها أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا يريدون الإغارة، جمعهم دعثور بن الحارث المحاربي، وكان شجاعاً وفارساً مقداماً.

فندب رســـول الله ﷺ المسلمين، وخرج في أربعمائة وخمسين فارساً، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ.

فلما ســـمعوا بمهبطه هبطوا فـــي رؤوس الجبال فأصابوا رجلاً منهم يقال له: جبار من بني ثعلبة، فأدخل على رســـول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم وضمه إلى بلال.

حفظ الله لرسوله

وأصاب النبي ﷺ مطر، فنزع ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفا واضطجع تحتها وهم ينظرون.

فقالـــوا: قد انفرد محمد فعليك به، فأقبل ومعه ســـيف حتى قام على رأسه فقال: من يمنعك مني اليوم؟

فقال ﷺ: «الله». فدفع جبريل في صدره فوقع الســـيف من يده فأخذه النبي ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟».

قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

ثم عاد إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام، وأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ

عَنكُمْۖ﴾ [المائدة: ١١] الآية. ويقال كان ذلك في ذات الرقاع. ثم رجع ﷺ ولم يلق كيداً. وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة.

سرية القَرَدَة

بعد وقعة بدر وهزيمة المشركين، خافت قريش على طرقهم التجارية التي كانوا يسلكونها إلى الشام وعلموا أن المسلمين لهم بالمرصاد، فسلكوا طريق العراق وخالفوا طريقهم الأول.

فبعث ﷺ في جمادى الآخرة من السنة الثالثة للهجرة زيد بن حارثة في سرية إلى القَرْدَة وهي ماء من مياه نجد.

متتبعاً لحم قريش، فلقي القوم هناك فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان ابن أمية، وحويطب بن عبد العزى، ومعهم مال كثيراً وآنية فضة فأصابوها، فلقيهم زيد ومن معه في القردة، فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال.

وقدموا بالعير على رسول الله ﷺ، وخمسها فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم.

وبذلك فشلت خطة قريش في إيجاد طريق جديد لتجارتها، فالمسلمون يتتبعون آثارهم ومسالكم.

وهذا الأمر شدد الحصار الاقتصادي على مكة وأزعجها وسد عليها منافذ التجارة، وكانت هذه الغزوة أوجع وأشد ضربة تلقتها قريش بعد غزوة بدر.

غزوة بني قينقاع

بنو قينقاع بطن من يهود لهم شجاعة وصبر، عاهدوا النبي ﷺ ثم نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ، مع حرصه التام ـ عليه الصلاة والسلام ـ على تنفيذ ما جاء في المعاهدة، وتحذيره لهم عاقبة البغي ونكث العهد.

وكان ﷺ قد جمع بني قينقاع بسوقهم، ثم قال لهم ناصحاً وموبخاً: «**يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم**».

قالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا.

فأنزل عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٢ ـ ١٣] الآية.

جرأة اليهود

وصبر رسول الله ﷺ على جواب اليهود وسوء ردهم، فازدادت جرأتهم وتعددت مخازيهم؛ حتى أثاروا في سوقهم فتنة وأرادوا شرّاً؛ وذلك أن امرأة من العرب جلست إلى صائغ يهودي، فراودها على كشف وجهها فأبت، فما كان منه إلا أن عمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي لا تعلم. فلما قامت انكشفت سوأتها فصاحت، فضحكوا منها.

فأخذت الغيرة رجلاً من المسلمين فوثب على الصائغ فقتله. فشدت اليهود وتداعت على المسلم فقتلوه.

ووقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع، فكان من نتائج غدرهم وخيانتهم أن خرج إليهم رسول الله ﷺ يوم السبت النصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. بعد أن استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر.

وكان اللواء أبيضاً بيد حمزة بن عبد المطلب، فحاصرهم أشد الحصار خمس عشرة ليلة.

فقذف الله في قلوبهم الرعب، وعلموا عجزهم عن مقاومة المسلمين؛ فسألوا رسول الله ﷺ أن يُخلي سبيلهم فيخرجوا من المدينة، على أن له أموالهم وأن لهم النساء والذرية.

فأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ المنذر ابن قدامة بتكتيفهم، وكلم عبد الله بن أبي بن سلول رسول الله ﷺ فيهم وألح عليه من أجلهم فقال: «**خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم**».

الجلاء

وأمر أن يجلوا من المدينة وتركهم من القتل.

وتولى أجلاءهم ومتابعة ذلك عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات بالشام وكانوا أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع، وكانوا صاغة وتجاراً، ولم يكن لهم أرضون. ولم يَحُل عليهم الحول حتى هلكوا.

وكانت بنو قينقاع حلفاء لعبد الله بن أبي وعبادة بن الصامت، فتبرأ عبادة من حلفهم فقال: يا رسول الله أتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله أنزل ـ تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة: ٥ ـ ٦].

قتل كعب بن الأشرف

توالت سرايا النبي ﷺ لإرهاب وأرجاف المشركين ومن حولهم من الأعراب واليهود.

فقد بعث سرية لقتل كعب بن الأشرف لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهراً من مهاجره ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وكان كعب من أثرياء اليهود ومن شعرائهم، ومن أشد الناس عداوة للإسلام وإيذاءً للرسول ﷺ، ودعوة إلى حربه ومقاتلته.

ولما أصيب أصحاب القليب يوم بدر وقدم زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية يبشران بالفتح. بلغ الخبر كعباً فضاق ذرعاً.

وقال وكانت أمه من بني النضير: أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يُسمي هؤلاء الرجلان؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس. والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

تأليب المشركين

فلما أيقن عدو الله الخبر خرج يؤلب الناس على رسول الله ﷺ وسعى في أذكاء الفتنة والنيل من المسلمين؛ فقام يهجو رسول الله والمسلمين ويبكي على أصحاب القليب، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليه، ولم يكتف بذلك حتى ركب إلى قريش يحرضهم على رسول الله ﷺ، فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي.

فقال له أبو سفيان والمشركون: أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي ديننا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟

فقال: أنتم أهدى منهم سبيلاً وأفضل، ولم يعتبر بما حل ببني قينقاع.

ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين وآذاهم.

الأذن بقتله

فلما بلغ أذاه واشتد سعيه، قال رسول الله ﷺ: «**من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟**».

فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟

قال: «**نعم**».

قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. قال: «**قل**».

فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا.

قال: وأيضاً لتملنه.

قال: فإنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين.

فقال: نعم، ارهنوني.

فقالوا: أي شيء تريد؟

قال: ارهنوني نساءكم.

قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فارهنوني أبناءكم.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا؛ فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين؟ هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة - يعني السلاح -.

فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم.

فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟

قال: إنما هو محمد ابن مسلمة، وأخي ورضيعي أبو نائلة.

وقيل أنها: قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم.

فقال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة. إن الكريم لو دعي إلى طعنة أجاب.

دخول المسلمين

ودخل محمد بن مسلمة برجلين هما أبو عبس بن جبير، والحارث بن أوس، وعبادة بن بشر.

فقال محمد بن مسلمة: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه.

فنزل إليه متوشحا وهو ينفح ريح الطيب.

فقال محمد بن مسلمة: ما رأيت كاليوم ريحاً، أي طيب.

قال كعب: عندي أعطر نساء العرب، وأكمل العرب.

فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟

قال: نعم.

فشمه ثم أشم أصحابه.

ثم قال: أتأذن لي، قال: نعم.

فلما استمكن منه قال: دونكم. فقتلوه.

فصاح صيحة أفزعت من حوله وسقط قتيلاً، وأوقدت النيران على الحصون لتتبع الأثر والنظر في الأمر.

الله أكبر

فلما قتلوه وبلغوا بقيع الغرقد كبروا. وقد قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلك الليلة يُصلي، فلما سمع تكبيرهم كبر وعرف أنهم قد قتلوه.

فلما انتهوا إليه قال: «**أفلحت الوجوه**» قالوا: ووجهك يا رسول.

ورموا برأسه بين يديه. فحمد الله على قتله، وأصاب ذباب السيف الحارث بن أوس فجرح ونزف الدم، فتفل ـ عليه الصلاة والسلام ـ على جرحه فلم يؤذه بعد.

فأصبح المسلمون وقد خافت يهود لما جرى، فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه.

وقال رسول الله ﷺ: «**من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه**».

فوثب محيصة ابن مسعود على ابن سبيته رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله، وكان حويصة بن مسعود إذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة، فلما قتله جعل حويصة يقول: أي عدو الله أقتلته؟

قال: أما والله لرب شحم في بطنك من ماله.

فقال محيصة: والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك.

قال: أوالله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟ قال: نعم والله.

قال: فوالله إن ديناً بلغ بك هذا العجب. فأسلم حويصة.

وبقتل كعب بن الأشرف خمدت نار الفتنة التي طالما أقلقت المسلمين، وسكنت أفاعي اليهود في جحورها لفترة من الزمن.

غزوة أحـد

جبل أحد جبل مشـهور بالمدينة على أقل من فرسخ منها، وطوله ما يقارب سبعة كيلو مترات وعرضه من كيلين إلى ثلاثة، ويصل ارتفاعه إلى ثلاثمائة وخمسين متراً، وسمي بذلك لتوحده وانقطاعه عن جبال أخر هناك، ويقال له ذو عينين.

وأحـد هو الجبل الذي قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام: «**أحد جبل يحبنا ونحبه**» [رواه مسلم].

وقـال ﷺ: «**من صلى على الجنازة فله قيراط، ومن تبعها فله قيراطان**» قالوا: ما القيراط يا رسول الله؟ قال: «**مثل جبل أحد**» [رواه مسلم].

ولما صعده ﷺ هو وأبوبكر وعمر وعثمان فرجف بهم، قال له ﷺ: «**اثبت أحد؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**» [رواه البخاري]. وهذا الحديث فيه من علامات النبوة، فالنبي محمد ﷺ، والصديق أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ والشهيدان عمر وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ.

وقد كانت عنده الوقعة المشـهورة في شوال من السنة الثالثة للهجرة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت منه. وسميت الواقعة باسم الجبل.

وكان سببها أن قريشاً أرادت أن تنتقم لقتلاها في بدر، وتستعيد مكانتها التي تزعزت بين العرب بعد تلك الهزيمة، وتسترد هيبتها وطريقها إلى الشام الذي أغلق في وجه تجارتها.

فإنـه لما عادت قريش مـن بدر إلى مكة وقد أصيـب أصحاب القليب وقتل صناديدها وأشرافها. ورجع أبو سفيان بالعير سالماً. تنادوا إلى حرب

الرسـول ﷺ وأصحابه، وكان من أذكى ذلـك الأمر وحركه عبد الله ابن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل في جماعة ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهـم يوم بدر، وكانوا من أشـد قريش رغبة في أخـذ الثأر ومنازلة المسلمين فسعوا إلى ذلك وجمعوا لذلك المال.

فقالوا: يا معشـر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه ـ يعنون عير أبي سـفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة ـ لعلنا أن ندرك منه ثأراً.

جمع الأموال

فأجابوا لذلك، فباعوها وكانت ألف بعير، والمال خمسـين ألف دينار، وجعلوها لحرب المسـلمين وقتالهم. وفيهم أنـزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وعندما توفر المال واجتمع، سـعت قريش في التحريض لقتال المسلمين، فقصدوا ودعوا الأحابيش وكنانة، وأهل تهامة، وطرقوا شتى السبل للوصول إلى غايتهم لمنازلة المسلمين بأكبر عدد وعدة. خاصة أنه أصابهم بعد بدر ضربة أخرى في القردة، وأصبحت تجارتهم مهددة وطريقهم إلى الشام شبه مقطوعة.

إغراء الشعراء

ومما صنعوه للتحريض على قتال المسلمين ما قام به صفوان بن أمية حيث أغرى أبا عزة الشـاعر الذي كان قد أسـر في بدر فمنَّ عليه الرسول ﷺ واطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد أن لا يقوم ضده، أغراه أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسـلمين، وذلك بما عرف عنه من قوة شعره وسماع النـاس له، وعاهده أنه إن رجع عـن الغزو حياً أن يغنيه، وإلا يكفل بناته ويرعاهم إن جرى عليه أمر.

وقال له: يا أبا عزَّة إنك أمرؤ شاعر، فأعنَّا بلسانك، وأخرج معنا ووافق.

فقال: إن محمداً قد منَّ علي فلا أريد أن أظاهر عليه، ولم يزل به يُغريه، ويقول: لك عليَّ إن رجعت أن أغنيك، وإن قتلت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر، حتى قبل.

فخرج أبو عزة نحو تهامة يدعو بني كنانة لحرب رسول الله ﷺ.

الفاسق

وكذلك اشترك في تأليب القبائل أبو عامر الذي كان يقال له: الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق.

وبعد سنة كاملة بُذل فيها الوقت لتأليب المشركين، وجمعت فيها الأموال الكثيرة؛ إذا بهم قد استكملوا عدتهم وعددهم لقتال المسلمين.

فقد جمعت قريش ثلاثة الآف مقاتل من قريش ومن أطاعها من كنانة وأهل تهامة، ومعهم مئتا فرس، وثلاثة الآف بعير وسبعمائة دارع.

وخرجت معهم مجموعة من النساء لإثارة حماسهم وتشجيعهم، وخوفهم من العار إذا فروا. وكان على رأسهن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان بن حرب، وكذلك خرجت زوجات عكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن العاص، وصفوان بن أمية وغيرهن.

إعلام الرسول ﷺ

ولما اجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً يخبر رسول الله ﷺ بخبرهم، وأعطاه لرجل من بني غفار.

وجَّد حامل الرسالة في السير حتى لا يباغت الكفار رسول الله ويأخذ المسلمين على حين غرة، فقطع المسافة بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى رسول الله ﷺ وهو في مسجد قباء، وقرأ الرسالة عليه أبي بن كعب.

فأمر بالكتمان وعدم إفشـــاء الأمر، وعاد مســـرعاً إلى المدينة للتشـــاور وترتيب الأمور.

مسير قريش

أما قريش فقد سار بهم قائد الجميع أبو سفيان حتى نزل بهم بطن الوادي من قبل أحد مقابل المدينة، فلما ســـمع بهم رسول الله ﷺ شاور أصحابه فجمـــع وجوه المهاجرين والأنصار، وحضر معهم عبد الله بن أبي ســـلول رأس المنافقين.

رؤيا الرسول

وكان رســـول الله ﷺ قد رأى رؤيا فقصها على أصحابه فقال: «**إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت في درع حصينة، فأولتها المدينة. فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم الـــذي في ذباب ســـيفي فهو رجل من أهـــل بيتي يقتل، فإن رأيتـــم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا بشـــر مقام فامكثوا، فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت**».

وكان المدينة قد شبكت بالبنيان وتقاربت فهي كالحصن، ورأى هذا الرأي شيوخ المهاجرين والأنصار، ووافقهم على هذا الرأي عبد الله بن أبي رأس المنافقـــين، وكأنه قصد الجلوس في البيـــوت دون أن يُتهم بالتخلف، وكان هذا هو الرأي في أول الأمر.

محبة الجهاد

فبادر جماعة من فضلاء الصحابة خاصة من الشـــباب، ممن فاته الخروج يوم بدر فقالوا: يا رســـول الله كنا نتمنى هذا اليوم، اخرج إلى أعدائنا لا يـــرون أنا جبنا عنهم، وكان في مقدمة هؤلاء عم الرســـول ﷺ حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ، وقال: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم

طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة.

فقبل رسول الله ﷺ رأيهم ونزل عند قولهم.

فصلى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالناس الجمعة، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم. ففرح الناس بذلك.

ثم صلى بالناس العصر وقد حشدوا وحضر من أهل العوالي، وقد تقرر الخروج لمنازلة الكفار خارج المدينة.

ثم دخل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيته ومعه صاحباه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه، وصف الناس ينظرون خروجه، فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله على الخروج، فردوا الأمر إليه.

فخرج رسول الله ﷺ قد لبس لأمته ـ وهي الدرع ـ وتقلد السيف فندموا جميعاً على ما صنعوا، فقالوا: ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما شئت.

فقال: **«ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»**.

وبدأ ﷺ يرتب المقاتلة، وينظم الجيش، وعقد ثلاثة ألوية: لواء الأوس بيد أسيد بن حضير، ولواء للمهاجرين بيد مصعب بن عمير، ولواء الخزرج بيد الحباب بن المنذر.

وكان عدد المسلمين ألف مقاتل فيهم مائة دارع. ولم يكن معهم من الفرسان أحد.

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

وأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج، وكان قد رد جماعة من المسلمين

لصغرهم، وقد رغبوا في الجهاد مع رسـول الله ﷺ منهم أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم.

حب الجهاد

وأجـاب من رآه مطيقاً، وكان منهم رافع بن خديج وله خمس عشـرة سنة، لأنه كان ماهراً في رمي السهام، فعند ذلك قال سمرة بن جندب أنا أقوى منه، أنا أصرعه، فأمرهما بالمصارعة، فصرع سمرة رافعاً فأجازه.

وجاءه عمرو بن الجموح وكان رجلاً شـديد العرج. وكان له بنون أربعة يشـهدون المشاهد مع رسـول الله ﷺ، فلما كان يوم أحد أرادوا أن يمنعوه من الخروج، وقالوا: إن الله عذرك، فأحزنه ذلك، فأتى النبي ﷺ وقال: إن بنّي يريدون أن يحبسـوني عن الخروج معك، فوالله أني لأرجو أن أطأ بعرجتـي هذه الجنة، فقال له رسـول الله ﷺ: **«أما أنـت فقد عذرك الله، فلا جهـاد عليك»** وقال لبنيه: **«مـا عليهم ألا تمنعوه لعل الله يرزقه الشـهادة»** فخرج فقتل شهيداً.

وكان المسـلمون ألف رجل، والمشركون ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع، ومائتا فارس، وثلاثة آلاف بعير.

المنافقون:

ورجـع عنه ﷺ عبد الله بن أبي المنافق بنحو ثلث العسـكر فيمن تبعه من قومه وقال: يخالفني ويسمع من غيري، وما أراد ذلك، بل كان هدفه إحداث البلبة والشقاق في صفوف الجيش المسلم، ولوعنى ما قال لما خرج من المدينة أصلاً.

فتبعهـم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر يوبخهم ويحرضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا في سـبيل أو ادفعـوا، قالوا: لو نعلم أنكم

تقاتلون لم نرجع. فرجع عنهم وسبهم.

اليهود

وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا حاجة لنا فيهم، إنا لا نستعين بكافر على مشرك**» وفي هذا إظهار لعزة المسلمين وبيان للولاء والبراء.

ثم سلك ﷺ حرة بني حارثة وقال: من رجل يخرج بنا على القوم من كثب؟ فخرج به بعض الأنصار حتى سلك في حائط لبعض المنافقين وكان أعمى، فقام يحثو التراب في وجوه المسلمين ويقول: لا أحل لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول الله.

فابتدره القوم ليقتلوه، فقال ﷺ: لا تقتلوه فهذا أعمى القلب والبصر.

الحراسة

ونفذ ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى نزل الشعب في عدوة الوادي وجعل ظهره إلى أحد فصلى المغرب، ثم صلى العشاء، وبات هنالك، وانتخب خمسين رجلاً لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري بطل سرية كعب بن الأشرف، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ في ليلته تلك.

وسعت قريش إلى إيقاع النزاع داخل صفوف المسلمين، فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم: خلو بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم، فلا حاجة لنا إلى قتالكم. فلم يجدوا أذناً صاغية.

فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال وهو في سبعمائة فيهم خمسون فارساً، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم، وقد نظم ﷺ الجيش في ميدان المعركة، حيث جعل ظهور المقاتلة إلى جبل أحد ووجوهم تستقبل المدينة، وجعل خمسين من الرماة بقيادة عبدالله بن جبير فوق جبل عينين

وهو جبل الرماة. وقال: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**» [رواه البخاري].

وفي حديث ابن عباس أنه ﷺ أقامهم في موضع ثم قال: «**احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرفوا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا**». وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو.

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران: ١٢١].

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وهو متوكل على ربه مفوض أمره إليه. أتم استعداده وأخذ بالأسباب المادية تعويداً لأمته مع علمه بأن الله ـ عز وجل ـ يعصمه من القتل.

بث الحماس

ومضى ﷺ يحث المسلمين ويدعوهم إلى الصبر والثبات، ومناجزة العدو، فقد أخذ ﷺ بسيف في يده، وقال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**».

فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، فالكل يريد مناجزة العدو ويسعى لإحدى الحسنيين، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فقال: وما حقه يارسول الله؟

قال: «**أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني**».

قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله. فأعطاه إياه. وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب. فلما رآه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتبختر قال: «**إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا في هذا الموطن**». وذلك لأن فيها إظهار القوة والشجاعة.

المبارزة

أما قريش فقد جهزت جيشـــها وتصافّوا، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وكان حامـــل لوائهم طلحة بن عثمـــان، وعبأت قريش صفوفها وحرضت نسائهم المقاتلة على الأخذ بالثأر.

وابتدأ القتال بالمبارزة، وكان أول من بدر من المشـــركين يومئذ أبو عامر الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام شرق به وجاهر رسول الله بالعداوة، فخرج من المدينة وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ كما تقـــدم، ووعدهم أن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه، وكان أول من لقي المسلمين يومئذ؛ فنادى قومه وتعرف إليهم فقالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق.

فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر.

ثـــم بدأت المبارزة فقد دعا طلحة بن أبي طلحة، وهو أشـــجع فرســـان قريش وأحد حملة لواء المشـــركين يومئذ إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس، فبرز له الزبير بن العوام فوثب حتى صار معه على جمله، ثم أخذه وألقاه على الأرض وذبحه بسيفه.

وكبر المسلمون لقتله، وأثنى ﷺ على الزبير بقوله: «**إن لكل نبي حوارياً، وحواري الزبير**».

القتال

ثم بدأ القتال فاقتتل الناس حتى حميت الحرب، وتلامســـت السيوف، فقاتـــل أبـــو دجانة حتى أمعن فـــي النـــاس، وقاتل حمزة بـــن عبد المطلب أسد الله وأسد رســـوله قتالاً شديداً حتى قتـــل أرطاة ابن عبـــد شرحيل بن

هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والتقى حنظلة الغسيل وأبو سفيان بن حرب فلما علاه حنظلة رآه شداد بن الأسود بن شعوب الليثي فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن حنظلة لتغسله الملائكة**». فسألوا امرأته جميلة أخت عبد الله بن أبي بن سلول فقالت: خرج وهو جنب.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**لذلك غسلته الملائكة**».

ثم قاتل المسلمون قتالاً شديداً. وكان شعارهم: أمت أمت.

وقد أبلى الصحابة بلاء حسناً ومن أولئك؛ أبو دجانة، وطلحة بن عبيد الله، وأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والنضر بن أنس، وسعد بن الربيع.

وحاول خالد بن الوليد ـ وهو على فرسان المشركين ـ ثلاث مرات ليبلغ إلى ظهور المسلمين، لكن رشقه الرماة بسهامهم حتى ردوه.

النعاس

ولقد كانت الدولة لرسول الله ﷺ أول النهار فمسوهم بالسيوف حتى سقط من أصحاب لواء قريش تسعة أو سبعة؛ فبقي اللواء ساقطاً وأنزل الله على المسلمين النعاس في غزوة بدر وأحد، والنعاس في الحرب والخوف دليل على الأمن وهو من الله، وفي الصلاة ومجالس الذكر والعلم من الشيطان.

قال أبو طلحة: كنت ممن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه.

فانهزم أعداء الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم وهن يشتددن في الجبل يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن.

وهكذا ظهرت أمارات وعلامات النصر للمسلمين وولى المشركون الأدبار.

وهزم السبعمائة الثلاثة الآف من الكفار وأطاروا رؤوسهم وطاردهم، حتى

انكشف نور الحق وظهرت علامات الفوز والنصر.

نزول الرماة

عندها قال أصحاب عبد الله بن جبير وهم على جبل الرماة: الغنيمة الغنيمة؛ ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ وتناسوا وصية الرسول ﷺ.

فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله؟

قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فنزل منهم أربعون رجلاً وهنا خلا الجبل من الرجال إلا عشرة فقط.

خيل المشركين

ونظرخالد بن الوليد ومن معه إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل، واستمر حتى وصل إلى ظهور المسلمين. وتبعه عكرمة بن أبي جهل فحملوا على من بقي من النفر الرماة وعددهم عشرة فقتلوهم وأميرهم عبد الله بن جبير.

وعندها انكشف جيش المسلمين، قال الزبير: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه خلوا ظهورنا للخيل فأتينا من خلفنا.

فصاح إبليس: أي عباد الله أخراكم، أي احترزوا من ورائكم.

فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال: أي عبد الله أبي. فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه.

فقال حذيفة: يغفر الله لكم.

قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله.

وذكر أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه، فقال حذيفة: تصدقت بديته على

المسلمين. فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبي ﷺ. وذلك أنهم لما رجعوا اختلطوا بالمشركين والتبس العسكران فلم يتميزوا فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض.

قال الزبير: وصرخ صارخ: ألا إن محمدا قد قتل! فانكفأنا وانكفأ القوم علينا بعد أن أصبنا حملة لواء المشركين حتى ما يدنو منه أحد من القوم، ولم يزل اللواء صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به.

وكان اللواء مع صواب غلام لبني أبي طلحة حبشي، وكان آخر من أخذه منهم فقاتل به حتى قطعت يداه، ثم برك عليه فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول: اللهم هل أعذرت؟ يقول أعذرت. وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو. وفقدوا خطتهم المحكمة فأخذوا يتساقطون شهداء، وفقدوا إتصالهم برسول الله ﷺ وشاع أنه قتل واسقط في يد المسلمون.

ففر منهم من فر من ميدان المعركة، وانتحى منهم جانباً دون قتال.

في حين آثر آخرون الموت على الحياة بعد ما سمعوا بمقتل الرسول ﷺ.

مصاب رسول الله

كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة، حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ فدق بالحجارة حتى وقع لشقه، وأصيبت رباعيته، وشج في وجهه، وكلمت شفته السفلى، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص، وسقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها فأخذ علي بن أبي طالب بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله، وكان الذي تولى أذاه عبد الله بن قمئة وهو الذي شجه في

وجهه. وقال: خذها وابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: «أقمأك الله»، فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه؛ قطعة قطعة.

وكان ﷺ يقف وسط المعركة شجاعاً لا يبالي والموت سائر عن يمينه وشماله.

قال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها كل ذلك يصرف عنه، وهو ﷺ ثابت كالجبل الأشم، يدافع ويجالد جموع المشركين به من كل ناحية، ولقد رأيت عبد الله ابن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله أنه منا ممنوع، فخرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك.

وقد أصاب النبي ﷺ الكثير من من الشدة والأذى، وأصيب أصابات بالغة، قال أنس: كسرت رباعية النبي ﷺ وشج في وجهه، وجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم ويقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟**» فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الآية.

قتال الملائكة

وفي الصحيحين عن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما بياض كأشد القتال، وما رأيتهما قبل ولا بعد. وفي رواية لهما: يعني جبريل وميكائيل.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم أحد: «**هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**».

وقد لقي النبي ﷺ وأصحابه من الشدة والضيق الشيء الكثير، وظهرت شجاعتهم، ففي البخاري من حديث البراء: لم يبق معه ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً.

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش. فلما رهقوه قال: «**من يردهم عنا وله الجنة**».

فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أنصفنا أصحابنا**».

شجاعة طلحة

قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي مجوب له بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة.

ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: «**بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك**».

ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه، واصيب في ذلك اليوم خمسة وثلاثون أو تسعة وثلاثون جرحاً ووقي بيده النبي ﷺ، فأصيبت أصابعه حتى شلت.

ولما أصيب أصابعه قال: حس، فقال النبي ﷺ: «**لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون**». وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحه.

ولم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الساعات التي يقاتل فيها غير طلحة بن عبيد الله وسعد.

ويصف المشـــهد العصيب أبو بكـــر الصديق حيث قال: لما كان يوم أحد انصـــرف الناس عن النبي ﷺ، فكنت أول مـــن فاء إلى النبي ﷺ فرأيت بـــين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه، فقلت كن طلحة فداك أبي وأمي، فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة ابن الجراح، وإذا هو يشتد كالطير حتى لحقني، فأقبلنا على طلحة نعالجه وقد أصابه بضع عشرة ضربة.

وكان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد وما رأى من شـــجاعة طلحة ودفاعه عن رسول الله ﷺ قال: ذاك يوم كله لطلحة.

أما البطل الشـــجاع أبو دجانة فقد حمى وتترس على رســـول الله بظهره والنبل يقع وهو لا يتحرك.

وفي تلك اللحظات الحرجة ســـل رســـول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص كنانته وحينئذ قال له رســـول الله ﷺ وهو يرمي: «**ارم فداك أبي**» [أخرجاه في الصحيحين]. وقال: «**ارم فداك أبي وأمي**».

أبو بكر يصف الحال

وقال أبو بكر يصف ما جرى للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: وقد رُمي النبي ﷺ في وجنته، ورمي في جبهته حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في جبهته، فذهبت لأنزعهما، فقال أبو عبيدة ابن الجراح: نشـــدتك الله يا أبا بكر إلا تركتني.

قـــال فأخذ بفيه فجعل ينضنضه كراهية أن يؤذي النبي ﷺ، ثم اســـتل السهم فندرت ثنية أبي عبيدة.

ثـــم ذهبت آخذ الأخرى فقال أبو عبيدة: نشـــدتك الله يـــا أبا بكر إلا تركتني.

قال فأخذ بفيه فجعل ينضنضه ثم ســـله فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى، ثم قال النبي ﷺ: «**دونكم أخاكم قد أوجب**».

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، فقال ﷺ: «**مجه**»، فقال: والله لا أمجه أبدا.

ثم أدبر يقاتل، فقال النبي ﷺ: «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**». فقتل شهيداً.

مصعب بن عمير

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قُتل، وكان اللواء بيده، فضربوا على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذه بيده اليسرى، فضربوا عليها حتى قطعت، فبرك عليه بصدره وعنقه حتى قتل. وكان الذي قتله ابن قمئة وهو يظنه رسول الله، فصاح ابن قمئة: إن محمداً قتل.

وهناك عظمت البلية، وذهل المسلمون، وتزلزلت الأرض من تحت أقدامهم.

وأعطى رسول الله اللواء بعده علي بن أبي طالب فقاتل قتالاً شديداً.

أنس بن النضر

ومن هول الصدمة والفاجعة ألقى بعض المسلمين سلاحهم، وقد مر أنس بن النضر بقوم قد ألقوا بأيديهم وتركوا سلاحهم، فقال: يا قوم ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتل رسول الله.

فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناس، ولقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة من دون أحد.

ثم استقبل المشركين وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المشركين. ثم قاتل حتى قُتل فما عرفه إلا أخته ببنانه، ووجدوا به سبعين ضربة.

ووجدوا يومئذ بعبد الرحمن بن عوف نحو عشرين جراحة، بعضها في رجله فعرج منها إلى أن مات.

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال: إن كان قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم. فنزلت ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية.

وهكذا اختلط الجيشان، وعمت الفوضى، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم حتى قتل اليمان ولد حذيفة بأيدي المسلمين أنفسهم.

وعندها أقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين، وكان في تسعة نفر من أصحابه في مؤخرة المسلمين وكان أول من عرفه كعب ابن مالك الشاعر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله.

فأشار إليه رسول الله أن اصمت. فلما عرفه المسلمون لاذوا به ونهضوا معه إلى الشعب، وفيهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمة الأنصاري وغيرهم.

إلى الشعب

فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبيّ بن خلف على جواد له زعم عدو الله أنه يقتل عليه رسول الله، فلما اقترب منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة فلما أخذها منه انتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير، ثم استقبله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فطعنه بها طعنة وقع بها عن فرسه ولم يخرج لها دم، فكسر ضلعاً من أضلاعه. فلما رجع إلى قريش قال: قتلني والله محمد، أليس قد قال لي بمكة أنا أقتلك؟ فوالله لو بصق عليَّ لقتلني.

فاحتمله أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك، إنما هو خدش. فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: بل أنا أقتل أبيا.

ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعا. فمات عدو الله بمكان يقال له سرف.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب واطمأن فيه، جاء علي بن أبي طالب بماء من المهراس ـ وهو ماء بأحد ـ فجاء به رسول الله ﷺ ليشرب منه فوجد له ريحاً فعافه، وغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه وهو يقول: «**اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه**».

ودعا رسول الله ﷺ على عتبة بن أبي وقاص حين كسر رباعيته ودمى وجهه وقال: «**اللهم لا تحل عليه الحول حتى يموت كافرا**»، فما حال عليه الحول حتى مات كافراً إلى النار.

مداوة الرسول

ولما جرح رسول الله ﷺ يوم أحد أخذ شيئاً فجعل ينشف دمه وقال: لو وقع شيء منه على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء. ثم قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

وفي الصحيحين عن سهل أنه سُئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ومن كان يسكب الماء، كانت فاطمة ابنته تغسله وعلي بن أبي طالب يسكب الماء. فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فاستمسك الدم.

وفي تلك اللحظات الحاسمة والوقت العصيب ورسول الله ﷺ في تلك الحال معه أولئك النفر من أصحابه، إذ علت عالية من قريش الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا ينبغي لهم أن يعلونا**»، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه حتى أهبطوهم من الجبل، مع أصابهم من جروح وتعب.

ونهض رسـول الله ﷺ إلى صخرة من الجبـل ليعلوها، وقد كان بدن رسـول الله وظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يسـتطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى اسـتوى عليها، فقال رسـول الله ﷺ يومئذ يقول: «**أوجب طلحة**» حين صنع برسول الله ما صنع.

وصلـى النبي ﷺ الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح، وصلى المسـلمون خلفه قعوداً. وانهزم قوم من المسلمين يومئذ فبلغ بعضهم إلى الحلوب دون الأعوص.

واشـتغل المشركون ونساؤهم بقتلى المسلمين يمثلون بهم ويقطعون الآذان والأنـوف والفروج ويبقرون البطون. وبقرت هند بنت عتبة عن بطن حمزة وأخذت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها فلفظتها ولم تأكلها.

ولما أراد أبو سـفيان الانصراف أشـرف على الجبـل، ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، اعل هبل.

وعندما هدأت المعركة وانتهت وانحاز كل قوم إلى جهة أخرى، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «**لا تجيبوه**».

فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «**لا تجيبوه**».

فقال: أفي القـوم ابن الخطاب؟ فقال: «**لا تجيبوه**». فقال: إن هؤلاء قد قتلوا.

فلـم يملك عمـر نفسـه فقـال: كذبت يـا عـدو الله، قـد أبقـى الله ما يخزيك.

فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز: اعل هبل.

فقال رسول الله ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟

قال قولوا: «الله أعلى وأجل».

ثم قال: «لنا العزى ولا عزى لكم».

فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبونه؟» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟

قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم».

وفي رواية الإمام أحمد عن ابن عباس قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

قال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ما نصر الله النبي ﷺ في موطن كما نصره يوم أحد، فأنكرنا ذلك عليه.

فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أحد ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢] يقول ابن عباس: والحس القتل، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ الآية. وإنما عنى بهذا الرماة.

مداواة الجرحى

وكانت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم مشمرتان، تنقلان القرب على متونهما تفرغانه على أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنه، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم.

ولما إنتهت المعركة انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدراً العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد».

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليتأكد من سير قريش ووجهتهم وقال: «اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا ركبوا الخيل

وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم».

فخرج في أثرهم ينظر ما يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

عندها خلت ساحة المعركة وأرض النزال، وفرغ الناس لقتلاهم وأخذوا ينقلون موتاهم بعد انصراف قريش، فأمر رسول الله ﷺ بأن يدفنوا في مضاجعهم، وأن لا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم.

وأصيب من المسلمين سبعون قتيلاً، منهم واحد وأربعون من الخزرج، وأربع وعشرون من الأوس، وأربعة من المهاجرين، وواحد من اليهود، وكان في المشركين عشرين قتيلاً.

إصابة عين قتادة

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان الظفري، فأتى بها رسول الله ﷺ وعينه على وجنته، فردها رسول الله ﷺ، فكانت أصح عيني قتادة وأحسنهما.

الصبر والاسترجاع

وكما كان لأبطال المسلمين وشجاعتهم مواقف عظيمة، فقد كان لنساء المسلمين مواقف عظيمة في تقبلهن مصابهن في أهليهن وصبرهن واحتسابهن، وفرحهن بحياة الرسول ﷺ.

فقد مرَّ رسول الله ﷺ هو وأصحابه بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟

قالوا: خيراً يا أم فلان. هو بحمد الله كما تحبين.

قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ فأشير إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل ـ أي صغيرة ـ.

صفية

وعندما أقبلت صفية ـ أخت حمزة ـ لتنظر إليه، طلب الرسول ﷺ من ابنها الزبير أن يرجعها حتى لا ترى ما بأخيها من مُثله.

فقالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لاحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله.

وعندما أخبـر الزبير النبي ﷺ بقولها، أمره بأن يخلي سـبيلها، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر به فدفن.

ثلاثة قتلى

وقد لقيته حَمْنَة بنت جحش، فُنعي لها الناس أخاها عبدالله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له.

ثم نُعِيَ لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له.

ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت.

فقال رسـول الله ﷺ: **«إن زوج المرأة منها لبمكان، لما رأى من صبرها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها»**.

دفن الشهداء

ثم فرغ النبي ﷺ لدفن شـهداء أحد، وقد روى البخاري وأبو داود أن رسـول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: **«أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟»** فإذا أشير لأحد قدمه في اللحد، وقال: **«أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة»**.

وأمر ﷺ بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا، ودفن الاثنان

والثلاثــة في قبر واحد، وربما جمع بــين الرجلين في ثوب واحد، وجعل بينهما الأذخر.

وأمر الرسول ﷺ أن يدفنوا حيث صرعوا، فأعيد من أخذ ليدفن داخل المدينة.

ولمــا انتهى ﷺ من دفن الشــهداء صف أصحابــه، وأثنى على ربه ثم دعــا الله أن يعطيهم نعيم الدنيا والآخرة، وأن يقتل الكفرة المكذبين فقال: **«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسـطت، ولا باسـط لما قبضت، ولاهادي لمـا أضللت، ولا مضل لمـن هديت، ولا معطي لما منعــت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقــرب لما باعــدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابســط علينا مــن بركاتك ورحمتك وفضلــك ورزقك، اللهم إني أســألك النعيم المقيم الــذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أســألك النعيم يوم العيلة** (أي الفاقة)**، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شــر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفســوق والعصيان، واجعلنا من الراشــدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن ســبيلك، واجعل عليهــم رجزك وعذابك، اللهم قاتــل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق»** ثم ركب فرسه ورجع إلى المدينة.

وقد أثنى ﷺ على أولئك الأبطال عندما سمع علياً يقول لفاطمة: «هاك الســيف فإنها قد شــفتني»، فقال له: **«لئن كنت أجدت الضرب بسيفك، لقد أجاد سَهْل بن حَنِيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت الأفلح والحارث بن الصمة»**.

وبشــر الرسول ﷺ المسلمين بما نال الشهداء من عظيم الأجر، فقد قال عندما سمع بكاء فاطمة بنت عبد الله بن عمرو والد جابر: **«ولم تبكي؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفعَ»**، وفي رواية قال عن بكائها: **«تبكيه أو لا تبكيه، ما زال الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»**.

ونزل في شهداء أحد قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

روى مسلم أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ سألوا ابن مسعود عن هذه الآية، فقال: أَمَا إنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل.

قال العلماء: إن حياة الشهداء حياة محققة لما ورد في هذا الحديث.

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لا يُكلَم ـ يجرح ـ أحد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يُكلم في سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلم، اللون لون الدم، والريح ريح المسك**».

وعندما انصرف رسول الله ﷺ راجعاً من أحد إلى المدينة خرجت نسوة قتل أقاربهن فلقين رسول الله ﷺ في الطريق، فعزاهن ودعا لهن.

وعندما عاد الرسول ﷺ من أحد سمع بكاء نساء الأنصار ـ من بني عبد الأشهل وظفر ـ على من استشهد من أزواجهن، فقال: «**ولكن حمزة لا بواكي له**».

وعندما استيقظ من نومه سمع بكاءهن وندبهن بحمزة، ونهى يومئذ عن النوح.

شهداء أحد

بلغ شهداء أحد سبعين شهيداً، وقتل من قريش عشرون رجلاً، وكان ممن استشهد من المسلمين يوم أحد سيد الشهداء، وأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ، قتله وحشي مولى نوفل، وأعتق لذلك، رماه بحربة فوقعت في ثنيته.

ثم إن وحشياً أسلم، وقتل بالحربة بعينها مسيلمة الكذاب يوم اليمامة زمن أبي بكر الصديق.

وفي الصحيح عن وحشي قال: إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن نوفل ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر.

قال: فلما خرج الناس عام عينين ـ وعينين جبل بجبال أحد بينه وبينه واد ـ فلما أن خرج الناس خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال خرج سباع.

فقال: هل من مبارز؟ قال فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع، يا ابن أنمار مقطعة البظور، أتحاد الله ورسوله؟

قال: ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب. فكمنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميت بحربتي فأضعتها في ثنيته حتى خرجت من بين وركيه.

قال: فكان ذلك آخر العهد به.

فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام.

ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسلاً. وقيل إنه لا يهيج الرسل.

قال فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله، فلما رآني قال: «أنت وحشي؟» قلت: نعم.

قال: «أنت قتلت حمزة؟».

قلت: قد كان من الأمر ما بلغك.

قال: «فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟».

قال: فخرجت. فلما قبض رسول الله ﷺ خرج مسيلمة الكذاب قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة.

قال: فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان. فإذا رجل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس، فرميته بحربتي فأضعتها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه. ووثب عليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

وصرخت جارية على ظهر بيت: وا أمير المؤمنين! قتله العبد الأسود.

وفي رواية أخرى قال وحشي: فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت عليَّ المذاهب فقلت ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد، فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك، إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وتشهد شهادة الحق.

فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه أشهد شهادة الحق. فلما رآني قال: «أوحشي؟» قلت: نعم يا رسول الله.

قال: «اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة؟» قال: فحدثته كما حدثتكما. فلما فرغت من حديثي قال: «ويحك! غيب عني وجهك فلا أرينك».

قال: فكنت أتنكب رسول الله ﷺ لئلا يراني حتى قبضه الله وتوفي في حمص.

قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب، وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشج من البكاء... الحديث. قيل والنشج الشهيق حتى بلغ الغشي.

ودفن حمزة هو وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد. وأمر ﷺ أن يدفن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمر ابن حرام في قبر واحد، فإنهما كانا متصافيين في الدنيا.

وممن استشهد في ذلك اليوم مصعب بن عمير وكان حامل اللواء يومئذ؛ قتله ابن قمئة الليثي، واستشهد شماس بن عثمان المخزومي وغيرهم ـ رضوان الله عليهم ـ.

ومن استشهد من الأنصار: عمرو بن الجموع، وحنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة وعبد الله بن جبير أمير الرماة، وقد ذكَّر من كان معه بوصية رسول الله وأبى أن يبرح هو ومن وافقه حتى قتلوا شهداء وغيرهم ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ.

الرؤيا

واستشهد من الأنصار كذلك ـ رضوان الله عليهم ـ كثيرون منهم: أنس بن النضر عم أنس بن مالك، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله، وقد رأي في النوم قبل أحد مبشرٍّ بن عبد المنذر يقول له: أنت قادم علينا في أيام، فقال: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسرح فيها كيف نشاء، فقال له: ألم تُقتل يوم بدر؟ قال: بلى ثم أحييت.

فذكر تلك الرؤيا للنبي ﷺ فقال: «**هذه الشهادة يا أبا جابر**».

وقــد أتت زوج عمرو هند بنت عمــرو بن حرام وحملت زوجها وابنها وأخاها علــى بعير لتدفنهم بالمدينة، فنهى ـ عليه الصلاة والســلام ـ عن الدفن خارج أحد، فرجعوا.

وقتل سعد بن الربيع وأرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ من يأتيه بخبره، فوجده بين القتلى وبه رمق، فقيل له إن رسول الله ﷺ يسأل عنك.

فقال لمبلغه: قل لرسول الله ﷺ إني أجد ريح الجنة، وقل لقومي يقول لكم ســعد بن الربيع: الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ﷺ ليلة العقبة فوالله مالكم عند الله عذر.

أجساد الشهداء

وكما أن الله ـ عز وجل ـ حرَّم على الأرض أن تأكل أجســاد الأنبياء، فقد حرم كذلك على الأرض أن تأكل أجساد الشهداء.

روى الإمام مالك: أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن حرام الأنصاريين كان قد حفر الســيل قبرهما، وكان قبرهما مما يلي الســيل، وكانا في قبر واحــد، وهما ممن استشــهد يوم أحد، فحفر عنهمــا ليغيرا من مكانهما، فوجدا لم يغيرا كأنما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه، فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه ثم أرســلت فرجعت كما كانت، وكان بين أحد ويوم حُفر عنهما ست وأربعون سنة.

وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: لما أجرى معاوية العين عند قتلى أحد بعد أربعين سنة، استصرخناهم إليهم، فأتيناهم فأخرجناهم فأصابت المســحاة قدم حمزة بن عبد المطلب فانبعث دماً، وفي رواية ابن إسحاق، فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس.

غزوة حمراء الأسد

لما رجع النبي ﷺ إلى المدينة وقد دفن بأحد سبعين شهيداً، وأصحابه العائدين جراح؛ أظهر المنافقون واليهود بالمدينة فرحهم، وظهرت سخائم نفوسهم في كلمات على ألسنتهم.

وتجاوز الأمر حديث الألسن، وفكر المشركون في الكرة على المسلمين للقضاء عليهم قضاءً مبرماً، وتجاوز أثر أحد المدينة إلى من حولها من الأعراب والقبائل، وظهر ذلك في التجمعات التي قام بها بنو أسد بقيادة طليحة الأسدي وأخيه سليمة في نجد، وبنو هذيل بقيادة خالد بن سفيان الهذلي في عرفات مستهدفين غزو المدينة طمعاً في خيراتها وانتصاراً لشركهم ومظاهرة لقريش وتقرباً لها.

ولهذا تحرك المسلمون قبل أن يستفحل الأمر، ولما كانت وقعة أحد يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثالثة من الهجرة، عاجلهم النبي ﷺ متجلداً صابراً محتسباً، بادرهم النبي ﷺ وعاجلهم في اليوم التالي يوم الأحد، وأذن مؤذن رسول الله ﷺ في الطلب للعدو، فاستجابوا لله وللرسوله من بعد ما أصابهم القرح. فضمدوا جراحاتهم، وخرجوا واللواء معقود لم يُحلّ؛ فأعطاه علي بن أبي طالب، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

لا يخرج إلا من شهد أحداً

وعهد رسول الله أن لا يخرج معه أحد إلا من حضر المعركة يوم أحد، فاستأذنه جابر بن عبد الله في أن يفسح له في الخروج معه ففسح له في ذلك، لأنه لم يشهد أحداً، إذ كان أبوه قد خلفه على بناته، فخرجوا على

ما بهم من الجهد والجراح.

وإنما خرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرهباً للعدو ومتجلداً، فبلغ حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة.

قصة معبد الخزاعي

ومر برســـول الله ﷺ معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله ﷺ [أي: مكمن سره] مسلمهم وكافرهم، ومعبد يومئذ مشـــرك، فقال معزياً للرسول ﷺ: يـا محمد، أمـا والله لقـد عز علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك.

ثم خرج معبد حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء يخذلهم ويصدهم عن رســـول الله ﷺ حتـــى يرجعوا، وكانوا قد أجمعـــوا على التوجه إلى رســـول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: أصبنا حد أصحابه وقافيتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ماوراءك يامعبد؟

قـــال معبد مخوفاً لهم: محمد قـــد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ماصنعوا.

قال: ويلـــك ماتقول؟ قال: والله مـــا أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل.

فســـاء ذلك أبا سفيان ومن معه وخارت عزائمهم، وإنهارت معنوياتهم. فما كان من أبي سفيان حين سمع ذلك إلا أن قرر العودة.

ولما مر ركب من عبد القيس، ســـألهم أبو ســـفيان أين تريدون. قالوا: نريد المدينة للميرة.

قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة وأحملكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم.

قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. وكان هذا حيلة من أبي سفيان ليخذل الرسول عن متابعتهم.

فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان. فقال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**».

وفي الصحيح عن ابن عباس قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقي في النار. وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ورغم ما سمع الرسول ﷺ من كلام أبي سفيان إلا أنه تجلد وصبر فأقام رسول الله ﷺ بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء، واستردوا الكثير من هيبتهم بعد أن كادت تتزعزع بسبب ما جرى في أحد.

ثم رجع إلى المدينة يوم الجمعة وقد غاب خمساً، وظفر - عليه الصلاة والسلام - بمخرجه ذلك بمعاوية بن المغيرة ابن أبي العاص جد عبد الملك بن مروان لأمه فأمر بضرب عنقه صبراً.

من أحداث السنة الثالثة

زواج أم كلثوم

وفي هذه السنة زوج - عليه الصلاة والسلام - ابنته أم كلثوم لعثمان بن عفان بعد أن ماتت رقية عنده، ولذلك كان يسمى ذا النورين.

زواج الرسول بحفصة

وفيها تزوج - عليه الصلاة والسلام - حفصة بنت عمر بن الخطاب - وأمها أخت عثمان بن مظعون -، وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة

السهمي - رضي الله عنه -، فتوفي عنها بجراحة أصابته ببدر.

زواج الرسول بزينب

وفي هذه السنة تزوج - عليه الصلاة والسلام - زينب بنت خزيمة الهلالية من بني هلال بن عامر، وكانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش، فقتل عنها بأحد، وهي أخت ميمونة بن الحارث لأمها.

الحسن بن علي

وفي هذه السنة ولد الحسن بن علي - رضي الله عنهما -.

تحريم الخمر

وفيها حرمت الخمر، وكان تحريمها بالتدريج لِما كان عليه العرب من شربها ومداومة ذلك، فكان التدرج في تحريمها.

فأول ما بين فيها قوله - تعالى - في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فذكر - عز وجل - ضررهما الكبير.

ولما شربها بعض المسلمين وخلّط في القراءة حُرِّمت الصلاة على السكران؛ فقال - تعالى - في سورة النساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٢].

ثم حرِّمت فيما بعد قطعياً بقوله - تعالى - في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

فأراق المسلمون ما كان لديهم من الخمور وامتثلوا أمر الله - عز وجل -.

بعث الرَجِيع

لما أصيب المسلمون في أحد تجرأت بعض القبائل، ورأت أن بالأمكان منازلة الرسول ﷺ، وأن قوته قد ضعفت وأن شوكته قد كسرت.

ومن ذلك أنه قدم على رسول الله في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة نفر من عضل والقارة، وهو اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان.

فذكروا للنبي ﷺ أن فيهم إسلاماً، ورغبوا أن يبعث معهم نفر من المسلمين يفقهونهم في الدين، فبعث رسول الله ﷺ عشرة رجال من أصحابه منهم: مرثد ابن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت من الأوس، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة البياضي، وعبد الله بن طارق حليف لبني ظفر.

الغدر

وأمَّر رسول الله ﷺ مرثداً، حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً.

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: بعث النبي ﷺ سرية وأمرَّ عليهم عاصم ابن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا الحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتتبعوهم بقريب من مائة رام؛ فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة. فقالوا: هذا تمر يثرب.

فتتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى ربوة عالية واستعصموا بها، وسلوا سيوفهم ليقاتلوا، وجاء القوم فأحاطوا بهم وخدعوهم.

فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا.

فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، واللهم أخبر عنا رسولك.

فقاتلوهم فرموهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها.

فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه.

قتل خبيب

وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر ابن نوفل، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعرته، فغفلت عن صبي لها فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأته فزعت فزعة عرف ذلك منها وفي يده الموسى.

فقال ـ رضي الله عنه ـ: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت أفعل ذلك إن شاء الله.

وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خير من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف العنب وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقاً رزقه الله.

فخرجوا به من الحرم ليقتلـــوه فقال: دعوني أصلي ركعتين. فكان أول من سن الركعتين عند القتل.

ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا ما بي جزع من الموت لزدت.

ولما قاربوا قتله قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً. ثم قال:

ولـــست أبـــالـــي حـــين أقـــتـــل مـــســلـــمـــاً
عـــلـــى أي جـــنـــب كـــان فـــي الله مـــصـــرعـــي
وذلـــــك فـــــي ذات الإلـــــه وإن يـــشـــأ
يـــبـــارك عـــلـــى أوصــــــال شـــلـــو ممـــزع

ثم قام عقبة بن الحارث فقتله.

قتل زيد

وأما زيد بن الدثنة فلما قربوه للقتل وعاين الموت، قال له أبو ســفيان بن حرب: أنشــدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تُضرب عنقه وأنك في أهلك؟

فقـــال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي.

فقال أبو ســفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

ثم قام إليه عبد لصفوان اســمه نســطاس فقتله ـ رضي الله عنه ـ وهو صابر متحسب.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشــيء من جسده يعرفونه، فبعث الله عليــه مثل الظلة مـــن الدبر [وهي الزنابير وهي ذكـــور النحل] فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء.

سرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة

ما إن انقضت مأساة الرجيع حتى وقعت مثلها ثانية في الغدر والخيانة.

وكان ذلك في نفس الشهر الذي بعث رسول الله ﷺ سرية الرجيع وهو شـــهر صفر حيث أرسل ﷺ سرية أخرى إلى بئر معونة وهو موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان.

وســـببها أن أبا براء عامر بن مالك؛ المعروف بملاعب الأسنة، وهو من رؤوس بني عامر؛ قدم على رســـول الله ﷺ، فعرض عليه الإسلام، فلم يُسلِّم ولم يُبعد.

وقال: يا محمد أني أرى أمرك هذا حســـناً شريفاً، ولو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**إني أخشى أهل نجد عليهم**».

قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم.

فبعث ﷺ المنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون وقيل أربعون، وقد أطلق عليهم اســـم القراء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن، وكانوا يصلون بالليل ويتدارسون القرآن، ويحتطبون بالنهار يشترون به الطعام لأهل الصفة.

فســـاروا حتى إذا نزلوا بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتابه ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، فلما أنفذه الرمح قال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

ثم استصرخ عليهم بني عامر فلم يجيبوه، وقالوا نحن لن نخفر أبابراء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً.

فاستصرخ قبائل من سليم ورعلاً وذكوان وعصية فأجابوه إلى ذلك، ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا إلى آخرهم، إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبرهم أنه من مضر؛ أخذه عامر بن الطفيل وأعتقه عن رقبة زعموا أنها كانت على أمه.

وفي الصحيح عن هشام بن عروة قال أخبرني أبي: لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة. قال: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وضع.

فأتى النبي ﷺ خبرهم فنعاهم فقال: «**إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم، قالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا. فأخبرهم عنهم**».

وقد حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً على ما حدث بالرجيع وبئر معونة من الغدر والخيانة وقتل الصحابة، وقد كان وصول خبر سرية الرجيع وبئر معونة في يوم واحد.

قال أنس: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة.

في الصحيحين عن أنس: «دعا النبي ﷺ على الذين قتلوهم ثلاثين صباحا، يدعو على رعل وذكوان وبني لحيان وعصية، عصوا الله ورسوله».

غزوة بني النضير

وقعت هذه الغزوة في السنة الرابعة من الهجرة.

وسـببها أن عمرو بن أمية الضمري خرج إلى المدينة، لما أعتقه عامر بن الطفيل فصادف في طريقه رجلين من بني عامر معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به عمرو.

فقال لهما عمرو: من أنتما؟

فذكـرا له أنهما من بني عامر فتركهمـا حتى ناما فقتلهما؛ وظن أنه قد ظفر ببعض ثأر أصحابه، فلما قدم أخبر رسـول الله ﷺ فقال: **«لقد قتلت قتيلين لأدينهما»**.

ثم خرج رسـول الله ﷺ إلى بني النضير يسـتعين بهم في دية القتيلين اللذيـن قتلهما عمرو بن أميـة للجوار الذي كان عقده لهما، فلما أتاهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالوا: يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. وكانوا على حقدهم وكراهيتهم للرسول ﷺ.

وزين لهم الشيطان أنها فرصة سانحة ووقت مناسب خاصة أنهم من قبل قد ذلوا واسـتكانوا بعد وقعة بني قينقاع وقتل كعب بن الأشرف، ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا وكاشفوا بالعداوة والخيانة.

الغدر

فلمـا خلا بعضهم ببعض قالوا: إنكـم لن تجدوه على مثل هذا الحال.

وكان النبي ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم.

فقالـوا: منْ رجل يعلو على هذا البيت فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟

فانتدب لذلك عمرو ابن جحاش فقال: أنا لذلك.

فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا والله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه.

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام مظهراً أنه يقضي حاجة وترك أصحابه في مجلسهم ورجع مسرعاً إلى المدينة.

واستبطأ النبي ﷺ أصحابه فقاموا إليه حتى انتهوا إليه فأخبر بما أراد يهود.

قال ابن عقبة: وأنزل الله في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ [المائدة: ١١] الآية.

فأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم جزاء نقضهم العهد ومحاولة قتله ﷺ. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

قطع النخيل

ثم سار ﷺ بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم، فتحصنوا منه في الحصون، وظنوا أن حصونهم ما نعتهم من الله. فأخذوا يرمون المسلمين بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم، فأمر ﷺ بقطع النخل وحرقها وتخريبها.

فنادوه: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها.

فأنزل الله عز وجل ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] الآية.

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله ابن أبي ابن سلول بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم.

فقويت شوكتهم وزادت عزيمتهم، ولكن الله - عز وجل - قذف في قلوبهم الرعب فلم ينصروهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم عن أرضهم ويكف عن دمائهم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة**» - أي السلاح -، فنزلوا على ذلك، وكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم. فاستسلموا بعد ست ليال، وقيل: بعد خمس عشرة ليلة.

الجلاء

ثم أجلاهم عن المدينة وحملوا النساء والصبيان، وما استطاعوا حتى قلعوا من بيوتهم الأبواب والشبابيك، والأوتاد وجذوع السقف، وحملوها فيما حملوه على ستمائة بعير. فاحتملوا بأهليهم إلى خيبر، وهي التي نزل بها أكثرهم ومنهم من ذهب إلى الشام.

وكان ممن رحل إلى خيبر أكابرهم كحيي بن ابن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق فدانت لهم خيبر، فقسم رسول الله ﷺ أموال بني النضير بين المهاجرين خاصة، إلا أنه - عليه الصلاة والسلام - أعطى أبا دجانة، وسهيل بن حنيف وكانا فقيرين.

وفي قصة بني النضير نزلت سورة الحشر، بأكملها، فذكر - تعالى - إجلاء اليهود، وفضح مسالك المنافقين، وبيّن أحكام الفيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار إلى غير ذلك مما يخص هذه الغزوة.

ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان يامين بن عمرو، وأبو أسيد بن وهب، أسلما فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله ﷺ الأموال ولم يقسم منها لأحد، لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، وإنما قذف الله في قلوبهم الرعب، فقسمها بين المهاجرين ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار إذ كانوا قد قاسموهم الأموال والديار.

وكانت بنو النضير لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء كما في الصحيحين من حديث عمر في قصة اختصام علي وعباس عند عمر فيما أفاء الله على رسوله من بني النضير، وفيه أن عمر قال: إن الله كان خص رسوله في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحد غيره فقال ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر: ٦] الآية.

فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ. وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله.

غزوة بدر الثانية

لما قفل رسول الله ﷺ عائداً إلى المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام بها جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثم خرج في شعبان سنة أربع للهجرة إلى بدر لميعاد أبي سفيان، وهو ما سبق أن أبا سفيان قال يوم أحد: الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل.

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لرجل من أصحابه: **«قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد»**.

فخرج ﷺ ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس، واعطى اللواء علي بن أبي طالب، واستعمل على المدينة عبد الله بن رواحة.

فأقاموا على بدر ينتظرون أبا سفيان ثمانية أيام، وخرج أبو سفيان في ألفي مقاتل وخمسين فرساً حتى نزل مجنة من ناحية مر الظهران.

ثم بدا له الرجوع وكان قد أخذه الرعب منذ خروجه فقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا.

فرجع الناس، ولم يبدوا أي معارضة، فسماهم أهل مكة جيش السويق. يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

وأقام ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثمانية أيام، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا الدرهم درهمين. ثم رجعوا إلى المدينة وقد توطدت هيبتهم في النفوس. لأن في حضورهم للموعد وبقاءهم تلك الأيام أظهار للقوة والشجاعة وعدم الجبن أو الخوف.

غزوة دومة الجندل

عاد رســول الله ﷺ من بدر الثانية، وقد هدأت المنطقة، وقويت شوكة المسلمين، وجعل الله لهم هيبة في قلوب الجميع.

وفي ربيع الأول من سنة خمس للهجرة بلغه ﷺ أن بدومة الجندل وهي محطة قوافل تجارية تقع في الطريق بين الحجاز والشــام، بينها وبين دمشق خمس ليال، وتبعد عن المدينة خمس عشرة ليلة.

بلغــه ﷺ أن جمعاً كثيراً يظلمون من مر بهم، وأنهم يريدون الدنو من المدينة، والهجوم عليها.

فخرج في ألف من أصحابه، فكان يســير الليــل ويكمن النهار، حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة.

فلما دنا منهم لم يجد إلا الغنم والشاء، فهجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه.

وجاء الخبر أهل دومة فتفرقوا، ونزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بساحتهم فلم يلق بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا وفرقها، فرجعوا ولم يصب منهم أحداً.

وكان لهذه الغزوات خارج محيط المدينة ومكة هدف كبير من بث الرعب وحصول الغنائم، وسكون المنافقين وذلة اليهود بعد إجلائهم.

وبهذا الهدوء كان باب الدعوة إلى الله مفتوحاً على مصراعيه لنشر الدين وتبليغ الرسالة.

تزوج النبي بأم سلمة

وفي شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة تزوج رسول الله ﷺ بأم سلمة ـ رضي الله عنها ـ، وأسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية القرشية، وكانت قبل النبي ﷺ عند الصحابي الجليل ابن عمها وأبي أولادها أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي الذي توفي في جمادى الأولى من نفس العام، وقد أنجبت منه سلمة وعمر وزينب ورقية، فلما انقضت عدَّتها وحلَّت خطبها النبي ﷺ في شوال من هذا العام، فأرسل إليها عمر بن الخطاب فاعتذرت بأنها امرأة غَيْرى وأنها ذات عيال، فلم يجد رسول الله بداً من أن يذهب إليها بنفسه.

الاسترجاع عند المصيبة

وقد جرى لأم سلمة حدثاً وموقفا عظيماً عندما مات زوجها، روى الإمام أحمد في مسنده عنها قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به، قال: «**لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند معصيبته ثم يقول: اللهم آجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله، وأخلف له خيراً منها**».

قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت، وقلت اللهم آجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟!

فلما انقضت عدَّتي استأذن عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي، فغسلت يدي من القَرَظ وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها، فخطبني إلى نفسه، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة بي غَيْرة شديدة، فأخاف أن

ترى مني شـيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السـن، وأنا ذات عيال.

فقال ﷺ: «**أما ما ذكرت من الغَيْرة فسيذهبها الله عنك** ـ يعني بسبب دعائه لهـا كما فـي رواية أخرى ـ **وأمـا ما ذكرت من السـن فقد أصابنـي مثل الذي أصابـك، وأمـا ما ذكرت من العيـال فإنما عيالك عيالي**»، فقالت: قد سـلّمت لرسول الله.

فقالت أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه رسول الله ﷺ.

وقد زوجها إياه ابنها سـلمة، وأصدقها رسـول الله ﷺ فراشـاً حشوه ليف، وقدحاً، وصحفة، ومجشة ـ أي رحى ـ.

غزوة المُرَيسِيْع

بنـــو المصطلق بطن من خزاعة، والمريســـيع ماء لبني خزاعة، وبينه وبين الفـــرع يومان، ولهذا الموقع أهمية كبرى في الصراع بين المســـلمين وقريش على طريق القوافل التجارية، وكانت هذه الغزوة لليلتين خلتا من شـــعبان سنة خمس للهجرة.

وقد بلغ النبي ﷺ أن رئيسهم الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قـــدر عليه من العـــرب فدعاهم فأجابوه، وظعنوا للمســـير معه إلى حرب رسول الله ﷺ وذلك بعد غزوة أحد وتجرأهم على المسلمين.

وخرج - عليه الصلاة والســـلام - في بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا فـــي غزاة قط مثلها، واســـتخلف على المدينة زيد بـــن ثابت. وأعطى راية المهاجريـــن إلى أبي بكر، وراية الأنصار إلى ســـعد بن عبادة، وخرجت أم المؤمنين عائشة وكذلك أم سلمة.

وفـــي صحيح البخاري عن ابن عمر أن رســـول الله ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء. فقتل من قتل منهم وسبي النساء والذرية. وكانت الإبل ألفي بعير، والشياه خمسة الآف.

جويرية بنت الحارث

ومن السبي كانت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، وكان اســـمها برة؛ فغير الرســـول ﷺ اسمها إلى جويرية، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدى رسول الله ﷺ عنها وأعتقها فتزوجها، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا أصهار رسول الله.

وفي رجوع رســول الله من هذه الغزوة قال عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وكان ذلك القول منه لشر وقع بين جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب، وبين سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج.

فنادى الغفاري: يا للمهاجرين، ونادى الجهني: يا للأنصار.

دعوى الجاهلية

فقال رسول الله ﷺ: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟**».

وبلَّغ زيد بن أرقم رســول الله ﷺ مقالة عبد الله ابن أبي فنزل في ذلك سورة المنافقين، وتبرأ عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبيه.

وأتى رســول الله فقال له: يا رســول الله أنت والله الأعز وهو الأذل، والله لئن شــئت لنخرجنه يا رسول الله، ووقف لأبيه قرب المدينة فقال: لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله في الدخول.

الولاء والبراء

وقال أيضاً: بلغني أنك تريد قتل أبي وأني أخشى إن أمرت بذلك غيري ألا تدعني نفســي أرى قاتل عبد الله يمشي على الأرض فأقتله وأدخل النار إذا قتلــت مؤمناً بكافر، وقد علمت الأنصار أني من أبرها لأبيه، ولكن يا رسول الله إن أردت قتله فمرني بذلك فأنا والله أحمل إليك رأسه.

فقال رسول الله ﷺ خيراً، وأخبره أنه لا يسيء إلى أبيه.

الرحيل

ولإطفاء نار الفتنة ووأدها في مهدها ارتحل النبي ﷺ بالمسلمين في وقت لم يكن يرتحل فيه. فرحلوا طيلة اليوم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصَدَر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً من شدة التعب وطول الطريق ومتابعة السير.

وقد خرج في هذه الغزوة جماعة من المنافقين، وقد سـجل لهم التاريخ موقفين آخرين من مواقف الخزي في هذه الغزوة.

أولهما: محاولتهم إثـارة الفتنة والعصبية بين المهاجرين والأنصار، كما في الموقف المذكور.

وثانيهما: السـعي لايذاء الرسول ﷺ بالطعن في عرضه، حيث افتروا على أم المؤمنين عائشـة ـ رضي الله عنها ـ في ما يعرف بحديث الأفك. فبرأها الله من فوق سـبع سموات؛ بآيات محكمات، تُقرأ إلى يوم القيامة آناء الليل وأطراف النهار.

حادثة الأفك

وفي مرجع رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق سنة خمس للهجرة، وبعد محاولات المنافقين إشعال نار الفتنة بين المسلمين بإثارة العصبية الجاهلية والتي حمى الله المسلمين منها، وآتتهم الفرصة كما يرون لإيذاء الرسول ﷺ في نفسه وعرضه.

تروى ذلك الحدث أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ بقولها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرجت معه. وفي ذلك تطيب لخواطرهن وحفظاً لحقوقهن، ومراعاة للعدل بينهن.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب.

وكان من تكريم المسلمين للمرأة أن تصان ويحافظ على شعورها ومكانتها. فجُعِلْ لهن الهودج، وهو مكان موطأ على ظهر الجمل، تشعر فيه المرأة بالراحة والطمأنينة، والستر والحشمة؛ فكانت المرأة تحمل في هودج وتنزل فيه.

سار الركب حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وعلى بعد من المدينة أناخوا مطاياهم ينشدون الراحة بعد يوم سفر طويل.

ثم أذن بالرحيل. وسُمِّع النداء، فتداعى القوم إلى السير، فقامت عائشة حين أذنوا بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فلمست صدرها فإذا عقد لها من جزع ظفار [مدينة باليمن] قد

انقطع، فرجعت فالتمست عقدها فحبسها ابتغاؤه والبحث عنه.

قالت ـ رضي الله عنها ـ: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وأهوى حتى أناخ راحلته فوطئ يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول.

الوصول إلى المدينة

فلما أقبلت عائشة وصفوان يقود بعيرها نفث الشيطان في قلوب المنافقين وظنوا ظن السوء بأم المؤمنين وحاشاها ذلك، وتداولت الألسن ما سمعت فهلك من هلك. وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله ابن أبي بن سلول. وكان يشاع ويتحدث بالأمر وما جرى فيقره وينفثه.

قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك لا أشعر بشيء من ذلك.

ولم تكن تعلم ـ رضي الله عنها ـ ماذا قال الناس؟ وبماذا يتحدثون، وعن من يتكلمون؟ عفيفة، طاهرة، نقية.

وكان مما لفت نظرها وصدق حدسها وظنها في وجعها ذلك. أنها لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي تراه منه حين تشتكي، وكان ﷺ طيب المعشر ودوداً، عطوفاً، رقيقاً بأهله وزوجاته في كل الأحوال، فكيف إذا وجعت إحداهن وألَّم بها مرض ونزل بها عارض.

تقول ـ رضي الله عنها ـ: وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف.

فذلك يريبها ولا تشعر بالشر. حتى قدر الله وتعافت ونهضت من مرضها وخرجت معها أم مسطح قِبَلْ المناصح وكان متبرزهم، وكانوا لا يخرجون إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتهم.

وأمرهم أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط، وكانوا يتأذون بالكنف أن تتخذ عند بيوتهم لرائحتها وقذارتها.

أم مسطح

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد ابن المطلب، فأقبلتُ أنا وأم مسطح قِبلّ بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها. فقالت: تعس مسطح.

فما كان من الصديقة ـ رضي الله عنها ـ إلا أن دافعت ونافحت عنه، وقالت: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟

فقالت: أي هنتاه، أولم تسمعي ما قال؟

قالت عائشة مستنكرة الأمر: وما قال؟

فأخبرتهـــا بقول أهل الإفـــك. فازدادت مرضاً علـــى مرضها وألماً على ألمها.

إلى بيت أبيها

تقول عائشة: فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله ﷺ، ثم قال: كيف تيكم؟

فقلـــت: أتـــأذن لي أن آتي أبوي؟ وكانت ـ رضـــي الله عنها ـ تريد أن تستيقن الخبر من قبلهما.

فأذن لها رسول الله ﷺ، فسارت نحو دار نشأت فيه، ودربت وترعرعت. فقالت لأمها متلهفة للجواب: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس؟

قالت الأم العاقلة الناصحة المشـــفقة، وهي تعلم حسن تربيتها لابنتها: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلَّ ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها.

فتعجبت عائشة من أن هذا الأمر قد وقع، وقالت مستنكرة: أوقد تحدث الناس بهذا؟

عندها بكت تلك الليلة حتى أصبحتْ لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم. ثـــم أصبحت تبكي؛ وهل تلام عين أن تنزف دمعـــاً أو دماً. وهي العفيفة البريئة الطاهرة.

الاستشارة

أمـــا ما كان من أمر النبـــي ﷺ وقد أهمه الأمر، فقد دعا رســـول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأســـامة بن زيد؛ حيث تأخر الوحي يســـألهما ويستشيرهما في فراق أهله، وهما من أقرب الناس إلى بيته وأسرته ﷺ.

فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود.

فقال أسامة: أهلك، ولا تعلم إلا خيراً.

وأما علي فقد هون عليه الأمر من جهة أخرى فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك.

ثم انتقل ﷺ يسأل في الأمر النساء، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال يسألها: هل رأيت من شيء يريبك؟

قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

فانتهرها بعض أصحابه فقال: اصدقي رسول الله حتى أسقطوا لها به.

فقالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. والله لعائشة أطيب من الذهب، ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله.

فعجب الناس من حسن جوابها ومن فقهها.

وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذي قيل له، وهو مسطح ـ رضي الله عنه ـ فقال: سبحان الله، والله ما كشفت كنف أنثى قط. كأنه يعرض بزوج النبي ﷺ كيف يكون ذلك منه.

وقد أكرمه الله ـ عز وجل ـ فقتل بعد ذلك شهيداً في سبيل الله.

أبو أيوب

أما بيوت المدينة فقد شاع الخبر وانتشر فيها، فقد قالت: أم أيوب الأنصارية لأبي أيوب: أما سمعت ما يتحدث الناس؟ فسكت ـ رضي الله عنه ـ فحدثته بقول أهل الإفك.

فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم.

قال: بلى. وذلك والله الكذب.

ثم دوى بسؤال عظيم وحجة قوية ليُسكت زوجته عن مجرد التفكير بهذا الأمر.

قال لها: أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك؟

قالت وبلا تردد: لا والله ما كنت فاعلة.

قال لها في بيان كاف شاف: فعائشة خير منك.

فلما نزل القرآن قال الله ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أي فقالوا كما قال أبو أيوب.

زينب

وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عنها فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت؟

فقالت ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً.

وفيما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تثني عليها: وهي التي تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع.

ومثلما عصم الله ـ عز وجل ـ أم المؤمنين زينب طفقت أختها حمنة محاربة لها فهلكت فيمن هلك.

ودخل الهم والغم على عائشة ـ رضي الله عنها ـ حتى أنها قالت: لما بلغني ما تكلموا به هممت أن آتي قليباً فأطرح نفسي فيه.

وكانت فتاة صغيرة؛ عمرها حينئذ أثني عشر عاماً.

بل والهم مشترك بينها وبين أهل بيتها. قالت: فوالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على أبي بكر تلك الأيام والليالي من الهم والغيظ.

وحتى قال أبو بكر مستنكراً وقد أغمه وأهمه ما جرى: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف أن أعزنا الله بالإسلام؟

واغتم الرسـول ﷺ بما يقال، وأعلن على الملأ وفي المسجد أنه ما علم على أهله إلا خيراً.

الشدة والضيق

ثم تتالت الأيام والحديث على الألسن ابتلاءً وامتحاناً، والأمر يزداد ويشتد، وفي القوم من المنافقين من يتحدث به وينفثه في صدور الناس، وينقله من مجلس إلى مجلس حتى استشترى الأمر، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر عبد الله بن أبي وهو على المنبر فقال: «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي**».

فتنة أخرى

وكاد وهو على المنبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تقع فتنة عظيمة تعم أهل المدينة كلهم، وليست في بيت النبوة وبيت الصديق فحسب.

حيث قام سعد أخو بني عبد الأشهل فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة سيد الخزرج. وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية.

فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل.

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد. فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

غم عائشة

أما من أمر عائشة ـ رضي الله عنها ـ فكان كما قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي.

فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي. تشاطرها الحزن، وتنفس عن كربها ولو بالدموع.

واستمرت الأحداث شهراً كاملاً، ثلاثون يوماً كاملة بليلها ونهارها، والحديث يسرى في بيوت المدينة. كابد فيها الرسول ﷺ وعائشة وأبو بكر وأهله والمؤمنون أشد المكابدة، وهل هنالك أعظم مما جرى!

الفرج

وبعد شهر جاء الفرج. والفرج قريب، والله سميع عليم.

فلما كان ذلك الصباح، وفي وسط الدموع والبكاء؛ دخل رسول الله ﷺ بيت الصديق فسلم ثم جلس.

قالت عائشة: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء.

فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «**أما بعد يا عائشة إنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه**».

فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعها حتى ما أحست منه قطرة، وكأن قوة داخلية دفعتها لتبرئ ساحتها وتدافع عن نفسها.

اعتذار الأب والأم

تقـول ـ رضي الله عنهـا ـ فقلت لأبي: أجب عني رسـول الله فيما قال.

فقال الأب وقد أحاط به الشـجن من كل بـاب، وهو الرجل الوقور، الحصيف: والله ما أدري ما أقول لرسول الله.

فالتفتـت عائشـة لأمها بعد اعتذار أبيها لعلها تجـد رداً وقالت: أجيبي رسول الله فيما قال.

فقالت الأم المكلومة: والله ما أدري ما أقول لرسول الله.

وهنا شمرت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن حرقة في قلبها، فقالت وهي حنيئذ فتاة حديثة السن لا تقرأ من القرآن كثيراً.

قالت: إني والله لقد علمت؛ لقد سـمعتم هذا الحديث حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعتـرف لكم بأمر والله يعلم أنـي بريئة لتصدقني. فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسـف حين قـال ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: ١٨].

أتمت حديثها ثم تحولت فاضطجعت على فراشها ـ رضي الله عنها ـ.

قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكني والله ما كنت أظن أن الله منزل فيَّ شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه رؤيا يبرئني الله بها.

الوحي يتنزل

فكان الفرج وجاء اليسر بعد اليسر. . .

قال عائشـة ـ رضي الله عنها ـ: فوالله ما رام رسـول الله ﷺ مجلسه ولا خـرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحـاء، حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شـات مـن ثقل القول الذي ينزل عليه [والجمـان: حب من فضة يصنع في مثل الدر].

وفي تلك اللحظات العصيبة والدقائق البطيئة كانت المواقف متباينة على الوجوه وفي النفوس.

قال أبو بكر: فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ أخشى أن ينزل عليه من السـماء ما لامرد له، وأنظر إلى وجه عائشـة فإذا هو مفيق فيطمعني ذلك فيها. لأنه يرى فرح وجهها وتقاسيمه، وأن الله مبرأها.

أما موقف عائشـة ـ رضـي الله عنها ـ فهو كما ذكـرت: فأما أنا فما فزعت، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فما سري عن رسـول الله حتى ظننت أن تخرج أنفسـهما فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس.

إنها لحظات صعبة وقاتلة، تذيب الصخر هماً وغماً.

وجاء الفرج، وسري عن رسول الله وهو يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: **«يا عائشة احمدي الله فقد برأك»**.

وفي رواية للبخاري: **«أما الله ـ عز وجل ـ فقد برأك»**. وفي رواية له **«أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك»**.

قالـت: وكنت أشـد ما كنت غضباً، فقد تحولت الإشـاعة إلى براءة،

والظلم إلى بيان الحق وسطوعه.

فرح أبوها وأمها وعبرا عن هذا الفرح.

فقال لها أبواها: قومي إليه.

فقلت: لا والله ما أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما، ولكني أحمد الله الذي أنزل براءتي. لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه.

وكانت الآيات تتلى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور: ١١ـ ١٨].

قصة مسطح

فلما أنزل الله براءة عائشة، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله ما أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال.

فأنزل الله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ [النور: ٢٢] الآية.

قال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

إقامة حد القذف

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فرحاً بما أنزل الله ـ عز وجل ـ؛ فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك.

ثم أمر بمسطح ابن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم.

أما عبدالله بن أبي بن سلول الذي تولى كبر الأفك فلم يقم عليه الحد، لأنه لم يترك دليلاً ضده، إذ كان يستوشيه ـ أي يستخرجه ـ بالبحث والمسألة ثم يغشيه ويشيعه ويحركه ولا يدعه يخمد.

حال الأبوان

أما الأبوان المكلومان فكانت حالهم فرح ودموع، فإنه لما نزل عذرها وبراءتها قبَّل أبو بكر رأسها محبة وتحناناً.

فقالت: ألا عذرتني؟

فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت ما لا أعلم؟

سنة الإبتلاء

وفي نزول آيات براءة عائشة رفعة لها عن ما أصابها في محنتها وصبرها ذلك، وحسن توكلها على ربها. . نزلت الآيات قرآناً يتعبد به المسلمون إلى يوم القيامة.

ومن الحكم في هذا الابتلاء توضيح وإبانه عن بشرية الرسول ﷺ فقد تأثر أبلغ التأثر لرمي المنافقين زوجه، ومع حرصه عليها وحبه لها ولأبيها، فإنه لم يكن يعلم الغيب أو يستحضر الوحي إلا بأمر ربه، فقد انقطع عنه شهراً ليجري عليه الابتلاء والامتحان.

تلك هي أمنَّا أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي أنزل الله حبها في قلب رسولنا ﷺ.

سأل عمر بن العاص من أحب الناس إليك يا رسول الله؟

قال: «**عائشة**» [رواه الترمذي].

وقد أنزل الله حبها في قلوب أبنائها فهي أمنا ـ رضي الله عنها ـ وعن أبيها.

تلك هي المبرأة التي أنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات.

وصدق حسان بن ثابت في مدحها:

حصانٌ رزان ما تزن بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس ديناً ومنصباً
نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب
كرام المساعي مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها
وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنت قلت الذي قد زعمتم
فلا رفعت سوطي إلى أناملي
فإن الذي قد قيل ليس بلائق بها
ولكنه قول أمريء بي ماحل
وكيف وودي ما حييت ونصرتي
لآل رسول الله زين المحافل
له رتب عال على الناس كلهم
تقاصر عنه سورة المتطاول

رأيـــــتـــــك ولـــيـــغـــفـــر لـــــك الله حــــرة
مـــــن المحـــصـــنـــات غـــيـــر ذات قـــوائـــل

من أخلاقها

وقــد تخلّقت ـ رضي الله عنهــا ـ بأخلاق زوجها نبي هذه الأمة ﷺ، وأبيها الصديق ـ رضي الله عنها ـ فَعَفت، وكان حسـان يسـتأذن عليها لما كبر وعمي فتأذن له، وكان ممن تكلم فيها.

وكانت تكره ـ رضي الله عنها ـ أن يُسـب حسان عندها لمنافحته ودفعه عن رسول الله ﷺ وتقول؛ إنه الذي قال:

فـــإن أبـــي ووالـــدتـــي وعـــرضـــي
لـــعـــرض مـــحـــمـــد مـــنـــكـــم وفـــاء

غزوة الخندق أو الأحزاب

بعد غزوة أحد أظلت المدينة سحابة حزن لفقد الأحبة شهداء في سبيل الله.. وخيم السكون حيناً على الجزيرة العربية.

ولم يكن ذلك الهدوء الذي أظل المدينة إلا بداية لتحزب الأحزاب من ملل الكفر والشرك، يتحينون الفرص ويتسابقون إلى العداوة! فلا يهنأ لهم بال ولا يقر لهم قرار حتى يكون معقل الإسلام ومدينته تحت أيديهم يجوسون فيها تقتيلاً وافساداً. ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ [البروج: ٩].

وفي السنة الخامسة للهجرة خرجت شرذمة من اليهود نحو كفار مكة ليألبوهم ويحرضوهم على غزو المدينة، ومحاولة استئصال شأفة الإسلام، وقتل محمد ﷺ، والتنكيل بأصحابة.

وكانت رغبة اليهود الذين أجلوا إلى خيبر تتفق مع قريش في القضاء على النبي ﷺ والأخذ بثأرهم والطمع في العودة إلى ديارهم وأملاكهم في المدينة.

فخرج وفد من اليهود إلى مكة، منهم سلام بن مشكم بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب، وهوذة بن قيس في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل؛ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله، وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فرحبت قريش بمقدمهم واستجابت لدعوتهم وحرضوهم على مواصلة مسعاهم.

وأردوا أن يعلموا من علم اليهود عن نبوة محمد ﷺ وما يدعيه من الرسالة.

فقالت لهم قريش: يا معشــر يهود إنكــم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دينه؟

قالـــوا: بل دينكم خيــر من دينه، وإنكم أولى بالحـــق منه، فهم الذين أنـــزل الله فيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ إلى قوله ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٦].

الجموع

وتداعت الجموع واقبل الشر بخيله ورجله، فخرجت من الجنوب قريش وكنانة وأهل تهامة، وعلى رأســهم أبو ســفيان بن حرب في أربعة الآف، ومعهم ثلاثمائة فرس، وألف وخمســمائة بعير، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة وهو الذي قُتل أبوه وهو يحمل اللواء يوم أحد. ووافاهم بنو ســليم في سبعمائة مقاتل.

وخرجت من الشـــرق قبائل غطفان، وقائدها عيينة بن حصن ومعه ألف فارس، وعيينة هذا هو الذي اقطعة رســول الله ﷺ في غزوة دومة الجندل أرضاً يرعى فيها ســوائمة؛ حتى إذا سمن خُفَّه وحافره، قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه. وجازى إحســان الرســول ﷺ لــه كفراً وجحوداً. وكذلك خرجت بنو أسد ويرأسهم طليحة بن خويلد الأسدي.

وخرج الحارث بن عوف في مرة في أربعمائة. ومســعر بن دخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع.

حتى تجاوز العدد عشــرة الآف، واكتمل بذلــك عقد الأحزاب، وكان قائدهم العام أبو سفيان بن حرب.

واتجهــت جموع الأحزاب الكافرة صوب المدينة حتى تجمع حولها جيش

عرمرم يبلغ عدده عشرة الآف مقاتل!

جيش يزيد عدده على سكان المدينة رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً ! في جوع منهم شديد، وبرد وزمهرير، وعدة قليلة، وما عند الله خير وأبقى.

اجتمع الأحزاب حول المدينة لسبب واحد لا غير وإن اختلفت الألسن ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

الشورى

فلما سمع رسول الله ﷺ بالأحزاب وقدومهم استشار المسلمين في الأمر، فأشار سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ، بحفر الخندق وقال: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، ولم تكن العرب تعرف الخندق من قبل، فاستحسن رسول الله ﷺ والمسلمون الرأي، ومالوا إلى قبوله.

حفر الخندق

فحفر المسلمون الخندق في الجهة الشمالية وهي عورة المدينة لا يستطيع المهاجمون نفاذاً إلى المدينة إلا منها. إذ أن بقية مداخل المدينة ضيقة المسالك مشتبكة البيوت والنخيل. وتحيطها الحَرَّات التي يصعب على الإبل والمشاة التحرك فيها.

وكان طول الخندق خمسة الآف ذراع وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة، وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً، حفر المهاجرين من ناحية حصن راتج في الشرق إلى حصن ذباب، والأنصار من حصن ذباب إلى جبل بني عُبيد في الغرب.

وعمل المسلمون في الحفر على عجل وبهمة ونشاط يبادرون قدوم القوم، وقد تراوحت مدة الحفر ما بين ستة أيام واربعة وعشرين يوماً. وعمل فيه

ألف وخمسمائة من الصحابة انجزوا خلال ذلك الفان وسبعمائة وخمسة وعشرون متراً. وكان طعامهم القليل من الشعير يخلط بدهن متغير الرائحة لقدمه ويطبخ، فيأكلونه على الرغم من رائحته وطعمه الغير مستساغ وذلك لشدة جوعهم.

وربما لا يجدون ذلك الطعام فيأكلون التمر، وأحياناً لا يجدون هذه ولا هذا لمدة ثلاثة أيام متتالية، ومن ذلك أن النبي ﷺ عصب على بطنه بحجران من شدة الجوع.

وكان ﷺ يشارك الصحابة في العمل ويستحثهم بذلك؛ عن سهل بن سعد قال: كنا مع النبي ﷺ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا [وهو ما بين الكاهل إلى الظهر] وأكتافنا.

قال أنس: خرج رسول الله ﷺ فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة
فاغفر للأنصار والمهاجره

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا
على الجهاد ما بقينا أبدا

وفي البخاري عن البراء أنه قال: رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنا الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب:

اللهم لولا الله ما اهتدينا
ولا صمنا ولا صلينا

فـــأنـــزلـــن ســكــيــنـــة عــلــيــنــا
وثـــبـــت الأقـــــدام إن لاقــيــنـــا
إن أولاء قـــد بـــغـــوا عــلــيـنـا
وإن أرادوا فـــتـــنـــة أبــيـــنـــا

قول ابن كثير

قال ابن كثير: ما ثبت عنه ﷺ أنه تمثل يوم الخندق بأبيات ابن رواحه:

الــلــهــم لـــولا أنـــت مـــا اهــتــديــنــا

وما ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب بغلته:

أنــــا الــــنــــبــــي لا كـــــذب
أنــــا ابــــن عـــبـــد المـــطـــلـــب

وقوله:

هـــل أنـــت إلا أصـــبـــع دمـــيــت
وفــــي ســبــيــل الله مـــا لــقــيــت

إنما وقع اتفاقاً غير قصد إلى قول الشعر، بل جرى هذا على لسانه ﷺ عفواً، وكل هذا لدنيا فـي قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

الهمة في العمل

اســتمر الحفر بهمة ونشاط، وكان ﷺ قد اســتعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنساء والذراري فجعلوا في الآطام خوفاً عليهم وحرزاً لهم.

وهكــذا تجهز المســلمون للدفاع عن المدينة لم يعتــرض أحد على خطة الدفاع، فقد كانت جموع الأحزاب كبيرة، وكانت دروس أحد ماثلة قريبة، والخندق يشــكل حاجزاً يمنع الالتحام المباشــر بين الغزاة والمسلمين، ويمنع اقتحام المدينة، ويوفر للمســلمين موقعاً دفاعياً جديداً. وقد جعل المسلمون

ظهورهم إلى جبل سلع، فنزلوا هنالك والخندق بينهم وبين المشركين، أما قريش فنزلت بمجتمع الأسيال، وأما عطفان فنزلت جهة أحد.

فوت وقت الصلاة

واشتغل النبي ﷺ واصحابة بمقارعة العدو وأخذ العدة وحفر الخندق حتى فاتت المسلمين بعض الصلوات، ففي الصحيحين أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جاء يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش، فقال: يا رسول الله! ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب.

فقال النبي ﷺ: «**والله ما صليته**».

وقد أهم النبي ﷺ فوات الصلاة فدعا عليهم بقوله: «**ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**».

واستمرت الساعات العصيبة أياماً وليال وزادها سوءً وعنتاً نقض بني قريظة العهد مع الرسول ﷺ، فاكتمل عقد الأحزاب حول المدينة الصامدة يزيد عن عشرة الآف، بينما المسلمون في ثلاثة الآف مقاتل فحسب وفي هذا الجو المكفهر والكرب الشديد انقسم أهل المدينة إلى قسمين:

القسم الأول: قسم آمن بوعد الله وصدق بنصر رسالته، وهم من ذكرهم الله - عز وجل - بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

حفر الخندق مع شدة الجوع

فشدوا للقتال وقدموا المهج والأرواح، وبذلوا الأسباب بحفر الخندق وحراسة المدينة ليل نهار مع ما أصابهم من الجوع والفاقة.

وكان أشد أمر عليهم نجم النفاق وفشل الناس؛ وقد عظم عليهم البلاء واشتداد الخوف، وخيف على الذراري والنساء فقد أحاطوا بالجميع، وادلهم

الخطب بالأمة ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

البشارات

وكان النبي ﷺ في هذا الوقت العصيب يبشرهم بأمر عظيم!

قال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: **«بسم الله، ثم ضرب ضربة، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر إلى قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الآن، ثم ضرب الثالثة فقال: بسم الله فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر صنعاء من مكاني»**.

وهكذا كان النبي ﷺ يبشر ويرفع من عزائم الصحابة وكان أحدهم من شدة الجوع يرفع عن بطنه الحجر؛ فرفع رسول ﷺ عن بطنه الشريف حجرين!

وأما القسم الثاني: وهم أهل النفاق وضعفاء النفوس ممن أثر فيهم الإرجاف، فقد تزعزعت قلوبهم وانخلعت صدورهم لرؤية الجموع والعدد والعدة، وهم من ذكرهم الله بقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقال المنافقون في مابشر النبي ﷺ به من خزائن كسرى وقيصر: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وقالوا تنصلاً من الجهاد وهرباً منه ما ذكره الله - عز وجل - عنهم بقوله: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٣].

وكان ﷺ فـي تلك الأيام الصعبة يبعث الحرس إلـى المدينة لئلا تؤتى الذراري والنساء على حين غره! فالأمر مهول والأحزاب تُسمع أصواتهم، والنبال تصل إلى ساحة المسلمين.

وقـد وصف الله ـ عز وجل ـ تلك السـاعات العصيبة بوصف عجيب كأن العين تراهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

نقض العهد

وقد اشتد الخطب على المسلمين عندما بلغهم أن أحد حلفاءهم يهود بني قريظة قد نكثوا العهد وغدروا بهم.

وكانـت ديار بني قريظة في العوالي في الجنوب الشـرقي للمدينة على وادي مهزور.

وخـرج عدو الله حيي بـن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسـد صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك.

فلما سـمع كعب بحيي أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حيي: ويحك يا كعب افتح لي.

قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشـئوم، وإني عاهدت محمداً، وإنك لست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً.

قال: ويحك افتح لي أكلمك.

فقال: ما أنا بفاعل.

قـال: والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشـتك ـ وهو طعام يصنع من البر المطحون مع اللحم والتمر ـ. أن آكل منها.

فأحفـظ الرجل ففتح له فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسـادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسـيال مـن دومة، وبغطفان على قادتها وسـادتها حتـى أنزلتهـم بذنب نقمـى إلـى جانب أحـد، قـد عاهدوني وعاقـدوني ألا يبرحوا حتـى يستأصلوا محمداً ومن معه.

قال كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام [أي سـحاب رقيق] قد هرق ماؤه، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شـيء.. ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء.

فلم يزل يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقـاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك.

فنقض كعب عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

فلما انتهى إلى رسـول الله ﷺ الخبر وكان يوماً عصيباً اشـتد فيه البلاء لنقض بني قريظة العهد حيث أن ديارهم في العوالي إلى الجنوب الشـرقي للمدينة على وادي مهزوم. وبهذا انفتحت جبهة جديدة على المسلمين.

التثبت من الأمر

ولأن الأمر عظيم ولزيادة الحيطة والتأكد بعث ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبـادة، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبيـر وقال: «**انطلقوا حتى تنظـروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس**».

فخرجـوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله وقالوا: منْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلاً فيه حدة.

فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة. أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع.

فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين».

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن، وخاف المسلمون على ذراريهم من بني قريظة فقد جاءتهم الأحزاب من فوقهم، وبنو قريظة من أسفل منهم. ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: قد كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

وكان ﷺ يبعث الحرس إلى المدينة خوفا على الذراري من بني قريظة. وأنزل الله ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢] الآيات.

وقال رجال معه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣].

وقال بعضهم: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا فنرجع إلى ديارنا خارج المدينة. فأنزل الله ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٣].

ثلث الثمار

فلما اشتد البلاء ورسول الله ﷺ ما فتأ يسعى للأمر، فبعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهما عنه وعن أصحابه،

فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقم الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك.

فبعث رسول الله إلى سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه؛ أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؛ أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة**».

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا به نعطيهم أموالنا؟

ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم بحكمه.

فقال رسول الله ﷺ: «**فأنت وذلك**». فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب. ثم قال: ليجهدوا علينا.

قريش والخندق

فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة ابن أبي وهب، وضرار بن الخطاب؛ أقبلوا على خيلهم حتى وقفوا على الخندق، قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمموا مكانا ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموها منها وأقبلت الفرسان

تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قاتل يوم بدرحتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد، وكان اشجع فارس في العرب، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله قال: من يبارز؟

فقال له علي: أنا.

المبارزة

فبـــرز إليه علي بن أبي طالب، فقال له: يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله أن لا يدعوك أحد من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه.

فقال له: أجل.

قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام.

قال: لا حاجة لي بذلك.

قال: فإني أدعوك إلى البراز.

فقال له: يا ابن أخي ما أحب أن أقتلك.

قال له علي: ولكني والله أحب أن أقتلك.

فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرســه فعقــره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا، فقتله علي، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

وقتل في هذه المناوشـــات ثلاثة من المشركين واستشهد ستة من المسلمين منهم سعد بن معاذ الذي أصيب في أكحله وهو عرق في وسط الذراع، ثم مات بعد غزوة بني قريظة.

شعار المسلمين

وكان شـــعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة «حَم، لا ينصرون». وكان ﷺ يحرس بنفسه ثلمة في الخندق مع شدة البرد.

ولما أمر الله - عز وجل - بانجلاء الغمة وتفريج الكربة؛ صنع أمراً من عنده، خذل به العدو، وهزم جموعهم، وفل حدهم. وساق نعيم بن مسعود للتفريق بينهم!

جاء نعيم بن مسعود الأشجعي - وهو صديق قريش واليهود - من غطفان.

فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي فمرني بأمرك حتى أساعدك.

فقال: **«أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذِّلْ عنا ما استطعت فإن الحرب خَدْعة»**.

الخُدْعة في الحرب

فخرج من عنده وتوجه إلى بني قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين، فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم.

فقال: يا بني قريظة، تعرفون ودي لكم وخوفي عليكم، وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني.

قالوا: نعم.

فقال: لقد رأيتم ما وقع ببني قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها، وإلا انصرفوا لبلادهم.

وأما أنتم فتساكنون الرجل - يريد الرسول ﷺ - ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى أن لا تدخلوا في هذا الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم، بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم، فاستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك.

ثــم قام من عندهم وتوجه إلى قريش، فاجتمع برؤســائهم وقال: أنتم تعرفون ودي لكم ومحبتي إياكم، وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني.

قالوا: نفعل.

فقال لهم: إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه.

فقالــوا له: أيرضيك أن نأخذ جمعاً من أشــرافهم ونعطيهم لك، وترد جناحنا الذي كسرت ـ يريد بني النضير ـ؟

فرضي بذلك منهم، وها هم مرسلون إليكم فاحذروهم، ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً.

ثم أتي غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر بهم قريشاً.

فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظة يدعوهم للقتال غداً فأجابوا: إنا لا يمكننا أن نقاتل في السبت ـ وكان إرساله ليلة سبت ـ ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدي فيه، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبــوا إلى بلادكــم. فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مســعود، وتفرقت القلوب، فخاف بعضهم بعضاً.

الدعاء

وكان النبي ﷺ في تلك الأيام يناجي ربه، ويســتغيث به، ويرفع يديه إلى السماء «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحســاب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**» وكان المسلمون يدعون ربهم «**اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**».

فاســتجاب الله الدعــاء وبلغ الأمل وأذن بالنصر، و أرســل جنوداً من الرعب والريح قلبت قلوبهم وقدورهم، وقوضت قوتهم وخيامهم، ودفنت رحالهم وآمالهم، فلــم تدع قدراً إلا كفأتها، ولا طنباً إلا قلعته، ولا قلباً إلا أهلعته وأرعبته.

جنود لم تروها

فقد ارسل ـ سبحانه ـ على المشركين ريحاً شديدة في ليلة شاتية باردة، فهدمت خيامهم، وكفأت قدورهم، واطفأت نيرانهم، وكانت هذه الريح من جنود الله الذين أرسلهم على المشركين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩].

فلما سمع النبي ﷺ الجلبة وما نزل، قال: «**من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة**» فما قام رجل من القوم من شدة الخوف والبرد والجوع.

فلما لم يقم أحد؛ دعا حذيفة بن اليمان باسمه، فقال: «**يا حذيفة أذهب فادخل القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحدثنَّ شيئاً حتى تأتينا**».

وهكذا أرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم فجعل يمشي كأنه يمشي في حَمَّام، حتى أتاهم، فرأى أبا سفيان يُصلي ظهره بالنار، فوضع سهماً في كبد القوس يريد أن يرميه، فتذكر قول رسول الله ﷺ ومنعه من أن يحدث شيئاً.

ونظر في القوم فوجدهم قد تهيؤا للرحيل. وقد بلغ منهم الخوف مبلغه، حتى أن أبا سفيان يقول لهم: ليتعرف كل منكم أخاه، وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو، وقد حل عقال بعيره، يريد أن يرحل.

وقال له صفوان بن أمية: إنك رئيس القوم، فلا تتركهم وتمضي، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل، وترك خالد بن الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم.

رحمة الرسول ورأفته

أمـــا حذيفة ـ رضي الله عنه ـ فقد رجع إلى رســـول الله ﷺ ليلاً وهو يصلي وعليه كساء يمني، فانتظر حتى إذا فرغ من صلاته أخبره الخبر برحيل القوم، فغطاه رسول الله بطرف كسائه حتى ذهب عنه البرد رحمة له وشفقه عليه؛ فلم يزل نائماً حتى أصبح. فقال له ﷺ: «**قُم يا نومان**».

فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله قتالهـــم، وصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبـــده، وهزم الأحزاب وحده.

وبعد معركة الأحزاب أزفت البشـــائر وأشرقت المدينة، بقول النبي ﷺ: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**».

وهكذا ما زال أمر المســـلمين في إزدياد حتـى جاء الفتح العظيم ـ فتح مكة ـ ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وفي اجتمـــاع الأحزاب في أزمنة متفرقة ومرات عديدة خلال العصور، حكمـــةٌ بالغة في الرجوع إلى الله، وصدق التـــوكل عليه، والإنابة والذل وإظهار الحاجة، وبذل الغالي لهذا الدين، قال تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

قال ابن القيم ـ رحمة الله ـ: **ومن ظن إدالة أهل الكفر على أهل الإســـلام** إدالة تامة فقد ظن بالله السوء.

وعلـــى مر العصور وتقلـــب الدهور قول الصادق ﷺ: «**بشـــر هذه الأمة بالســـناء والرفعة والتمكين**» لكن الأمر مشروط بشروطه، ومقيد بقيوده ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

تأديب يهود بني قريظة

وبعد شـــدة ولأواء، وضيق وضنك وجده المســـلمون ولاقوه في غزوة الأحزاب. انفرجت اســـاريرهم برحيل الأحزاب، فدخل رســـول الله ﷺ المدينة بعد منصرفه من الخندق هو وأصحابه ووضعوا السلاح.

عندها جاءه جبريل حين اغتسل وهو ينفض الغبار عن رأسه في بيت أم سلمة بعد أيام عصيبة، فقال: وقد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناها.

اخرج إليهم.

قال ﷺ: فإلى أين؟

قال: ههنا، وأشار بيده إلى بني قريظة.

وبنو قريظة هم الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ بتحريض من حيي بن أخطب، وتمالئهم مع قريش على حرب النبي ﷺ في وقت عصيب هو غزوة الأحزاب. فلم تنفع معهم المواثيق، ولم يعد المسلمون يأمنون جانبهم بعد خيانتهم وغدرهم.

فخـــرج النبي ﷺ إليهم، وأمر مؤذناً فأذن فـــي الناس: «**لا يُصلِّيَن أحد العصر إلا في بني قريظة**»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك.

فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف احداً منهم.

وســـار إليهم المســـلمون في ثلاثة آلاف رجل، ومعهم من الخيل ثلاثون فرساً، وسار رسول الله ﷺ راكباً على حماره، وأعطى الراية علي بن أبي طالـــب ـ رضي الله عنه ـ، وخليفته على المدينـــة عبد الله بن أم مكتوم،

وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، ونزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ على بئر من آبار قريظة، وتلاحق به الناس وقذف الله في قلوبهم الرعب، وأرادوا التنصل من غدرهم وخيانتهم، لكنه ﷺ حاصرهم بضعاً وعشرين ليلة، وضيق عليهم الخناق حتى عظم عليهم البلاء.

وعرض عليهم سيدهم كعب ابن أسد ثلاث خصال: إما الإسلام، وإما قتل ذراريهم ونسائهم ثم القتال حتى يموتوا، وإما تبييت النبي ﷺ وأصحابه ليلة السبت فإن المسلمين قد أمنوا منهم.

بعث أبا لبابة

فأبوا كل ذلك، فأرسلوا إلى رسول الله أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو ابن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، له بينهم أولاد وأموال فأرسله، فلما أتاهم قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه. فرق لهم.

وقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول الله حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال: لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهدت الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً، أو لا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً.

فلما سمع رسول الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه قال: «**أما لو جاءني لاستغفرت له، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله**

عليه». فنزلت توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ، فتولى رسول الله إطلاقه بيده الكريمة.

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة؛ قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ.

وقد كان باستطاعه اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل لمناعة حصونهم وقوتها وتوفر المياه والطعام، وفي مقابلهم المسلمون في برد قارس وجوع شديد، وإقامة في العراء مع شدة التعب الذي اعتراهم في غزوة الأحزاب وقبلها من الأعمال الشاقة في طول الحصار الذي استمر خمساً وعشرين ليلة إلا أن الله قذف في قلوبهم الرعب.

عاقبة الغدر

فنزلت بنو قريظة على حكم رسول الله، فلما نزلوا على حكمه، وطلب حلفاؤهم الأوس أن يُحسن إليهم فقالوا: يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ما قد فعلت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا.

فقال رسول الله ﷺ: «**ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟**».

قالوا: بلى.

قال: «**فذلك سعد بن معاذ**».

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة في المسجد ليعوده من قريب، وكانت تسكنها امرأة صالحة اسمها رفيدة تقوم على المرضى وتداوي الجرحى تحتسب بذلك الأجر.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد ليؤتى به ليحكم في بني قريظة، فأتي به على حمار قد وطيء له بوسادة أدم وأحاط به قومه وهم يقولون:

يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإنما ولاك رسول الله ذلك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يجيب، فلما أكثروا عليه.

قال: لقد أبى الله لسعد إلا أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض من معه إلى ديار بني عبد الأشهل ينعي لهم رجال بني قريظة، فلما أقبل سعد إلى رسول الله ﷺ قال للمسلمين: **«قوموا إلى سيدكم»**.

ولا شك أن القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وليظهر في قلوبهم مكانته ومنزلته. وهو غير قيام التعظيم المنهي عنه.

فقام المسلمون فقالوا: يا سعد إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم.

فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت؟

قالوا: نعم.

قال: وعلى من ههنا؟ وأشار بيده إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ إجلالاً له.

قال رسول الله: **«نعم»**.

قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء.

فقال له رسول الله ﷺ: **«لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»**.

ثم أمر رسول الله ﷺ فأخرجوا إلى موضع سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم أمر بهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، وقتل معهم يومئذ حيي ابن أخطب والد أم المؤمنين صفية، الذي أغراهم بنقض العهد وكانوا

من الستمائة إلى السبعمائة.

وقتل من نسائهم امرأة واحدة، وهي التي طرحت الرحى على خلاد بن سويد بن الصامت فقتلته.

وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت، وترك من لم ينبت.

وهكذا تم اســتئصال رؤوس الغدر والخيانــة الذين نقضوا العهد ومالئوا المشركين على رسول الله ﷺ.

ووهب رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس ولد الزبير بن باطا، فاســتحياهم منه عبد الرحمن بن الزبير فأســلم، ووهــب أيضاً رفاعة بن سموأل القرظي لأم المنذر سلمى بنت قيس من بني النجار وكانت قد صلت إلى القبلتين، فأسلم رفاعة، وكان ممن لم ينبت عطية القرظي فاستحيي.

وقسم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أموال بني النضير؛ فكانت ألفاً وخمس مئة سيف، وثلاث مئة درع، وألفي رمح، وخمس مئة ترس، ووجد أثاثاً كثيراً وآنية.

فأســهــم للفارس ثلاثة أســهم وللراجل ســهماً، ووقع للنبي ﷺ من ســبيهم ريحانة بنت عمرو؛ فلم تزل في ملكــه حتى مات ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

موت سعد بن معاذ

فلما تم أمر بني قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ ـ رضي الله عنــه ـ فمات من جرحه الذي أصابه يــوم الخندق، كما في الصحيح عن عائشــة قالت: أصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرفة رماه في الأكحل؛ فضرب له النبي ﷺ خيمة في المســجد ليعوده.

وذكر أن سعداً قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسـولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحـرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شـيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها.

فانفجرت من لبته، فلم يرعهم وفي المسجد خيمة من بني غفار إلا الدم يسـيل إليهم فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دماً، فمات منها ـ رضي الله عنه ـ.

مكانة سعد

وكان لسعد ـ رضي الله عنه ـ مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة. في الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**».

وفي الترمذي من حديث أنس قال: لما حُملت جنازة سعد بن معاذ، قال المنافقون: ما أخف جنازته.

فقال رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة كانت تحمله**».

قال محمد بن شـرحبيل بن حسنة: قبض إنسـان يومئذ من تراب قبره قبضة، فذهب بها، ثم نظر إليها بعد ذلك فإذا هي مسك.

فقال رسول الله: «**سبحان الله، سبحان الله**»، حتى عرف ذلك في وجهه.

فقال: «**الحمد لله، لو كان أحد ناجياً من ضمة القبر لنجا منها، ضم ضمة ثم فرج الله عنه**».

وعن جابر قال: كنا مع رسـول الله ﷺ فلما دفن سـعد فسبح رسول الله وسـبح معه الناس، ثم كبر وكبر معه الناس، فقالوا: يا رسول الله مم سبحت؟

فقال: «**لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه**».

الشهداء

واستشهد من المسلمين يوم الخندق وقريظة: سعد بن معاذ، وأنس بن أوس، وعبد الله بن سهل كلهم من بني عبد الأشهل، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن غنمة، وكعب بن زيد، وخلاد بن سويد طرحت عليه امرأة من بني قريظة رحى فقتلته، ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة.

وأنزل الله في أمر الخندق وأمر بني قريظة من القرآن سورة الأحزاب يذكر فيها ما نزل من البلاء، ويذكر نعمته عليهم وكفايته إياهم حين فرج ذلك عنهم بعد مقالة من قال من أهل النفاق من قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ إلى قوله ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ٢٦] الآيتين.

وبتمام هذا النصر المبين في هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شرّ مجاورة اليهود أهل الغدر والخيانة، ولم تبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها.

قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق

أبو رافع، واسـمه سـلام بن أبي الحقيق من كبار تجـار أهل الحجاز، ورئيـس يهود خيبر، وهو ممن ألب الأحزاب على رسـول الله ﷺ، وكان يؤذي النبي ﷺ ويُعين عليه. فهو الذي أعان غطفان وغيرهم من مشـركي العرب بالمال الكثير على قتال رسول الله ﷺ.

ولمـا أذن الله ـ عز وجل ـ بانجلاء الأحزاب عن المدينة، وقتل كعب بن الأشرف على أيدي رجال من الأوس، رغبت الخزرج في مثل ذلك، تريد من الأجر والثناء في الإسلام، فتذاكروا أن سلام بن أبي الحقيق من العداوة لرسـول الله والمسلمين على مثل حال كعب بن الأشرف، فاستأذنوا رسول الله فـي قتله رغبة في الخير فأذن لهم دفعاً لشـره، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة.

وكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل هذين الحيين من الأنصار يتصاولان بين يدي رسـول الله ﷺ في الخيرات، ويتسـابقون فـي رفيع الدرجات، فخرجوا إليه خمسـة نفر كلهم من الخزرج، من بني سـلمة: عبد الله بن عتيـك، وعبد الله ابن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، ومسـعود بن سـنان، وخزاعي بن الأسود حليف لهم من أسلم، وأمَّر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك.

فنهضوا حتى أتوا خيبر ليلاً، وكان سلام ساكناً في دار مع جماعة وهو في علية منها، فتسوروا الدار ولم يدعوا باباً من مساكنها إلا استوثقوا منها من خارج، ثم أتوا العلية التي هو فيها فاستأذنوا عليه.

فقالت امرأته: ممن أنتم؟فقالوا: أناس من العرب نطلب الميرة.

فقالت لهم: ذاكم صاحبكم. فدخلوا.

فلما دخلوا أغلقوا الباب على أنفسهم فأيقنت المرأة بالشر فصاحت، فهموا بقتلها، ثم ذكروا نهي النبي ﷺ عن قتل النساء فأمسكوا عنها، ثم تعاوروه بأسيافهم وهو راقد على فراشه أبيض في سواد الليل كأنه قطنة، ووضع عبد الله بن أنيس سيفه في بطنه حتى أنفذه.

وعدو الله يقول: قطني قطني [أي حسبي حسبي]. ثم نزلوا.

وكان عبد الله بن عتيك ضعيف البصر فوقع، فوتيت رجله وتياً شديداً، فحمله أصحابه حتى أتوا منهراً من مناهيرهم فدخلوا فيه واستتروا، وخرج أهل الآطام وأوقدوا النيران في كل وجه، فلما أيسوا رجعوا.

فقال المسلمون: كيف لنا أن نعلم أن عدو الله قد مات؟

فرجع أحدهم ودخل بين الناس، ثم رجع إلى أصحابه فذكر لهم أنه وقف مع الجماعة وأنه سمع امرأته تقول: والله لقد سمعت صوت ابن عتيك.

ثم قلت: أنى ابن عتيك بهذه البلاد؟ ثم إنها نظرت في وجهه فقالت: فاظ [أي مات] وإله يهود.

قال: فسررت. وانصرف إلى أصحابه فأخبرهم بهلاكه.

فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، وتداعو في قتله فقال عليه الصلاة والسلام: «**هاتوا أسيافكم، فأتوه بها. فقال عن سيف عبد الله بن أنيس هذا قتله**»، أي فيه أثر الطعام.

غزوة بني لحيان

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد فتح بني قريظة ثلاثة أشهر، ثم خرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ في جمادى الأولى من السنة السادسة من الهجرة، قاصداً إلى بني لحيان في مائتين من الصحابة ومعهم عشرون فرساً؛ مطالباً بثأر عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وأصحابهما المقتولين بالرجيع، وأتبع أسلوب التعمية؛ إذ أظهر أنه يريد الشام. ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران، وهو واد بين أمج وعسفان، وفيها منازل بني لحيان حيث كان مصاب أصحابه أهل الرجيع الذين قتلوا ببئر معونة.

فترحم عليهم، ودعا لهم، وأقام في ذلك المكان يومين.

أما بنو لحيان فأنهم لما سمعوا به هربوا في رؤوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد.

ثم بعث ـ عليه الصلاة والسلام ـ رجلين من أصحابه وفارسين حتى أتوا كراع الغميم ثم كروا، ورجع قافلاً إلى المدينة بعد أربع عشرة ليلة.

ولم يلق كيداً، فكان جابر ابن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجه راجعاً: «**آيبون تائبون، إن شاء الله لربنا حامدون**».

سرية محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ

أرسل ﷺ محمد بن مسلمة إلى بطن من بني بكر بن كلاب وهم ينزلون بناحية ضرية بالبكرات، وبين ضرية والمدينة سبع ليال، بعثه في ثلاثين راكباً، لعشر ليال خلون من المحرم، فلما أغار عليهم هرب سائرهم، واستاق نعماً وشاء، وقدم المدينة لليلة بقيت من المحرم معه ثمامة بن أثال الحنفي أسيراً، حيث وجدوه وهم راجعون، وكان من أشد الناس كراهية لرسول الله ﷺ وللإسلام حتى أنه خرج متنكراً في المحرم من السنة السادسة للهجرة يريد اغتيال النبي ﷺ بأمر مسليمة الكذاب.

ولما أتي به أسيراً ربُط بأمر رسول الله ﷺ بسارية من سواري المسجد.

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سوراي المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**».

فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت.

فتركه حتى كان الغد ثم قال له: «**ما عندك يا ثمامة؟**» قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعد الغد فقال له: «**ما عندك يا ثمامة؟**» قال: عندي ما قلت.

قال: «**أطلقوا ثمامة**». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد.

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

يـــا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبـــح وجهـــك أحب الوجوه إلي. والله ما كان مـــن دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي.

والله مـــا كان من بلد أبغض إلي من بلـــدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر.

فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت.

قال: لا ولكن أســـلمت مع محمد رسول الله، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.

وكانت اليمامة ريف مكة. فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي لهم حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ.

غزوة الغابة

وتعرف بذي قَردَ، وهو ماء على بريد من المدينة في ربيع الأول سنة ست قبل الحديبية، وقيل أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام.

وسببها أنه كان لرسول الله ﷺ عشرون لقحة، وهي ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة ترعى بالغابة، فأغار عليها عيينة بن حصن الفزاري ليلة الأربعاء في أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا الراعي. وكان فيهم رجل من غفار وامرأة، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة.

ونودي: يا خيل الله اركبي. وكان أول ما نودي بها.

وكان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمي، أحد رماة أسلم وكان عداءً، فأمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون، فخرج يشتد في أثرهم، فلما علا ثنية الوداع نظر إلى خيل الكفار فصاح، ثم نهض في آثارهم فأبلى بلاء حسناً عظيماً، ورماهم بالنبل حتى استنقذ ما كان بأيديهم.

فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى إلى رسول الله ﷺ من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر الأشهلي، وأسيد بن حضير أخو بني حارثة، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة الأسدي الأخرم، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقي.

فلما اجتمعوا أمر رسول الله ﷺ سعيد ابن زيد من بني عبد الأشهل، وقيل إن رسول الله ﷺ أعطى فرس أبي عياش معاذ ابن ماعص، أو عائذ بن ماعص، وكان أحكم للفروسية من أبي عياش، فأول من لحق بهم

محــرز بن نضلة الأخرم فُقتل، ولحق أبــو قتادة فقتل قاتل الأخرم، وولى المشركون منهزمين.

وبلغ رســول الله ﷺ ماء يقال له ذو قرد، ونحر من لقاحه المسترجعة، وأقام ـ عليه الصلاة والســلام ـ يوماً وليلة ثــم رجع إلى المدينة، وأقبلت امرأة الغفاري على ناقة رســول الله، فلمــا أتت المدينة نذرت أن تنحرها، فأخبرها رسول الله ﷺ أن لا نذر لأحد في معصية الله ولا فيما لا يملك، وأخذ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ناقته.

سرية زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ

في هذه الأجواء المشحونة أراد النبي ﷺ أن يؤثر على حركة قريش التجارية ويضعف قوتها ويخمد شرها؛ فلما كانت السنة السادسة من الهجرة، في جمادى الأولى؛ بلغه ﷺ أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام، يرأسها أبو العاص بن ربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ وكان رجلاً مأموناً، وكانت معه بضائع لقريش، فأقبل قافلاً، فأرسل زيد بن حارثة إلى العيص على بعد أربع ليال من المدينة ليعترض لها، فأخذها المسلمون، وأخذوا ما فيها وأسروا رجالها، وأخذوا يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأسر منهم ناساً، منهم أبو العاص بن الربيع، وقدم بهم المدينة.

وافلت منهم أبو العاص فجاء إلى المدينة فدخل على زينب بنت رسول الله مستجيراً وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ أن يرد عليه ماله وما كان معه من أموال الناس.

فدعا رسول الله ﷺ السرية وقال: «**إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً ولغيره، وهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فإن رأيتم أن تردوا عليه فافعلوا، وإن كرهتم فأنتم وحقكم**».

قالوا: بل نرد عليه يا رسول الله.

فردوا عليه؛ والله ما أصابوا، حتى إن الرجل يأتي بالشيء والرجل يأتي بالإداوة والرجل بالحبل، فما تركوا قليلاً مما أصابوا ولا كثيراً إلا ردوه عليه.

ثم خرج أبو العاص حتى قدم مكة فأدى إلى الناس بضائعهم، حتى إذا فرغ قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم مال لم أرده عليه؟

قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.

قال: والله ما منعني أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا تخوفاً أن تظنوا أني ما أسلمت إلا لأذهب بأموالكم، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

ثم هاجر إلى المدينة، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول، وذلك بعد ثلاث سنوات ونيف، ولم تكن آية تحريم المسلمات على الكفار نزلت إلى ذلك الحين، فكان النكاح باقياً على حاله.

وذكر موسى بن عقبة أن أسره كان على يد أبي بصير بعد الحديبية، وأنهم أخذوه في رجال من قريش وأخذوا ما معهم وأسروهم، ولم يقتلوا منهم أحداً لصهر رسول الله من أبي العاص وهو ابن أخت خديجة بنت خويلد لأمها وأبيها، فخلوا سبيل أبي العاص، فقدم على امرأته زينب فكلمها أبو العاص في أصحابه الذين أسر أبو جندل وأبو بصير وما أخذوا له، فكلمت رسول الله في ذلك، فزعموا أن رسول الله ﷺ قام فخطب فقال: «**إنا صاهرنا أناساً وصاهرنا أبا العاص، فنعم الصهر وجدناه. وإنه أقبل من الشام في أصحاب له من قريش فأخذهم أبو جندل وأبو بصير وأخذوا ما كان معهم ولم يقتلوا منهم أحداً، وإن زينب بنت رسول الله سألتني أن أجيرهم فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه؟**».

فقال الناس: نعم.

فلما بلغ أبا جندل وأصحابه قول رسول الله ﷺ في أبي العاص وأصحابه الذين كانوا عنده، فطابت نفوسهم، وردوا عليهم كل شيء أخذ منهم حتى العقال.

وكتب رسول الله إلى أبي جندل وأبي بصير يأمرهم أن يقدموا عليه ويأمر من معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم ولا يتعرضوا لأحد من قريش وعيراتها.

وقدم كتاب رســول الله ﷺ على أبي بصير وهو في الموت، فمات وهو على صدره، فدفنه أبو جندل، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ وأمنت عير قريش.

سرية كرز بن جابر - رضي الله عنه -

فـــي الصحيحين عن أنـــس أن رهطاً من عكل وعرينة أتوا رســـول الله ﷺ فقالوا: يا رســـول الله إنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، فاستوخمنا المدينة.

فأمر لهم رســـول الله ﷺ بذود [وهوالقطيـــع من الإبل بين الثلاث إلى العشـــر] وأمرهم أن يخرجوا فيها فيشربوا من أبوالها وألبانها، فلما صحوا قتلوا راعي رســـول الله وسملوا عين الراعي. واستاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم. وكان ذلك في شوال سنة ست من الهجرة.

فلما بلغ ذلك رسول الله حزن من صنيعهم وخيانتهم وسير سرية بقيادة كـــرز بن جابر الفهري، فبعث الطلب في آثارهم حتى أدركوهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا.

قـــال أنـــس: إنما ســـمل رســـول الله ﷺ أعينهم لأنهم ســـملوا أعين الراعي.

وما فعل بهم ﷺ ليس مُثْلة، وإنما هو قصاص وحد. ذلك أنهم سرقوا، وقتلوا، ومثَّلوا، وكفروا وحاربوا الله ورســـوله، فأقيم عليهم حدُّ الســـرقة والبغي، واقتص منهم بالقتل والتمثيل كما فعلوا.

غزوة سيف البحر

استفاد النبي ﷺ مما أصاب الأحزاب من فشل وتفرق، فضيق على قريش الخناق الاقتصادي من جديد، ففي سنة ست بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبل الساحل وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، لرصد قافلة لقريش قرب الساحل، فسار بهم أبوعبيدة وليس معهم من الزاد إلا القليل حتى فني الزاد، وأصابهم الجوع، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع.

قال جابر ـ رضي الله عنه ـ فكان مزودي تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة.

فقيل: ما تغني عنكم تمرة؟

فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت.

فأقاموا بالساحل نصف شهر فأصابهم جوع شديد حتى أكلوا الخبط وهو ورق الشجر فيسحقونه ويسفونه ويشربون عليه الماء.

فسمي ذلك الجيش جيش الخبط، فألقى لهم البحر دابة كبيرة يقال لها العنبر، فأكلوا منه نصف شهر، وادهنوا من ودكة حتى ثابت إليهم أجسامهم، فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه فنصبه فعمد إلى أطول رجل معه، ثم أمر براحلة فرحلت فمر تحته.

فلما قدموا المدينة ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: **«كلوا رزقاً أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم»**، فأتاه بعضهم بعضو فأكله.

عمرة الحديبية

قويت شوكة المسلمين، وبدأ يكثر عددهم وأصبح لهم رهبة في أنحاء الجزيرة. وما زادتهم الأيام والليالي إلا قوة وصلابة في دينهم. وها هي السنة السادسة للهجرة قربت أيامها أن تتصرم، وقد بلغ بالمسلمين خاصة المهاجرين منهم الحنين والشوق إلى بيت الله الحرام.

وساق الله البشرى للمسلمين في رؤيا رآها النبي ﷺ حيث أري أنه في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية؛ أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك.

وأخبر ﷺ أصحابه أنه معتمر، فتجهزوا للسفر، واستنفر العرب ومن حوله من البوادي ليخرجوا معه، وهو لا يريد الحرب، ولكنه يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو صدود عن البيت، فأبطأ كثير من الأعراب، وظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، واعتذروا قائلين: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا.

الاستعداد

تجهز النبي ﷺ فغسل ثيابه وركب ناقته القصواء، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذي القعدة من السنة السادسة ومعه زوجته أم سلمة في ألف وأربعمائة، ويقال ألف وخمسمائة من المهاجرين والأنصار، ولم يخرج معه بسلاح إلا بسلاح المسافر، السيوف في القِرَبْ.

وكانت قريش قد علموا بخروج النبي ﷺ فنزلوا بذي طوى، وأرسلوا خالد بن الوليد في مائتي فارس إلى كراع الغميم قريباً من عسفان، ليسد الطريق إلى مكة؛ ويحجز المسلمين عن الوصول إلى هدفهم.

وبعث ﷺ عيناً له من خزاعة، ينظر الأمر ويتحرى. وسار ﷺ حتى إذا كانوا بغدير الأشطاط أتاه عينه فأبلغه: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك.

فاستشار النبي ﷺ أصحابه فقال: «**أشيروا عليَّ أيها الناس، أترون أن أعيل عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله قد قطع عيناً من المشركين وإلا تركناهم محزونين**».

قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه.

فقبل ﷺ هذا الرأي وقال: «**امضوا على اسم الله**».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «**إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين**»، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش.

القصواء

وسار النبي ﷺ، آخذ طريقاً غير طريقهم، فسلك ذات اليمين من أسفل مكة حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته. فزجروها فلم تقم.

فقالوا: خلأت القصواء؛ خلأت القصواء.

فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**».

ثم قال: «**والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**».

ثم زجرها فوثبت به، فعدل عنهم وأخذ طريقاً وعراً حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضا.

فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال يجيش بالري حتى صدروا عنه.

رسل قريش

فلما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة.

فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبو فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره**».

[والسالفة: صفحة العنق وهو كناية عن الموت].

فانطلق بديل حتى أتى قريشاً فقال: إنا جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا.

فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: هات ما سمعته يقول.

قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ.

عروة بن مسعود

فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: ألست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟

قالوا: بلى.

قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته.

فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، ويقول له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوها، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك.

فنهره أبو بكر الصديق وقال: أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال عروة: من هذا؟

فقالوا: أبو بكر.

قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف ومعه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: أخر يدك عن لحية النبي ﷺ.

قال فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة.

فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في

الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم.

فقال النبي ﷺ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء**».

ورأى تعظيم الصحابة للنبي ﷺ، فلما رجع عروة إلى أصحابه قال لقريش: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

تعظيم البدن

وتوالت الرسل والبعوث إلى النبي ﷺ، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته. فقالوا: ائته.

فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال النبي ﷺ: «**هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها**». فبعثت له، واستقبله الناس يلبون.

فلما رأى ذلك. قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت.

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال النبي ﷺ: «**هذا مكرز وهو رجل فاجر**».

فجعل يكلم النبي ﷺ.

حرمة البيت

وفي وسط هذه الوفود التي تأتي للنبي ﷺ رأى حرصاً منه على حرمه

البيت أن يرسل رسلاً إلى قريش بمكة.

فدعا ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى أهل مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له.

فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة أحد من بني عدي بن كعب يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها. ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لقتال ولا لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته.

وأمره أن يأتي المستعضفين من المؤمنين والمؤمنات بمكة، فيبشرهم بقرب الفتح، وأن الله مظهر دينه، حتى لا يستخفى في مكة أحد بالإيمان.

عثمان بن عفان

فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ.

فقالت أشراف قريش لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف.

فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ.

واحتبسته قريش عندها حتى ظن رسول الله والمسلمون أن عثمان قد قتل.

وقَتلُ الرسول يعني اعلان الحرب والمناجزة، فتأهب المسلمون لذلك واستعدوا له.

بيعة الرضوان

لما احتبست قريش عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا في الأمر وينظروا فيه، ويبرموا أمرهم؛ استبطأ المسلمون مجيئه وظنوا أنه قتل.

فقال رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم.

ودعا رسول الله ﷺ إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت.

وكان جابر بن عبد الله يقول: لم نبايع رسول الله على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفر. ومعنى القولين واحد. فقد دب الحماس في المسلمين فبايعه جماعة على الموت، أي لا نزال نقاتل بين يديك حتى نموت. وبايعه آخرون وقالوا: لا نفر.

وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدي، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين ممن حضرها إلا جد ابن قيس أحد بني سلمة، قال جابر بن عبد الله: وكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته مستتراً بها عن الناس.

وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات: في أول الناس ووسطهم وآخرهم.

وضرب رسول الله ﷺ بيده اليمنى على اليسرى فقال: «**هذه لعثمان**»، وكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

وأنزل الله ـ عز وجل ـ فضل هذه البيعة آيات تتلى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

﴿١٩﴾ [الفتح: ١٨ـ ١٩] ومن هذا الرضا سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان.

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**».

ولما أبطأ عثمان قال المسلمون: طوبى لعثمان، دخل مكة وسيطوف بالبيت وحده. فقال النبي ﷺ: «**ما كان ليطوف وحده**».

ولما تمت البيعة رجع عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت.

فقال: بئس ما ظننتم بي، والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف رسول الله، ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت.

فقال المسلمون: رسول الله كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر بن الخطاب آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبيعة، وكان تحت الشجرة، وكان معقل بن يسار آخذاً بعضها يرفعه عن رسول الله.

سهيل بن عمرو

فلما سمعت قريش بهذه البيعة أسرعت وخشيت من عواقب الأمور فأرسلت سهيل بن عمرو، فقدم حتى جاء إلى رسول الله ﷺ فلما رآه ﷺ وكان يحب التفاؤل، قال: «**لقد سهل لكم من أمركم**».

جلس سهيل إلى النبي ﷺ وطال بينهما الكلام والمفاوضات، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب.

فقال: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**».

فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم، فكتبها.

ثم قال ﷺ اكتب: «**هذا ما صالح محمد رسول الله سهيل بن عمرو**».

فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال النبي ﷺ: **«والله إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله»**.

وفي رواية لمسلم؛ فقال النبي ﷺ لعلي: **«امحه»**.

فقال: ما أنا بالذي أمحوه.

فقال - عليه الصلاة والسلام - لعلي: **«أرني مكانها»**. فأراه مكانها فمحاه، وكتب محمد بن عبد الله.

وفي البخاري قال الزهري: وذلك لقوله **«لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»** فقال النبي ﷺ: **«على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»**.

الصلح

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم.

ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليهم. وأن بين الطرفين عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال.

وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد من العرب وفي عهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش من العرب وعهدهم دخل فيه.

وأن يرجع محمد ﷺ هذا العام فلا يدخل مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجت قريش فيدخلها الرسول ﷺ بأصحابه فيمكثون بها ثلاثاً، معهم سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا يدخلها بغيرها.

وكان ظاهر الصلح للمسلمين أنه مجحف وفيه ضرر عليهم، فقد حزن

المسلمون لرجوعهم بغير عمره، واحتار المسلمون في أمر هذا الصلح وقالوا: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

أبو جندل

ووقع الأمر كما كان في نفوسـهم، فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سـهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

فقال سهيل: يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ.

فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**».

فقال: إذاً والله لا أصالحك على شيء أبدا.

فقال النبي ﷺ: «**فأجره لي**».

قال: ما أنا بمجيره لك.

قال: «**بلى فافعل**».

قال: ما أنا بفاعل.

فقام سهيل إلى سمرة فأخذ منها غصنا وضرب به وجه أبي جندل ضرباً رق عليه المسلمون وبكوا.

قال أبو جندل: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله.

فجعل يصرخ بأعلى صوته: أرد إلى المشـركين يفتنوني عن ديني؟ فزاد ذلك الناس على ما بهم.

فقال رسـول الله: «**يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسـلمين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبـين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك عهداً وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم**».

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشـي إلى جنبه ويقول: اصبر أبا

جندل، فإنما هم المشـركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، وعمر يقول في نفسـه: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه. قال فضن الرجل بأبيه.

وفي رواية أنه لما قال سـهيل: «**على من أتاك منا وإن كان على دينك رددته إلينا**».

قال عمر: يا رسول الله أترضى بهذا؟

فتبسم رسـول الله وقال: «**من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً، ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه وليس منا بل هم أولى به**».

وأشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين: أبا بكر، وعمـر بن الخطاب، وعبـد الرحمن بن عوف، وعبد الله ابن سـهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة ،ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك، وعلي بن أبي طالب وهو كاتب الصحيفة.

موقف عمر

وكان لعمـر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ موقفاً من هذا الصلح يبدي فيه حزنه وأسفه، يقول ـ رضي الله عنه ـ: فأتيت نبي الله، فقلت: ألست نبي الله حقاً؟

قال: «بلى».

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: «بلى».

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟

قال رسول الله ﷺ: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**».

قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: «بلى فأخبرتك أنك تأتيه العام؟».

قلت: لا.

قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟

قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق.

قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: بلى. فأخبرك أنك تأتيه وتطوف به العام؟

قال عمر: مازلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يؤمئذ حتى رجوت أن يكون خيراً.

نحر الهدي

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح قال لأصحابه: «**قوموا فانحروا، ثم احلقوا**».

فكان الأمر عليهم شديداً والحزن عظيماً لرجوعهم بغير عمرة، ولعدم المساواة بين الطرفين، فالمسلمون يردون من جاء إليهم، وقريش لا يردون من جاء إليهم.

فما قام منهم رجل من هول ما نزل بهم، حتى قال ذلك ﷺ ثلاث مرات.

رأي أم سلمة

فلما لم يقم أحد دخل ﷺ على أم المؤمنين؛ أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ فذكر لها ما لقي من الناس.

فقالت له أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟

فأشارت عليه برأي سديد وأمر رشيد، فقالت: اخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحداً حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية.

نزول سورة الفتح

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنزل الله عليه سورة الفتح في مرجعه إلى المدينة وهو عائد من الحديبية قد نحروا الهدي بها، والحزن والكآبة تخالطهم.

فأدخل النبي ﷺ على قلوبهم الفرحة والسرور.

قال ﷺ: «**لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا جميعا**».

وعند البخاري عن قتادة عن أنس ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ قال: الحديبية. قال أصحابه: هنيئا مريئاً، ما لنا؟ فأنزل الله ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآية.

وعن مجمع بن حارثة قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كراع الغميم وقد جمع الناس يقرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ الآية، فقال رجل: يا رسول الله أوفتح هو؟

قال: «إي والذي نفسي بيده إنه لفتح» [رواه أحمد وأبو داود]. فطابت نفوس المسلمين وفرحوا بذلك فرحاً شديداً.

وما أحسن ما ورد عن الصديق ـ رضي الله عنه ـ في هذا حيث قال: ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قَصُر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

يقول الزهري: فما فتح في الإسلام قبله فتح أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس والتقوا فتفاوضوا في الحديث فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

ولا شك أن هذا الصلح فتح الأبواب على مصارعها للدعوة إلى الله ودخول الناس في دين الله، وليس أدل على هذا من أن المسلمين كانوا في الحديبية حوالي ألف وخمسمائة وكانوا بعده في فتح مكة عشرة الآف أو يزيدون.

التوحيد

وفي هذه الغزوة أصابهم مطر، فلما صلى النبي ﷺ قال: **«أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟»**

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: **«أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب»** [أخرجه البخاري].

وفي هذا نهي أكيد ووعيد شـــديد على من يستســـقي بالأنواء وبيان أنه كفر.

والاستسقاء طلب السقيا، والمراد به في الحديث نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء.

والواجـــب إضافة المطر وغيره من النعـــم إلى الله ـ عز وجل ـ المتفضل على عباده. ولهذا شرع عند نزول المطر قول: «**مُطرنا بفضل الله ورحمته**».

من معجزات الرسول

ووقع في هذه الغزوة أيضاً معجزة أخرى من معجزات النبي ﷺ، وذلك عندما عطش الناس يوم الحديبية ورســـول الله ﷺ بـــين يديه ركوة يتوضأ منها، إذ جهش الناس نحوه، فقال: «**ما لكم؟**».

فقالوا: يا رسول الله ما عندنا ما نشرب ولا ما نتوضأ به إلا ما بين يديك.

فوضـــع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون.

فشربوا وتوضؤوا، وعددهم أكثر من ألف وخمسمائة رجل.

العودة

وهكذا عاد المسلمون إلى المدينة بعد أن غابوا عنها شهراً ونصف الشهر، منها بضعة عشر يوماً، ويقال عشرين يوماً، مكثوها في الحديبية.

وقد استمرت هدنة الحديبية نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً، نعم المسلمون فيها بنشر الدين وتبليغه للناس.

أبو بصير

وعندما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقع امتحان عسير على الصحابة من هذا الصلح فقد جاء أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالـــوا: العهد الذي جعلته لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا حتـــى بلغـــا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهـــم، فقال أبو بصير لأحد

الرجلين: أرى سيفك يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت.

قال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرا». فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول.

فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم.

فقال ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر.

وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش أحد مسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمع منهم عصابة، فوالله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

فأهم الأمر قريشاً وكان ذلك قطعاً لطريق القوافل، وهكذا كان أبو جندل وأصحابه سبباً في الغاء شرط رد المسلمين إلى الكفار، فارسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم من أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم.

ثم نقضت قريش الهدنة حيث أعانت حلفاءها بني بكر ضد خزاعة حلفاء المسلمين على ماء الوتير قريباً من مكة، فاستنصرت خزاعة بالمسلمين، وبذلك بطلت المعاهدة بنداً بنداً؛ وكان ذلك سبباً مباشراً لفتح مكة.

مكاتبة الملوك والأمراء

لما عاد رسول الله ﷺ من عمرة الحديبية، وقد أبرم الصلح مع قريش، وأمن جانبهم واكتفى شرهم، بدأ بإرسال الكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام، وحرص على ذلك ﷺ حرصاً كبيراً، فاختار لكل عظيم رسولاً يليق به.

وقيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم، فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقته فضة، ونقش فيه: «محمد رسول الله» وهذه الكتب بإيجاز:

إلى النجاشي

كتب ﷺ إلى النجاشي: أصحمه بن الأبجر ملك الحبشة. كتاباً فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة. سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]. **فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك»**.

حامل الكتاب

وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري، فلما أخذه النجاشي وضعه على عينيه، ونزل عن السرير، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وكتب إلى النبي ﷺ بإسلامه وبيعته، وزوج أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان بالنبي ﷺ وأصدقها من عنده أربعمائة دينار، وأرسلها والمهاجرين في

سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم والنبي ﷺ بخيبر.

وقد مات النجاشي هذا في رجب من السنة التاسعة للهجرة فنعاه النبي ﷺ للصحابة يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب.

وخلفه على الحبشة نجاشي آخر، فكتب إليه يدعوه إلى الإسلام، ولا يعرف هل أسلم أو لم يسلم؟

إلى المقوقس

وارسل ﷺ كتاباً إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية، واسمه جريج بن مينا، ونص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

حامل الكتاب

وبعث الكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة، فكلمه حاطب وأبلغه الكتاب، فأكرمه المقوقس، ووضع الكتاب في حق من عاج، وختم عليه، واحتفظ به، وكتب إلى النبي ﷺ يقر فيه بأن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، ولكنه لم يُسلم. وأهدى جاريتين: مارية وسيرين، وكان لهما في القبط مكان عظيم. وأهدى كسوة، وبغلة اسمها دلدل، فاختار النبي ﷺ مارية لنفسه، والبغلة لركوبه، ووهب سيرين لحسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ.

إلى كسرى

وأرسل ﷺ كتابه إلى كسرى أبرويز ملك فارس، كتب فيه:

«**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من إتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة** ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس: ٧٠] **فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك**.

حامل الكتاب

وبعث الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، ليدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قريء عليه الكتب مزقه، وقال عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا عليه قائلاً: «**مزق الله ملكه**».

ووقع كما قال فقد انهزم جيشه أمام الروم هزيمة منكرة، ثم انقلب عليه ابنه شيرويه، فقتله وأخذ ملكه، ثم استمر فيه التمزق والفساد إلى أن استولى المسلمون على أرضه ودياره في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، ثم لم تقم لهم قائمة.

إلى قيصر

وكتب ﷺ كتاباً إلى قيصر ملك الروم، ونصه:

«**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين:** ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]».

حامل الكتاب

وبعث الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر قد جاء من حمص إلى بيت المقدس ماشياً على قدميه، شكراً لله ـ تعالى ـ على ما حصل له من الفتح والانتصار له على الفرس، فلما جاءه الكتاب أرسل رجاله ليأتوا برجل من العرب يعرف النبي ﷺ، فوجدوا أبا سفيان في ركب من قريش، فأتوا بهم إلى هرقل، فدعاهم هرقل في مجلسه، وحوله عظماء الروم، فسألهم أيهم أقرب إليه نسباً، فأخبروه بأن أبو سفيان، فأدناه منه وأجلس بقية الناس وراءه.

وقال لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل ـ أي النبي ﷺ ـ فإن كذبني فكذبوه. فاستحيى أبو سفيان أن يكذب.

من صفات النبي

وسأله هرقل: كيف نسبه فيكم؟

فقال: هو فينا ذو نسب.

فقال: فهل قال هذا القول منكم أحد قبله؟

قال: لا.

قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟

قال: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قال: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قال: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال: لا.

قال: فهل يغدر؟

قال: لا.

وهنا تمكن أبو سفيان من إدخال كلمة مريبة فقال: ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال: فهل قاتلتموه؟

قال: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

فقال: الحرب بيننا وبينه سجال. ينال منا وننال منه.

قال: وماذا يأمركم؟

قال: يقول: اعبدوا الله ولا تشـركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمر بالصلاة والصدق، والعفاف والصلة.

قال هرقل معلقاً على هذا الحوار: ذكرت أنه فيكم ذو نسـب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وذكرت أنه لـم يقل أحد منكم هذا القول قبله. قلت: فلو كان كذلك لقلت: رجل يأتم بقول من قبله.

وذكرت أنه لم يكن من آبائه من ملك، قلت: فلو كان من آياته من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وذكرت أنكـم لم تكونوا تتهمونه بالكذب، فعرفـت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله.

وذكرت أن ضعفاء الناس اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وذكرت أنهم يزيدون. وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وذكرت أنه لا يرتد منهم أحد، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وذكرت أنه لا يغدر. وكذلك الرسل لا يغدرون.

وذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق، والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا الكتاب فقرأه، فارتفعت الأصوات وكثر اللغط، فأخرج أبا سفيان ومن معه.

فلما خرج أبو سفيان قال لأصحابه: لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، ولم يزل أبو سفيان موقناً بعده بظهور أمر رسول الله ﷺ حتى وفقه الله للإسلام.

وأجاز هرقل دحية بن خليفة الكلبي بمال وكسوة. ثم رجع إلى حمص، فأذن لعظماء الروم في دسكرة له، وأمر بأبوابها فأغلقت.

ثم قال: يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم؟ فتتابعوا هذا النبي، فحاصو حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة، فلما رأى قيصر نفرتهم قال: ردوهم عليّ.

فقال لهم: إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه.

ويتبين من هذا أن قيصر عرف النبي ﷺ وصدق نبوته تمام المعرفة، ولكن

غلب عليه حب ملكه وخوفه من رعيته فلم يُسلم، وباء بإثمه وإثم رعيته كما قال النبي ﷺ.

أمر دحية

أما دحية بن خليفة الكلبي فإنه لما كان بحسمي في طريقه راجعاً إلى المدينة قطع عليه الطريق رجال من بني جذام، وانتهبوه، حتى لم يتركوا معه شيئاً، فلما بلغ المدينة، وأخبر رسول الله ﷺ، بعث إليه زيد بن حارثة في خمسمائة مقاتل، فأغاروا وقتلوا وغنموا ألف بعير، وخمسة آلاف شاة، وسبوا مائة من النساء والصبيان، واسرع زيد بن رفاعة الجذامي، أحد رؤسائهم، إلى المدينة ـ وكان أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع الطريق عليه ـ فرد عليه رسول الله ﷺ الغنائم والسبى.

إلى الحارث الغساني

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير دمشق من قبل قيصر. وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر: سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك».

حامل الكتاب

وبعث الكتاب مع شجاع بن وهب الأسدي ـ من أسد بن خزيمة ـ فلما قرأ الكتاب رمى به.

وقال: من ينزع ملكي مني؟ واستعد ليرسل جيشاً يغزو المسلمين، وقال لشجاع بن وهب: أخبر صاحبك بما ترى، واستأذن قيصر في حرب رسول الله ﷺ، فثناه قيصر عن عزمه، فأجاز الحارث شجاع بن وهب بالكسوة والنفقة، ، ورده بالحسنى.

إلى أمير بصرى

وكتب ﷺ كتاباً إلى أمير بصرى، يدعوه إلى الإسلام، وبعث الكتاب مع الحارث بن عمير الأزدي ـ رضي الله عنه ـ فلما بلغ مؤتة ـ من علم البلقاء في جنوب الأردن ـ تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فضرب عنقه.

وكان هذا أشد عمل عدواني تجاه الرسل، فلم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، وقد وجد ﷺ على ذلك وجداً شديداً، حتى أفضى ذلك إلى معركة مؤتة.

إلى صاحب اليمامة

وكتب ﷺ كتاباً إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة، ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك».

حامل الكتاب

وبعث الكتاب مع سليط بن عمرو العامري، فأكرمه وأجازه، وكساه من نسيج هجر، وكتب في الجواب: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهابني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: **«لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت. باد وباد ما في يديه»**.

فمات منصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة.

إلى ملك البحرين

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين.

دعاه فيه إلى الإسلام، وبعث هذا الكتاب مع العلاء بن الحضرمي،

فأسلم المنذر، وأسلم بعض أهل البحرين، وبقي الآخرون على دينهم من اليهودية أو المجوسية، فكتب المنذر يخبر بذلك رسول الله ﷺ ويستفتيه، فكتب إليه يأمره أن يترك للمسلمين ما أسلموا عليه، ويأخذ من اليهود والمجوس الجزية، وأنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك.

إلى ملكي عمان

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى ملكي عمان جيفر وأخيه، ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل، وخيل تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما».

حامل الكتاب

وبعث الكتاب مع عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ فلما قدم عمان لقي عبد بن الجلندي، فسأله عبد عما يدعو إليه، فقال: إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. وبعد حوار جرى بينهما سأله عبد عما يأمر به.

فقال: يأمر بطاعة الله وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم. وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

قال عبد: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، لكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً ـ تابعاً ـ.

قال عمرو: إن أسـلم أخوك ملكه رسـول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم.

فقال: إن هذاالخلق حسن، ثم سأله عن الصدقة فأخبره بتفاصيلها، فلما ذكر المواشي قال: ما أرى قومي يرضون بهذا.

ثم إن عبداً أوصل عمراً إلى أخيه جيفر، فأعطاه الكتاب فقرأه، ثم أعطاه لأخيه، وسأل عمراً عما فعلته قريش، فأخبره أنهم أسلموا، وأنه إن أسلم يسلم، وإلا وطئته الخيل وتبيد خضراءه.

وأرجـأ جيفر أمره إلى غد، فلما كان الغد أبدى القوة والصمود، ولكنه خلا بأخيه واستشـاره، فلما كان بعد الغد أسـلم هو وأخوه، وخليا بين عمرو وبين أخذ الصدقة، وكان عوناً على من خالفه.

وقد أرسل هذا الكتاب إلى عبد وجيفر بعد فتح مكة.

وأما بقية الكتب فقد أرسلت بعد عودته ﷺ من الحديبية.

غزوة الغابة

كان صلح الحديبية فتحاً من الله ـ عز وجل ـ لعباده في تبليغ الرسالة ونشر الدين، حيث أمن المسلمون من شر عدوهم اللدود قريش، فكانت هذه الموادعة فرصة للقضاء على من تربص بالإسلام وأهله، من اليهود وغيرهم.

وبينما كان رسول الله ﷺ يستعد للسير بإتجاه الشمال نحو خيبر إذ أغار عبد بن عيينة الفزاري على إبل لرسول الله ﷺ ترعى في جهة الغابة بناحية أحد وكان معها غلامه رباح، والراعي، وسلمة الأكوع، وكانت مع سلمة فرس لأبي طلحة، فلما أغار عليهم عبد الرحمن بن عيينة وقتل الراعي وساق الإبل؛ أعطى سلمة فرسه رباحاً ليسرع إلى المدينة، وصاح بأعلى صوته: يا صباحاه، ثلاث مرات. ثم خرج في آثار القوم يرميهم بالنبل ويرتجز:

خذها، أنا ابن الأكوع
واليوم يوم الرضع

فلم يزل يرميهم ويعقر بهم، وإذا رجع إليه منهم فارس جلس في أصل شجرة ورماه، ودخلوا في مضيق جبل فعلاه، وأخذ يرديهم بالحجارة، فلم يزل كذلك حتى تركوا الإبل كلها، لكنه لم يزل يتبعهم ويرميهم حتى ألقو ثلاثين برداً وثلاثين رمحاً يستخفون، فكان يجعل عليها أكواماً من الحجارة ليعرف بها.

وجلسوا في متضايق ثنية، فجلس ابن الأكوع على رأس قرن، فصعد إليه أربعة، فقال: هل تعرفونني؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب منكم رجلاً إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني، فرجعوا.

وبعد حين رأى سلمة فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، أولهم أخرم، ثم قتادة، ثم المقداد، فجاءوا والتقى أخرم وعبد الرحمن، فعقر أخرم فرس عبد الرحمن، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، فلحقه أبو قتادة، وقتله طعناً، وفر الباقون، فطاردهم هؤلاء الفوارس، ومعهم سلمة يعدو على رجليه، ووصلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يسمى بذي قرد، وكان قد نزل به العدو ليشرب منه، وهم عطاش، فأجلاهم عنه سلمة برمية، ولحق به رسول الله ﷺ والفوارس عشاء، في خمسمائة من أصحابه. فقال: يا رسول الله، القوم عطاش، فلو بعثتني في مائة رجل أخذت بأعناقهم وسرحهم فقال: «**يا أبن الأكوع! ملكت فأسجح**» ـ أي تلطف ـ.

ثم قال: إنهم ليقرون الآن في بني غطفان، وأعطاه سهم الراجل والفارس، وأردفه على العضباء.

وقال: خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا أبو سلمة.

وقد وقعت هذه الغزوة قبل خروجه ﷺ إلى خيبر بثلاثة أيام. وقد استعمل فيها على المدينة ابن أم مكتوم. وأعطى اللواء للمقداد ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

غزوة خيبر

بزغت فجر الإسلام وانتشـر نوره، وبدأت شوكته تظهر ورايته ترتفع، فثارت الأحقاد في نفوس الأعداء ولا سـيما اليهود الذين أجلوا من المدينة إلى خيبر، فكانت مركزاً للتآمر ومنبتاً للدسائس على الإسلام وأهله.

وبعد أن تم صلح الحديبية مع مشـركي مكـة وزال الخطر من جهتهم، تفرغ النبي ﷺ لجهاد وقتال اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسـلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم سـعوا مع المنافقين لإثارة الفتن والشـحناء بين المسـلمين. فكان لابد من القضاء عليهم في دارهم خيبر، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، على ثمانية برد من المدينة، مسـيرة ثلاثة أيام إلى جهة الشمال.

وكان الله ـ عز وجل ـ وعد رسـوله ﷺ إياها بالحديبية بقوله ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتـح: ٢٠] يعنـي صلـح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة فتح خيبر، فخرج ﷺ مسـتنجزاً ميعاد ربه واثقاً بكفايتـه ونصرته، وكان معه ألـف وأربعمائة راجل ومائتا فرس، ومعه أم سلمة زوجته، وأمر ألا يخرج معه إلا من رغب في الجهاد؛ لا من غرضه عرض الدنيا، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وكان ذلك في المحرم سنة سبع من الهجرة.

المنافقون

وقد أرسل ابن أبي رأس المنافقين إلى يهود خيبر يحذرهم، أن محمداً قصد قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه فإن عددكم وعدتكم

كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل.

فلمـــا علم ذلك أهل خيبر أرســـلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان يســـتمدونهم لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، وشرطوا له نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين.

ولم تقبل غطفان خوفاً من الإســـلام. وفي رواية أنهم قبلوا، فلما نزل المســـلمون منزل الرجيع، وكان بينهم وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، تهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر لإمداد اليهود، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حســـاً ولغطاً، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا.

وسار النبي ﷺ بالمسلمين حتى دنا من خيبر، وبات الليلة الأخيرة قريباً منها ولم تشعر به اليهود، فلما أصبح صلى الفجر بغلس، ثم ركب وركب المسلمون.

أما أهل خيبر فقد خرجوا للعمل بمساحيهم ومكاتلهم ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد، والله محمد والخميس. ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم.

فقـــال ﷺ كما في الصحيحين عن أنس: «**الله أكبـــر خربت خيبر، الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**».

ولما تحصنت اليهود خلـــف حصونها المنيعة تيقن ﷺ أن اليهود تحارب، فوعظ أصحابه وحرضهم على الجهاد، ورغبهم في الثواب، وبشر بأن من صبر فله الظفر والغنيمة.

حصون خيبر

وكانت حصون خيبر ثلاثة، منفصلاً بعضها عن بعض:

الأولى: حصن النطاة: وهي حصن ناعم، وحصن الصعب، وحصن تُلَّة.

والثانية: حصنان: حصن أبيّ، وحصن البريء.

والثالثة: ثلاثة حصون: حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن السُّلالم.

وعسكر النبي ﷺ شرقي حصون النطاة، فأتاه خباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله أم هو الرأي في الحرب؟ قال: «**بل هو الرأي**».

فقال: يا رسول الله، إن هذا المنزل قريب جداً من حصن نطاة، وجميع مقاتلي خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم ولا نأمن من بياتهم. ومنزلنا هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال من هذه المفاسد نتخذه معسكراً.

قال: «**الرأي ما أشرت إليه**».

وبدأ القتال بحصار حصن ناعم، وكان حصناً منيعاً مرتفعاً، صعب المرتقى، وكان خط الدفاع الأول والأقوى لليهود، وفيه جملة مقاتليهم ومنهم بطلهم مرحب الذي كان يعد بألف رجل. فوقعت المراماة بين الفريقين أياماً. ووجد المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة في فتحه.

ثم بشرهم رسول الله بالفتح ونادى علي بن أبي طالب وكان قد تخلف عن النبي ﷺ وكان رمداً فلحق.

فلما بات الصحابة تلك الليلة التي فتحت قال ﷺ: «**لأعطين الراية أو ليأخذن الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله**». وفي حديث سهل عند البخاري: «**ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه**». فبات الناس يدوكون، أي يختلفون ويسألون ليلتهم أيهم يعطاها؟ وكل منهم يرغب في هذا الفضل العظيم.

فلما أصبح الناس غدوا على رســول الله كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه.

قال: «فأرسلوا إليه». فأتى، فبصق رسول الله في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا.

قال: «**أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بمـا يجـب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بـك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**».

المبارزة

فلما أتوا حصن ناعم خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

قــد علــمــت خــيــبــر أنـــي مــرحــب
شـــاكـــي الــــســـلاح بـــطـــل مـــجـــرب
إذا الحــــروب أقــبــلــت تــلــهــب

فبرز له عامر فقال:

قــد عــمــلــت خــيــبــر أنـــي عــامــر
شـــاكـــي الـــســـلاح بـــطـــل مــغــامــر

فاختلفا ضربتين، فوقع سـيف مرحب في تـرس عامر، وذهب عامر بسفل له فرجع على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه.

وخرج له علي بن أبي طالب ودعاهم إلى الإســلام فأبوا، ودعا مرحب إلى المبارزة وهو يقول:

أنـــا الـــذي ســمــتــنــي أمـــي حــيــدره
كــلــيــث غــابـــات كــريـــه المــنــظــره
أوفــيــهــم بــالــصــاع كــيــل الــســنــدره

فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه وخرج أخوة ياسر يدعوا إلى المبارزة فبرز له الزبير بن العوام، وألحقه بأخيه.

الحصار

وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنهم الوطيح والسلالم، حتى إذا أيقنوا الهلاك سألوهم أن يسيرهم، وأن يحقن دماءهم، ففعل. وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها؛ الشق والنطاة والكتيبة وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينك الحصنين.

وكانت خيبر بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

قال ابن عمر أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الزرع والأرض والنخل فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله الصفراء والبيضاء، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة ولا عهد، فغيبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله إلى خيبر حين أجليت النضير.

فقال رسول الله ﷺ لعم حيي: «**ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟**».

فقال: أذهبته النفقات والحروب.

فقال: «**العهد قريب والمال أكثر من ذلك**».

فدفعه رسول الله إلى الزبير فمسه بعذاب، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال: قد رأيت حيياً يطوف في خربه ههنا.

فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم، بالنكث الذي نكثوا.

وأراد أن يجليهم منها فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم. ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وثمر، ما بدا لرسول الله أن يقرهم.

ولم يقتل رسول الله إلا ابني أبي الحقيق للنكث الذي نكثوا، وأمر بلالاً أن يذهب بصفية إلى رحله، فمر بها بلال على وسط القتلى، فكره ذلك رسول الله وقال: «**أذهبت منك الرحمة يا بلال؟**».

واستشهد من المسلمين بخيبر خمسة عشر رجلاً، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً.

زواجه ﷺ بصفية

وعندما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة مؤيداً منصوراً، كانت صفية في السبي أخذها دحية بن خليفة الكلبي بإذن رسول الله ﷺ، فقال الصحابة لرسول الله ﷺ: إنها لا تصلح إلا لك، إنها سيدة قريظة والنضير، فإن النبي ﷺ لما أجلى يهود بني النضير، من المدينة ذهب عامتهم إلى خيبر وفيهم أبوها حيي سيد بني النضير. فدعا بها رسول الله ﷺ وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فاعتقها وتزوجها، واصطفاها لنفسه وجعل عتقها صداقها، وصفية بنت حيي بن أخطب من ذرية هارون بن عمران.

فلما كان في سبد الصهباء أعرس بصفية بنت حيي، فأقام ثلاثة أيام يبني عليه بصفية، ثم صنع حيساً في نطع صغير، ثم قال ﷺ لأنس بن مالك: «**آذن من حولك**».

قال أنس: فدعوت الناس على وليمته على صفية، وما كان فيها خبز ولا لحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالاً بالأنطاع فبسطت، فألقى عليها التمر والأقط والسمن وهو الحيس.

ورأيت النبي ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة وطأ له خلفه، ثم جلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته وقد مد الحجاب بينها وبين الناس، وهذا من بالغ إكرام النبي لها ومن حسن خلقه وطيب معشرة وهو القائد المنتصر والنبي المرسل يوطأ أكنافه لزوجته ويعينها، وكان من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب.

ورأى بوجهها خضرة فقال: «ما هذا؟» فقالت: يا رسول الله رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه فسقط في حجري، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً، فقصصتها على زوجي فلطم وجهي وقال: تمنين هذا الملك الذي بالمدينة؟

وشك الصحابة هل اتخذها سرية أو زوجة، فقالوا: إن حجبها فهي إحدى نسائه، وإلا فهي مما ملكت يمينه. فلما ركب جعل ثوبه الذي ارتدى به على ظهرها ووجهها، ثم شد طرفه تحته، فتأخروا عنه في السير، وعلموا أنها إحدى نسائه.

أهل فدك

ولما فتح الله ـ عز وجل ـ على يدي رسوله خيبر بقلاعها وحصونها المنيعة أرسل ﷺ محيصة بن مسعود إلى يهود فدك وهي بلدة شرقي خيبر على بعد يومين يدعوهم إلى الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما سمعوا بفتح خيبر داخلهم الرعب والخوف، وطلبوا أن يعاملهم رسول الله ﷺ معاملة أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت أرض فدك خالصة لرسول الله ﷺ،

ينفق منها على نفسه، ويعول صغير بني هاشم ويزوج أيمهم.

الغدر

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث ـ امرأة سلام بن مشكلم ـ شاة مصلية، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ؟

فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيه من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ولفظها.

ثم قال: «**إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم**».

ثم دعا بها فاعترفت، فقال: «**ما حملك على ذلك؟**».

قال: قلت إن كان ملكاً استرحت منه وإن نبياً فسيخبر، فتجاوز عنها.

وكان معه بشر بن البراء بن معرور، أخذ منها أكله ، فأساغها، فمات فيها، وقد تجاوز عنها أولاً، فلما مات بشر قتلها قصاصاً.

العودة إلى المدينة

ثم سار ﷺ حتى قدم المدينة في أواخر شهر صفر من السنة السابعة للهجرة.

قال أنس: فسرنا حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر ﷺ إلى أحد فقال: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**».

ثم نظر إلى المدينة فقال: «**اللهم إني أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة. اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم**».

وفي رواية: فلما أشرف على المدينة قال: «**آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون**». فلم يزل يقول ذلك حتى دخل المدينة.

غزوة ذات الرقاع

سميت ذات «الرقاع» لما لاقاه المسلمون من الشدة والمشقة، روى البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه. فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا، فحدث أبو موسى بهذا الحديث، ثم كره ذلك قال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟ كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه. لأن الأصل في العمل الصالح أخفاؤه وعدم اطلاع الناس عليه إلا إذا كان في ذلك مصلحة.

وكان من خبر هذه الغزوة أنه ﷺ لما رجع من خيبر واطمأن بالمدينة غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة بالمثلثة من غطفان، لأمرٍ بلغه أنهم جمعوا الجموع، فخرج في أربعمائة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري وقيل عثمان ابن عفان حتى نزل نخلا، موضع من نجد من أرض غطفان. فلم يجد في محالهم إلا نسوة فأخذهن. ولقي جمعاً فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد أخاف الناس بعضهم بعضاً فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف. وكان ذلك أول ما صلاها.

قصة الأعرابي

لما كان ﷺ في غزوة ذات الرقاع، أتوا على شجرة ظليلة تركها الصحابة للنبي ﷺ إكراماً له وأجلالاً. فنزل رسول الله وتفرق الناس في العضاه. وهو شجر عظيم له شوك يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله تحت شجرة فعلق سيفه.

قال جابر: فنمنا نومة، فجاء رجل من المشـــركين فاخترط سيف رسول الله، فقال: أتخافني؟ قال: «لا».

قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله».

قال جابر: فإذا رسول الله يدعونا، فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس.

فقال رسول الله ﷺ: **«إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا** [أي: مجرداً من غمده]، **فقال لي: من يمنعك مني؟ فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟» قال: كن خير آخذ.

قال: **«تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟»**.

قال الأعرابي: أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك.

فخلى سبيله، فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وفي هذه القصة فرط شجاعته ﷺ وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه علـــى الجهال. وفيها حفـــظ الله له، وإلا فما الذي أحـــوج الأعرابي إلى مراجعتـــه مع احتياجه إلى الحظـــوة عند قومه بقتله. وقد كان ذلك ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

الصلاة والحراسة

وفي مرجعهم، أدركهم زوج أحدى السبايا من المشركين ونذر ألا يرجع حتى يهريق دماً في أصحاب محمد ﷺ.

فأدركهم ليلاً وقد كان على حراســـة المسلمين رجلين، هما عبَّاد بن بشر وعمار بن ياســـر، فضرب عباداً بسهم وهو قائم يُصلي، فنزعه ولم يقطع صلاته، حتى رشـــقه بثلاثة ســـهام، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه.

فقال: سبحان الله، هلا نبهتني.

فقـــال: كنت في ســـورة اقرؤها فلم أحب أن أقطعهـــا، فلم تابع عليَّ الرمي ركعت فأذنتك، وأيم الله، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها.

الرحمة

وفي انصرافه ﷺ من هذه الغزوة أبطأ جمل جابر بن عبد الله فنخسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فانطلق متقدماً بين يدي الركاب.

ثـــم قال: «أتبيعنيه؟» فابتاعه منه وقال: «**لك ظهره إلى المدينة**» فلما وصلها أعطاه الثمن وأرجح، ووهب له الجمل.

وفي هـــذا الموقف منه ﷺ تتضح الرحمة والشـــفقة بأصحابه والوقوف معهم وإعانتهم، وهو مما يلوح من جميل صفاته وحسن رفقته.

فقد شعر ﷺ أن تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله الذي لا يملك غيره لضعف حاله وفاقته، حيث مات والده شـــهيداً في أحد وخلف بنات وأولاد، وهو مقل في الرزق، فاراد النبي أن يواسيه بذلك.

سرايا المجاهدين بعد خيبر

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد مقدمه من خيبر إلى شوال، وكان ﷺ يبعث في خلال ذلك السرايا:

فمنها: «**سرية أبي بكر الصديق**» إلى نجد، إلى بني فزارة، في شعبان سنة سبع من الهجرة فشن عليهم الغارة فقتل منهم من قتل، وكان معه في السرية سلمة ابن الأكوع، فوقع في سهمه جارية فاستوهبها منه رسول الله ﷺ وفادى بها أسرى من المسلمين.

ومنها: «**سرية عمر بن الخطاب**» في شعبان سنة سبع، إلى بني نضر بن معاوية بن بكر بن هوازن، في تربة وهو موضع قريب من مكة.

فسار ومعه ثلاثون رجلاً، فخرج معه دليل من بني هلال فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر إلى هوازن فهربوا، وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة.

ومنها: «**سرية بشير بن سعد الأنصاري**» في شعبان سنة سبع من الهجرة. إلى بني مرة بفدك، معه ثلاثون رجلاً، فقتلوا وقاتل بشير بن سعد حتى ارتث وقيل قد مات. وقدم ابن زيد الحارثي بخبرهم، ثم قدم بعده بشير بن سعد بعد أن ضمد جراحه.

ومنها: «**سرية إلى الحرقات من جهينة**». روى البخاري عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم. فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه وطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ،

فقال: «**يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟**» قلت: كان متعوذاً. فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

ومنها: «**سرية بشير بن سعد الأنصاري**» حيث بلغ الرسول ﷺ أن جمعاً من غطفان بالجناب قد واعدهم عيينة بن حصن ليكون معهم ليزحفوا على المدينة. فبعثهم ﷺ في ثلاثمائة رجل، فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا، وأصاب لهم نعماً كثيرة وأسر رجلين فقدم بهما إلى المدينة إلى رسول الله فأسلما.

وبعث رسول الله ﷺ «سرية قبل نجد» وفيها ابن عمر، قال: فبلغت أسهامنا اثني عشر بعيراً، ونفلنا بعيراً فرجعنا بثلاثة عشر بعيراً.

ومنها: «**سرية عبد الله بن رواحة**» في ثلاثين راكباً فيهم عبد الله بن أنيس، إلى يسير بن رزام اليهودي، لأنه بلغ رسول الله ﷺ أنه يجمع غطفان ليغزوه بهم، فأتوه بخيبر فذكروا له أن رسول الله أرسلنا إليك ليستعملك على خيبر، فلم يزالوا به حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل رديف من المسلمين، فلما بلغوا «قرقرة نيار» وهي من خيبر على ستة أميال ندم يسير فأهوى بيده إلى سيف عبد الله ابن أنيس، ففطن له عبد الله فزجر بعيره ثم اقتحم عن بعيره يسوق القوم حتى إذا استمكن من يسير ضرب رجله فقطعها، فاقتحم يسير وفي يده عصا معوجة الرأس كالصولجان فضرب به وجه عبد الله فشجه، فانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله، غير رجل من اليهود أعجزهم شدا. ولم يصب من المسلمين أحد، فقدموا على رسول الله فبصق ﷺ في شجة عبد الله فلم تقح ولم تؤذه حتى مات.

وفي الصحيحين عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار على سرية، بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، قال فأغضبوه في شيء،

فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا. فقال: أوقدوا لي ناراً، فأوقدوا.

ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى.

قال: فادخلوها. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار. قال فسكن غضبه، وطفئت النار.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له قال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها. إنما الطاعة في المعروف**».

وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: نزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩] في عبد الله بن حذافة السهمي.

عمرة القضاء

لما هل هلال ذو القعدة سنة سبع، وحال الحول على عمرة الحديبية، خرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ حسب الشروط التي تمت في صلح الحديبية. وأمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدهم عنها المشـــركون بالحديبية، وأن لا يتخلف أحد ممن شـــهد الحديبية. فلم يتخلف عنهم أحد منهم إلا رجالاً استشهدوا بخيبر ورجالاً ماتوا.

وخرج معه ـ عليه الصلاة والســـلام ـ من المســـلمين ألفان سوى النساء والصبيان، واســـتخلف على المدينة أبا ذر الغفاري. وســـاق ـ عليه الصلاة والســـلام ـ ســـتين بدنة وأحرم من ذي الحليفة، ولبى ولبى المسلمون معه. وجعل على هديه ناجية ابن جندب الأســـلمي، فلما نزل بمر الظهران وقدم الســـلاح إلى بطن ياجج، وهو موضع بمكة حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، وخلـــف عليه أوس بن حولي الأنصاري في مائتي رجل. ودخلوا بســـلاح الراكب، السيوف في القرب. وخرجت رؤساء قريش من مكة إلى رؤوس الجبـــال لئلا يروه، عداوة لله ولرســـوله. وكان يوماً مهيباً وعظيماً. اجتمع فيه الفرح بدخول مكة مع ذكريات غابرة أصابتهم في جنب الله من الإيذاء والتعذيب قبل الهجرة.

وقدم رسول الله ﷺ الهدي أمامه فحبس بذي طوى، وركب ﷺ ناقته القصواء والمسلمون متوشحون السيوف محدقون برسول الله ﷺ يلبون.

الطواف بالبيت

فلما قدم رسول الله ﷺ أمرهم أن يكشفوا عن المناكب، وأن يسعوا في الطواف ليرى المشـــركون جلدهم وقوتهم، إلا ما بين الركن اليماني والحجر الأســـود فإنه في الجنوب، في جهة لم يكن يراها المشـــركون، وكان ﷺ يكايدهم بكل ما استطاع. وقال: «**رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة**».

وفي البخاري عن ابن عباس قال المشـــركون: يقدم عليكم وقد وهنتهم حمـــى يثرب، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا في الأشـــواط الثلاثة وأن يمشـــوا بين الركنين، ولم يمنعه أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. وهو أول اضطباع ورمل في الإسلام. فصف المشركون وقوفاً ينظرون إليه، ودخل رسول الله ﷺ وابن رواحة آخذ بزمام راحلته.

ولم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى استلم الركن بمحجنه مضطبعاً بثوبه، وطاف على راحلته والمسلمون يطوفون معه قد اضطبعوا بثيابهم.

ثم سعى رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الشوط الســـابع عند فراغه وقد وقف الهدي عند المروة قال: «**هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر**». فنحر عند المروة وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون.

وأمر رســـول الله ﷺ ناساً منهم إلى أصحابهم ببطن ياجج فيقيموا على الســـلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم، ففعلوا. وأقام رسول الله بمكة ثلاثـــاً. وأذن بلال علـــى ظهر الكعبة فتردد صـــدى التكبير في ارجاء مكة وشعابها وبطاحها.

فلمـــا مضى الأجل أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل.

فخرج النبي ﷺ. فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي فأخذها بيده وقال لفاطمة: دونك بنت عمك. فحملتها.

فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أحق بها وهي ابنة عمي.

وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي.

وقال زيد: بنت أخي.

فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**».

وقال لعلي: «**أنت مني وأنا منك**» وقال لجعفر: «**أشبهت خلقي وخُلقي**».

وقال لزيد: «**أنت أخونا ومولانا**».

وقال له علي: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: «**إنها بنت أخي من الرضاعة**».

وهكذا طيب ﷺ خواطر الجميع، وقضى في الأمر بالعدل، فطابت النفوس وقبلت.

غزوة مؤتة

لما انصرف رســـول الله ﷺ من عمرة القضاء أقام بالمدينة خمسة أشهر، وفي صفر من الســـنة الثامنـــة للهجرة قدم خالد بن الوليـــد، وعمرو ابن العاص، وعثمان بن طلحة الحجبي وأســـلموا، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: «**رمتكم مكة بأفلاذ كبدها**».

وفي جمادى الآخرة من الســـنة الثامنة من الهجرة بعث رسول الله ﷺ الأمراء إلى الشـــام، وذلك أن رسول الله ﷺ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتـــاب إلـــى ملك بصرى، فلما نزل مُؤتة وهـــي من عمل البلقاء بالشـــام دون دمشق عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره.

فأمّر رســـول الله زيد بن حارثة مولاه على ثلاثـــة آلاف وقال: إن قتل فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن قتل فعبد الله بن رواحة.

وعقـــد لهم لـــواءً أبيضاً ودفعه إلى زيد بن حارثـــة، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإســـلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم.

وداع الرسول لهم

وخرج مشـــيعاً لهم حتى بلغ ثنية الـــوداع، فوقف وودعهم، فبكى ابن رواحـــة، فقيـــل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما بي حـــب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١] فلســـت أدري

كيف لي بالصدر بعد الورود.

فلما ساروا قال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم صالحين غانمين.

فقال ابن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً
وضربةً ذات فرغ تقذف الزَّبدا
أو طعنةً بيدي حران مجهزة
بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي
أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم مضوا سائرين حتى نزلوا معان من أرض الشام وبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام وبليّ مائة ألف، فلما بلغ ذلك المسلمون أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له.

لكن عبد الله بن رواحة عارضهم هذا الرأي وشجع المسلمين، وقال: والله يا قوم إن الذي تكرهونه للذي خرجتم له تطلبون الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظفر وإما شهادة.

فقالوا: صدق والله ابن رواحة.

التقاء الجيوش

فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها مشارف، فدنا العدو، وانحاز المسلمون إلى بلدة مؤتة، فالتقى الناس فتعبأ المسلمون ثم اقتتلوا قتالاً شديداً، لا تكافأ فيه من

ناحية العدد والعدة؛ فالمسلمون ثلاثة الآف مجاهد يواجهون جيشاً مدججاً بالسلاح والعتاد يزيد عن مئتي ألف مقاتل.

وكانت راية المسلمين في يد زيد بن حارثة، فلم يزل يقاتل بها حتى شاط في رماح القوم وخر صريعاً.

جعفر

وأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل بها حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها ثم قاتل، وكان أول من عقر فرسه في الإسلام عند القتال، ويقول:

يا حبذا الجنة واقترابها
طيبة وبادر شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة أنسابها
عليَّ إن لاقيتها ضرابها

وكان جعفر يحمل اللواء بيمينه. فقطعت يمينه، فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره، فاحتضن الراية حتى قتل - رضي الله عنه - وله ثلاث وثلاثون سنة، ووجد به وهو قتيل خمسين ما بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في ظهره.

وأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء. عن عبد الله بن جعفر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**هنيئا لك أبوك يطير مع الملائكة في السماء**». وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت جعفر أبن أبي طالب يطير مع الملائكة**» [رواه الترمذي والحاكم].

ولما جاء نعي جعفر، قال ﷺ: «**اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد أتاهم أمر يشغلهم، أو أتاهم ما يشغلهم**» [رواه الترمذي].

عبد الله بن رواحة

ولما قتل جعفر بهذه الشجاعة والتضحية، أخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد ويقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة ... مالي أراك تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة في شنه

وقاتل عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ حتى استشهد.

وحتى لا تسقط الراية أخذها ثابت بن أقرم أخو بني عجلان فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل.

خالد بن الوليد

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أصبح غير صفوف الجيش فجعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته فأنكر الأعداء ما يعرفون من رايات وهيئات المسلمين، وظنوا أن مدداً جاءهم، فخافوا وذعروا.

روي عن أبي هريرة قال: لما قتل ابن رواحة انهزم المسلمون، فجعل خالد يدعو أخراهم ويمنعهم عن الفرار وهم لا يسمعون، حتى نادى قطبة بن عامر: أيها الناس لئن يقتل الرجل في حرب الكفار خير من أن يقتل حال الفرار. فلما سمعوا كلام قطبة تراجعوا.

وقاتل خالد بن الوليد قتالاً شـديداً وأبلى بلاءً حسـناً. حتى لقد انقطع في يده يوم مؤتة تسـعة أسياف، فما بقي في يده إلا صحيفة يمانية. وهذا يدل على شـدة الحرب وبأس خالد ـ رضي الله عنه ـ. ثم أن خالداً انحاز بالمسلمين، وعندها تركه الأعداء وصدوا عنه.

وقد نعى النبي ﷺ زيـداً وجعفراً وابن رواحة في الناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سـيف من سـيوف الله حتى فتح الله عليهم**».

قال موسـى بن عقبة: قدم يعلى ابن أمية على رسـول الله يخبر أهل مؤتة، فقال رسول الله ﷺ: «**إن شئت فأخبرني، وإن شئت أخبرتك**».

قال: فأخبرني يا رسول الله. فأخبره رسول الله ﷺ.

فقـال: والذي بعثـك بالحق ما تركت مـن حديثهم حرفـاً واحداً لم تذكره.

فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم**».

نهاية المعركة

واختلف الروايات كثيراً فيما آلت إليه نهاية المعركة، ويظهر أن خالد بن الوليد انحاز بالمسـلمين سالمين حتى عادوا إلى المدينة. وقتل منهم في هذه الغزوة أثنا عشـر رجلاً، أما عدد قتلى الكفار فلم يعرف، إلا أن المسلمين قتلوا بسيوفهم الكثير منهم.

ولما دنوا من المدينة تلقاهم رسـول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشـتدون ورسـول الله مُقبل مشـيع القوم على دابة فقال: «**خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر**»، فداعبهم رسول الله ﷺ، ودعا لهم، وقال

لأمهم عندمـــا جاءته تذكر يتمهم: «العيلة تخافين عليهـم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة». فأخذه فحمله بين يديه.

وجعـــل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل، فيقول رسول الله: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله».

الشهداء

واستشـــهد يومئذ من المسلمين: الأمراء الثلاثة، زيد بن حارثة، وجعفر بـــن أبـــي طالب، وعبد الله بـــن رواحه ـ رضي الله عنهم ـ، واستشـــهد كذلك: مســـعود بن أوس، ووهب ابن ســـعد بن أبي ســـرح، وعبادة بن قيس، وحارثة بن النعمان، وسراقة بن عمرو ابن عطية، وأبو كليب وجابر ابنا عمرو بن زيد، وعمرو وعاصم ابنا ســـعد بن الحارث وغيرهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

وقد فتحت هذه المعركة باباً في بلاد الشام حيث توالت فيما بعد معارك الجهاد لفتح بلاد الشام وما وراء النهر في خلافة أبوبكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ. فاعتلوا عروش الملوك، وأبلوا بلاءً حســـناً في القادسية واليرموك ـ فرضي الله عنهم أجمعين ـ.

غزوة ذات السلاسل

بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة بأيام قليلة، وفي جمادى الثانية من سنة ثمان هجرية. بلغ النبي ﷺ أن قبيلة قضاعة بدأت تتجمع تريد الدنو من المدينة للإغارة عليها، كما أنه كان لهم موقف مع الروم والقيام بجانبهم في معركة مؤتة، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواءً أبيضاً، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن مرَّ به من بلي وعذرة وبلقين.

فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفان.

فأراد أبو عبيدة، أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت عليَّ مدداً وأنا الأمير. فأطاع له بذلك أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس، وسار حتى وطئ بلاد قضاعة، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا، وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقفولهم وسلامتهم.

وسميت بغزوة ذات السلاسل بذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا، وقيل لأن بها ماء يقال له السلسل، وهي وراء وادي القرى، وبينها وبين المدينة عشرة أيام.

فتح مكة

وهو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً.

خرج له ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن لنقض قريش العهد الذي وقع بينهم وبين رسول الله بالحديبية على رأس ثمان سنوات ونصف من مقدمه المدينة.

صلح الحديبية

فإنه لما أُبرم صلح الحديبية كان من شروط الصلح أن من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل. فدخلت خزاعة في عقد محمد ﷺ وعهده.

ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً ولم يحدث ما يخل بالصلح.

ولما كانت وقعة مؤتة ظنت قريش أن المسلمين ضعفوا وزالت هيبتهم، وظنت بني بكر بن عبد مناة أن تنال من خزاعة، وكانت بينهم وبين خزاعة قبل الإسلام عداوة وقتل، فلما جاء الإسلام تشاغل الناس به.

فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو بكر وأرادوا أن يصيبوا الثأر من خزاعة فخرج نوفل بن معاوية في نفر من بني بكر فبيت خزاعة على ماء بأسفل

مكة يقال له الوتر، فأصابوا منهم رجلاً وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفياً، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك. فقال كلمة عظيم: لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

فقاتلوهم حتى لجؤوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم، وخرج عمرو ابن سالم الخزاعي في أربعين راكباً، حتى قدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بما قد وقع، ويستنصرونه، فقام وهو يجرّ رداءه ويقول: **«والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه»**.

قالت ميمونة: سمعت رسول الله ﷺ يقول في متوضئه ليلاً: لبيك لبيك (ثلاثاً)، نصرتَ نصرتَ (ثلاثاً). فلما خرج قلت: يا رسول الله، سمعتك تقول في متوضئك: لبيك لبيك ثلاثاً، نصرتَ نصرتَ ثلاثاً، كأنك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟

فقال: **«هذا راجز بني كعب يستصرخني ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر»**.

ثم خرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأمر عائشة أن تجهزه ولا يعلم أحد بذلك.

فدخل عليها أبو بكر فقال: يا بنية ما هذا الجهاز؟

قالت: والله ما أدري.

فقال: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول الله؟

قالت: والله لاعلم لي.

قالت: فأقمنا ثلاثاً، ثم صلى الصبح بالناس، فسمعت الراجز ينشده.

ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء فقال: «**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب، وهم رهط عمرو بن سالم**».

ثم إن قريش ندمت على ما صنعت، وعلموا أن ذلك نقض لما كان بينهم وبين رسول الله، وقد كان رسول الله ﷺ قد قال للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدد العقد ويزيد في المدة.

قصة رملة

وكان ما قال ﷺ، فقد خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته رملة، وكانت زوجة لابن عمة الرسول ﷺ عبيد الله بن جحش الأسدي، وقد أسلم زوجها عبد الله واسلمت رملة معه، وهاجرت إلى الحبشة وتركت موطنها وأباها أبا سفيان، تركت الدار والأحباب طمعاً لرضا الله ـ عز وجل ـ.

ولكن الحياة لم تصف لهذه المؤمنة الصابرة المهاجرة، فقد فجعت بعد حين بردة زوجها عبيد الله عن الإسلام ودخوله النصرانية، وجاهد أن يردها عن دينها فأبت، وثبتت على دينها كالجبال الرواسي، والتزمت الصبر وتعاهدت الدعاء، وكانت قد وضعت ابنتها حبيبة التي كنيت بها، فصارت تدعى: أم حبيبة.

وكانت ـ رضي الله عنها ـ في نهارها وليلها مهمومة مغمومة مفجوعة في أهلها وزوجها، تتناوبها الوحشة والغربة حيناً، والفجيعة والحزن حيناً آخر، وكادت أن تهلك غماً وأسى وحسرة، فهي امرأة مسكينة، وحولها طفلة صغيرة، وزوج تنصَّر، وفي مكة أب مشرك، يتربص بها وبالمسلمين الدوائر.

خطبة الرسول

ولم يبرد وجع كبدها، وأنَّة قلبها، إلا طارق أتى إلى النجاشي من عند رسول الله ﷺ، يطلب منه أن يزوجها برسول الله ﷺ، وقرت عين

أم حبيبة، وتدثرت بشرف عظيم، حين تسمت بأم المؤمنين، وأزال الله ما بقلبها من حزن وهم، وقلق وغم.

وتتابع الأيام والشهور فإذا بالفجر الصادق يلوح في أفق المدينة مبشراً بنصر مؤزر، وفتح لمكة قريب بعد أن نقض المشركون صلح الحديبية، فحاروا في استعداد المسلمين، وقدموا، وأخروا، واستشاروا، وقرروا أن يبعثوا من يثني رسول الله ﷺ عن فتح مكة، أو يؤجله ولو إلى لحين، فكان رسولهم إلى المدينة أبا سفيان بن حرب، والد أم المؤمنين رملة، الذي تسلل تحت جنح الليل حتى استقر به المقام في المدينة.

وهتف قلبه.. أن سر إلى ابنتك رملة فلن تخيب ظنك، ولن تفشي سرك، وستكون لك يداً.

وتنازعته رغبة وحنان الأبوة فأدرك ذلك كله بالخطى السريعة إلى منزل ابنته رملة، يريد أن يدخل بيتها، ولم تكن رأته منذ هاجرت إلى الحبشة قبل سنوات طويلة، فوقفت تنظر إليه بادية الدهشة والحيرة، وقد عقدت المفاجأة لسانها، وأدرك والدها ما نزل بابنته من هول المفاجأة، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس، وتقدم بعاطفة الأبوة ليجلس على الفراش وهو مطمئن الفؤاد ساكن القلب.

الولاء والبراء

ولكن الله ـ عز وجل ـ أنطق لسان رملة ـ رضي الله عنها ـ وحرك يدها فاختطفت الفراش وطوته عن أبيها.

فقال لها متعجباً: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟

قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه.

لقــد محصــت أم المؤمنين رملة بنت أبي ســفيان ولاءها لله، فلم تأس علــى زوج تنكب عن الصراط وارتد عن دينه، وتحملت في غربتها الضيق والمعاناة. ثم هاهي تتغلب على عاطفة الأبوة وتظهر ولاءها لله ولرســوله وللمؤمنين، وبراءتها من الكفار والمشــركين حتــى وإن كان منهم أبوها أو أخوها.

فقال لها متعجباً مما جرى: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر.

ثم خرج مغضباً حتى أتى رســول الله، فكلمه فلم يرد عليه شــيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يُكلم رسول الله.

فقال: ما أنا بفاعل.

ثم أتى عمر بن الخطاب، فقال مســتنكراً: أنا أشــفع لكم؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به.

ثم أتى علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله وعندها الحسن بــن علي غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي إنك أمسُّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى رسول الله.

فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

ثم التفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد، هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

فقالت: ما بلغ ابني ذلك، وما يجير أحد على رسول الله.

فقال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمر قد اشتد علي، فانصحني.

قال: والله ما أرى شــيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر

بين الناس، ثم الحق بأرضك.

فقال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟

قال: لا والله. ولكن ما أجد لك غيره.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق.

فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟

قال: أتيت محمداً فكلمته، فوالله ما رد على شيئاً، ثم ابن أبي قحافة فلم أجد منه خيراً، ثم أتيت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو.

ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار على بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني شيئاً أم لا.

قالوا: وبمَ أمرك.

قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت.

قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا.

قالوا: ويلك إن زاد الرجل على أن لعب بك.

وأمر رسول الله ﷺ بالناس بالجهاز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة وقال: **«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»**.

وزيادة في الحيطة والكتمان أرسل أبا قتادة ـ رضي الله عنه ـ في أوائل رمضان إلى بطن إضم، على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة ليظن الظان أنه يريد تلك الناحية.

حاطب بن أبي بلتعة

فتجهز الناس، فكتب حاطب بن أبي بلتعة ـ رضي الله عنه ـ كتاباً إلى أهل مكة بمسير رسول الله ﷺ إليهم. كتب فيه: إن رسول الله ﷺ قد

توجه إليكم بجيش كالليل يسـير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له وعده.

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء.

فأرسل علي والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها.

فساروا فإذا امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة وادركوها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ.

فقالوا: الكتاب.

فقالت: ما معي كتاب.

فاناخوا والتمسوا فلم يروا كتاباً، فقالوا: ما كذب رسول الله، وقالوا لها: لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت الجد أهوت إلى حجرتها وهي محتجزة بكساء فأخرجته.

فانطلقوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين يخبرهم ببعض أمور رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ لحاطب: **«ما حملك على ما صنعت؟»**.

فقال: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله.

فقال: صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً.

فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق، إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين.

فقال ﷺ: **«إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً**

فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وفي رواية: «**فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم»**. فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

فأنزل الله السورة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝﴾ [الممتحنة: ١].

وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من العرب فجلبهم: أسلم وغفار، ومزينة وجهينة، وأشجع وسُليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لاقاه بالطريق، وخرج في عشرة آلاف من المسلمين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وقيل أبارُهم الغفاري.

إسلام العباس

وقد كان العباس عم رسول الله خرج بأهله وعياله مهاجراً مسلماً فلقي رسول الله بالجحفة، وكان من لقيه بالطريق أبو سفيان بن الحارث ابن المطلب ابن عمه، وهو ممن كان يهجو المسلمين ويقاتلهم في سائر الحروب عشرين سنة حتى قذف الله في قلبه الإسلام، فكان أحد الذين صمدوا مع الرسول ﷺ في غزوة حنين حين فر الناس.

وممن قدم أيضاً عبد الله بن أبي أمية ابن عمته أخو أم سلمه أم المؤمنين لقياه الأبواء؛ فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك.

قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمتي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك قال أبو سفيان ومعه بني له: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك رق لهما وأذن لهما.

وقيل أن علياً قال لأبي سفيان: أئت رسول الله من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩١] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل ذلك أبو سفيان.

فقال: رسول الله ﷺ ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢].

فأسلم وحسن إسلامه بعد ذلك، ويقال: ما رفع رأسه إلى رسول الله منذ أسلم حياءً منه.

وكان رسول الله ﷺ يحبه وشهد له بالجنة، وقال: أرجو أن يكون خلفاً من حمزة. ولما حضرته الوفاة قال لأهله: لا تبكوا علي، فوالله مانطقت بخطيئة منذ أسلمت.

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل الظهران عشاء فأمر أصحابه فأوقدوا أكثرمن عشرة آلاف نار، ولم يبلغ قريشاً مسيره وهم مغتمون لما يخافون من غزوة إياهم.

قال العباس: قلت واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله مكة عمرة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال: فركبت بغلة رسول الله فخرجت حتى أتيت الأراك، فقلت لعلي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله فيأتوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة.

قال أبو سفيان: فوالله إني لأسير عليها إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل ابن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً.

وبديل يقول: هذه والله خزاعة حمشتها [أي: هيجتها] الحرب.

فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة.

فعرف صوتي فقال أبا الفضل؟ قلت: نعم.

قال: مالك فداك أبي وأمي؟

قال قلت: هذا رسول الله في الناس، وأصباح قريش والله.

قال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟

قال قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى أتي بك رسول الله فأستأمنه لك. فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال فجئت به، فكلما مررنا بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلة رسول الله.

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة. قال: أبو سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك غير عقد ولا عهد.

ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، فركضت البغلة فسبقته بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء، واقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني. فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا.

قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: «**اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به**».

فذهبت به إلى رحلى، فلما أصبحت غدوت به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟**».

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

قال: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**».

قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه ففي النفس حتى الآن منها شيء.

فقال العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فأسلم وتشهد شهادة الحق.

فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً.

قال: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو أمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**».

قوة المسلمين

وأمر رسول الله ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق من الوادي عند خطم الجبل تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟

فأقول سُليم، فيقول: مالي ولسليم.

ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة.

فيقول: مالي ولمزينة. حتى نفدت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها فأخبرته بهم. قال: مالي ولبني فلان. حتى مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد.

فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟

قال: قلت: هذا رسول الله والمهاجرين والأنصار.

قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة.

ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك أبن أخيك عظيماً.

قال قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال فنعم إذن. قلت النجاء إلى قومك.

يوم المرحمة

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبي سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة، اليوم أذل الله قريشاً.

فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: ما قال؟: قال: قال كذا وكذا.

قال: كذب سعد. ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة، قال فأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون.

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فنزع منه اللواء فدفعه إلى قيس ابنه، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه، وروي أن رسول الله ﷺ لما أخذ الراية دفعها إلى الزبير.

ومضى أبو سفيان حتى جاء قريشاً فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.

قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟

قال: ومن أغلق بابه فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وسار رسول الله ﷺ فدخل مكة من أعلاها وضربت هناك القبة.

دخول مكة

ودخل ﷺ يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسـامة بن زيد، وهو ابن مولى رسول الله ﷺ ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم، وأبناء أشرف مكة. وهذا فيه إظهار المساواة والتواضع.

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كدا من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رآيته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه.

وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسُليم وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأين يغرز رايته عند أدنى البيوت.

وبعث ابن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسـول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن القتال ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة، وقد جمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريـش فقاتلوا خالداً فقاتلهم فانهزموا، وقتـل من بني بكر نحو من عشرين رجلاً، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور فارتفعت طائفة منهم على الجبال.

وصاح أبو سفيان: من أغلق بابه وكف يده فهو آمن.

قال ونظر رسول الله إلى البارقة، فقال: ما هذا وقد نهيت عن القتال؟

فقالـوا: نظن أن خالـد قوتل وبـدئ بالقتال فلم يكن لـه يد من أن يقاتلهم.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد أحمر وعليه المغفر وهو يقرأ سورة الفتح ويُرجِّع، وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله وشكراً له حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، وخضوعاً لعظمته أن أحل له بلده ولم يحله لأحد بعده، حتى إن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل.

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه عهد في نفر سماهم أمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة وهم: الحويرث بن نفيل، وهلال بن خطل، وهبار بن الأسود، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وقيتنان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله، ومولاة لبعض بني المطل اسمها سارة.

فاما ابن خطل فقتله أبو برزة الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة وقيل: قتله الزبير.

وأما الحويرث ومقيس وإحدى القينتين فقتلوا، وكان مقيس قد أسلم ثم أرتد ولحق بالمشركين.

وأما هبار بن الأسود فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله حين هاجرت حتى سقطت على صخرة فأسقطت جنينها ففر ثم أسلم وحسن إسلامه.

واستؤمن رسول الله لسارة وإحدى القينتين فأمنهما فأسلمتا، وأما ابن أبي سرح فإنه أسلم فجاء به عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه.

وأما عكرمة فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب، فقدم وأسلم وحسن إسلامه.

تطهير الكعبة

ثم نهض رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها في عيونها بالقوس ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها، وكانت مثبتة بالحديد والرصاص.

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرماً يومئذ فاقتصر على الطواف فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت، فجعل يحمد الله ويدعو ما شاء أن يدعو.

في جوف الكعبة

ثم دعا بعثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة فأمر بها ففتحت فدخلها وفيها الصور، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام.

فقال: قاتلهم الله، والله إن استقسما بها قط.

ورأى في الكعبة حمامة من عيدان فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت، ثم أغلق عليه الباب وعلى أسامة وبلال وعثمان بن طلحة فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبين قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك.

ثم دار في البيت وكبر في نواحيه ووحد الله، ثم فتح الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينظرون ما يفعل، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته فقال: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدميَّ هاتي إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل**

أربعــون منهــا في بطونهــا أولادها، يا معشــر قريش، إن الله قد أذهــب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب».

ثــم تلا هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣] الآية.

ثم تجلت رحمته وعفوه عند المقدرة حيث ســأل قريش فقال: «يا معشــر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟».

قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: «فإني أقول لكم كما قال يوســف لإخوته ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢].

«اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وهكذا هو ﷺ فوق ما وصف من نبل الصفات، وحسن الخلق، وطيب المعشر، مع ما جمّله به ربه من العفو عند المقدرة، والرأفة بالعباد.

حـــلـــمـــوا فـــمـــا ســـــاءت لـــهـــم شيـم
ســـمـــحـــوا فـــمـــا شـــقـــت لـــهـــم مـــنـــن
ســـلـــمـــوا فـــمـــا زلـــــت لـــهـــم قـــدم
رشـــــــدوا ومـــــا ظـــلـــت لـــهـــم ســـنـــن

ثــم جلس في المســجد فقام إليه عليّ ومفتاح الكعبــة في يده فقال: يا رســول الله أجمع لنا الحجابة مع الســقاية صلى الله عليك. وفي رواية أن الذي قال ذلك العباس بن المطلب.

فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟».

فدعي له، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء. خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم».

أذان بـلال

وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث ابن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة.

فقال عتاب: لقد أكرم الله أسـيداً ألا يكون سـمع هذا فيسـمع منه ما يغيظه.

فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته.

فقال أبو سـفيان: والله لا أقول شـيئاً، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء.

فخـرج عليهم النبي ﷺ فقـال لهم: «**قد علمت الذي قلتـم، ثم ذكر لهم ذلك**».

فقال الحارث وعتاب: نشـهد أنك رسـول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

وفي البخاري عن أسـامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله أنى ننزل غداً؟ قال النبي ﷺ: «**وهل ترك لنا عقيل من منزل؟**».

وفـي رواية: «**وهل تـرك لنا عقيل من ربـاع أو دور؟**» وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرث جعفر ولا علي شيئاً لأنهما كانا مسلمين.

صلاة الفتح

ثم دخل رسـول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسـل وصلى ثمانـي ركعات في بيتها وكانت ضحـى كما في الصحيحين من حديث أم هانـئ. وفي رواية لم أره صلى صلاة قـط أخف منها غير أنه أتم الركوع والسجود فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح.

وكان أمراء الإسـلام إذا فتحوا حصناً أو بلـداً صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداء برسـول الله، وفي هذه القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكرا لله عليه، فإنها قالت ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها.

وأجـارت أم هانئ حموين لها فقال النبي ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانـئ» وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما فأغلقت عليهما باب بيتها وذهبت إلى النبي ﷺ فقال لها ذلك.

خطبته بعد الفتح

فلما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً فحمد الله وأثنـى عليه، ومجده بمـا هو أهله، ثم قال: «**أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسـفك بها دماً ولا يعضد بها شـجراً، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب..**».

ولمـا تم فتـح مكة على رسـول الله ﷺ وهـي بلدة ووطنـه ومولده ومنشأه.

قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسـول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه أن يقيم بها ـ وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه ـ فلما فرغ من دعائه.

قال: «**ماذا قلتم؟**».

قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه.

قال ﷺ: «**معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم**».

اجتماع الناس للبيعة على الصفا

لما فتح الله ـ عز وجل ـ لنبيه مكة؛ أنهارت صروح الشرك، وعلم الناس أن هـذا هو دين الحـق الذي إرتضاه الله ـ عز وجـل ـ لعباده. فاذغنوا، وسلموا، واجتمع الناس للبيعة، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

إسلام أبي قحافة

وكـان ممن أسـلم يومئذ أبـو قحافة والد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ففرح رسول الله ﷺ بإسلامه.

وقد جاء به أبو بكر يقوده وقد كُفّ بصره، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه**».

فقال أبو بكر: يا رسول، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت.

وجاء رجل يرتعد خوفاً، فقال له عليه الصلاة والسـلام: «**هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**» [وهو اللحم المجفف].

بيعة النساء

ولما فرغ ﷺ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء هو على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه.

فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة.

فقال رسـول الله ﷺ: «**أبايعكن على أن لا تشـركن بالله شـيئاً**» فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً.

فقال رسول الله ﷺ: «**ولا تسرقن**».

فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح فأنا أصبت من ماله هنات.

وكان أبو سفيان حاضراً فقال: ما أصبت فهو لك حلال. فضحك رسول الله وعرفها فقال لها: «**وإنك لهند؟**».

قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك.

فقال: «**ولا يزنين**». فقالت: أو تزني الحرة؟!

فقال: «**ولا يقتلن أولادهن**».

فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلوهم كباراً، فأنتم وهم أعلم.

وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر.

فضحك عمر حتى استلقى.

فتبسم رسول الله فقال: «**ولا يأتين ببهتان**».

فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فقال: «**ولا يعصينك في معروف**».

فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها، وتقول: كنا منك في غرور.

وفي الصحيح عن مجاشع قال: أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح فقلت: يا رسول الله جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة.

قال: «**ذهب أهل الهجرة بما فيها، لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**».

فقلت: على أي شيء تبايعه؟

قال: «**أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد**».

الأذان

ولما دخل وقت صلاة الظهر، أمر ﷺ بلالاً، فأذن على ظهر الكعبة. وكان هذا النداء المرتفع صوتاً ومكاناً إعلان بارتفاع وظهور الدين، وزوال الشرك والظلم والطغيان.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً، يجدد معالم الإسلام ويعلم الناس ويرشدهم.

وأمر رسول الله ابن أسد الخزاعي فحدد أنصاب الحرم. وهي: حجارة تجعل علامات بين الحل والحرم.

وبث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها، منها اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى.

ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره.

إقامة الحدود

وسرقت امرأة من بني مخزوم، ـ اسمها فاطمة ـ ففزع قومها إلى إسامة بن زيد، لمكانته عند رسول الله ﷺ يستشفعوه.

فلما كلم رسول الله ﷺ تلون وجهه، وقال: «**اتكلمني في حد من حدود الله؟**». قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فقام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «**أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد. والذي نفس محمد بيده؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها، ثم حسنت توبتها بعد ذلك.

هدم الأصنام

بعد أن فتح الله مكة لنبيه ﷺ وكسـر الأوثان حول الكعبة بيده الشريفة وهو يردد: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١] بدأ بإرسال القادة لهدم الأصنام في المناطق الأخرى خارج مكة.

هدم العزى

فبعث بعد الفتح في السـنة الثامنة للهجرة خالد بن الوليد إلى العزى، لخمس ليال بقين من شـهر رمضان ليهدمها، وكانت بنخلة، وكان لقريش وجميع بني كنانة، وهي أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بني شيبان.

فخرج إليها خالد في ثلاثين فارساً حتى انتهى إليها، فهدمها.

ولما رجع سأله رسول الله ﷺ: «**هل رأيت شئياً؟**» قال: لا.

قال: «**فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها**»، فرجع خالد متغيظاً قد جرد سيفه، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها باثنين.

ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**نعم، تلك العزى، وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبداً**».

ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ في شعبان من نفس السنة إلى بني جذيمة، داعياً إلى الإسلام.

هدم سواع:

ثم بعث ﷺ عمرو بن العاص في نفس الشـهر إلى سواع ليهدمه، وهو أعظم صنم لهذيل برهاط، شـمال شرقي مكة، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن: ما تريد؟

قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك.

قال: لم؟ قال: تمنع.

قال: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك، فهل يسمع أو يبصر؟

ثم دنا فكسره، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئاً.

ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

ولما رجع خالد من هدم العزى ورسول الله مقيم بمكة بعثه إلى بني جذيمة داعياً لهم إلى الإسلام، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبني سليم. فلما انتهى خالد إليهم قال: ما أنتم؟

قالوا: مسلمون صبأنا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحتنا، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون «صبأنا صبأنا».

فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيراً، فأمر يوماً أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي ﷺ فذكروا له فرفع ﷺ يديه وقال: **«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»** مرتين.

وبعث علياً فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم.

هدم مناة

وفي نفس الشهر بعث ﷺ سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً إلى مناة، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فلما انتهى سعد إليها قال له سادتها: ما تريد؟

قال: هدم مناة.

قال: أنت وذاك.

فأقبـــل إليها ســـعد، وخرجت امرأة عريانة ســـوداء ثائرة الراس، تدعو بالويل، وتضرب صدرها.

فقال لها الســـادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها ســـعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره، ولم يجدوا في خزانته شيئاً.

غزوة حنين

كان فتح مكة ايذاناً بأن الإسلام قادم، وأن المسلمين اصبحوا قوة لا تقاوم، وبعد أن فتح الله على رسوله مكة وأقام بها تسعة عشر يوماً أطاعت له وأذعنت قبائل العرب كلها وأسلموا، إلا هوازن وثقيف فإنهم كانوا عتاة، ولعل هذه القبائل توقعت أن تكون هي الهدف التالي لرسول الله ﷺ خاصة أن الرسول ﷺ أرسل السرايا نحوهم، منها سرية بقيادة خالد بن الوليد بثلاثين فارساً نحو نخلة لهدم العزى فهدمها، وكانت بيتاً تعظمه العرب وهي من ديار ثقيف. وغير ذلك من السرايا التي بعثها رسول الله ﷺ.

عندها اجتمع أشراف هوازان وثقيف فتشاوروا؛ فأدركتهما حمية الجاهلية.

فقالوا: إن محمداً قاتله قوم لم يحسنوا القتال ولم يكن لهم علم بالحرب فغلب عليهم، فإنه سيقصدنا، فقبل أن يظهر ذلك منه سيروا إليه.

فقصدوا محاربة المسلمين، واجتمعت هوازن وثقيف كلها، فنزلوا بحنين وهو واد قرب ذي المجاز، بينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف، وكان على هوازن رئيسهم مالك بن عوف النضري. وعلى ثقيف قائدهم ورئيسهم قارب بن الأسود.

واتفق معهما نضر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال وهم قليل، ولم يشهد من قيس عيلان إلا هؤلاء، واجتمعوا في أربعة آلاف مقاتل، وخرجوا بأموالهم وأولادهم ونسائهم لئلا يفروا، وكان فيهم دريد

بن الصمة في بني جشم وكان شيخاً كبيراً قد عمي من الكبر وكان له مائة وخمسون سنة، وكان صاحب رأي وتدبير وله معرفة بالحروب، فساروا حتى انتهوا إلى أوطاس.

فلما نزلوا بأوطاس اجتمع الناس وفيهم دريد بن الصمة.

فلما نزل قال: في أي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس.

قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس.

قال: مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟

قيل: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم.

قال: أين مالك؟ فدعي له.

فقال: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك، وإن هذا اليوم له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟

قال: سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم.

قال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد.

قال: غاب الحد والجد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟

قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر، قال: ذانك الجذعان لا ينفعان ولا يضران، يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن في نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعليا قومهم، ثم الق الصبأة على

متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال: لا والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك. والله لتطيعني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري.

وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأي. قالوا: أطعناك.

قال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

وبعث مالك بن عوف عيوناً من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم فقال: ويلكم ما شأنكم؟

قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى. فوالله ما رده ذلك على وجهه أن مضى على ما يريد.

ولما سمع بهم النبي ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس، فدخل فيهم، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله فأتاه وأخبره الخبر.

استعارة دروع صفوان

فلما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى هوازن ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: «**يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا**».

فقال: أغصباً يا محمد؟

فقال: «**بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك**».

قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل.

واستعمل رسول الله على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، ومعاذ بن جبل إماماً بها ومفقها لمن فيها.

فأقام بها أميراً على مكة حتى قبض رسول الله وأقره أبو بكر، فلم يزل عليها إلى أن مات. وكانت وفاته يوم مات أبو بكر وماتا في يوم واحد.

وقد رأى رسول الله ﷺ في المنام أسيد بن أبي العيص والياً على مكة مسلماً فمات على الكفر، وكانت الرؤيا لولده عتاب حين أسلم، فولاه رسول الله على مكة وهو ابن إحدى وعشرين سنة.

من مكة إلى حنين

ثم خرج رسول الله ﷺ من مكة يوم السبت السادس من شهر شوال سنة ثمان للهجرة. عامداً إلى حنين معه ألفان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله عليهم. فكانوا اثني عشرة ألفا.

وذكر أن رجلاً قال يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وأكد لهم بدعائه افتقاره ولجوئه إلى ربه وحده فقال: «**اللهم بك أحاول، وبك أقاتل**». وذكر لهم قصة نبي أعجبته كثرة أمته فسلط الله عليهم الموت.

وقد خرج من مكة إلى حنين، وخرج معه ناس من المشركين منهم صفوان بن أمية، فلما كان عشية جاء فارس فقال: يا رسول الله إني طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم.

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**تلك غنيمة للمسلمين غداً إن شاء الله**».

حراسة المسلمين

ثم قال: «**من يحرسنا الليلة؟**» قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله. قال: «**اركب**».

فركب فرساً له فقال: «**استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه**»، ففعل. فلما أصبح جاء وقال: طلعت الشعبين كلاهما فلم أر أحداً.

فقال له رسـول الله: «هل نزلت الليلة». قـال: لا إلا مصلياً أو قاضي حاجة. فقال رسول الله: «فلا عليك أن تعمل عملاً بعد هذا» [رواه أبو داود].

وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسـول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بالجاهلية، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضـراء يقال لها «ذات أنـواط» يأتونها كل سـنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً.

قال فرأينا ونحن نسـير معه إلى حنين سدرة خضراء عظيمة فتنادينا من جنبات الطريق: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

التحذير من المشابهة

فقال لهم رسـول الله ﷺ: «الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسـى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. قال إنكم قوم تجهلون. إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم» [رواه الترمذي].

فأنكر ﷺ عليهم مجرد مشـابهتهم للمشركين في ذلك، فكيف بما هو أعظـم من ذلك من الشـرك بعينه، فإذا كان العطوف حول هذه الشـجرة لتعليق الأسـلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله، مع أنهم لا يسألونها ولا يعبدونهـا، فما الظن بالعكوف حـول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده، فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر.

قـال بعض أصحاب مالك وهو أبو بكر الطرطوشـي: انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سـدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فاقطعوها.

إلى حنين

فلما كـان وقـت السـحر عبأ رسـول الله ﷺ جيشـه وعقد ألويته والرايـات وفرقهـا علـى الناس، ثـم ركـب ﷺ بغلتـه البيضـاء دلدل،

ولبس درعين والمغفر والبيضة.

وقد سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره، وكانت خطتهم تتمثل في مباغته المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر.

وقد تقدم المسلمون في الوادي عقب انفلاج الفجر، تتقدمهم الخيالة بقيادة خالد بن الوليد، وفي طليعتها بنو سليم، ثم بقيه الجيش في صفوف منتظمة.

وفي بداية المعركة ونشوء القتال تراجعت طلائع هوازن أمام تقدم المسلمين تاركين بعض الغنائم التي أقبل على جمعها الجند، وكأنهم حسبوا أن هوازن قد هزمت هزيمة كاملة. ولكن هوازن فأجاتهم بالسهام الكثيفة تنهال عليهم من جنبات الوادي.

وكان بعض المسلمين قد تعجلوا بالخروج دون استكمال عدة القتال، فمنهم من هو حاسر الرأس، ومنهم من لم يحمل السلاح الكافي ولم يحسبوا للأمر حسابه، وأمام هول المباغته ودقة الرماة من هوازن حتى ما يكاد يسقط لهم سهم، فانكشفت خيالة المسلمين ثم المشاة، وفر الطلقاء والأعراب، ثم بقية الجيش. حتى لم يصمد مع الرسول ﷺ سوى فئة قليلة صمدت بصموده.

واستمر القتال في الجولة الأولى من الفجر إلى العشاء ثم طيلة الليل، ثم انكشف المسلمون وأدبروا، وكان الحر خلال النهار شديداً فكان المسلمون يأوون قبل المعركة إلى ظلال الأشجار في النهار، أما في وقت المعركة فكانوا معرضين للشمس الملتهبة، وكانت الأرض رملية فكان الغبار يرتفع في وجوههم، فيحد من قدرة المقاتلين على الرؤية حتى وصف الحال من

قال: فما منا أحد يبصر كفه. في حين استفادت هوازن من كمائنها في المنعطفات والشعاب.

شجاعة الرسول

ولما رأى رسول الله ﷺ تفرقة أصحابه طفق يركض بغلته قبل الكفار، وكان العباس بن عبد المطلب أخذ بركابه الأيمن.

وكان ﷺ يمتطي بغلة له بيضاء ـ أو شهباء ـ تسمى دلدل وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغي وقد انكشف عنه جيشه، وهو على بغلة، وليست سريعة الجري، ولاتصلح للكر ولا للفر ولا للهرب، وهو مع هذا ﷺ يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه يعرفه من يعرفه. وما هذا إلا ثقة بالله وتوكل عليه، وعلم منه بأنه سينتصر ويظهر دينه على سائر الأديان. وهو ﷺ ينادي: «**إلي أيها الناس هلم إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله**».

تراجع المسلمين

وكان المسلمون قد تراجعوا قليلاً، في حين ابتعد معظمهم عن الميدان مدبرين ولم يصمد مع الرسول ﷺ سوى عشرة أو أثنى عشر من الصحابة كانوا يحيطونه به؛ فيهم العباس وأبو سفيان بن الحارث وأبوبكر وعمر وعلي.

وثبت في الصحيحين عن البراء بن عازب أنه قال له رجل: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله على بغلته البيضاء فنزل واستنصر وقال: «**اللهم أنزل نصرك**»، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته وهو يقول:

أنـــــا الـــــنبـــــي لا كـــذب
أنـــــا ابـــــن عـــبـــد المـــطـــلـــب

قال البراء: وكنا إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به. ولما رأى رســول الله ﷺ تفرق المســلمين قال: «**أي عباس، ناد أصحاب السمرة**».

فقال العباس وكان رجلاً صيتاً: يا أصحاب السمرة.

بعــد أن نادى العباس وكان جهوري الصوت نادى الناس للعودة وخص الأنصار وأصحاب الشــجرة بالنداء ثم خص بني الحارث به الخزرج بالنداء فتلاحقــو نحوه، حتى صاروا ثمانين أو مائة، فقاتلوا هوازن، وبدأوا جولة جديدة بعد أن آثار فيهم النبي ﷺ بصموده ودعوة العباس الحماسي والعزيمة والإيمان وحسن التوكل.

فنظر رســول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال: «**هذا حين حمي الوطيس**».

ثم أخذ رسول الله حصيات فرمى بهن في وجوه القوم ثم قال: «**انهزموا ورب محمد**».

قال العباس: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً.

قال: وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته.

محاولة قتل الرسول

قال شــيبة: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين ذكرت أبي وعمي قتلهما حمــزة، قلت اليوم أدرك ثأري في محمد، فجئته عن يمينه فإذا أنا بالعباس قائمــاً عليه درع بيضاء، قلت عمه لن يخذله، فجئت عن يســاره فإذا أنا بأبي بسفيان بن الحارث قلت ابن عمه لن يخذله، فجئته من خلفه فدنوت

ودنوت حتى لم يبق إلا أن أساوره سورة بالسيف فرفع إلي شواظ من النار كأنه البرق، فنكصت على عقبي القهقرى.

فالتفت رسول الله فقال: «**يا شيبة ادن**»، فدنوت، فوضع يده على صدري فاستخرج الله الشيطان من قلبي، فرفعت إليه بصري فهو أحب إلى من سمعي وبصري.

فقال لي: «**يا شيبة هكذا قاتل الكفار**»، فقاتلت معه ﷺ.

وفي رواية فمسح صدري وقال: «**اللهم أعذه من الشيطان**»، فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلي من سمعي وبصري، وأذهب الله عني ما كان، ثم قال: «**ادن فقاتل**»، فتقدمت بين يديه، ولو لقيت تلك الساعة أبي لأوقعت به السيف.

هزيمة هوازن

ولم تصمد هوازن وثقيف طويلاً في الجولة الثانية، بل فروا من الميدان وتعقبهم المسلمون بعيداً عن حنين تاركين وراءهم قتلى كثيرين وأموالاً عظيمة في الميدان.

ولم يتمكنوا من الانسحاب المنظم حتى أنهم تركوا خلفهم شراذم من الجيش تمكن المسلمون من القضاء عليها بسهولة فكانت خسارتهم في الأرواح خلال الهزيمة أعظم من خسارتهم خلال المعركة.

فقد أمر الرسول ﷺ بتعقب الفارين وقتلهم لأضعاف شوكتهم حتى لا يعودوا إلى الاجتماع والقتال.

وقد أباح سلب المشرك لقاتله، ولكنه نهى عن قتل النساء، عندما رأى امرأة مقتولة قال: «**ما كانت هذه تقاتل**».

وكذلك نهى عن قتل الذراري لما بلغه أن بعض المسلمين يقتلونهم، فلما ذكروا: إنما هم أولاد المشركين؟

قال: «**أوهل خياركم إلا أولاد المشـركين؟ والذي نفس محمد بيده مامن نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها**».

ولم يعنِّف الرسـول ﷺ أحـداً ممن فرَّ عنه، بل لما قالت له أم سـليم الأنصارية أن يقتل الطلقاء لفرارهم قال: «**إن الله قد كفى وأحسـن**». وكانت أم سليم تحمل خنجراً تدافع به عن نفسها في المعركة.

القتلى

وقد بلغ قتلى هوازن خلال المعركة اثنين وسبعين قتيلاً من بني مالك من ثقيف وحدهم، وقتيلين من الأحلاف من ثقيف لأنهم سـارعوا إلى مغادرة ميدان المعركة. وخـلال الهزيمة قُتل ثلثمائة قتيل من بني مالك فقط قتلهم المسلمون بقيادة الزبير بن العوام في أوطاس.

وقد قتل أبو طلحة وحده عشـرين رجلاً منهم وأخذ أسلابهم، كما قتل المئات من بني نصر بن معاوية ثم من بني رئاب حيث اسـتحر فيهم القتل وهم من أهم فروع هوازن.

الغنائم

وهكذا كانت خسارة هوازن وثقيف في الأرواح كبيرة فضلاً عن الجرحى، وأما السبي فقد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء معاً. ووصف الزهري كثرة السـبي بقوله: وملئت عُرُش مكة منهم، وأما الأموال فكانت أربعة آلاف أوقية فضة، وأما الإبل فكانت أربعة وعشرين ألفا، وأما الشاة فكانت أكثر من أربعين ألف شاة. وكان معهم خيل وبقر وحمير. وقد أمر الرسول ﷺ بحبس الغنائم في الجعرانة لحين عودته من حصار الطائف.

الشهداء

وقد استشهد من المسلمين أربعة منهم وإصابة عدد منهم بجروح منهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الله بن أبي أوفى، وخالد بن الوليد - رضي الله عنهم أجمعين -.

ولعل خسارتهم الطفيفة هذه في الأرواح ترجع إلى أن الجولة الأولى التي أبروا فيها كان القتال خلالها في الغالب تراشقاً بالسهام، وكان الالتحام في الجولة الثانية أكثر، لكن الدائرة كانت على هوازن وثقيف فكانت معظم إصابات المسلمين جروحاً شفوا منها.

ومما يدل على سلامة جيش المسلمين وقوته أنهم طاردوا المنهزمين في حنين إلى مسافات بعيدة، كما أنهم اتجهوا إلى حصار الطائف مباشرة دون راحة تزيل عنهم عناء وتعب هذه الموقعة الحاسمة والتي تشبه في خطورتها غزوة بدر الكبرى فإن المسلمين قدموا كل جيشهم وكذلك فعلت هوازن.

وكانت العرب والأعراب تنتظر مصير المعركة لتتخذ موقفها الأخير من الإسلام فلما هزمت هوازن أقبلت الوفود تعلن الدخول في الإسلام.

سرية أبي عامر الأشعري

لما فرغ رسول الله ﷺ من حنين عقد لواءً دفعه إلى أبي عامر الأشعري وهو عم أبي موسى الأشعري، وأمَّره على جمع من الأصحاب وبعثه في آثار من توجه قبل أوطاس من فرار هوازن، وعلى رأسهم مالك بن عوف، وأوطاس واد معروف بين حنين والطائف. فأدرك بعض المنهزمة فناوشوه القتال، فرمي أبو عامر بسهم فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ففتح الله عليه وهزمهم الله.

وفي الصحيح عن أبي موسى قال: لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصمة، فقتل دريداً وهزم الله أصحابه.

قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر فرمي أبو عامر في ركبته فانتهت إليه فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له فلحقته فلما رآني ولى فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي ألا تثبت. فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته.

ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال فانزع هذا السهم فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي أقرئ النبي ﷺ مني السلام وقل له استغفر لي.

واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيراً ثم مات.

فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وأنه قال

قل له استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه وقال: «**اللهم اغفر لعبدك أبي عامر**»، ورأيت بياض إبطيه.

ثم قال: «**اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك ومن الناس**».

فقلت: ولي فاستغفر، فقال: «**اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً**».

الغنائم

ثم أمر رسول الله ﷺ بالسبي والغنائم أن تجمع، فجمع ذلك كله وحبس بالجعرانة إلى أن فرغ من غزوة الطائف وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرون ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، وكان على الغنائم مسعود بن عمرو الغفاري.

قال ابن هشام وأنزل الله في يوم حنين ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥] الآيات.

وروي أن المسلمين أخذوا السبايا يوم حنين وأوطاس، وكانوا يتكرهون نساء السبي إذا كن ذوات أزواج، فاستفتوا في ذلك رسول الله فنزل ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] يريد ملكت أيمانهم من اللاتي سبين ولهن أزواج كفار فهن حلال للسابين والنكاح مرتفع بالسبي.

وأمر النبي ﷺ في سبايا حنين وأوطاس ألا توطأ حامل من السبي حتى تضع حملها، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة. فسألوا عن العزل فقال: «**ليس من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله أن يخلق شيئاً لم يمنعه شيء**».

الشيماء

وأخذوا في جملة السبي الشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فقالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة.

قال: «**وما علامة ذلك؟**».

قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، فعرف رسول الله العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه ودمعت عيناه، وخيرها وقال: «**إن أحببت فأقيمي عندي محببة مكرمة، وإن أحببت أمتعتك وترجعي إلى قومك فعلت**».

قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي.

فأسلمت ومتعها رسول الله وردها إلى قومها.

حليمة السعدية

وجاءته ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوم حنين أمه من الرضاعة حليمة السعدية بنت أبي ذئب من هوازن، وهي التي أرضعته حتى أكملت رضاعه، فالتفت إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه. وكان صنيعه إكراماً لها ووفاء بحقها. واختلف في إسلامها وإسلام زوجها، كما اختلف في إسلام ثويبة.

غزوة الطائف

وعد - سبحانه وتعالى - وهو الصادق الوعد رسوله ﷺ أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دينه أفواجاً، ودانت له العرب بأسرها.

فلما أتم الله - جل وعلا - الفتح المبين واقتضت حكمته أن أمسك قلوب هوازن عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله والمسلمين، ليظهر أمر الله وتمام إعزازه لرسوله ونصره لدينه ولتكون غنائمهم شكران أهل الفتح، وليظهر الله رسوله وعباده وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها؛ فلا يقاومهم بعد أحداً من العرب.

عندها كانت وجهه النبي ﷺ نحو الطائف أقرب الحواضر إلى مكة وأشدها.

هدم ذي الكفين

فبعث الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين وهو صنم من خشب لعمرو بن جمحة ليهدمه ويوافيه بالطائف.

فخرج الطفيل سريعاً فهدمه وجعل يحشوه النار ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا
ميلادنا أقدم من ميلادكا
إني حشوت النار في فؤادكا

ولما فرغ ﷺ من حنين لعشر من شوال في السنة الثامنة من الهجرة سار إلى الطائف يريد جمعاً من هوازن وثقيف قد هربوا من معركة حنين وتحصنوا بحصن الطائف، التي تمتاز بموقعها الجبلي وبأسوارها القوية وحصونها المنيعة، وليس لها منفذ سوى الأبواب التي أغلقتها ثقيف بعد

أن أدخلت من الأقوات ما يكفي لسنة كاملة، وكان استعدادهم على علم بقرب غزو النبي ﷺ بعدما هربوا من حنين.

وقدم خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ على مقدمته طليعة في ألف رجل، فسلك رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في طريقه إلى الطائف نخلة اليمانية، ثم على قرن، ثم على بحرة الرغاء من وادي لية؛ فابتنى فيها مسجداً فصلى فيه.

وأقاد فيها يومئذ بدم رجل من هذيل قتله رجل من بني ليث فقتله به وهو أول دم أقيد به في الإسلام. وأمر في طريقه بهدم حصن مالك بن عوف فهُدم.

حصار الطائف

ثم مضى حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه فضرب به عسكره، فرموا المسلمين رمياً شديداً حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحه، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً فيهم عبد الله بن أبي أمية، ورمي يومئذ عبد الله بن أبي بكر الصديق فجرح فاندمل، ثم انتقض بعد ذلك فمات منه في خلافة أبيه.

ولما رأى ﷺ كثرة الرمي وإصابة أصحابه ارتفع ﷺ من موضع الرمي إلى موضع مسجد الطائف اليوم ووضع عسكره هناك، فحاصرهم حصاراً طويلاً بضع عشرة ليلة وقيل أربعين ليلة.

ونصب عليهم المنجنيق ورماهم، وهو أول منجنيق رمي به في الإسلام، قيل أن خالد بن سعد بن العاص جاء به من جرش، وقيل أن سلمان الفارسي عمل المنجنيق بيده.

قطع النخيل

وأمر ﷺ بقطع بساتين العنب والنخيل في ضواحي الطائف وتحريقها، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً، وأراد ﷺ بذلك أضعاف معنوياتهم وادخال الرعب في قلوبهم.

ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم فقال: «**إني أدعها لله وللرحم**».

ثم نادى مناديه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا من الحصن فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم أبو بكرة واسمه نفيع بن الحارث فتسور حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقي عليها فكناه رسول الله «**أبا بكرة**» فأعتق رسول الله ﷺ من نزل منهم، ودفع كل رجل إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة، فلما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم في أولئك العبيد، فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك عتقاء الله**».

ولم يؤذن له في فتح الطائف حيث صمدت أمام الحصار، وإن كان ﷺ لم يفتح الطائف إلا أنه كسر شوكة ثقيف وجعلها في متناول يد المسلمين وأنهم متى شاءوا عادوا إليها.

العودة

فدعى ﷺ أصحابه إلى فك الحصار والعودة إلى مكة.

وقال: «**إنا قافلون غداً إن شاء الله**».

فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟

فلما رأى النبي ﷺ ذلك نزل عند رغبتهم فقال: «**اغدوا على القتال**».

فغدوا فأصابهم جراح فقال: «**إنا قافلون غداً إن شاء الله**»، فأعجبهم، فضحك النبي ﷺ.

وفقئت عين أبي سـفيان بن حرب يومئـذ، فقال له النبي ﷺ وهي في يده: «**أيهما أحب إليك عين في الجنة أو أدعو الله أن يردها عليك؟**».

قـال: عين في الجنة. ورمى بها. وشـهد اليرموك فقاتل، وفقئت عينه الأخرى يومئذ.

وقال ﷺ لأصحابه: «**قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**». فلما ارتحل قال: «**قولوا آيبون عابدون، لربنا حامدون**».

الدعاء لثقيف

ولما قيل لـه ﷺ: ادع الله على ثقيف قال: «**اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم**». وهذا من رحمته ورأفته بأمته، وقد اسـتجاب الله دعاء رسـوله لثقيف أن يهديهم ويأتي بهم، وقد حاربوه وقاتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه، وقتلوا رسوله الذي أرسله إليهم يدعوهم إلى الله، ومع هذا كله دعا لهم ولم يدع عليهم، وهذا من كمال رحمته ونصيحته.

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الطائف حتى نزل بالجعرانة وهي إلى مكة أقرب وبها قسم غنائم حنين. وفي هذا السفر أسلم صفوان بن أمية.

انتظار مجيء هوازن

واسـتأنى ﷺ بهوازن وانتظر أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة يوماً، متطلعـاً إلى قدوم هوازن عليه ودخولها في الإسـلام، ولكنها ابطأت فبدأ يقسـم الأموال؛ فقسـمها وأعطى المؤلفة قلوبهم قبل الناس، وهم سادات العرب من قريش وغيرهم من وجوه القبائل.

عطاء أبي سفيان

وروي أن أبـا سـفيان بن حرب جاء إلى النبـي ﷺ والأموال من نقود وغيره مجموعة عنده فقال: يا رسـول الله أنت اليوم أغنى قريش، فتبسم رسول الله ﷺ.

فقال أبو سـفيان: حظنا من هذه الأموال. فأمر رسـول الله ﷺ بلالاً فأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة.

فقال: حظ ابني يزيد. فأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية.

فقال أبو سـفيان: فأين حظ ابني معاويـة. فأمر له أيضاً بمائة من الإبل وأربعين أوقية حتى أخذ أبو سفيان يومئذ ثلاثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضة.

فقال أبو سـفيان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لأنت كريم في الحرب والسلم، هذا غاية الكرم جزاك الله خيراً.

حكمة توزيع الغنائم

وقـد تم توزيع غنائم حنين بصورة خفيت حكمتها على بعض الصحابة آنـذاك، حيث حظى بهذه الغنائم الطلقـاء والأعراب تأليفاً لقلوبهم لقرب عهدهم بالإسـلام، وعدم تمكن الإيمان من قلوبهم، فأعطى مائة من الإبل لـكل من عيينة بـن حصن ـ من زعماء غطفان ـ والأقرع بن حابس ـ من زعماء تميم ـ، وعلقمة بن علاثة، والعباس بن مرداس، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وأبي سـفيان بن حرب، وصفوان بن أمية ـ من زعماء قريش ـ، وقد بلغ عدد أصحاب المائة من الإبل إثني عشر رجلاً، كما ذكر خمسة آخرين أخذوا أقل من المائة من الإبل. وأعطى تسعة وعشرين رجلاً من المؤلفة قلوبهم، ذكر أن جملة العدد اثنين وخمسين رجلاً.

وقد اسـتمالت هذه الأعطيات قلوب هؤلاء الزعماء وأتباعهم فأظهروا الرضا بها، وزادتهم رغبة في الإسـلام، ثم حسـن إسلامهم جميعاً فأبلوا في الإسلام بلاءً حسناً، وخدموه بأنفسهم وأموالهم.

قال أنس بن مالك: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلّا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها.

وقد ذكر بعض المؤلفة قلوبهم أثر ذلك، فقال صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني؛ وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي.

لقد كان صفوان بن أمية من المؤلفة قلوبهم، وكان يحب أن يناله من أعطيات الرسول ﷺ فكلما أعطاه سأله المزيد، فبين له النبي ﷺ نظرة الإسلام إلى المال ووعظه، فإذا به يرغب حتى عن أخذ عطائه السنوي من بيت المال، وبهذا تجلت الحكمة في توزيع الغنائم وما أحدثته من تحول عظيم في نفوس المؤلفة قلوبهم حتى كانوا عماداً في الإنفاق في سبيل الله والجهاد لرفع رايته.

تقسيم الغنائم

وقد تأثر بعض المسلمين في بداية الأمر لعدم شمولهم بالأعطيات فبين لهم رسول الله ﷺ الحكمة في ذلك، فقال موضحاً الأمر: «**والله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إليَّ من الذي أعطي، ولكن أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير**».

وقال: «**إني لأعطي رجالاً حدثاء عهد بكفر أتألفهم**».

وقال: «**إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه؛ مخافة أن يكبه الله في النار**».

وأعطى عباس بن مرداس إبلاً فسخطها وقال شعراً:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ
ـد بين عيينة والأقرع

فـمـا كـان حـصـن ولا حـابـس
يـفـوقـان مـرداس فـي مـجـمـع
ومـا كـنـت دون امـرئٍ مـنـهـمـا
ومـن تـضـع الـيـوم لا يـرفـع

فأتم له رسول الله ﷺ مائة. وقال: «اقطعوا عني لسانه».

وممن أعطى رسول الله ﷺ عدداً دون ذلك طليق بن سفيان بن أمية ابن عبد شمس، وخالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة وهو الذي أراد أن يفتك برسول الله ﷺ.

وقال لرسول الله ﷺ قائل من أصحابه: أعطيت عيينة بن حصن والأقرع ابن حابس مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمري، فقال رسول الله ﷺ: **«أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة، ولكني تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه»**.

وجد الأنصار

وفي وسط تقسيم هذه الغنائم وكثرة الأعطيات، كان هناك موقف ونظر للأنصار؛ فقد وجدوا في أنفسهم لعدم نوالهم شيئاً من الأعطيات.

في الصحيحين عن عبد الله بن زيد أن رسول الله ﷺ لما فتح حنين قسم الغنائم فأعطى المؤلفة قلوبهم، فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس. فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فقام رسول الله ﷺ فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي، ومتفرقين فجمعكم الله بي؟»**.

وهم يقولون: الله ورسوله أمن.

فقال: **«ألا تجيبوني؟»** فقالوا: الله ورسوله أمن.

فقال: «أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذا وكذا؛ وكان الأمر من كذا وكذا» لأشياء عددها فقال: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ الأنصار شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، لو سلك الناس شعباً وادياً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم. إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقون على الحوض».

وفي رواية أنس في الصحيحين أن ناساً من الأنصار قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

قال أنس: فحدثت بذلك رسول الله، فجمعهم في قبة من أدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟».

فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

قال ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به».

قالوا: يا رسول الله قد رضينا.

فقال لهم النبي ﷺ: «ستجدون أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإني على الحوض». قالوا: سنصبر. قال أنس: فلم يصبروا.

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل.

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدَقتم ولصُدِقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أما

ترضون يا معشـر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شـعباً وسلكت الأنصار شعباً لسـلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبنـاء الأنصـار وأبناء أبناء الأنصار». قال فبكـى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً. ثم انصرف رسول الله وتفرقوا.

عدله وحلمه ﷺ

لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسـاً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسـمة، فقال رجل: والله إن هذه القسـمة ما عـدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. فأخبر النبي ﷺ بهذه المقالة، فغضب من ذلك غضبا شـديداً واحمر وجهه، ثم قال: «فمـن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله» ثم قال: «يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وفد هوازن إلى النبي ﷺ

وبعد قسـمة الغنائم قدم وفد هوازن يعلنون إسلامهم، وأتوا رسول الله ﷺ قبل أن يقسم أموالهم، وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله من الرضاعة، فسألوه أن يمنَّ عليهم بالسبي والأموال.

فقالوا: يا رسـول الله إنَّا أصل وعشـيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك.

وقـام رجل من هوازن يقال له زهير، ويكنى أبا صرد فقال: يا رسـول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا [أي أرضعنا] للحارث ابن شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين.

وفي الصحيح أن مروان بن الحكم والمسـور بن مخرمة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسـلمين فسـألوه أن يرد إليهم سبيهم وأموالهم.

فقال لهم رسـول الله ﷺ: **«معي من تـرون، وأحب الحديـث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما المال وإما السبي. وقد كنت استأنيت بكم»**.

وكـان أنظرهم رسـول الله بضـع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسـول الله غيـر راد إليهم إلا إحـدى الطائفتين قالـوا: فإنا نختار سبينا.

رد السبي

فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد؛ فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه نعطيه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل».

فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم».

فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا.

وأكمل رسول الله ﷺ بره وصلته، فسأل وفد هوازن عن رئيسهم مالك بن عوف وقال: «ما فعل مالك».

فقالوا: هو في الطائف مع ثقيف.

فقال رسول الله ﷺ: «أخبروا مالكاً إن هو أتى مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل».

فأتى مالك بذلك، فخرج إليه من الطائف فأدركه في الطريق فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، فأسلم وحسن إسلامه.

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفاً لا يخرج لهم صرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم.

موقف الأعراب

وعن جبير بن مطعم قال: بينما أنا مع رسول الله ومعه الناس مقبلاً من حنين علقت برسول الله الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت

رداءه، فوقف رسول الله ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً**» [رواه البخاري].

وروي أنه ﷺ لما أراد أن يقسم الغنائم أمر زيد بن ثابت حتى أحضر الناس، ثم عد الإبل والغنم وقسمها على الناس، فوقع في سهم كل رجل أربع من الإبل مع أربعين شاة من الغنم، وإن كان فارساً فسهمه اثنا عشر بعيراً مع مائة وعشرين من الغنم.

العمرة

ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة إلى مكة معتمراً، فلما فرغ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة، وكانت عمرته في ذي القعدة، فقدم ﷺ المدينة في بقية ذي القعدة أو في أول ذي الحجة، وحجج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه، وحج بالمسلمين تلك السنة عتاب ابن أسيد الذي استعمله رسول الله على مكة وهو ابن نيف وعشرين سنة وكان في غاية الورع والزهد، وهو أول أمير أقام الحج في الإسلام.

وكان مدة غيبته ﷺ منذ خرج من المدينة إلى فتح مكة وأوقع بهوازن وحارب الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوماً.

عروة بن مسعود

وفي هذه السنة أسلم عروة بن مسعود الثقفي، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم ما بين ذي القعدة إلى انصراف رسول الله من غزوة تبوك سنة تسع في رمضان.

وكان من حديث ثقيف أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم من الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله: «**إنهم قاتلوك**»، وعرف رسول الله أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم.

فقـــال له عروة: يا رســـول الله أنا أحب إليهم مـــن أبكارهم ويقال من أبصارهم.

وكان فيهم كذلك محبباً مجاباً مطاعاً، فخرج يدعو قومه إلى الإســـلام ورجـــا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشـــرف عليهم على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله.

فقيل له: ما ترى في دمك؟

فقـــال: كرامة أكرمني الله بهـــا وشـــهادة ســـاقهـــا الله إلـــي، فليس في إلا ما في الشـــهداء الذين قتلوا مع رســـول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم.

فذكـــروا أن رســـول الله ﷺ قال: «**مثله فـــي قومه كمثل صاحـــب يس في قومه**».

وأقامت ثقيف بعد مقتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب فبايعوا وأسلموا.

وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع؟ فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله رجلاً كما أرسلوا عروة مـــن قبل، فكلموا عبد ياليل ابن عمرو بن عمير وكان في ســـن عروة بن مســـعود وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل وخشـــي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً.

فأجمعوا أن يرســـلوا معـــه رجلين من الأحلاف وثلاثـــة من بني مالك فيكونون ستة.

وفد ثقيف

ولما قدموا إلى المدينة ضرب رسول الله ﷺ قبة عليهم في ناحية مسجده، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله حتى كتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي يكتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رســول الله حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم.

التوحيد

وقد كانوا فيما ســألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين. فأبى رسول الله ذلك.

فما برحوا يســألونه سنة سنة وهو يأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى.

وإنما يريدون في ذلك أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونساءهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام.

فأبى رســول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدمانها.

وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم.

فقال رسول الله ﷺ: «**أما كسر الأوثان بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا، فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه**».

فلما أســلموا وكتب لهم رســول الله كتابهم أمرَّ عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم ســناً، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الدين وفي الإسلام.

فقال أبو بكر الصديق: يا رسـول الله إني رأيـت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث معهم رسـول الله ﷺ أبا سـفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال: ادخل أنت على قومك.

وأقام أبو سـفيان بماله بـذي الهدم، فلما دخل المغيـرة علاها يضربها بالمعول، وقام دونه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة، وهكذا غالب أهل القبور والأصنام يخافون منها ويرهبونها.

وخرج نسـاء ثقيف حسـراً يبكين عليها، وأبو سـفيان والمغيرة يضربها بالفأس ويقول: واهاً لك؛ واهاً لك.

فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها؛ أرسل أبي سفيان مجموع حليها ومالها من الذهب والجزع إلى رسول الله ﷺ.

كعب بن زهير بين يدي النبي ﷺ

العرب أمة تحب الشعر وتقوله وترويه، وهو من أعظم وسائل الإعلام في وقتهم، وبرز شعراء في الجاهلية وفي صدر الإسلام، وكان كعب بن زهير بن أبي سُلمى المزني من الشعراء المخضرمين المرموقين، وأبوه زهير بن أبي سلمى صاحب إحدى المعلقات السبع المعروفة. وكان كعب ممن يهجو النبي ﷺ ويؤذيه بشعره الذي يطير في الآفاق وتتلقاه الركبان.

ولما قويت شوكة المسلمين وكانت لهم الهيبة والسطوة، وقدم رسول الله من الطائف كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب ناصحاً وداعياً له إلى الدخول في الإسلام. وكان بجير قد أسلم وحسن إسلامه.

كتب لأخيه يخبره أن رسول الله قتل رجالاً بمكة كانوا يهجونه ويؤذنه، وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فاذهب إلى رسول الله فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك.

وبعد مطارحة شعرية بينهما خرج كعب حتى قدم المدينة فنزل على رجل من جهينة كانت بينهما معرفة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ، ثم أشار له إلى رسول الله فقال: هذا رسول، فقم إليه واستأمنه.

فقام إلى رسول الله حتى جلس إليه فوضع يده في يده وكان رسول الله لا يعرفه.

فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير جاء ليستأمنك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟

قال رسول الله: «**نعم**».

قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

فوثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه.

فقال رسول الله: «**دعه عنك، فقد جاءنا تائباً نازعاً**».

فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير.

ثم قال قصيدته اللامية المشهورة يصف فيها محبوبته وناقته ويمدح فيها رسول الله ﷺ التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغنُّ غضيظ الطرف مكحول

وأنشد فيها وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ ويمدحه:

نبئت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
أذنب ولو كثرت في الأقاويل

ومنها:

إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش ومدح الأنصار في قصيدة أخرى.

ويقال إن رســول الله ﷺ قال له حين أنشــده بانت سعاد: «**لولا ذكرت الأنصار بخير، فإن الأنصار لذلك أهل**»، فقال كعب هذه الأبيات.

مـــن ســـره كـــرم الحـــيـــاة فـــلا يـــزل
فـــي مـــقـــنـــب مـــن صـــالحـــي الأنـــصـــار
ورثـــــوا المـــكـــارم كـــابـــراً عـــن كـــابـــر
إن الخـــيـــار هـــم بـــنـــو الأخـــيـــار

ومنها:

والـــبـــائـــعـــين نـــفـــوســـهـــم لـــنـــبـــيـــهـــم
لـــلـــمـــوت يـــوم تـــعـــانـــق وكـــرار

وقد ذكر أنه لما أنشد كعب:

إن الـــرســـول لـــنـــور يـــســـتـــضـــاء بـــه
مـــهـــنـــد مـــن ســـيـــوف الله مـــســـلـــول

رمــى عليه ﷺ بردة كانت عليه، وإن معاوية بذل له فيها عشــرة آلاف فقال كعب: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله أحداً.

في السرايا والبعوث في السنة التاسعة

بدأت راية الإسلام ترتفع وتظهر، وقد مست الحاجة إلى بعث السرايا لنشر الإسلام، ولبسط الأمن في ربوع الجزيرة العربية، وزرع الهيبة في نفوس الأعداء.

سرية عيينة

ومن تلك السرايا سرية عيينة بن حصن الفزراي إلى بني تميم، وكانت في المحرم من السنة التاسعة للهجرة، في خمسين فارساً ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، وسببها أن بني تميم كانوا قد أغروا القبائل ومنعوهم عن أداء الجزية، فكان عيينة يسير في الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء وقد سرحوا مواشيهم.

فلما رأوا الجمع هربوا، وتمكن عيينة وأصحابه من أخذ أحد عشر رجلاً، وأخذوا إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً، وأتوا بهم إلى المدينة، فأمر بهم رسول الله ﷺ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث.

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ، فنادوا: يا محمد أخرج إلينا، فخرج فتعلقوا به، وجعلوا يكلمونه، ثم مضى حتى صلى الظهر، ثم جلس في صحن المسجد، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة، وقدموا خطيبهم عطار بن حاجب فتكلم.

فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس ـ خطيب الإسلام ـ فأجابهم.

ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد مفاخراً، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت.

ولما فرغ الخطيبان والشاعران، قال الأقرع بن حابس: خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم.

سرية علي

وفي السنة التاسعة أيضاً بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى القلس وهو صنم طيء ليهدمه.

فشنوا الغارة فجراً على ديار آل حاتم فهدموه، وملؤوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم.

وكان عدي قد هرب إلى الشام ووجدوا في خزانته ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع. واستعمل على السبي أبا قتادة، وعلى الماشية والرقة عبد الله بن عتيك، وقسم الغنائم في الطريق، وعزل الصفي لرسول الله، ولم يقسم آل حاتم حتى قدم بهم المدينة.

عدي بن حاتم

وكان من أمر عدي بن حاتم ما ذكره بقوله: ما كان رجل من العرب أشد كراهة لرسول الله مني حين سمعت به، وكنت امرأً شريفاً، وكنت نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالمرباع، وكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي.

فلما سمعت برسول الله كرهته، فقلت لغلام عربي لي وكان راعياً لإبلي: لا أبالك، أعدَّ لي من إبلي أجمالاً ذللاً سماناً فاحبسها قريباً مني، فإذا سمعت بخيل محمد قد وطئت هذه البلاد فآذنّي. ففعل.

ثم إنه أتاني ذات غداة فقال: يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل

محمد فاصنعه الآن، فإني رأي رايات فسـألت عنها؛ فقالوا: هذه جيوش محمد.

قال فقلت: قرب لي أجمالـي، فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت الحق بأهل ديني من النصارى بالشام.

وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضرة، فلما قدمت الشام أقمت بها، وخالفتني خيل رسول الله فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت. فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيئ وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام.

فمر بها رسـول الله ﷺ فقالت: يا رسـول الله غـاب الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة مابي من خدمة، فمُنَّ علي مَنَّ الله عليك.

فقال: من وافدك؟ قالت عدي بن حاتم.

قال: «**الذي فر من الله ورسوله؟**».

قالت: ثم مضى رسـول الله وتركني، فلما كان من الغد مر بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس.

قالت: حتى إذا كان بعد الغد مر بي وقد يئست.

فأشـار إليَّ رجـل من خلفه أن قومي فكليميـه، فقمت إليه فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامتن عليَّ منَّ الله عليك.

قال رسـول الله: «**قد فعلـت، فلا تعجلي بخروج حتى تجـدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني**».

فسـألت عن الرجل الذي أشـار إلـيَّ أن كلميه فقيـل: علي بن أبي طالب.

فأقمت حتى قدم ركب من طيئ أو قضاعة. قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام. فجئت رسول الله فأخبرته، فكساني وحملني وأعطاني نفقة.

قــال عدي: فأتتني أختي بالشــام فقالت: لقد فعل فعلــه ما كان أبوك يفعلها، ائته راغباً أو راهباً، فقد اتاه فلان فأصاب منه وفلان فأصاب منه.

قدوم عدي

قال عدي: فأتيته وهو جالس في المســجد فقــال القوم: هذا عدي بن حاتم. وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دفعت إليه أخذ بيدي، وقد كان قبل ذلك قال: «**إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي**».

قــال فقام بي، فلقيته امرأة ومعها صبي فقالا: إن لنا إليك حاجة، فقام معهما حتى قضى حاجتهما. فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

ثــم أخذ بيدي حتى أتــى داره فألقت له الوليدة وســادة فجلس عليها وجلست بين يديه. فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إليَّ.

فقال: «**اجلس على هذه**». فقلت: بل أنت فاجلس إليها.

قال: «**بل أنت**». فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض.

قال: فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

وفي فعله ﷺ أســوة في إنــزال الناس منازلهــم وإكرامهم، رغبة في دعوتهم وهدايتهم.

ثم أن النبي ﷺ قال: «**ايه يا عدي ابن حاتم، ألم تكن ركوسياً؟**» (وهو: دين بين الصائبة والنصرانية) قال: قلت بلى.

قال: «**أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟**» (وهو: ربع مال الرعية) قال: بلى.

قال: «**فإن ذلك لم يحل لك في دينك**».

قال: قلت أجل والله. وعرفت أنه نبي مرسل يعرف ما يجهل.

من علامات النبوة

ثــم قال ﷺ: «**يا عدي، لعلك إنمــا منعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشــكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما**

يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل أن تفتح عليهم».

قال عدي: فأسلمت.

فكان يقول مضت اثنتان وبقيت الثالثة، ووالله لتكونن. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، ووالله لتكونن الثالثة ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه.

وفي رواية أحمد قال عدي بن حاتم: دخلت على رسول الله وهو يقرأ في هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال فقلت: إنهم لم يعبدوهم.

قال: **«بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»**.

ثم قال: **«يا عدي أسلم تسلم»**.

فقلت: إني من أهل دين.

قال: **«أنا أعلم بدينك منك»**.

فقلت: أنت أعلم بديني مني؟

قال: **«نعم، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟»**.

فقلت: بلى.

قال: **«فإن هذا لا يحل لك في دينك»**.

قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها.

غزوة تبوك أو العُسَرة

لا تزال ملاحم الرسول ﷺ وغزواته تتواصل نشراً لهذا الدين ورفعاً لرايته، ودعوة للدخول في دين الله، وترك الأوثان والأصنام وعبادة اللات والعزى.

ولما دانت العرب عامة بدأت الدعوة تنطلق بعيداً إلى حيث الروم وفارس وكانتا أكبر دولتين في حينها، وكان المسلمون يتوجسون خيفة من ملوك غسان حيث بلغتهم الأخبار أنهم يستعدون للإغارة على المسلمين.

وكانت الدعوة تنظر شمالاً حيث الرومان، والنبي ﷺ أرسل إلى الناس كافة، وقد أرسل ﷺ قَبلُ سفيراً يحمل رسالة الحق إلى عظيم بصرى فما كان منه إلا أن قتل من الحارث بن عمير الأزدي.

وقد ظهرت ملاحم عظيمة تجلى فيها صبر رسول الله ﷺ ومن معه وذلك في غزوة تبوك، حيث قصدوا منازلة ومقارعة أقوى قوة عسكرية في ذلك الوقت.

وقد كانت غزوة تبوك في رجب من صيف عام تسع للهجرة بعد العودة من حصار الطائف بستة أشهر تقريباً، وهي آخر غزواته ﷺ وسميت غزوة تبوك؛ غزوة العسرة لما وقع فيها من الشدة والعسر.

وتبوك موضع معروف، وهو نصف طريق المدينة إلى دمشق، وتبعد عن المدينة ما يقارب ثمان مائة كيلاً في إتجاه الشمال.

وقد عزم ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣] وتتميز هذه الغزوة وغزوة مؤتة التي سبقتها بأن وجهتها إلى الروم ونصارى العرب، في حين كانت الغزوات والسرايا الأخرى وجهتها إلى يهود والقبائل العربية المشركة.

حال النصرانية

وكانت النصرانية قد خالفت طريقها وأضاعت تعاليمها وانقسمت إلى فرق عديدة، ومنشأ الخلاف عقيدتهم في المسيح ـ عليه السلام ـ فأكثرهم يعتقد بالأقانيم الثلاثة (الأب، والابن، وروح القدس) واتحاد اللاهوت والناسوت في المسيح، وبعضهم يرى أن له طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية، وحاول هرقل التأليف بين الفرق الدينية حفاظاً على وحدة الإمبراطورية الرومانية دون جدوى، وقد أوقعت الأمبرطورية الاضطهاد بسكان الشام ومصر، مما أدى إلى نفي بعض كبار علماءهم من مصر وفرار بعضهم الآخر.

ولم يقتصر الفساد على النواحي العقدية بل امتد إلى سائر جوانب الحياة، فالظلم والاستبداد، وكثرة الضرائب وثقلها على الشعوب، والروح الطبقية التي تجعل الناس متفاوتين في المكانة بحكم المولد والانتماء للطبقة، كل ذلك كان يعشعش على البلاد، حتى إنه لم تعد ثمة فروق أساسية بين حياة النصارى والمشركين.

الجزية

وقد أمر الله ـ تعالى ـ المسلمين بجهاد أهل الكتاب كما أمرهم بجهاد المشركين، ولكنه أقر لهم لأهل الكتاب بقائهم على دينهم إذا خضعوا سياسياً للمسلمين وأدوا إليهم الجزية، خلافاً لعبدة الأوثان؛ فإنه لم يقبل منهم الجزية بل لا بد لهم من الدخول في الإسلام إذا أرادوا الأمن من القتال. قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وبغزوة تبوك دخل المسلمون مرحلة جديدة وهي قتال أهل الكتاب من النصارى بعد قضائهم على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلائهم اليهود.

وقد اتفق أن كانت غزوة تبوك في زمان عسرة من الناس، وجدب في البلاد، وشدة الحر، كما كانت في وقت طابت فيه الثمار، وقد أخبر ﷺ بمقصده لبُعد الشُقَّة ولشدة العدو، وليأخذ الناس عدتهم.

وحث رسول الله ﷺ على البذل والإنفاق في سبيل الله فقال عليه الصلاة والسلام: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**» [رواه البخاري].

فسارع الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، إلى البذل والعطاء، كلٌّ بحسبه ومقدرته.

نفقة أبو بكر

فجاء أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ بكل ماله وهو أربعة الآف درهم، فقال له الرسول ﷺ: «**هل أبقيت لأهلك شيء؟**» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.

بذل الصحابة

وجاء عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بنصف ماله.

نفقة عثمان

وقدم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها.

وجاء كذلك بألف دينار فصبها في حجر النبي ﷺ فجعل يقلبها ويقول: «**اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض**» ويقول: «**ما على عثمان ما عمل بعد اليوم**» [رواه أحمد].

وجاء عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ بمائة أوقية من ذهب، وجاء العباس وطلحة بمال كثير.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله، لتجهيز جيش العسرة، وأن عمر تصدق بمائة أوقية.

لمز المنافقين

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء، ولذلك تعرضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين. فقد جاء أبو عقيل بنصف صاع من تمر، وجاء صحابي آخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩].

وهذا ديدن المنافقين لا يتركون من كثرت نفقته أو من قلت. فيتهمون الأغنياء بالرياء، ويسخرون من صدقة الفقراء.

تصدق بعرضه

ومن حرص المسلمين على الصدقة وبذلها، ما روي أن غلبة بن زيد بن حارثة عندما لم يجد ما يتصدق به، جاء إلى الرسول ﷺ فقال: اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك، فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى أين المتصدق بعرضه البارحة، فقام غلبة، فقال الرسول ﷺ: **«وقد قبلت صدقتك»**.

موقف المنافقين

وقد استعلن أمر النفاق في هذه الغزوة، وقام المنافقون بتخذيل الناس وفت عضدهم وتثبيط قواهم، وقالوا ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١].

فقد كان الحر شديداً، وكان الناس يفيئون إلى ظلال الأشجار وقد طابت الثمار. حتى ذهب بعضهم إلى النبي ﷺ يستأذنه بالتخلف مبدياً الأعذار.

قال ـ تعالى ـ داعياً إلى النصرة والنفرة في سبيله، ومحذراً من التراخي والتكاسل والركون. : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨].

ذكر مجاهد أنها نزلت في غزوة تبوك؛ حيث أمروا بالنفير حين جني التمر، وطيب الثمار، واشتهاء الظلال، فشق عليهم الخروج.

وكان المنافقون يثبطون العزائم ويوهنون قوى المسلمين، ويقولون: يغزو محمد بني الأصفر ـ أي الروم ـ أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب.

وقد أمر الله ـ عز وجل ـ جموع المسلمين بأن ينفروا شباناً وشيوخاً وأغنياء وفقراء، بقوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة: ٤١].

ولما استأذن بعضهم في التخلف عن الغزوة نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [التوبة: ٤٢].

وكانت غزوة تبوك بعيدة عن المدينة والسفر إليها شاقاً، ولم تكن غنيمة سهلة. فتخلف الأعراب والمنافقون وعدد يسير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من أصحاب الأعذار سوى ثلاثة لم يكن لهم عذر عن شهود هذه الغزوة.

الإعلان عن الغزوة

ونظراً لبعد السفر ومشقة الطريق وكثرة الأعداء؛ فقد كشف الرسول ﷺ للمسلمين عن وجهته ليستعدوا لذلك خلافاً لنهجه في الغزوات الأخرى

فإنه لا يعلن وجهته حتى لا يصل الخبر إلى عدوه فيأخذوا أهبتهم.

وقد سارع المؤمنون إلى الخروج في هذه الغزوة، حتى إذا طلب الرسول ﷺ من علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن يخلفه في أهله، قال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال له الرسول ﷺ: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»**.

وهكذا شأن أصحاب العقيدة لا يفرحون بالثمار والظلال بل يؤثرون الحر والظمأ والجوع في سبيل الله، فذلك خيرٌ لهم وأبقى.

كن أبا خثيمة

قال أبو خثيمة الأنصاري: تخلفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطاً فرأيت عريشاً قد رش بالماء، ورأيت زوجتي فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السموم والحرور وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي: **«كن أبا خيثمة»** فجئت، فدعا لي.

البكائين

وكان الصحابي غلبة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ واحداً من سبعة رجال من المؤمنين عرفوا بـ «البكائين»، أتوا رسول الله ﷺ يطلبون منه ما يخرجون عليه معه في هذه الغزوة، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

وأرسل جماعة من الأشعريين أبا موسى الأشعري إلى الرسول ﷺ يطلبون منه ما يركبونه، فلم يحصل لهم منه على شيء، فعاد إليهم حزيناً.

وبعد برهة أرسل الرسول ﷺ بلالاً إلى أبي موسى، فجاءه، فأعطاه ستة أبعرة ابتاعهن من سعد ليركبها مع أصحابه الأشعريين، وفي رواية أنه أعطاهم خمس ذَوْد عندما أتي بِنَهْب إبل.

وذكرت بعض الروايات أنه نزل في البكائين والأشعريين قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

تلك صور مؤثرة للرغبة في الجهاد على عهد الرسول ﷺ، وما كان يحسه صادقوا الإيمان من ألم إذا ما حالت قلة اليد بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين، وهم الذين عناهم الرسول ﷺ وخصهم ممن حسنت نياتهم واستقامت طويتهم عندما قال: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**».

قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟!

قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**» [رواه البخاري] وفي هذا فضل النية الحسنة مع عدم القدرة.

وقد حكى كعب بن مالك أنه لم يبق بالمدينة إلا المنافقون وأهل الأعذار من الضعفاء.

المسارعة إلى الخير

وهكذا تسابق الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في الانفاق والبذل والعطاء.

فخرج رسول الله ﷺ يوم الخميس في جيش كثيف يزيد عن الثلاثين ألفاً،

يتقدمهم عشرة الآف فارس، وهو أكبر جيش قاده الرسول ﷺ في حياته، وهـذا العدد الكبير يدل على استجابة المؤمنين لدواعي العقيدة في تلك الظروف القاسية حيث نالهم الجهد الشديد والحر وقلة الزاد والمركب، وقلة المؤنة حتى كان الرجلان يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها.

الجوع والمشقة

أما الظهر فكان كل ثمانية عشر رجلاً يتعقبون بعيراً واحداً، وأكل الناس أوراق الشجر حتى تورم شفاههم، وذبحوا البعير ليشربوا ما في كرشة من الماء؛ لما وجدوه من شدة العطش مع بعد المسافة وهي تقارب الثمان مائة كيلاً، مع طول المشقة وشدة الحر.

ومع كثرة إنفاق الصحابة وبذلهم الكثير من أموالهم إلا أنها كانت قليلة مقارنة بعدد الجيش الذي تجاوز ثلاثين ألف مقاتل. فكانت لديهم قلة ونقص. مع ما أصابهم من قلة المياه وهم سائرون في طريقهم.

وعلى الرغم من كل تلك الظروف المحيطة بتلك الغزوة سار الجيش على بركة الله، وأعطى ﷺ لواءه الأعظم أبا بكر الصديق.

وفرق ـ عليه الصلاة والسلام ـ الرايات، فأعطى الزبير راية المهاجرين، وأسيد بن حُضير، والحباب بن المنذر راية الخزرج.

ولما مرّ الجيش بالحجر ـ وهي ديار ثمود ـ قال ﷺ لأصحابه: **«لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلا وأنتم باكون»** ليشعر قلوبهم رهبة الله وعظمته؛ ثم غطى رسول الله ﷺ رأسه حتى أجازوا الوادي.

العطش

وأصيب المسلمون بشح وقلة في الماء حتى عطشوا عطشاً شديداً كادت تتقطع منه رقابهم، وكان الرجل منهم ينحر بعيره فيعتصر مافي كرشه من

ماء فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده.

وفي هذه الحالة والشدة قال أبو بكر: يا رسول الله إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا.

فرفع ﷺ يديه نحو السماء، فلم يرجعهما حتى أمطرت السماء، فشربوا وملأوا ما معهم، ثم ذهبوا فنظروا فلم يجدوها جاوزت العسكر.

صلح صاحب أيلة

سار الجيش الإسلامي مسيرته المباركة حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك، بعد طول طريق ومشقة سفر، فأقام بها بضع عشرة ليلة، وقيل عشرين ليلة.

وفي مسند أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ: إني مسلم، فقال النبي: «**كذب وهو على نصرانيته**».

وجاء إلى النبي ﷺ صاحب أيلة، فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح ـ وهما بلدين بالشام بينهما ثلاثة أيام ـ فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله كتاباً.

من المعجزات

ونزل ﷺ بتبوك في زمان قد قلَّ ماؤها فيه، فاغترف رسول الله بيده غرفة من ماء فمضمض بها ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت.

وفي صحيح مسلم عن معاذ أنه ﷺ قال قبل وصوله إليها: «**إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي**».

قال فجئنا وقد سبق إليها رجلان والعين تبض بشيء من مائها، فسألهما رسول الله: «**هل مسستما من مائها شيئاً؟**».

قالا: نعم. وقال لهما ما شـــاء أن يقول. ثم غرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع الوشـــل، ثم غسل رســـول الله فيه وجهه ويده ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس.

ثم قال رســـول الله ﷺ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك الحياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً».

ثـــم خطب الناس في تبوك، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله. وأوثق العرى كلمة التقوى. وخير الملل ملة إبراهيم. وخير الســـنن سنة محمد. وأشرف الحديث ذكر الله. وأحسن القصص هذا القرآن. وخير الأمور عوارفها. وشر الأمور محدثاتها. وأحسن الهدى هدى الأنبياء. وأشـــرف الموت قتل الشـــهداء. وأعمى العمى الضلالة بعد الهـــدى. وخير الأعمال مـــا نفـــع. وخير الهدى ما اتبع. وشـــر العمى عمى القلب. واليـــد العليا خير من اليد الســـفلى. وما قل وكفى خير مما كثر وألهى. وشـــر المعذرة حين يحضر الموت. وشر الندامـــة يوم القيامة. ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبراً، ومن الناس من لا يذكر الله إلا هجرا. ومن أعظم الخطايا اللســـان الكذوب. وخير الغنى غنى النفس، وخير الـــزاد التقوى. ورأس الحكمة مخافـــة الله. وخير ما وقر في القلب اليقين. والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية. والغلول من حر جهنم، والسكر كي من النار. والشـــعر من إبليس. والخمر جماع الإثم، وشر المآكل مال اليتيم. والسعيد من وعظ بغيره، والشـــقي من شـــقي في بطن أمه. وإنما يصير أحدكـــم إلا موضع أربعة أذرع، والأمر إلى آخره. وملاك العمل خواتمه. وشـــر الروايا روايا الكذب. وكل ما هو آت قريب، وســـباب المسلم فســـوق، وقتله كفر. وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمـــة دمه، ومن يتأل على الله يكذبه. ومن يغفر يغفر له، ومن يعف يعف الله عنه، ومـــن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله. ومن يبتغ الســـمعة يسمع الله به، ومن يتصبر يغفر الله له. ومن يعص الله يعذبه». ثم استغفر ثلاثاً.

وكانت هذه الخطبة نسائم نبوية، منحت المسلمين دفعة معنوية وهمة عالية، نسوا ما أصابهم في طريقهم وما نالهم من تعب في مسيرهم، واستعدوا للقاء العدو الذي أرعبه مسير المسلمين وقوتهم وكثرتهم.

إلى دومة الجندل

وبعث رسول الله خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر ابن عبد الملك من كندة، وكان ملكاً عليها وكان نصرانياً بدومة الجندل وهي حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيء.

فقال خالد: يا رسول الله كيف لي به وسط بلاد كلب وأنمار، وأنا في أناس يسير؟ فقال رسول الله: «**ستلقاه يصيد الوحش**» أو قال «**البقر فتأخذه**».

فخرج خالد ومن معه فلما بلغ خالد قريباً من حصنه بمنظر العين وكانت ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له في الحصن معه امرأته، فباتت البقر تحك بقرونها باب الحصن، وأشرفت امرأته على باب الحصن فقالت: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله.

قالت: فمن يترك هذه الليلة؟ قال: لا أحد.

فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته ومعه أخوه حسان فخرجوا من حصنهم بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان فقاتل حتى قتل، وهرب من كان معه ودخل الحصن، وكان على أكيدر قباء مخوض بالذهب فاستلبه خالد وبعث به إلى رسول الله قبل قدومه به عليه.

المناديل

وفي الصحيح عن أنس قال: رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله فجعل المسلمون يلمسونه ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: **«أتعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا»**.

وقال خالد لأكيدر: هل لك على أن أجيرك من القتل حتى آتي بك رسول الله على أن تفتح دومة الجندل؟ قال: نعم ذلك لك.

فلما صالح خالد أكيدراً وهو في وثاق، ومضاد أخو أكيدر في الحصن، أبى مضاد أن يفتح باب الحصن لما رأى أخاه في الوثاق، فطلب أكيدر من خالد أن يصالحه على شيء حتى يفتح له باب الحصن وينطلق به وبأخيه إلى رسول الله ﷺ فيحكم فيهم بما شاء.

فرضي خالد بذلك فصالحه أكيدر على ألفي بعير وثلاثمائة فرس، وأربعمائة درع وأربعمائة رمح.

ففعل خالد وخلى سبيله، ففتح له باب الحصن فدخله وحقن دمه ودم أخيه، فانطلق بهما، فلما قدم بهما إلى رسول الله ﷺ صالحه على الجزية وخلى سبيلهما، وكتب لهما كتاب إمارة.

ومات نصرانياً لأنه بعد المصالحة عاد إلى حصنه وبقي فيه فحاصره خالد زمن أبي بكر فقتله مشركاً بنقضه العهد.

احداثٌ في غزوة تبوك

عندما وصل جيش المسلمين تبوك لم يجد أحداً هنالك، لأن الروم لما بلغهم مسير هذا الجيش الذي يؤثر الموت على الحياة آثروا الإنسحاب إلى بلاد الشام ليتحصنوا بحصونها.

عندها شاور رسول الله أصحابه في التقدم والمسير إلى الروم.

قال عمر: إن كنت أمرت بالمسير فسر.

فقال رسول الله: «**لو أمرت ما استشرتكم فيه**».

فقال عمر: يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت وأفزعهم دنوك، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك في ذلك أمراً عظيماً.

فانصرف رسول الله قافلاً إلى المدينة، ولم يلق كيداً، وكان ﷺ قد مكث عشرين يوماً في تبوك.

مكيدة المنافقين

وفي مرجعه ﷺ من تبوك هَّم المنافقون بالفتك به فعصمه الله منهم.

قال حذيفة: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، فأنبهت رسول الله فصرخ فيهم فولوا مدبرين.

فقال رسول الله: «**هل عرفتم القوم؟**».

قلنا: يا رسول الله قد كانوا متلثمين، ولكن عرفنا الركاب.

قال: «**هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة**».

قال: «هل تدرون ما أرادوا؟».

قلنا: لا.

قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة فيقتلوه بها».

قلنا: يا رسول الله ألا تبعث لعشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟

قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب أن محمداً قاتل بالقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم. اللهم ارمهم بالدبيلة».

قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة؟

قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك».

موت ذي البجادين

ومما وقع في غزوة تبوك ما ذكره عبد الله ابن مسعود بقوله: قمت من جوف الليل في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها فإذا رسول الله وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله في حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: «أدليا لي أخاكما»، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه، قال: «اللهم إني أمسيت راضياً عنه فارض عنه».

فقال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة.

وإنما سمي ذا البجادين لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره، [والبجاد: الكساء الغليظ]. فهرب منهم إلى رسول الله، فلما كان قريباً منه شق بجاده باثنتين فاتزر بواحدة واشتمل بالأخرى، ثم أتى رسول الله فقيل له ذا البجادين.

هدم مسجد الضرار

كان أبو عامر الراهب ممن حمل لواء العداوة لرسول الله ﷺ من أول يوم قدم فيه المدينة، وقد دعاه رسول الله ﷺ، وقرأ عليه القرآن فأبى.

وكان يُسمى من قبل بالراهب لتنصره وترهبه في الجاهلية، فلما أبدى عداوته لله ورسوله، قال النبي ﷺ: «**لا تقولوا الراهب، بل قولوا الفاسق**». وقد دعا عليه النبي ﷺ أن يموت طرديا، فأصابته الدعوة.

وكان ممن ألب قريشاً على المسلمين في أحد، وحفر الحفائر في أرض المعركة كي يقع فيها المسلمون. وقد وقع في أحدى هذه الحفر رسول الله ﷺ.

ولم يَكُفْ عن محاربة الرسول بعد أحد، بل فر إلى هرقل ملك الروم ينتصر به ويستعديه على المسلمين، فوعده ومناه وأقام عنده.

فما كان منه إلا أن كتب إلى جماعة من المنافقين بالمدينة يخبرهم الأمر وأنه قادم بجيش لقتال رسول الله ﷺ. وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لتبليغ كتبه، ويكون مرصداً لهم إذا قدم عليهم بعد ذلك.

ثم أن النبي ﷺ لما أقبل من تبوك ونزل بذي أوان وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، فإذا بخبر مسجد الضرار يأتيه من السماء.

قال ابن عباس في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبة: ١٠٧] هم ناس من الأنصار ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك

الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه.

فلما فرغوا من مسجدهم أتوا رسول الله وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه.

فقال رسول الله: «**إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله أتينا فصلينا لكم فيه**».

فلما انصرف رسول الله من تبوك ونزل بذي أوان أتاه المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن وأخبره الله ـ تعالى ـ خبرهم وما هموا به، فدعا رسول الله مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، فقال لهم: «**انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه**».

فخرجوا سراعاً حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار من أهلي.

فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً، ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد فحرقوه وهدموه وتفرق أهله عنه.

فأنزل الله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٨ـ ١١٠].

دخول المدينة

ولما دنا رسول الله ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقيه وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن ويرددن:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

فلما أشرف على المدينة قال: «**هذه طابة، وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه**».

ولما دخل ﷺ المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس، فجاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل رسول الله منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

وقد حققت هذه الغزوة أهدافها بتوطيد سلطان الإسلام في الأقسام الشمالية من شبة الجزيرة العربية، وكانت بمثابة التمهيد لفتوح بلاد الشام، حيث أن الرسول ﷺ كان قد جهز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة قبيل وفاته للتوجه إلى الشام. فسيره الصديق ـ رضي الله عنه ـ بعد مبايعته خليفة لرسول الله ﷺ.

المتخلفون عن غزوة تبوك

وقد تخلف عن غزوة تبوك ثلاثة من الصحابة وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفي، والثلاثة من الأنصار المعروفين بحسن إيمانهم.

فقد شهد كعب بن مالك سائر الغزوات قبلها سوى بدر، كما شهد بيعة العقبة الثانية، وقد سوَّف في الاستعداد للغزو ولم يكن يعتزم التخلف عنه، ولكن غلبه التسويف، والميل إلى الظلال والثمار حتى خرج الناس.

وأما مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية فكلاهما قد شهد بدراً، كما تخلف عنه بضعة وثمانون رجلاً آخرون.

وقد ذُكر أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضاً اثنين وثمانين رجلاً من بني غفار وغيرهم، وأن عبد الله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عدداً كثيراً. وكان من يتخلف يظن أن لا أحد يفطن لتخلفه لكثرة الجيش.

وقد تفقد الرسول ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك بعض من تخلف وسأل أبارَهَم كلثوم بن حصين الغفاري عمن تخلف من بني غفار وأسلم، كما سأل في تبوك عن كعب بن مالك.

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ في سورة التوبة تفصيل موقف المتخلفين، فأنكر عليهم التخلف عن النفير العام حيث تحول الجهاد بذلك إلى فرض عين، ثم أعلنت قبول توبتهم وأخذ صدقات أموالهم بعد اعترافهم بذنوبهم في التخلف عن الغزوة وطلبهم قبول صدقاتهم منهم.

وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من غير شك ولا نفاقهم وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأمر رسول الله أصحابه أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة.

قصة كعب

وكعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ صحابي جليل أحد الثلاثة، وقد جرت له قصة طويلة ذكرها بقوله: ما تخلفت عن رسول الله في غزوة

غزاها قط، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر، وكان غزوة بدر لم يعاتب أحد تخلف عنها، وذلك أن رســول الله إنما خرج يريد عير قريش، فجمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد.

ولقد شــهدت مع رســول الله ﷺ العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشــهد بدر، وإن كانت غــزوة بدر أذكر في الناس منها. وكان من خبري حين تخلفت عنه في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه تلك الغزوة، والله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة.

وكان رســول الله قلَّ ما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل عدواً كثيراً فجلــى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلــك أهبته. وأخبرهم بوجهه الذي يريده، والمسلمون مع رسول الله كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ.

وغزا رســول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وجعلت أغدو لأتجهز معه فأرجع ولم أقض شــيئاً فأقول في نفســي: أنا قادر على ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شــمر بالناس الجد وأصبح رسول الله غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً.

فقلــت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحق بهــم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهــز فرجعت فلم أقض شــيئاً، ثم غدوت ورجعت ولم أقض شــيئاً، فلم يزال ذلك يتمادى بي حتى أســرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت ولم أفعل.

سؤال النبي

وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسـول الله ﷺ فطفت فيهم يحزنني أن لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه بالنفاق، أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء.

ولـم يذكرني رسـول الله حتى بلغ تبوك. فقال وهـو جالس في القوم بتبوك: «**مافعل كعب بن مالك؟**».

فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه.

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسـول الله ما علمنا منه إلا خيراً، فسكت رسول الله.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ توجه قافلاً حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بمّ أخرج من سـخطة رسول الله غداً؟ وأستفتي على ذلك كل ذي رأي من أهلي.

فلما قيل لي إن رسول الله قد قفل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه، وأصبح رسول الله قادماً إلى المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس.

فلمـا فعل ذلك جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل رسـول الله علانيتهم وبايعهم واسـتغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فسلمت عليه، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال: «**تعال**». فجئت أمشي حتى جلست بين يديه.

فقال: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**».

فقلت: بلي إني والله لو جلسـت عند غيرك مـن أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سـخطه بعذر، ولقـد أعطيتُ جدلاً، ولكـن والله قد علمت

لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علـيّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت.

فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**».

وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لـي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر به المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي.

ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان؛ قالوا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدراً فيهما أسوة. فمضيت حين ذكروهما لي.

النهي عن الحديث معهم

ونهى رسول الله المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدوا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، وكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف الأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟

ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبلي إليّ، فإذا التفت نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام.

فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت. فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته.

فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

فتنة أخرى

وتوالت الفتن على كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا أواسيك.

فقلت لما قرأتها، وهذا أيضاً من البلاء. وقد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجل من أهل الشرك. فتيممت بها التنور فسجرته بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول لرسول الله فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك.

فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربنها.

وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك. فقلت لأمراتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله فيَّ هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله إن هـــلال بن أمية شـــيخ ضائع ليس له خـــادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا يقربنك.

قالت: إنه والله ما به حراك إلى شـــيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان لي يومه هذا.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه.

فقلت: والله لا أســـتاذن فيها رسول الله وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

فلبثـــت بعد ذلك عشـــر ليالي حتى كملت خمســـين ليلة من حين نهى رسول الله عن كلامنا.

البشارة

فلما صليت الفجر صبح خمســـين ليلـــة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليَّ نفســـي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت.

وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر ســـطح فكنت أكون فيها. إذ ســـمعت صـــوت صارخ على جبل ســـلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشـــر، فخررت ساجداً، وعرفت أنه قد جاء الفرج.

قال: وآذن رســـول الله بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون.

وركض رجل إليَّ فرساً، وسعي ساع من أسلم حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس.

فلما جاء الذي سـمعت صوته يبشـرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يؤمئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت إلى رسـول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجـاً فوجاً يهنئوني بالتوبة يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله جالس وحوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، ووالله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

فلما سـلمت على رسول الله، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**».

قال قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

قال: «**لا بل من عند الله**» وكان رسـول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

فلما جلسـت بين يديه قلت: يا رسـول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله.

قال رسول الله: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك**».

قلت: فإني أمسكت سهمي الذي بخيبر.

الصدق منجاة

فقلت يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسـلمين ابتلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسـول الله أحسـن ما ابتلاني، وما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسـول الله إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

وأنــزل الله علــى رســوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩].

قال كعــب: فوالله ما أنعم الله عليَّ نعمة قط بعد أن هداني للإســلام أعظم في نفســي من صدقي رســول الله يومئذ أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلــك الذين كذبوا، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شــر ما قال لأحد، فقــال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥].

قال كعب: وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١٨] وليس الــذي ذكر الله من تخلفنا عن الغــزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

هذه قصة كعب كما ذكرها ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

ولا شــك أن الصدق محمدةٌ ومنجاة. وفــي الحديث الذي رواه الإمام البخاري أنه ﷺ قال: **«إن الصدق يهدي إلى البرِّ، وأن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجــل ليصدق حتــى يُكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهــدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً»**.

عــام الوفود

كان فتح مكة علامة بارزة في الإســـلام، حيث دخل الناس في دين الله أفواجاً.

وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله، وذلك أن قريشـــاً كانوا إمام الناس وهاديهـــم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إســـماعيل بن إبراهيم، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت قريش عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ، فدخلوا في دين الله أفواجاً.

وكل يوم تطلع فيه الشمس تزداد أعداد المسلمين، ففي غزوة الفتح كانت عدد المسلمين عشرة الآف، ثم هو يتجاوز الثلاثين ألفاً في غزوة تبوك، ثم هـــو ﷺ يأمه أكثر من مائة ألف أو يزيدون في حجة الوداع، وما بين تلك المشاهد إلا سنوات قليلة معدودة.

ولما افتتح رســـول الله مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

وقد كان ابتداء الوفود بعد رجوعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الجعرانة آخر سنة ثمان وما بعدها. حتى سمي العام التاسع بعام الوفود.

حيث ابتـــدأت وفود القبائل العربية تقدم من أنحاء الجزيرة العربية راغبة في الدخول في الإسلام، وقد بلغوا المائة أو يزيدون. نذكر بعضاً منهم:

وفد بني عامر

قدم عليه ﷺ وفد بنـــي عامر بن صعصعة وفيهم عامر بن الطفيل عدو

الله، وأربد بن قيس أخو لبيد الشاعر لأمه، وخالد بن جعفر، وجبار بن أسلم بن مالك، وكان هؤلاء النفر الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم، فأقبل عدو الله عامر وأربد يريدان أن يغدرا برسول الله.

فقيل يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك.

فقال رسول الله ﷺ: **«دعوه إن يرد الله به خيراً يهده»**.

فأقبل حتى قام عليه فاستشرف الناس لجمال عامر، وكان من أجمل الناس.

فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟

قال: **«لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم»**.

فقال: تجعل الأمر لي بعدك؟

قال: **«ليس ذلك إلي، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء»**.

قال: فاجعلني على الوبر وأنت على المدر. قال: **«لا»**.

قال: فماذا تجعل لي؟

قال: **«أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها»**.

قال: وليس ذلك إليَّ اليوم؟

وكان عامر قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فأنا شاغل عنك وجهه فإذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف، فدار أربد ليضربه فاخترط من سيفه شبراً ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله فعصم الله نبيه.

فالتفت رسول الله فرأى أربد ما يصنع بسيفه فقال: **«اللهم اكفنيهما بما شئت»**.

فلما خرجوا من عند رسول الله قال عامر لأربد: أين ما أمرتك به؟

قال: ويحك والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا وحلت بيني وبينه، أفأضربك بالسيف؟

ثم أن الله ـ عز وجل ـ أرسل على أربد وجمله صاعقة فأحرقته.

وفد عبد القيس

وقدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، وهي قبيلة كبيرة، منهم الأشج العصري الذي قال فيه النبي ﷺ: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**».

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن وفد عبد القيس قدموا، فقال رسول الله: «**ممن القوم؟**» قالوا: من ربيعة.

قال: «**مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى**».

وفد بني حنيفة

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني حنيفة وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلمة الكذاب. وقد خلفوه في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا له مكانه فقالوا: يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا.

فأمر له رسول الله بما أمر به للقوم وقال: «**أما أنه ليس بشركم مكاناً**».

ثم انصرفوا وجاؤوه بالذي أعطاه، فلما قدم اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وقال: إني أشركت في الأمر معه، ألم يقل لكم حين ذكرتموني: «**إنه ليس بشركم مكاناً**».

ثم جعل يسجع السجعات، ووضع عنهم الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله أنه نبي. فأصفقت وأجتمعت معه بنو حنيفة على ذلك.

وقد كان كتب لرسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله؛ أما بعد فإني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، وليس قريش قوماً يعدلون. فقدم عليه رسوله بهذا الكتاب، فكتب إليه رسول الله: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة**

الكـذاب، سـلام على من اتبع الهـدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشـاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: لما قدم مسـيلمة الكذاب على عهد رسول الله فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته. وقدمها في بشـر كثير من قومه، فأقبل النبي ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شـماس وفـي يد النبي ﷺ قطعة من جريد حتى وقف على مسـيلمة في أصحابه فقال: **«إن سـألتني هذه القطعة مـا أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنـك الله، وإنـي أراك الـذي رأيت فيه مـا رأيت، وهذا ثابت بـن قيس يجيبك عني»**. ثم انصرف.

قال ابن عباس فسـألت عن قول رسول الله ﷺ: **«وإن أراك الذي رأيت فيـه ما رأيت»**، فأخبرني أبـو هريرة أن النبي ﷺ قال: **«بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما، فأوحى إلي في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطـارا، فأولتهما كذابـين يخرجان من بعـدي: أحدهما العنسـي صاحب صنعاء، والآخر صاحب اليمامة»**. أما الأسـود العنسـي فقد قتل قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة. ومسيلمة قتل في خلافة الصديق - رضي الله عنه -.

وفد طيء

وقـدم وفد طيء على النبي ﷺ وفيهم زيد الخيل وهو سـيدهم، فلما انتهوا إليه كلمهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم.

وقال ﷺ: **«ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيـه، إلا زيـد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه»**، ثم سـماه «زيد الخير» وأقطعه فيدا وأرضين معه وكتب له بذلك.

وخرج من عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله: **«إن ينج زيد من حمى المدينة فإنه...»** فلما انتهى إلى ماء من مياه نجد يقال له قردة، أصابته الحمى فمات.

وفد كنده

وقدم على رسول الله ﷺ وفد كندة سنة عشر للهجرة. في ثمانين أو ستين راكباً من كندة فيهم الأشعث بن قيس، فدخلوا عليه مسجده وقد رجلوا جممهم وتكحلوا، وعليهم الحبرات مكفوفة بالحرير، فلما دخلوا قال رسول الله ﷺ: «**أولم تسلموا؟**» قالوا: بلى. قال: «**فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟**» فشقوه ونزعوه فألقوه.

وفد زبيد

وقدم عمرو بن معدي كرب على رسول الله ﷺ في أناس من زبيد فأسلم، ثم رجع إلى قومه فأقام فيهم وعليهم فروة بن مسيك، فلما توفي رسول الله ارتد عمرو بن معدي كرب، ثم رجع إلى الإسلام، وقتل في قتال العجم زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ.

وفد الأشعريين

وقدم على رسول الله ﷺ الأشعريون وأهل اليمن، قال ﷺ: «**يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوباً**».

فقدم الأشعريون فجعلوا يرتجزون:

غداً نلقى الأحبة
محمداً وحزبه

ولمسلم عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة وأضعف قلوباً. والإيمان يمان والحكمة يمانية، والسكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدادين من أهل الوبر قبل مطلع الشمس**».

وفد الأزد

وقدم على رسول الله وفد من الأزد، وفيهم صرد بن عبد الله الأزدي فأسلم وحسن إسلامه، فأمَّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه،

وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن، فخرج يسير بأمر رسول الله حتى نزل بجرش وهي يومئذ مدينة مغلقة وبها قبائل من قبائل العرب. وقد ضوت إليهم خثعم فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم فحاصروهم فيها قريباً من شهر وامتنعوا فيها، فرجع عنهم قافلاً حتى إذا كان في جبل لهم يقال له: شكر، ظن أهل جرش أنه إنما ولى عنهم منهزماً فخرجوا في طلبه حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً شديداً.

وقد كان أهل جرش بعثوا إلى رسول الله ﷺ رجلين منهم يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشية بعد العصر إذ قال رسول الله: **«بأي بلاد الله شكر؟»**.

فقام الجرشيان فقالا: يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كشر، وكذلك يسميه أهل جرش.

فقال: **«إنه ليس بكشر ولكنه شكر»**.

قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: **«إن بدن الله لتنحر عنده الآن»**.

قال: فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو إلى عثمان فقال لهما: ويحكما إن رسول الله ﷺ لينعى لكما قومكما، فقوما فاسألاه أن يرفع الله عن قومكما. فقاما إليه فسألاه ذلك فقال: **«اللهم ارفع عنهم»**. فخرجا من عند رسول الله راجعين إلى قومهما فوجدا قومهما قد أصيبوا في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر، فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم.

وفد بني الحارث

وقــدم وفد بني الحارث بن كعب. حيــث أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إليهم في شــهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى ســنة عشــر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإســلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم.

فخــرج خالد حتى قدم عليهــم فبعث الركبان يضربــون في كل وجه ويدعون إلى الإســلام ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا. فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه. فقام خالد بن الوليد يعلمهم الإســلام، وكتب إلى رسول الله بذلك، فكتب له رسول الله أن أقبل ويقبل معك وفدهم.

فأقبــل وأقبل معه وفدهم، فيهم قيس بن الحصين ذي الغصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قراد، و شداد بن عبد الله.

وقال لهم رسول الله ﷺ: «**بم كنتم تغلبون من قاتلتم في الجاهلية؟**» قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق، ولا نبدأ أحداً بظلم.

قال: «**صدقتــم**». وأمَّر عليهم قيس بن الحصين فرجعوا إلى قومهم فلم يمكثوا إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ﷺ.

وفد مزينة

وقدم وفد مزينة على رسول الله ﷺ. قال النعمان بن مقرن: قدمنا على رسول الله ﷺ أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال: «**يا عمر زود القوم**». فقال: ما عندي إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعاً.

قال: «**انطلق فزودهم**». قال: فانطلق بهم عمر فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلــى علية، فلما دخلنا إذا فيه من التمــر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم.

قــال النعمان: وكنت في آخر مــن خرج، فنظرت وما أفقد موضع تمرة من مكانها.

وفد بني سعد

وفد بني ســعد.. قصة أمة في رجل، فقد ذكر أصحاب الســير قصة أرخت في صدر الإســلام، وجرت أحداثها في العهــد النبوي، وتراءت مشاهدها على ثرى المدينة النبوية؛ حيث تنامى خبر الإسلام وظهور الرسالة إلــى أقاصي الجزيرة العربيــة وبلغ خبر محمد ﷺ القبائــل دعوة ونداء؛ فاشرأبت الأعناق وتطاولت العيون، وهمست الألسن.

حدَّث أصحاب السير والتراجم والقصة أصلها في الصحيحين: أن أعرابياً مــن عالية نجد أهمه الخبر وأقض مضجعه، وتأمل فإذا بينه وبين زوال الهم وانجلاء الغم مفاوز وقفار، وقطاع طرق ومتاهات.

لكن لما أرقه الأمر واشــتد به الشوق انطلق (ضمام بن ثعلبة) ثائر الرأس بغيــر صاحب ولا مؤنس، مرتحــلاً بعيره باتجاه الغرب إلــى حيث المدينة النبوية، ترك أهله ودياره وماله وزوجه.

لقد جذبه نداء عجيب ملأ سمعه وبصره يريد أن يرى ويسمع النبي ﷺ ويستوثق من أمر البعثة والرسالة، وماذا يدنيه من الجنة ويباعده عن النار!

ســارت الراحلة عشــرين يوماً وليلة بذلك الرجل الجلد الصلب تصعد به النجود وتهوي به الســهول، غالب فيها وعثاء ســفر وسوء طريق حتى أشــرف على المدينة ثائر الرأس متسخ الثياب أشعث أغبر، عليه آثار السفر والنصب.

تواضع النبي

فقصد حيث منبع النور ومصدر الرسالة، منيخاً بعيره بباب المسجد وقيده بقيد وثيق، ثم دخل المسجد والتفت يمنة ويسرة، وتخطى الرقاب مخترقاً الصفوف

ليرى صاحب الرسالة والأمين على الوحي، لكنه لم ير بروزاً لكرسي أو تميزاً في جلسة أو فراش! فلم يميز الرجل الذي يأتيه الوحي من السماء!

فلما أعياه الأمر نادى بصوت جهوري وعلامات الاستفهام تنطلق من محياه: أيكم ابن عبدالمطلب؟

وكانت شهرة عبدالمطلب في الجاهلية أعلى من شهرة ابنه عبدالله الذي توفي مبكراً، فلما سمع النبي ﷺ النداء وكان متكئاً: قام للأمر وأجاب النداء وبرز بوجهه الشريف نحو الصوت مجيباً: «**أنا ابن عبدالمطلب**».

فقال الأعرابي ذو الغديرتين الطويلتين من سقته الصحراء من قسوتها جفاء وطبعاً: يا ابن عبد المطلب؛ إني سائلك ومُغلظ عليك في المسألة، فلا تجدَّن في نفسك!

فقال ﷺ المبعوث رحمة للعالمين: «**لا أجد من نفسي، سل عما بدا لك**».

فقال: يا محمد أتانا رسولك، فقال لنا إنك تزعم أن الله ـ تعالى ـ أرسلك؟

قال: «**صدق**».

فقال ثعلبة وهو ابن السماء الصافية والشمس الحارقة والجبال العالية الذي يعرف عظمة خلق الله ـ عز وجل ـ: فمن خلق الأرض؟

قال: «**الله**».

قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟

قال: «**الله**».

قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال: آلله أرسلك؟

قال: «**نعم**».

قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا.

قال: «**صدق**».

قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟

قال: «**نعم**».

ثم بدأ يعدد فرائض الإسـلام من صوم وزكاة وحج؛ حتى وقر الإسلام في قلبه، ورتق الإيمان سويداءه؛ فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئاً، ولا أنقص عليهن شيئاً.

فقال النبي ﷺ لما أقفى الرجل وولى: «**إن صدق ليدخلن الجنة**».

العودة إلى الديار

خرج ثعلبة من المسـجد مسـرعاً وقد شفى صدره من حديث النبي ﷺ فأطلق عقال بعيره، وشرَّق عائداً نحو قومه، يقطع الفيافي والقفار في همة ونشاط؛ والعائد يحدوه الشوق ويجذبه الحنين، وكلما هبت صبا نجد حداه الشوق فأطلق عنان راحلته حتى برزت له منازل قومه بني سعد فإذا الزوجة قد تزينت وتجملت بعد غياب شهر أو يزيد عن حبيب مفارق.

والقبيلة تنظر بلهف إلى مبعوثها ماذا وراءه!

لم تلهه الزوجة ولم يغلبه الشوق إليها، ولا أماله إلقاء نظرة إلى صغاره وأبنائه! وما أطل بعينه نحو المرعى وحمر النعم لديه.

بـل الهم الذي حمله الأعرابي هو: كيف يُخرج قومه من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإسلام، ومن الدناءة إلى العزة والكرامة!

فلما أقبل بوجهه إلى القوم تفرسـوا في قسمات وجهه وأطالوا النظر فإذا هو غير الوجه الذي انقلب به من مضاربهم. فكان أول ما تكلم به البراءة من الشرك وأهله فحطم بكلماته دين الآباء والأجداد بلا هوادة ولا خوف.

التوحيد

قال العائد بصوت ثابت: بئست اللات والعزى.

فقالوا في تعجب لفعل الرجل القادم وخطوره كلامه: صه يا ضمام! اتق الجذام والبرص والجنون!

فقال وقد غمر التوحيد قلبه وأنار الله بصره: ويل، إنهما والله لا تضران ولا تنفعان!

إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

لقد صدق الرجل في حمل الرسالة وتبليغ الأمانة.

وما إن انتهى حديثه حتى ارتفعت الأصوات، وما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً: فبنوا المساجد ورفعوا الآذان وأقيمت الصلاة... فهنيئاً لضمام وهنيئاً لرسول بني سعد القادم...

ذلك الرجل الذي لم يعرف الدعوة كلاماً وترديداً وسلماً وتفاخراً، بل جعلها واقعاً ملموساً وحرقة ومحبة لقومه؛ وتلك زينتها وجمالها، وبهاؤها وهدفها.

ضمام بن ثعلبة نموذج حي لمن أراد أن يأتي بأقوام من البشر في ميزان حسناته يوم القيامة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وفد تجيب

وقدم على رسول الله ﷺ وفد تجيب سنة تسع وهم ثلاثة عشر رجلاً قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم.

فقال رسول الله: **«ردوها فاقسموها على فقرائكم»**.

فقالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا.

فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما وفد العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من تجيب.

فقال رسول الله ﷺ: **«إن الهدى بيد الله، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان»**.

وسألوا رسول الله فكتب لهم بها، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن. فازداد رسول الله فيهم رغبة.

وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم، فلما أرادوا أن ينصرفوا أمر بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود.

قال: **«هل بقي منكم أحد؟»**.

قالوا: غلام خلفناه على رحالنا. قال: **«أرسلوه إلينا»**.

فجاء الغلام فقال: يا رسول الله، إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي، إني والله ما حملني من بلادي إلا أن تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي.

فدعا له رسول الله: **«اللهم اغفر له وارحمه، واجعل غناه في قلبه»**.

ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم.

ووافوا رسول الله في الموسم بمنى سنة عشر فقالوا: نحن بنو أبذى. فقال: **«ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟»**.

قالوا: يا رسول الله ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها.

فقال: **«الحمد لله إني لأرجو أن يموت جميعاً»**.

فقال رجل منهم: أو ليس الرجل يموت جميعاً يا رسول الله؟

فقال رسول الله: «**تتشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية فلا يبالي الله في أيها هلك**».

قالوا: فعاش ذلك الغلام فينا على أفضل حال وأزهده في الدنيا وأقنعه بما رزق.

فلما توفي رسول الله ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام في قومه فذكرهم الله والإسلام، فلم يرجع منهم أحد.

وجعل أبو بكر الصديق يذكره ويسأل عنه حين بلغه حاله وما قام به، فكتب إلى زياد بن أسد يوصيه به خيراً.

وفد بني فزارة

ولما رجع رسول الله من تبوك قدم عليه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلاً، فيهم خارجة ابن الحصن، والحر بن قيس ابن أخي عيينة بن حصن وهو أصغرهم فنزلوا في دار بنت الحارث، وجاؤوا رسول الله مقرين بالإسلام وهم مسنتون على ركاب عجاف.

فسألهم رسول الله عن بلادهم فقال أحدهم: يا رسول الله أسنت بلادنا، وهلكت مواشينا، وجدبت جناننا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربك يغيثنا، وتشفع لنا إلى ربك وليشفع ربك إليك.

فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله، ويلكم إنما شفعت إلى ربي - عز وجل - فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العظيم، وسع كرسيه السموات والأرض، فهي تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد**».

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليضحك من شفقتكم وأزلكم وقرب غياثكم**».

فقال الأعرابي: يا رسول الله ويضحك ربنا؟ قال: «**نعم**».

فقال الأعرابي: لن نعدمك من رب يضحك خيراً. فضحك النبي ﷺ من قوله.

وصعد المنبر فتكلم بكلمات، وكان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا رفع في الاستسقاء، فرفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه.

وكان مما حفظ من دعائه: «**اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريحاً مريعاً، طبقاً واسعاً، عاجلاً غير آجل، نافعاً غير ضار. اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب ولا هدم، ولا غرق ولا محق. اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء**».

وفد بني عذرة

وقدم وفد عذرة في سنة تسع، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم حمزة ابن النعمان. فقال رسول الله ﷺ: «**من القوم؟**».

فقال متكلمهم: ممن لا تنكره، نحن بنو عذرة إخوة قصي لأمه، ونحن الذين عضدوا قصيّاً وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، ولنا قرابات وأرحام.

فقال رسول الله: «**مرحباً بكم وأهلاً، ما أعرفني بكم**».

فأسلموا وبشرهم رسول الله بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده. ونهاهم عن سؤال الكاهنة وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية. ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد أجيزوا.

وفد بلي

وقدم وفد بلي في ربيع الأول سنة تسع، فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوي، فقال رسول الله: «**الحمد لله الذي هداكم إلى الإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار**». ثم ودعوا رسول الله بعد أن أجازهم.

وقال أبو الضبيب شيخ الوفد: يا رسول الله إني رجل في رغبة من

الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟

قال: «**نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة**».

قال: يا رسول الله كم وقت الضيافة؟

قال: «**ثلاثة أيام. ما كان بعد ذلك فصدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك حتى يحرجك**».

وفد خولان

وقدم وفد خولان في شعبان سنة عشر، وكانوا عشرة مسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما فعل صنم خولان الذي كانوا يعبدونه؟**».

قالوا: أبدلنا الله ما جئت به، إلا عجوزاً وشيخاً كبيراً يتمسكان به، وإن قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله. ثم أعلمهم فرائض الدين، وأمرهم بالوفاء بالعهد والأمانة، وحسن الجوار، وأن لا يظلموا، ثم أجازهم ورجعوا إلى قومهم وهدموا الصنم.

وفد بني عبس

وقدم وفد بني عبس فقالوا: يا رسول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا.

فقال عليه السلام: «**اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئاً**». وسألهم رسول الله عن خالد بن سنان هل له عقب؟ فأخبروه أنه لا عقب له، كانت له ابنة فانقرضت، وأنشأ رسول الله يحدث أصحابه عن خالد ابن سنان فقال: «**نبي ضيعه قومه**».

وفد النخع

وقدم على رسول الله ﷺ وفد النخع، وهم آخر الوفود قدوماً عليه، في نصف المحرم سنة إحدى عشرة في مائتي رجل، فنزلوا دار الأضياف،

ثم جاؤوا رســول الله مقرين بالإســلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل، عندما بعثه رســول الله ﷺ إلى اليمن قبل ذلك هو وأبا موسى الأشعري؛ كل واحــد منهما على مخلاف، قالوا: واليمن مخلافان، ثم قال: «**يســرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تخالفا**».

وقال لمعاذ: «**إنك ســتأتي قومــاً من أهل الكتاب، فليكــن أول ما تدعوهم إليه شــهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رســول الله. فإن هم أطاعوك بذلك فأخبرهم أن الله قــد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم. فإن هم أطاعوك بذلك فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**».

فقال معاذ: أرأيت ما سئلت عنه واختصم إلي فيه مما ليس في كتاب الله ولم أسمع منك سنة الله؟

فقال: «**تواضع يرفعك الله، ولا تقضين إلا بعلم، فإن أشكل عليك أمر فسل ولا تســتحي، واستشــر ثم اجتهد، فإن الله إن علم من قلبك الصدق يوفقك. فإن التبس عليك فقف حتى تتنبه أو تكتب إليَّ فيه. واحذر الهوى فإنه قائد الأشقياء إلى النار. وعليك بالرفق**».

وفي رواية أنه قال له لما بعثه إلى اليمن «**كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟**» قال: أقضي بكتاب الله.

قال: «**فإن لم تجد في كتاب الله؟**» قال: فبسنة رسول الله.

قال: «**فإن لم تجد في سنة رسول الله؟**».

قال: اجتهد رأيي ولا آلو.

قال فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال: «**الحمد لله الذي سدد رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**» [رواه الترمذي].

أحداث في العام التاسع

* في سنة تسع بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى تخريب ذي الخلصة وكانت قبيلتا بجيله وخثعم يعظمونه ويضاهون به الكعبة. ونفر جرير ـ رضي الله عنه ـ إلى ذي الخلصة في خمسين ومائة راكب من قومه، فخرب ذلك البيت وأحرقه.

* وبعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله إلى ذي الكلاع فأسلم، وأسلمت امرأته خزيمة بنت أبرهة ابن الصباح، وكان قبل ذلك قد استعلى أمره حتى ادعى الربوبية فأطيع، ووفد ذي الكلاع في خلافة عمر ومعه ثمانية عشر ألف عبد، وأعتق من عبيده أربعة آلاف، قال: يا أمير المؤمنين لي ذنب ما أظن أن الله يغفره.

قال: وما هو؟ قال: تواريت يوماً ممن يتعبدني، ثم أشرفت عليهم من مكان عال فسجد لي زهاء ألف إنسان.

فقال عمر: التوبة بإخلاص والإنابة بإقلاع يرجى بهما مع رأفة الله الغفران.

وفاة إبراهيم

* وفي السنة التاسعة يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول؛ توفي إبراهيم ابن رسول الله ﷺ: وهو ابن ثمانية عشر شهراً، ودفن بالبقيع، ورش قبره وعلم بعلامة.

قال الزبير: وهو أول قبر رش.

وقـــال ﷺ: «**القلب يحزن والعـين تدمع، ولا نقول إلا مـا يرضي الرب، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**».

والسُّنة في القبور أن لا ترفع ولا تجصص، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قـال: «نهى النبي ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يُبنى عليه» [رواه مسلم].

* في العام التاسـع للهجرة انكسفت الشمس يوم موت إبراهيم، فقال الناس: إنما انكسفت لموت إبراهيم، قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسـفان لموت أحد ولا لحياته**» [رواه الشـيخان]. قيل الغالب الكسـوف في الثامن والعشـرين؛ فكسـفت يوم مات إبراهيم في العاشر فلذلك قالوا كسفت لموته.

* وفي هـذا العام طلع جبريل على مجلس النبي ﷺ في صورة رجل شديد بياض الثياب شـديد، سواد الشعر، وطيب الرائحة وحسن الوجه، رآه حضار المجلس لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد.

فجاء إلى النبي ﷺ وأسـند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع يديه على فخذيه وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والقيامة وأماراتها.

فأجـاب النبي ﷺ عن غير القيامة وقـال فيها: «**ما المسـئول عنها بأعلم من السـائل**». فخرج جبريل مـن المجلس، فأمر النبي ﷺ حتى طلبوه فما وجدوه.

قال ﷺ: «**أتدرون من السائل؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» [رواه مسلم].

حجة الوداع

روى الإمام البخاري عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وأنه حج بعدما هاجر حجة واحدة؛ هي حجة الوداع ولم يحج بعدها، واعتمر بعد أن هاجر إلى المدينة أربع عمر: عمرتين مفردتين قصد بهما في ذي القعدة وأتمهما، إحداهما عمرة القضية سنة سبع، والأخرى عمرته من الجعرانة عام ثمان إثر وقعة حنين في ذي القعدة أيضاً، واعتمر عمرة ثالثة قرنها مع حجة الوداع، والرابعة عمرته التي صده عنها المشركون سنة ست في ذي القعدة عام الحديبية.

وبعد جهاد طويل وصبر متواصل بزغ نور الإسلام وعم أرجاء الجزيرة العربية، وقدمت الوفود على رسول الله ﷺ، فلما دخل على رسول الله ﷺ شهر ذي القعدة من العام العاشر تجهز للحج، وأمر الناس بالجهاز له. فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله. وخرج معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مائة ألف أو يزيدون وقد كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قد حج بالناس في العام التاسع.

فخرج ﷺ من المدينة بعدما صلى الظهر بها أربعاً ثم ترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وخطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها وجوه الإحرام وواجباته وسننه.

وكان خروجه من المدينة يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة، ودخوله مكة يوم الأحد صبح رابعة ذي الحجة، وكانت الوقفة يوم الجمعة. وأخرج ﷺ معه نساءه كلهن في الهوادج، وساق معه الهدي هو وأبو بكر

وعمر وذوو اليسار من أصحابه، فقلده وأشعره، وبات بذي الحليفة وقال: «أتاني الليلة آت من ربي» وقال ﷺ: «صل بهذا الوادي المبارك، وقل: عمرة وحجة» [رواه البخاري].

الإحرام

فلما أراد الإحرام اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة وطيب فيه مسك في بدنه ورأسه حتى كان وبيص المسك يرى في مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه وقرن بينهما. وساق معه الهدي، ثم ركب ناقته القصواء حتى إذا استوت ناقته على البيداء فإذا إلى مد البصر بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه بمثل ذلك وعن شماله بمثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك.

فأهل رسول الله ﷺ بالتوحيد: «**لبيك لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**».

ثم سار ﷺ حتى نزل بالعرج وكانت زاملته وزاملة أبي بكر واحدة.

وحين وصل مكاناً يقال له سرف حاضت عائشة، وقد كانت أهلت بعمرة، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: «**ما يبكيك؟ لعلك نفست**».

قالت: نعم.

قال: «**هذا شيء قد كتبه الله على بنات آدم، افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت**».

قالت: ففعلت. فلما قضينا الحج أرسلني رسول الله مع أخي عبد الرحمن إلى التنعيم فاعتمرت منه، فقال: «**هذه مكان عمرتك**».

ثـم نهض ﷺ إلـى أن نزل بذي طوى قرب مكة، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة، وصلى بها الصبح ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة فدخلها نهاراً من أعلاها من الثنية العليا التي تشرف على الحجون، ثم سار حتى دخل المسجد ضحى، فلما عاين البيت قال: «**اللهم أنت السلام ومنك السـلام، فحينا ـ ربنا ـ بالسـلام، اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وبراً، وزد من حجه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً، وتعظيماً وبراً**».

الطواف بالبيت

وطاف ﷺ وهو راكب على ناقته فلما حاذى الحجر اسـتلمه. ودعا بين الركنين: «**ربنا آتنا في الدنيا حسـنة وفي الآخرة حسـنة وقنا عذاب النار**»، ورمل في طوافه هذه الثلاثة الأشواط الأول، يسرع في مشيه ويقارب بين خطاه، واضطبع بردائه فجعله على إحدى كتفيه وأبدى كتفه الأخرى ومنكبه.

السعي

فلما فرغ من طوافه صلـى خلف المقام ركعتين، فقرأ فيهما بعد الفاتحة سـورتي الإخلاص وقل يا أيها الكافـرون، فلما فرغ من صلاته أقبل إلى الحجر فاسـتلمه، ثم خرج إلى الصفا فلما دنا منه قرأ ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقـرة: ١٥٨] أبدأ بما بـدأ الله به، ثم رقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة ووحد الله وكبره وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شـيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**».

ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة يمشي فلما انصبت قدماه في بطن الوادي وأصعد مشى. حتى أتم سعيه عند المروة.

إلى الأبطح

ثم سار رسول الله والناس معه حتى نزلوا بالأبطح وهو مكان فسيح شرقي مكة، وأقام هناك إلى يوم الأربعاء يصلي بأصحابه، ولم يعد إلى الكعبة في تلك الأيام كلها.

إلى منى

فلما كان يوم الخميس وهو يوم التروية توجه ضحى بمن معه من المسلمين إلى منى؛ فصلى الظهر والعصر وبات بها ليلة الجمعة حتى طلعت الشمس، فأحرم بالحج من كان أحل منهم من رحالهم، ولم يدخلوا إلى المسجد، بل أحرموا ومكة خلف ظهورهم.

إلى عرفة

وأمر بقبة له من شعر تضرب بنمرة، فسار رسول الله يوم الجمعة متوجهاً إلى عرفة ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله حتى أتى عرنة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها. حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي فخطب الناس.

خطبة عَرَفة

وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «**أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلّغت، اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.**

ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع، وربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب.

وإنَّ دمـاء الجاهليـة موضوعة، وأول دم أبدأ به دم ابـن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

وإنَّ مآثر الجاهلية موضوعة غير السَدَانة والسقاية.

والعمد قود، وشـبه العمد ما قتل بالعصا والحجـر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيهـا الناس: إن الشـيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكـم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيهـا الناس: إنَّ النسـيء زيادة في الكفر، يُضـل به الذين كفـروا، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإنَّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السـماوات والأرض، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليـات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلَّغت؟ اللهم فأشهد.

أيهـا الناس: إن لكم على نسـائكم حقـاً، ولهن عليكم حقـاً، لكن عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، فإن فعلن فإن الله أذن لكـم أن تعظوهن، وتهجروهن في المضاجـع، وتضربوهن ضرباً غير مبِّرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واسـتوصوا بالنسـاء خيراً فإنهن عَوَان عندكم لا يملكن لأنفسـهم شيئاً، وإنكم إنمـا أخذتموهن بأمانة الله، واسـتحللتم فروجهـن بكلمة الله، فاتقوا الله في النسـاء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لأمرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشـهد، فلا ترجعُنّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله، وسنة نبيه.

أيهـا الناس: إن ربكم واحـد وإن أباكم واحد، كلكـم لآدم، وآدم من تراب، إن

أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، وإنه لا وصية لوارث، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث.

والولد للفراش، وللعاهر الحَجَر، ومن ادّعى إلى غير أبيه، أو تولَّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا تقبل الله منه صَرْفاً ولا عدلاً. وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» .

قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيت ونصحت.

فقال بأصبعه السبَّابة يرفعها إلى السماء ويقلبها على الناس: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد، والسلام عليكم ورحمة الله**» .

وكان جرير بن عبد الله البجلي يستنصت الناس، وكان ربيعة بن أمية بن خلف يبلِّغ عن رسول الله ﷺ.

وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من هذا الخطبة الجامعة أذَّن بلال ثم أقام فصلى النبي بالناس الظهر، ثم أقام فصلَّى بهم العصر، جامعاً بينهما جمع تقديم، ثم ركب ناقته حتى جاء الصخرات التي في أسفل جبل الرحمة فوقف عندها مستقبلاً القبلة، حتى غربت الشمس، وقال: «**وقفت ههنا وعرفات كلها موقف**» .

وقال: «**خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**» .

وأكثر ﷺ من الدعاء والتضرع. وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره كاستطعام المسكين، فلما غربت الشمس أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، وأفاض بسكينة وضم إليه بزمام ناقته حتى إن رأسها ليصيب

طـرف رحله. ويقول بيده اليمنى «**أيها الناس عليكم بالسكينة**». وكلما أتى جبلاً من الجبال أرخى له قليلاً حتى تصعد.

المزدلفة

وكان يلبي في مسيره ذلك لا يقطع التلبية حتى أتى المزدلفة، ثم أمر بالأذان فأذن، فصلى المغرب ثم صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان.

ثم نام حتى أصبح، وأذن في تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدموا إلى منى قبل طلوع الفجر.

ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جداً.

ووقف وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف، ثم سار من مزدلفة مردفاً للفضل بن عباس وهو يلبي في سيره.

وفي طريقه ذلك أمر ابن عباس أن يلقط له حصى الجمار سبع حصيات، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف، فجعل ينفضه في كفه ويقول: «**بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**».

فلما أتى بطن محسر حرك ناقته وأسرع السير، وهذا كان عادته في المواضع التي نزل بها بأس الله بأعدائه، فإن هناك أصاب أصحاب الفيل ما قص الله عليه، وسمي محسراً لأن الفيل حسر فيه. أي: أعيا وانقطع عن الذهاب.

رمي الجمار

ثم سار ﷺ حتى أتى الجمرة فرماها بسبع حصيات مثل حصى الخذف، يكبر مع كل حصاة منها من بطن الوادي. وكان رميه إياها راكباً بعد طلوع الشمس واحدة بعد واحدة، وحينئذ قطع التلبية ورمى، وبلال وأسامة معه

أحدهما آخذ بخطام ناقته والآخر يظله بثوب من الحر.

ثم رجع إلى منى فخطب الناس خطبة بليغة أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وقال: «**لعلي لا أحج بعد عامي هذا، وعلمهم مناسكهم، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم، وأمر الناس أن لا يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه، وأخبر أنه رب مبلغ أوعى من سامع**».

وقال في خطبته: «**لا يجني جان إلا على نفسه**».

وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة والأنصار عن يسارها والناس حولهم، وفتح الله له أسماع الناس حتى سمعه أهل منى في منازلهم.

وقال في خطبته تلك: «**اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم**». وودع حينئذ الناس فقالوا: حجة الوداع.

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، وكان ينحرها قائمة معقولة يدها اليسرى، وكان عدد ما نحر عدد سني عمره.

ثم أمسك وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المائة، ثم حلق ﷺ شعره ولبس ثيابه وتطيب.

إلى الكعبة

ثم ركب ﷺ حتى جاء البيت ليطوف طواف الإفاضة، فطاف وصلَّى بمكة الظهر، ثم أتى بني عبد المطلب وهم يسقون الناس على بئر زمزم وقال: «**انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم**».

فناوَلوه دَلْواً فشرب منه حتى تضلَّع، وأتى السقاية التي يقوم بها العباس فقال: «اسقوني».

فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله بشراب من عندها فإن هذا يجعل الناس أيديهم فيه.

فقال النبي: «لا حاجة لي فيه، اسقوني مما يشرب الناس».

إلى منى

ثم رجع ﷺ إلى منى من يومه ذلك فبات بها، فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار ولم يركب، فبدأ بالجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف فرماها بسبع حصيات: واحدة بعد واحدة، يقول مع كل حصاة: «الله أكبر». ثم تقدم على الجمرة أمامها حتى أسهل فقام مستقبل القبلة، ثم رفع يديه ودعا دعاء طويلاً بقدر سورة البقرة، ثم أتى الجمرة الوسطى فرماها كذلك، ثم انحدر ذات اليسار مما يلي الوادي فوقف مستقبل القبلة رافعاً يديه يدعو قريباً من وقوفه الأول. ثم أتى الجمرة الثالثة وهي جمرة العقبة فاستبطن الوادي واستعرض الجمرة، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه. فرماها بسبع حصيات، واستقبل البيت وقت الرمي، فلما أكمل الرمي رجع من فوره ولم يقف عندها.

واستأذنه العباس بن عبد المطلب أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل السقاية فأذن له، واستأذنه رعاء الإبل في البيتوتة خارج منى عند الإبل فأرخص لهم أن يرموا يوم النحر ثم يجمعوا رمي يومين بعد يوم النحر يرمونه في أحدهما.

ولم يتعجل ﷺ في يومين، بل تأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر إلى المحصب وهو الأبطح، وهو

خيـف بني كنانة فوجد أبـا رافع قد ضرب قبته هنـاك، فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشـاء ورقد رقدة. ثم نهـض إلى مكة فطاف طواف الوداع ليلاً سحراً، ولم يرمل في هذا الطواف.

العودة

اسـتمرت حجة الوداع ستة وعشـرون يوماً، ثمانية أيام في الطريق إلى مكة، وأحد عشـر يوماً أقامها في مكة، وعاد إلى المدينة في سـبعة أيام، ثم قفل رسـول الله ﷺ فأقام بالمدينة بقيـة ذي الحجة والمحرم وصفراً من العام العاشـر، وضرب على الناس بعثاً إلى الشـام وجهزه في ثلاثة آلاف رجل، وأمرَّ عليهم أسامة بن زيد مولاه وكان عمره ثماني عشرة سنة وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسـطين، فتجهز الناس، وأوعب مع أسـامة المهاجرون الأولون. وهي آخر سرية جهزها النبي ﷺ وأول شيء جهزه أبو بكر.

وجع النبي ﷺ

لما كان ﷺ في سفره إلى مكة في حجة الوداع اشتكى من صداع الشقيقة فاحتجم في وسط رأسه، في مكان يقال له لحمى جمل، واحتجم على ظاهر قدمه من وجع كان برجله.

ولما أتم مناسك الحج وعاد إلى المدينة قافلاً بدئ برسول الله وجعه، فحم وصدع، وكان ذلك يوم الأربعاء في ليال بقين من صفر، أو في أول ربيع الأول من العام الحادي عشر الهجري.

فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءً بيده، فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريدة الأسلمي فسكن بالجرف، وكان عدد الجيش قد ناهز الثلاثة الآف رجل فيهم وجوه وكبار الصحابة.

فتكلم قوم في أسامة لصغر سنة حيث أنه لم يتجاوز ثماني عشر سنة. وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين. فغضب من ذلك غضباً شديداً.

ففي الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله بعث بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «**بلغني أنكم قلتم في أسامة وإنه أحب الناس إلي**».

وفي لفظ: «**إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه، وايم الله إنه كان خليقاً لإمارته، وإنه كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي من بعده**».

وصية الجيش

وقال ﷺ لأسـامة موصياً: «**سر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، وأغر صباحاً عليهم، وأسـرع السـير تسبق الخبر، فإن ظفَّرك الله بهم فأقِّل اللبث فيهم**».

وانكمش الناس في جهازهم، ولبث أسـامة بجيشـه في الجرف، وتتام إليه الناس.

وثقل رسـول الله، فأقام أسـامة والناس معه لينظـروا ما الله قاض في رسوله.

قال أسـامة: لما ثقل رسـول الله هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله وقد صمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليَّ، أعرف أنه يدعو لي.

علامات قرب الأجل

لما تكاملت الرسالة وانتشرت في أرجاء الجزيرة وأكمل الله الدين وأتمه، ظهـرت علامات وآيات تدل على قـرب موته ﷺ؛ ومن ذلك أنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً، وتدارسه جبريل القرآن مرتين، وقال في حجة الوداع: «**لعلـي لا ألقاكم بعد عامي هذا**». وقال ﷺ: «**خذوا عني مناسـكم، فلعلـي لا أحج بعد عامي هذا**» وأنزلت عليه سـورة النصر في أوسط أيام التشريق، فعرف ﷺ أنه الوداع.

وفي أوائل صفر من السـنة الحادية عشـرة للهجرة خرج ﷺ إلى أحد، فصلى على شـهداء أحد بعد ثلاث سنين صلاته على الميت كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إني فرطكم، وإني شـهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض،**

وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها» .

وخرج ليلة ﷺ إلى البقيع فاستغفر لهم، قال أبو مويهبة مولى رسول الله : بعثني رسول الله من جوف الليل فقال : «يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي» .

فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال : «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى» .

ثم أقبل عليَّ فقال : «يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة» .

قال فقلت : بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .

قال : «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة» . ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف .

قبل خمس ليال

وكانت آخر خطبة له قبل موته بخمس ليال قال فيها : «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله» . فبكى أبو بكر، فعجب الناس لبكائه أن يخبر رسول الله عن عبد خير، فكان رسول الله هو المخير، وكان أبو بكر هو الذي فطن للأمر .

فقال رسول الله ﷺ : «إن من أمنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبو بكر» .

اشتداد المرض

وفي اليوم الثامن أو التاسع من شهر صفر من السنة الحادية عشرة،

شـــهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع وقد أخذه الصداع والألم في راسه. واتقدت الحرارة، فكانوا يجدون ســـورتها فـــوق العصابة التي تعصب بها رأســـه. حتى قال له أبو سعيد الخدري: والله لا أطيق أن أضع يدي عليك من شـــدة حماك، فيقول ﷺ له: «**إنا معاشـــر الأنبياء يضاعف لنا البلاء، كما يضاعف لنا الأجر**».

وقالت عائشة: رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وارأساه.

فقال: «**بل أنا والله يا عائشة وارأساه**».

ثم قـــال: «**وما ضرك لـــو مت قبلـــي فقمت إليـــك وكفنتك وصليـــت عليك ودفنتك**».

قالت عائشـــة: قلت والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك. فتبسم رسول الله.

العدل بين الزوجات

وتتام به وجعه وهو يدور على نســـائه، حتى استعز به وثقل برسول الله ﷺ المرض وهو في بيت ميمونة. فدعا نساءه فاستأذنهن أن يُمرضَّ في بيت عائشة فأذِّن له.

فخرج رسول الله يمشي بين رجلين من أهله: الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصباً رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة.

ثم غمي رسول الله واشتد به وجعه وزادت عليه الحمى. فقال: «**اهريقوا عليَّ سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم**».

قالت عائشـــة: وأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: «**حسبكم حسبكم**».

ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم قائلاً: **«لعنة الله على اليهود والنصارى أتخذو قبور أنبيائهم مساجد»** وقال: **«لا تتخذوا قبري وثناً يعبد»** وعرض نفسه للقصاص قائلاً: **«من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه»**، ثم نزل فصلى الظهر.

ثم عاد لمنبره فقال له رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: **«أعطه يا فضل»** وقال: إنه غل ثلاثة دراهم، فقال: **«خذها يا فضل»**.

الصلاة

ولما ثقل المرض برسول الله ﷺ أمر أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ أن يصلي بالناس، قالت عائشة: إن رسول الله قال في مرضه الذي مات فيه: **«مروا أبا بكر فليصل بالناس»**.

قالت عائشة قلت: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، قالت عائشة فقلت لحفصة قولي له إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة.

فقال رسول الله ﷺ: **«مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»**.

فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً.

قالت عائشة: لقد راجعت رسول الله في ذلك، وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس رجلاً قام مقامه إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل رسول الله عن أبي بكر.

وظل أبوبكر يصلي بالناس تلك الأيام.

ثم إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ

إليه النبي ﷺ أن لا تتأخر.

وقال لهما: «**أجلساني إلى جنبه**» فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر.

الوصية بالأنصار

وللبخاري عن أنس قال: مر أبوبكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر ولم يصعد بعد ذلك اليوم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم كرشي وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم؛ فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**».

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: خرج النبي ﷺ ملحفة منعطفاً بها على منكبيه وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أما بعد أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح للطعام، فمن من ولي منكم أمراً يضر به أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم**».

فاطمة

وعن عائشة قالت: دعا النبي ﷺ فاطمة في شكواه التي قبض فيها فسارها فبكت، ثم دعاها فسارها فضحكت، فسألناها عن ذلك فأخبرتهم بعد ما مات رسول الله ﷺ فقالت: سارني أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهل بيته يتبعه فضحكت [رواهما البخاري].

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي مات فيه طفقت أنفس عنه بالمعوذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبي ﷺ عنه لبركتها [رواه البخاري].

وللبخاري أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: **«ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»**.

وكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيداً، مع ما أكرمه الله به من النبوة.

الصلاة

وفي اليوم الذي مات فيه ﷺ قال أنس: لما كان يوم الإثنين والناس في صلاة الفجر وأبو بكر يصلي لهم لم يفجأهم إلا رسول الله يكشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهو صفوف في الصلاة، ثم تبسم يضحك، لما رأى من إقامة الصلاة وتآلفهم وتآخيهم، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم الناس أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله قد أفاق من وجعه، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح.

قالت عائشة: ودخل عليَّ عبد الرحمن وبيده سواك وأنا مسندة رسول الله إلى صدري فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك.

فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه. وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته بأمره، فاستن به وهو مستند إلى صدري، وبين يديه ركوة فيها ماء.

قرب الأجل

فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: **«لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»**. وكان رسول الله ﷺ يقول: **«إنه لن يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخير»**.

فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت.

ثم قال: «**اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى**». وفي رواية: «**مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**». وكان آخر كلمة تكلم بها: «**اللهم الرفيق الأعلى**».

وفي مسند أحمد أن النبي ﷺ جعل يقول وهو يجود بنفسه: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**» حتى ما يغيض بها لسانه.

وفاته ﷺ

وكان ﷺ قبل وفاته قد عتق غلمانه، وتصدق بدنانير ما بين التسعة والسبعة، كانت عنده.

قال عمرو بن الحارث: ما ترك النبي ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة.

وعن عائشة قالت: توفي رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير [رواهما البخاري].

وعن أنس بن مالك قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه. فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**». فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه. يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

وكانت عائشة تقول: إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه.

واستغرق مرضه عشرة أيام، ثم توفاه الله ـ عز وجل ـ يوم الاثنين نصف النهار في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة، وقد تم له من العمر ثلاثة وستون عاماً.

مات ﷺ وكتب الله عليه ذلك ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]. مات وهو خير ولد آدم، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ولما شاع خبر موت النبي ﷺ اضطرب الناس اضطراباً شديداً وكثر اللغط وكان أبو بكر بالسنح ـ بالعالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله. وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم.

موقف أبو بكر

وعندما بلغ الأمر أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ جاء على فرس من منزله بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول الله وهو مغشي بثوب حبره فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى.

ثم قال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لايذيقك الله الموتتين أبدا.

ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس ياعمر، فأبى عمر أن يجلس.

خطبة أبو بكر

فأقبل إليه الناس وتركوا عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: أما بعد؛ فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لايموت، قال عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]

وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: ١٤٤] قال: فنشج الناس يبكون.

قال: ابن عباس والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، وعلمت أن رسول الله قد مات.

ولما عرفوا أنه مات دهش الناس وطاشت عقولهم، فمنهم من خبل ومنهم من أصمت، ولم يكن أثبت وأحزم من أبي بكر والعباس.

أتم الله ـ عز وجل ـ لنبينا ثلاث وستون عاماً من عمره المبارك، وهي حياة حافلة بالرسالة والنبوة.

أتم له الرسالة ونشر به الدين، وأقام به الملة، فقد أنزل على النبي وهو ابن أربعين سنة، فقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده ـ عليه صلوات ربي وسلامه ـ.

وكيف يكتب قلم عن مصيبة مثل هذه، والدمعة فيها تسبق النظر، والحزن يدافع المصيبة.

سعدت عين رأتك وقرت، وسعد من تبع سنتك وتمسك بهديك. وسعد من نال شفاعتك وجاورك في جنات الخلد.

سقيفة بني ساعدة

لما فجع المسلمون بموت النبي ﷺ وهو حدث عظيم مهول في حياتهم وشاع الخبر في المدينة، ضج الناس بالبكاء وأذهلتهم الفاجعة.

وفي غمرة هذا الأسى والحزن، كاد أن يضطرب الناس في أمر الخلافة.

في سقيفة بني ساعدة

ولهذا المصاب العظيم اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، واجتمع علي والزبير وطلحة في بيت فاطمة، واجتمع المهاجرون إلى بيت أبي بكر. وانضم إليه أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل.

قال عمر: قلت لأبي بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه. فانطلقا يؤمانهم، فلقيهما رجلان صالحان: عويم بن ساعدة ومعن بن عدي فذكرا لهما ما تمالأ عليه القوم وقالا: فلا عليكم أن لا تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم.

قال عمر: والله لنأتينهم. فانطلقا حتى أتياهم في سقيفة بني ساعدة فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل. فإذا هو سعد بن عبادة به وجع.

فلما جلسنا تشهد خطيب الأنصار فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يجتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر.

قال عمر: فلما سكت أردت أن أتكلم وقد زورت مقالة قد أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحدة.

فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه.

فتكلم. وهو كان أعلم مني وأبلغ، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته ومثلها أو أفضل.

خطبة أبو بكر

قال: يا أيها الناس، نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقُدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو.

أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة.

فقال قائل من الأنصار وهو الحباب بن المنذر: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المجرب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.

فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات حتى تخوف الاختلاف وظهر النزاع. فما كان من عمر إلا أن قال: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعه وبايعه المهاجرون والأنصار.

وعن عبد الله بن مسعود قال: كان رجوع الأنصار يوم سقيفة بني ساعدة بكلام قاله عمر، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس؟ قالوا: نعم.

قال: فأيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقامه الذي أقامه فيه رسول الله؟

قالوا: كلنا لا تطيب أنفسنا. نستغفر الله.

فلما فرغ أبو بكر من البيعة رجع إلى المسجد فقعد على المنبر فبايعه الناس حتى أمسى، وشغلوا عن دفن جهاز رسول الله.

البيعة

ولما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له.

ثم قال: يا أيها الناس، إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدته في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إلي رسول الله، وكنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدي رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه.

فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

الخطبة

ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله.

ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإني قدَّ وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل. ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

ونظر الصديق في وجوه القوم فلم ير الزبير، فدعا به، فلما جاء قال له: ابن عمة رسول الله وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟

فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه.

ثم نظر فلم يجد علياً فدعا به فجاء فقال له: ابن عم رسول الله وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين.

فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه.

وروي عن الحسن البصري عن علي قال: قدم رسول الله ﷺ أبا بكر - رضي الله عنه - فصلى بالناس، وإني شاهد غير غائب، وإني لصحيح غير مريض، ولو شاء أن يقدمني لقدمني. فرضينا لدنيانا من رضي الله ورسوله لديننا.

غسله ﷺ وتكفينه ودفنه

ولما فرغ الناس من بيعة أبي بكر وجمعهم الله عليه وصرف عنهم كيد الشيطان؛ أقبلوا على تجهيز نبيهم مقتدين في كل ما أشكل عليهم بالصديق - رضي الله عنه - في تغسيله وتكفينه، ودفنه.

وكان علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وقثم بن العباس، وشقران مولى رسول الله، وأسامة بن زيد هم الذين ولوا غسله، وأن أوس بن خولي وكان بدرياً دخل معهم وحضر غسل رسول الله وأسنده إلى صدره، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه، وكان أسامة بن زيد وشقران هما اللذان يصبان الماء عليه، وعلي يغسله قد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه لا يفضي بيده إلى رسول الله.

ولم ير من رسول الله ما يرى من الميت، وكان علي يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حياً وميتاً.

قالت عائشة: لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه فقالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله من ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن غسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه.

قالت: فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكون والقميص دون أيديهم، فلما فرغ من غسله كفن في ثلاثة أثواب: صحاريين وبرد حبرة أدرج فيه إدراجاً.

حفر القبر

ولما جاء أوان القبر وحفره، ولما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهيل هـو الذي كان يحفر لأهل المدينـة وكان يلحد، فدعا العباس رجلين فقال لأحدهمـا: اذهب لأبي عبيدة وللآخـر اذهب إلى أبي طلحة، اللهم خره لرسـول الله. فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة فجاء به فلحد لرسـول الله.

فلما فرغ من جهاز رسـول الله يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته، وقد كان المسـلمون اختلفوا في دفنه فقال قائل: ندفنه في مسـجده، وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه.

فقـال أبو بكر: إني سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «ما قبـض نبي إلا دفـن حيـث يقبض»، فرفع فراش رسـول الله الذي توفي عليه فحفر له تحته ورفع.

ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالاً، دخل الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النسـاء حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله أحد.

الدفن

وبعـد أن لحـد له في حجرة عائشـة حيث توفي، وأنزلـه القبر علي والعبـاس وولداه الفضل وقثـم، ورش قبره بلال بالمـاء، ورفع قبره عن الأرض قد شبر.

قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء، وكان الذين نزلوا في قبره علي بن أبي طالب

والفضل وقثم ابنا العباس وشقران مولاه وأوس بن خولي، وجعل تحته ﷺ قطيفة كان يلبسها ويفترشها.

وقال علي: آخر الناس عهداً به قثم بن عباس.

ولما دفن قالت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟! ـ صلوات ربي وسلامه عليه:

وما فقد الماضون مثل محمدٍ
ولا مثله حتى القيامة يُفقد

زوجات النبي ﷺ

تزوج رسـول الله ﷺ خمس عشـرة امرأة، دخل بثلاثة عشرة منهن، واجتمع عنده منهن إحدى عشـرة، وقبض عن تسـع، فأمـا اثنتان منهم فأفسدتهما النساء فطلقهما.

من زوجاته ﷺ خمس من قريش هن: عائشـة، وحفصة، وأم سلمة، وسودة، وأم حبيبة.

ومـن غير قريـش: ميمونة الهلالية، وجويريـة الخزاعية، وزينب بنت جحش الأسدية، وصفية بنت حيي الخيبرية.

خديجة

كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومن زوجته خديجة بنت خويلد، تزوجها وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره الشريف، وهي في الأربعين، وقيل في الخامسة والأربعين.

وهي أول من تزوجها من النسـاء، ولم يتـزوج عليها غيرها، وكان له منها أبناء وبنات.

أما الأبناء، فلم يعش منهم أحد.

وأما البنات فهن أربع: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع.

وأمـا رقية وأم كلثوم فقد تزوجهمـا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ الواحدة بعد الأخرى، وبهذا سمي بذي النورين.

وأما فاطمة فتزوجها علي بن أبي طالب بين غزوة بدر وأحد، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم، وقد توفيت خديجة بمكة في رمضان سنة

عشر من النبوة ودفنت بالحجون، ولها من العمر خمس وستون سنة.

سودة

أم المؤمنين: سودة بنت زمعة، من المؤمنات المهاجرات تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بأيام، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو فمات عنها، وقد خرجت مهاجرة إلى الحبشة مفاضية لقومها، فلما مات زوجها خشي عليها النبي ﷺ من بطش قومها، ورق لحالها ورأف بمصابها فتزوجها، وعندما كبرت وطعنت في السن خشيت أن يطلقها رسول الله ﷺ فوهبت ليلتها لعائشة ـ رضي الله عنها ـ. وقد توفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين للهجرة.

عائشة

أم المؤمنين عائشة: بنت أبي بكر الصديق، تزوجها ﷺ في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر، تزوجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة، وهي بنت تسع سنين، وكانت بكراً ولم يتزوج بكراً غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، وأفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق، وقد توفيت في السابع عشر من رمضان سنة سبع وخمسين أو ثمان وخمسين للهجرة ودفنت بالبقيع.

حفصة

أم المؤمنين: حفصة بنت عمر بن الخطاب، تأيمت من زوجها البدري صاحب الهجرتين ـ الحبشة والمدينة ـ الصحابي خنيس بن حذافة السهمي الذي توفي بين بدر وأحد لجرح أصابه في بدر، ثم انتقض عليه وقد حزنت عليه حزناً شديد، وحزن عمر ـ رضي الله عنهما ـ لحزنها، فعرض زواجها

على أبي بكر وعثمان، فاعتذر عثمان وسكت أبو بكر، وما لبث عمر أياماً حتى خطبها رسول الله ﷺ ولقيه أبو بكر وأخبره سبب سكوته وأن النبي ﷺ كان قد ذكرها. فكره إفشاء سر رسول الله ﷺ فلما حلت تزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث للهجرة.

وقد طلقها رسول الله ﷺ ثم راجعها بعد أن أتاه جبريل فقال له: «**راجع حفصة، فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة**» [رواه الطبراني].

وقد توفيت بالمدينة في شعبان سنة خمس وأربعين للهجرة ولها ستون سنة ودفنت بالبقيع.

زينب

أم المؤمنين: زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، وكانت تحت عبد الله بن جحش، فاستشهد في أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة أربع من الهجرة، وقد اولم عليها رسول الله ﷺ عندما تزوجها جزوراً، فكثر المساكين، فتركهم الناس والطعام. ماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة ولها من العمر ثلاثون عاماً، ولم يمت من أزواجه في حياته ﷺ غيرها وغير خديجة.

أم سلمة

أم المؤمنين: أم سلمة هند بنت أبي أمية، من المهاجرات إلى الحبشة ولها مواقف مشهورة في غزوة أحد.

كانت تحت أبي سلمة، فمات عنها في جمادى الآخرة سنة أربع للهجرة. وخلف وراء أربعة من الأولاد.

روي أنها قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ قولاً فسررت به، قال: «**لا تصيب أحداً من المسلمين مصيبة، فيسترجع عند مصيته ثم**

يقول: اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا فعل ذلك به».

قالت أم سلمة: حفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منه. ثم رجعت إلى نفسي قلت: من أين لي خير من أبي سلمة، فلما أنقضت عدتي، استأذن عليَّ رسول الله وأذنت له. وقالت له: مرحباً برسول الله ﷺ إني امرأة غيرى، وإني مصبية وليس أحد من أوليائي حاضراً.

فقال رسول الله ﷺ: **«أما قولك إني مصبية فإن الله يكفيك صبيانك، وأما قولك إني غيرى فسأدعوا الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس منهم أحد شاهد ولا غائب إلا سيرضاني»** فتزوجها رسول الله ﷺ في شوال من نفس السنة، وكانت من أفقه النساء وأعقلهن، توفيت سنة تسع وخمسين للهجرة، ودفنت بالبقيع، وعمرها أربع وثمانون سنة.

زينب

أم المؤمنين: زينب بنت جحش بن رياب من بني أسد بن خزيمة، وهي بنت عمة رسول الله ﷺ، وكانت تحت زيد بن حارثة ـ الذي كان يعتبر ابناً للنبي ﷺ ـ فطلقها زيد، فأنزل الله ـ تعالى ـ يخاطب رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة من العام الخامس للهجرة، وكانت من أعبد النساء وأكثرهن صدقة، توفيت سنة عشرين للهجرة ولها ثلاث وخمسون سنة.

وكانت أول أمهات المؤمنين وفاة بعد رسول الله ﷺ، صلى عليها عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ودفنت بالبقيع.

جويرية

أم المؤمنين: جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة، كانت في سبي بن المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها، فقضى

رسـول الله ﷺ كتابتها، وتزوجها في شعبان سـنة ست للهجرة، فاعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فكانت أعظم النساء بركة على قومها، توفيت - رضي الله عنها - في ربيع الأول سنة ٥٦ هـ ولها من العمر ستة وخمسون سنة.

رملة

أم المؤمنين: رملة بنت أبي سـفيان، تكنى أم حبيبة كانت تحت عبيد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشـة، فارتـد عبيد الله وتنصر، وتوفي هنـاك، وثبتت على دينها وهجرتها، فلما بعث رسـول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة سبع من الهجرة. خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وأصدقها من عنده أربعمائة دينار، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة فابتنى بها رسول الله ﷺ بعد رجوعه من خيبر في صفر أو ربيع الأول سنة سبع للهجرة، وتوفيت سنة اثنتان وأربعون للهجرة.

صفية

أم المؤمنين: صفية بنت حيي بن أخطب، كانت من سـبي خيبر، وهي ابنة سيد بني النضير، من بني إسرائيل، من سلالة هارون - عليه السلام - فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فاعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة سبع للهجرة.

وابتنى بها ﷺ بسـد الصهباء على مقربة من المدينة وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري خوفاً على رسول الله ﷺ أن تغدر به. ولم تكن كذلك. بل رضيت بالإسلام وقبلت برسول الله ﷺ.

وعندما هم رسـول الله ﷺ أن يدخل عليها وكانوا على بعد أميال من خيبـر، أبت عليه، وعندما وصـل إلى الصهباء على بعد من خيبر قبلت،

فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك فقالت ـ رضي الله عنها ـ: خشيت عليك من قرب اليهود.

ومن حسن وكمال أدب النبي ﷺ وطيب عشرته معها أنه لم يُسمع ﷺ ذاكراً أباها بحرف مما تكره، توفيت سنة خمسون للهجرة، ودفنت بالبقيع.

ميمونة

أم المؤمنين: ميمونة بنت الحارث، أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس ـ رضي الله عنهما ـ، تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة سبع للهجرة، في عمرة القضاء، بعد أن حل منها وابتنى بها في مكان يقال له سرف على بعد أميال من مكة، وقد توفيت أيضاً بسرف سنة واحد وستين للهجرة، ودفنت هناك.

فهولاء إحدى عشرة امرأة تزوج بهن الرسول الله ﷺ، وبنى بهن، وتوفيت منهن اثنتان ـ خديجة وزينب أم المساكين ـ في حياته، وتوفي ﷺ عن التسع البواقي.

المطلقات

وأما الاثنتان اللتان عقد عليهن ولم يبن بهما وقد أفسدنهن النساء: فواحدة من بني كلاب، وأخرى من كندة، وهي المعروفة بالجونية. وقد قلن النساء لها: إذا دنا منك فتمنعي، فتمنعت فطلقها.

روى البخاري من حديث أبي أسيد الساعدي قال: خرجنا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط يقال له الشَّوط حتى انتهينا إلى حائطين جلسنا بينهما، فقال النبي ﷺ: «أجلسوا هاهنا»، ودخل، وقد أتى الجونية، فأنزلت في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، ومعها

دايتهـا ـ حاضنته لها ـ فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: «**هبي نفسـك لي**» قالت: وهل تهب المَلكةُ نفسـها للسـوقة (ولم تعرف أنه رسول الله) قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسـكن، فقالت أعوذ بالله منك، فقال: «**قد عذت بمعاذ**».

فقال: «**يا أبا أسيد أكسها رازقيّين، والحقها بأهلها**».

أما الأخرى من بني كلاب، فقد قالت عندما توفي إبراهيم ابن الرسول ﷺ: لو كان نبياً ما مات ابنه، فطلقها.

مارية وريحانه

وأما السـراري فقد تسـرى باثنتين: إحداهما مارية القبطية، أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم، الذي توفي صغيراً بالمدينة في حياته ﷺ، في شهر شوال سنة عشر من الهجرة.

والسـرية الثانية: هي ريحانة بنت زيد النضريـة أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصطفاها لنفسه.

والمتأمل في حياة النبي ﷺ الأسـرية وزوجاتـه، يلحظ أنه تزوج ﷺ وعمره خمس وعشـرون عاماً، وبقيت خديجة ـ رضي الله عنها ـ زوجته الوحيدة، ثم بعد وفاتها تزوج سودة وبقيت معه ثلاث سنين ليس له زوجه إلا هي، وأما عائشـة ـ رضي الله عنها ـ وبقيه زوجاته فلم يتزوجهن إلا بعد أن بلغ ﷺ ثلاث وخمسين سنة.

أولاده ﷺ

رزق نبينا ﷺ الزوجات الصالحات، والأمهات الفاضلات، ووهبه ـ عز وجل ـ الذرية المباركة.

وجميع أولاده ﷺ من خديجة إلا إبراهيم. وهم:

القاسم: وهو أكبر ولد رسول الله ﷺ، وبه كان يكنى، عاش حتى مشى، وقد توفي وعمره نحو سنتين.

زينب: وهي أكبر بناته ﷺ، أصيبت في الله، فقال ﷺ: «تلك أفضل بناتي»، ولدت بعد القاسم، وتزوجها أبو العاص بن الربيع، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، وولدت زينب ابناً اسمه علي وبنتاً اسمها أمامة، وهي التي كان رسول ﷺ يحملها في الصلاة، توفيت زينب في أوائل سنة ثمان بالمدينة.

رقية: تزوجها عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فولدت له ابناً اسمه عبد الله، وقد بلغ ست سنين، ثم نقره ديك في عينه فمات، وماتت رقية ورسول الله ﷺ في بدر، وجاء زيد بن حارثة بشيراً إلى المدينة بنصر المسلمين، فوجدهم قد سووا التراب على قبرها.

أم كلثوم: زوجها رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بعد وفاة رقية بعدما رجع من بدر، ولم تلد له شيئاً، توفيت في شعبان من السنة التاسعة للهجرة، ودفنت بالبقيع.

فاطمة: وهي أصغر بناته ﷺ، واحبهن إليه، وهي سيدة نساء أهل الجنة، تزوجها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بعد بدر، فولدت له ابنين:

حسناً وحسيناً، وبنتين: زينب وأم كلثوم التي تزوجها عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فولدت له زيداً. ثم مات عنها فتزوجها عون ابن عمها جعفر، وتوفي عون فتزوجها أخوه محمد، وتوفي محمد فتزوجها أخوه عبد الله، ثم مات وهي عنده، وتوفيت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ بعد النبي ﷺ بستة أشهر ولها من العمر تسع وعشرون سنة.

وهؤلاء الخمسة المذكورون من أولاده ﷺ ولدوا قبل أن يكرمه الله بالنبوة والرسالة.

عبدالله: يقال إنه ولد في الإسلام، ويقال: بل قبل ذلك، توفي وهو صغير، وكان آخر أولاد النبي ﷺ من خديجة.

إبراهيم: ولد بالمدينة من سريته ﷺ مارية القبطية، في جمادى الأولى أو جمادى الآخرة من السنة التاسعة للهجرة وتوفي في شوال من السنة العاشرة للهجرة يوم كسفت الشمس بالمدينة وهو رضيع ابن ستة عشراً أو ثمانية عشر شهراً، ودفن بالبقيع، وقد قال ﷺ: «**إن له مرضعاً تتم رضاعته في الجنة**».

صفاته ﷺ الخَلقية والخُلقية

جمع الله لنبينا محمد ﷺ صفات الكمال والجمال، كمال الخلق وجمال الخلقة، ووصفه - عز وجل - في كتابه العظيم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

قال حسن بن ثابت في مدح النبي ﷺ:

وأجمل منك لم تر قط عيني
وأسمح منك لم تلد النساء
خُلقت مبرأ من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

أم معبد تصفه ﷺ

قالت أم معبد الخزاعية عن رسول الله ﷺ - وهي تصفه لزوجها، حين مر بخيمتها مهاجراً -: ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثُجْلَةَ (أي: ضخامة البطن واسترخاؤه)، ولم تزر به صعلة (أي: النحافة)، وسيم قسيم، في عينيه دَعَج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطع، أحور، أكحل، أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق، فضل، لا نزر، ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن، ربعة لا تقحمه عين من قصر، ولا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود، محشود، لا عابس ولا مفند.

قال البراء: كان أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً. [رواه البخاري].

وسُئل أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر. وفي رواية: كان وجهه مستديراً.

وقالت الربيع بنت معوذ: لو رأيته رأيت الشمس طالعة. [رواه الدارمي].

وقال جابر بن سمرة: رأيته فل ليلة إضحيان، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر ـ وعليه حلة حمراء ـ فإذا هو أحسن عندي من القمر. [رواه الترمذي].

وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث. [رواه الترمذي].

وقال كعب بن مالك: كان إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر. [رواه البخاري].

وكان إذا غضب أحمر وجهه، حتى كأنما فقىء في وجنتيه حب الرمان.

وقال جابر بن سمرة: كان في ساقية حُمُوشة، وكان لا يضحك إلا تبسماً، وكنت إذا نظرت إليه قلت: أكحل العينين، وليس بأكحل. [رواه الترمذي].

قال ابن عباس: كان أفلج الثنيتين، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه. [رواه الدارمي].

وأما عنقه فكأنه جيدُ دمية في صفاء الفضة، وكان في أشفاره غطف، وفي لحيته كثافة، وكان واسع الجبين، أزج الحواجب في غير قرن بينهما، أقنى العرنين، سهل الخدين، من لبته إلى سرته يجري كالقصيب، ليس

في بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، سواء البطن والصدر، مسيح الصدر عريضه، طويل الزند، رحب الراحة، سَبْط القَصَب، خُمْصَان الأَخْمَصَين، سائل الأطراف، إذا زال زال قلعاً، يخطو تكفياً ويمشي هوناً.

وقال أنس: ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحاً قط أو عرفاً قط. وفي رواية: ما شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً، أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ. [رواه البخاري].

وقال أبو جحيفة: أخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك. [رواه البخاري].

وقال جابر بن سمرة ـ وكان صبيّاً ـ مسح خدي فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار. [رواه مسلم].

وقال أنس: كأن عرقه اللؤلؤ. وقالت أم سليم: هو من أطيب الطيب. [رواه مسلم].

منطقه ﷺ

قال هند بن أبي أهالة يصف كلام وحال النبي ﷺ: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله ـ تعالى ـ، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير.

ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئاً، غير أنه لم يكن يذم ذَواقاً، ولا يمدحه.

ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تُعُدِّي الحقُ لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها. إذا أشار أشار بكفه

كلهـــا، وإذا تعجب قَلَبها، وإذا تحدث اتصـــل بها، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى.

وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه. جلُّ ضحكه التبسم، يَفْتَرّ عن مثل حبّ الغمام.

مدخله ومخرجه

قال الحسن: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ، فقال: كان إذا أوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً لله، وجزءاً لأهله وجزءاً لنفســـه، ثـــم جزء جزأه بينه وبين النـــاس، فيرد ذلك بالخاصة على العامة ولا يدخر عنها شيئاً.

وكان من ســـيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، وقســـمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مساءلتهم عنه، وأخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: «**ليبلغ الشـــاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة**».

لا يذكر عنـــده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون رواداً، ولا يفترقـــون إلا عـــن ذواق، أي لا يتفرقون إلا عن علم وأدب يتعلمونه يقوم لأنفســـهم وأرواحهم مقام الطعام والشـــراب لأجسامهم، ويخرجون أدلة، يعني على الخير.

قال: فسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟ قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لســـانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهـــم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليـــه عليهم، ويحذر الناس ويحتـــرس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره وخلقه.

ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه.

معتدل الأمر غير مختلـف، لا يغفل مخافة أن يفضلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عَتادَ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه.

الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

مجلسه ﷺ

قال: فسألته عن مجلسه. فقال: كان رسول الله ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلا علـى ذكر، وإذا انتهى إلى قـوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك. يعطي كل جلسـائه بنصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سـأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسـور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء.

ومجلسه مجلس علم وحلم وحياء وأمانة وصبر، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبـن [أي لا تعـاب]، فيه الحرم، ولا تنثى فلتاته [أي لا تشـاع ولا تذاع]، متعادلين، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين، يوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

وقال خارجة بن زيد: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسـه، لا يكاد يخرج شـيئاً من أطرافه، وكان كثير السـكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عمـن تكلم من غير جميل، كان ضحكه تبسـماً، كلامه فصلاً، لا فضـول ولا تقصـير، وكـان ضحك أصحابه عنده التبسـم، توقيراً له واقتداء به.

جلسائه ﷺ

قال الحسين: سألت أبي عن سيرة النبي ﷺ في جلسائه، فقال: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عياب، ولا مشاج. يتغافل عما لا يتشهي، ولا يؤيس منه راجيه، ولا يخيب فيه.

قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار[أي من الكلام والمال]، ولما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم.

يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى أن كان أصحابه ليستجلبونهم، ويقول: «**إذا رأيتم طالب حاجة، يطلبها فأرفدوه**». ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز، فيقطعه بنهي أو قيام.

كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم. يتألفهم بذلك. خدمه أنس ـ رضي الله عنه ـ عشر سنين، فما قال له أف قط، وما قال له لشيء صنعه: لم صنعته، ولا لشيء تركه لم تركته» [رواه البخاري].

وما كان فاحشا ولا متفحشا، ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزيء بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح [رواه الترمذي] ويقول: «**خياركم أحسنكم أخلاقاً**» [رواه البخاري].

وقال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: «إن شر الناس من تركه الناس ـ أو ودعه الناس ـ إتقاء فحشه» [رواه البخاري].

ونهى عن اللعن، فقال: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً» [رواه مسلم]. وقال: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة» [رواه مسلم].

وعندما قيل له: ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة» [رواه مسلم].

وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، وما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله. [رواه مسلم].

وما سئل رسول الله ﷺ قط فقال: «لا». [رواه مسلم].

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له عُمَير، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟» نغر كان يلعب به، فمات فدخل عليه النبي ﷺ يوماً فوجده حزيناً لموته، فقال ما قال. [رواه البخاري].

وقال ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا» [رواه البخاري]. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن أعرابياً بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه، وأهرقوا على بوله ذنوباً من الماء، أو سجلاً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» [رواه البخاري].

وقال في الرفق: «من يحرم الرفق يحرم الخير»، وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه» [رواه مسلم]، وقال: «وإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه» [رواه مسلم].

وقد تحلى بأعظم صفات المؤمنين وسجاياهم وهو الصفح والعفو عن الناس وعدم الانتقام عند الغضب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿...وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى: ٣٧] ويقول الرسول ﷺ: **«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»** [رواه البخاري].

وعندما قال رجل للنبي ﷺ: «أوصني، قال: **«لا تغضب»**، وردده مراراً» [رواه البخاري].

كان مما يحبه ﷺ هاتان الصفتان وقد قال لأشج عبد القيس **«إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»** [رواه مسلم].

ومن حسن خلقه وطيب معشرة ﷺ مراعاته للجار وأعطاؤه حقوقه، والصبر على ما بدر منه، قال ﷺ: **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»** [رواه البخاري].

وقال لأبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: **«يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك»** [رواه مسلم]، وفي رواية: **«.. ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف»** [رواه مسلم]. وقال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»** [رواه البخاري].

طعامه ﷺ

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: «إن النبي ﷺ لم يجتمع عنده غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف» [رواه الترمذي].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ» [رواه مسلم].

وفي رواية أخرى عنها: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة، من طعام بر، ثلاث ليال تباعاً حتى قبض» [رواه البخاري].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويا هو وأهله، لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير» [رواه الترمذي].

وذكرت عائشة أنه كان يأتيها فيقول: «**أعندك غداء؟**» فتقول: لا. فيقول: «**إني صائم...**» [رواه مسلم].

تواضعه ﷺ

وكان أشد الناس تواضعاً، وأبعدهم عن الكبر، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، وكان يعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس في أصحابه كأحدهم، قالت عائشة: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته، وكان بشراً من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

وفي الحديث عنه أنه ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولا عبد الله ورسوله**» [البخاري].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: «يا رسول الله إن لي إليك حاجة» فقال: «**يا أم فلان، انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك**»، فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها» [رواه مسلم].

وكان الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت. [رواه البخاري].

وكان يُدعى إلى خبز الشعير والإهالة السخنة ـ الدهن الجامد المتغير الرائحة من طوال المكث ـ فيجيب» [رواه البخاري]. وقال: «**لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت**» [رواه البخاري].

وأما فراشه المتواضع فقد قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «إنما كان فراش الرسول ﷺ الذي ينام عليه، أدماً حشوة ليف». [رواه البخاري].

وعلى الرغم من أنه لم يكن شخص أحب إلى الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من رسول الله ﷺ، إلا أنهم كانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك. [رواه البخاري].

وقال ﷺ في الثناء على التواضع وذم الاستكبار: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جَوّاظ مستكبر**» [رواه البخاري]. وقال: «**... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» [رواه مسلم].

حياؤه ﷺ

قال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: «وكان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه» [رواه البخاري].

أما الحق فلم يكن الرسول ﷺ يستحي منه، لأن ذلك من التفقه في الدين. فقد روت أم سلمة أن أم سليم جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟»، فقال: «**نعم، إذا رأت الماء**» [رواه البخاري].

وكان لا يثبت نظره في وجه أحد، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس، وكان لا يسمي رجلاً بلغ عنه شيء يكرهه، بل يقول: ما بال أقوام يصنعون كذا. وكان أحق الناس بقول الفرزدق:

يغضي حياء ويغضى من مهابته
فلا يكلم إلا حين يبتسم

وكان أعدل الناس، وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام. روى الترمذي عن علي أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

وسأل هرقل أبا سفيان: هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

بيته ﷺ

الزوجات هن سكن الرجل وهن الضعيفات المسكينات، وتظهر شخصية الرجل في بيته وتتجلى بوضوح في تعامله ومعاملته لهن، وكان ﷺ طيب المعشر لطيف الجانب وكان كثيراً ما يوصي بالزوجات خيراً، ويقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم**» [رواه الترمذي]. وأوصى بهن خيراً في حجة الوداع وعند موته.

وقال: «**حبب إليّ من الدنيا الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة**» [رواه أحمد] ومن دلائل احترامه وحبه لزوجته خديجة ـ رضي الله عنها ـ، إن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها [صديقاتها] وذلك بعد مماتها.

وقد روي أنه وضع ركبته لتضع عليها صفية ـ رضي الله عنها ـ رجلها حتى تركب على بعيرها» [رواه البخاري].

فصاحة لسانه

وكان ﷺ فصيح اللسان، قوي العارضة، يفصل الكلام تفصيلاً، مع سلاسة طبع ونصاعة لفظ، وقلة تكلف، وجزالة معنى. وليس هذا بعجيب ممن كان في الذؤابة من قريش، واسترضع في بني سعد، ونشأ بمكة، وأنزل عليه القرآن بلسان عربي بلغ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة.

وكان مما آتاه الله العلم بلغات العرب ولهجائها، فكان يخاطب كل قوم بلغتهم مما كان يدهشهم ويدهش الحاضرين من الصحابة، حتى قالوا له: ما رأينا الذي هو أفصح منك!! فقال: «**وما يمنعني وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين**» وقال مرة أخرى: «**أنا أفصح العرب، بَيْد أني من قريش، ونشأت في بني سعد**».

فجمع الله له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها، ورقة ألفاظ الحاضرة ورونقها إلى المدد الإلهي بالوحي المتتابع، ولا سيما وحي القرآن الذي لا يحيط بعلمه وأسراره إنسي ولا جني، فلا عجب إذا قال: «**أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً**» [رواه النسائي في سننه وأبو يعلى].

كرمه وجوده

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، قال ابن عباس: كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة [رواه البخاري].

قال جابر: ما سُئل شيئاً قط فقال: لا. [رواه البخاري].

شجاعته

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يُجهل، كان أشجع الناس، حضر المواقف الصعبة، وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أصيت له فرة، وحفظت عنه جولة سواه، قال علي: كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. قال أنس: فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قِبَل الصوت، فتلقاهم رسول الله

ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت، وعلى فرس لأبي طلحة عري، في عنقه السيف، وهو يقول: «**لم تراعوا، لم تراعوا**» [رواه مسلم].

بلاغته وفصاحته

كان ﷺ إمام البلغاء ومقدم الفصحاء، ومن جوامع كلمه ـ عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات» «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» «المرء مع من أحب». «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». «أي داء أدوى من البخل». «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة». «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»، «إن من البيان لسحراً»، «إن من الشعر حكمه». «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»، «من غشنا فليس منا». «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». «لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث». «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». «اليد العليا خير من اليد السفلى». «ترك الشر صدقة». «الحياء خير كله». «الغنى غنى النفس»، «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل». «كل مسكر حرام». «الولد للفراش وللعاهر الحجر». «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط». «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». «ما نقصت صدقة من مال»، «ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزاً»، «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة». «مطل الغنى ظلم، وإذا أتبع أحدكم على ملئ فليتبع». «ابدأ بمن تعول»، «كل معروف صدقة،

الكلمة الطيبة صدقة». «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعتيه».

«بـورك لأمتى في بكورها». «لا تـزال أمتي بخير ما لم يتخذوا الأمانة مغنمـاً والزكاة مغرماً». «احثوا التراب في وجوه المداحين». «رأس الحكمة معرفة الله». «يا خيل الله أركبي وأبشـري بالجنة». «الآن حمي الوطيس»، «لا يلـدغ المؤمن من جحر مرتـين». «لا يجني على المرء إلا يده». «ليس الخبر كالمعاينة». «ساقى القوم آخرهم شرباً». «المجالس بالأمانة». «لو بغي جبـل على جبل لذل الباغي منهما». «قيدوا العلـم بالكتابة». «خير المال عين سـاهرة لعين نائمة». «المسلم مرآة المسـلم». «رحم الله من قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم». «السعيد من وعظ بغيره». «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا». «المستشار مؤتمن». «الدال عَلَى الخير كفاعله». «الندم توبة». «لا يشـكر الله من لا يشـكر الناس»، «حبك الشيء يعمي ويصم». «السـفر قطعة من العذاب». «الرجل أحق بصدر مجلسه وصدر دابتـه». «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة». «تمام التحية المصافحة». «من حسن إسـلام المرء تركه ما لا يعنيه». «جبلت القلوب على حب من أحسـن إليها». «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، «الشـاهد يرى ما لا يرى الغائب». «ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه». «اتقوا النار ولو بشـق تمرة». «لا خير لك بصحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسـه». «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». «الدعاء سـلاح المؤمن». «خير الأمور أوسـاطها». «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». «اشفعوا تؤجروا وتحمدوا». «ما هلك امرؤ عن مشـورة». «ما عال من اقتصد». «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى». «شـر الندامة يوم القيامة». «شر المعذرة عند الموت». «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهـم»، «إياكم وخضـراء الدمن». قيل يا رسـول الله من؟ قال المرأة

الحسناء في المنبت السوء». «لا يدخل الجنة نمام». «لا إيمان لمن لا أمانة له»، «ولا دين لمن لا عهد له». «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود». «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم». «زر غباً تزدد حباً». «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»، «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»، «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك». «الدين النصيحة». «صنائع المعروف تقي مصارع السوء». «صدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر». «لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك». «اليوم الرهان وغداً السباق، والغاية الجنة والهالك من دخل النار». «ما ملأ ابن آدم شرّاً من بطن». «أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به». «كل الصيد في جوف الفرا». «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». «قل الحق ولو كان مراً». «أحب للمسلمين ما تحب لنفسك». «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس». «الصدق يهدي إلى البر، والكذب يهدي إلى الفجور». «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبتر أو أجذم». «البخيل من ذكرت عنده ولم يصل علي». «الأعمال بخواتيمها».

وإنك لعلى خلق عظيم

هذه بعض صفات نبينا ﷺ الذي كمله ربه وجمَّله، قال الشاعر:

يكفيك من كل مدح خالقه
واقرأ بربك مبدأ سورة القلم
شهم تشهد به الدنيا برمتها
على المنائر من عرب ومن عجم
أحيا به الله أرواحاً قد اندثرت
في تربة الوهم بين الكأس والصنم

ذكر الردة

بعد أن توفي رســول الله عظمت به مصيبة المســلمين، لكن الله ـ عز وجل ـ حفظ الأمة ومنَّ على أصحاب رسول الله ﷺ بالألفة وعدم الفرقة واجتمعوا على خليفة لهم هو الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشــاتية لفقد نبيهم، حتى جمعهم الله على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

وذلــك أن العرب افترقت فــي ردتها فقالت فرقة: لو كان نبيّاً ما مات.

وقال بعضهم: انقضت النبوة بموته فلا نطيع أحداً من بعده.

وقال بعضهم نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله ونصلي، ولكن لا نطيعهم في أموالنا.

من معجزات النبوة

وهمَّ بالرجوع عن الإسلام أكثر أهل مكة حتى خافهم أميرهم عتاب بن أسيد فتوارى.

فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله.

وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه. فتراجع الناس، وكفوا.

وكان هذا هو المقام الذي أراده رســول الله حيث قال لعمر وقد قال له: انزع ثنيتي ســهيل يلدغ بلسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال رسول الله

ﷺ: «**عسى أن يقوم مقاماً يسرك**».

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: لما توفي رسـول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسـول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقها وحسابه على الله؟**».

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المـال. والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسـول الله لقاتلتهم على منعه.

فقـال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شـرح صـدر أبي بكر للقتال فعرفـت أنه الحق. والله لرجح إيمان أبي بكر بإيمـان هذه الأمة جميعاً في قتال أهل الردة.

وروي عن عمر أنه قال: يا خليفة رسـول الله تألف الناس وارفق بهم، فقال أبو بكر: أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟ قد انقطع الوحي وتم الدين، أينقض وأنا حي؟

لقد كان أبو بكر أمير الشاكرين الذين ثبتوا على دينهم، وأمير الصابرين الذيـن صبروا على جهاد عدوهم وهم أهل الردة، وبرأي أبي بكر أجمعوا على قتالهم.

إنفاذ جيش أسامة

وهكذا تنازع إنفاذ جيش أسامة رأيان، الأول منهم يرى إبقاء جيش أسامة حتى تستقر الأمور وتهدأ الأحوال، والرأي الثاني يرى إنفاذ جيش الرسول فإن ذلك أهيب لدى الناس وأقوى وأشد وقعاً في قلوب الكثيرين.

وكان من أشـد أصحاب الرأي الأول عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، فقالوا: احبس جيش أسـامة يكون عمـارة وأماناً بالمدينة، وارفق

بالعــرب حتى ينفرج هذا الأمر فإن هذا الأمر شــديد غوره، فلو أن طائفة مــن العرب ارتدت قلنا قاتــل بمن معك من ارتد، وقد اتفقت العرب على الارتداد.

فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لو علمت أن السباع تأكلني بهذه القرية لأنفذت هذا البعث الذي أمر رسول الله بإنفاذه، ولا أحل لواء عقده رسول الله بيده.

ثم قال لأسامة إن رأيت أن تخلف معي عمر فافعل.

وأمره بالانتهاء إلى ما أمر به رســول الله ﷺ، وشــيعه ماشــياً وأسامة راكب، لأنه أقسم عليه ألا ينزل.

ومضى أســامة في سبعمائة مقاتل، وســار نحو تخوم البلقاء من أرض فلسطين كما أمره رسول الله ﷺ. فجعل لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد إلا قالــوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم. فهزموهم ورجعوا سالمين.

قتال أهل الردة

بعد أن ســير أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ جيش أسامة وأنفذه كما أمر به النبي ﷺ جد بأبي بكر الجد في قتال أهل الردة، وأراد الله رشــده فيهم، وعزم على الخروج بنفســه إليهم، وأمر الناس بالجهاز، وخرج هو في مائة مــن المهاجرين والأنصار، وخالد بن الوليــد يحمل اللواء حتى نزل نقعاً، أياماً يريد أن يتلاحق الناس ويكون أســر لخروجهم، ووكل بالناس محمد ابن مسلمة يستحثهم. ولم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلا خرج.

وأشار عليه عمر وغيره بالرجوع وقالوا: ارجع يا خليفة رسول الله تكن للمســلمين فئة ورداءً، فإنك إن تقتــل يرتــد الناس ويعلــو الباطل الحق،

وأبو بكر مظهر المسير بنفسه.

وسألهم بمن نبدأ من أهل الردة؟ فاختلفوا عليه، قال أبو بكر: نعمد لهذا الكذاب على الله وعلى رسوله طليحة.

الوصية

ولما ألحوا على أبي بكر بالرجوع وعزم هو عليه استعمل عليهم خالد بن الوليد وقال: يا خالد، عليك بتقوى الله وإيثاره على من سواه والجهاد في سبيله، فقد وليتك على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار. ورجع أبو بكر ومن معه، وسار خالد حتى نزل على طيء في جبليهم سلمى وأجا، وانضم إليه عدي بن حاتم ومن كان معه من المسلمين في تلك القبائل.

وسار إلى طليحة بن خويلد الأسدي الذي أدعى النبوة. وهو على ماء من مياه أسد فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزم طليحة وانهزم الناس، ثم لحق بالشام.

وبعد زمن جاء طليحة بعد ذلك فأسلم وحسن إسلامه وقتل بنهاوند شهيداً، فدخلت القبائل في الإسلام: بنو حنظلة وأسد وفزارة وغطفان وبنو عامر وبنو سليم وغيرهم وبايعوه على الإسلام، وأخذ كل ما ظهر من سلاحهم، واستحلفهم على ما غيبوا منه، فإن حلفوا تركهم، وإن أبوا شدهم أسرى حتى أتوا بما عندهم، فأخذ سلاحاً كثيراً فأعطاه أقواماً يحجون إليه في قتال عدوهم، وكتبه عليهم، ثم رده بعد فقدم به على أبي بكر.

قتل مسيلمة

ثم توجه خالد إلى اليمامة في بضعة عشر ألفاً لحرب مسيلمة الكذاب، ومعه أربعون ألفاً، فقتل الله مسيلمة وقتل من أصحابه عشرة آلاف.

وكانت الهزيمة أولاً على المسـلمين حتى دخل أصحاب مسيلمة فسطاط خالد فرعبلوا الفسـطاط بالسيف، واستحر القتل فيهم وحملة القرآن منهم حتى فنوا إلا قليلاً.

قال وحشـي يصف شدة القتال: اقتتلنا قتالاً شديداً، حتى رأيت شهب النار تخرج من خلال السيوف، حتى سمعت لها صوتاً كالأجراس.

وقال ضمرة بن سـعيد المزني: لم يلق المسـلمون عدوّاً أشد نكاية منهم (أي بنـو حنيفة) لقوهم بالموت الناقع، والسـيوف قد أصلتوها قبل النبل، وقبل الرماح.

ونادى المسـلمون ثابت بن قيس ودعاهم إلى الثبات وصاح صيحته: يا أصحاب سورة البقرة.

وأذن الله ـ عز وجل ـ بالنصر، وحمل عليهم المسـلمين وقاتلوهم قتالاً شـديداً حتى قتل الله محكم بن الطفيل وفتح الله على المسلمين، واشترك في قتل مسـيلمة وحشـي بن حرب قاتل حمزة ورجل من الأنصار، وكان وحشي يقول: ربك أعلم أينا قتله.

وقتل من خيار المسـلمين ألف رجل، منهم زيد بن الخطاب، وثابت ابن قيس، وأبو دجانة، وعباد بن بشر، وسالم مولى أبي حذيفة.

ثـم صالح مجاعة خالـداً على من في الحصون من قومه، بعد أن خدع خالداً وبعث إلى قومه وأمرهم أن يلبسـوا النسـاء السلاح وأن يشرفوهن والذراري على رؤوس الحصون، وقال له: انظروا إلى المقاتلة والسـلاح، وكان المسـلمون يرون أنه لم يبق في مقاتلتهـم أحد، فلما رأوا ذلك ظنوا صـدق مـا قال، فصالحـه خالد على الصفراء والبيضـاء والحلقة والكراع ونصف السبي.

في المدينة

وكان أبو بكر يتروح الخبر عن اليمامة، وكان رأى في النوم كأنه أتى بتمر من هجر فأكل منه تمرة واحدة وجدها نواة خلقة تمرة، فلاكها ساعة ثم رمى بها، فتأولها فقال: ليلقين خالد من أهل اليمامة شدة، وليفتحن الله على يده. فأرسل خالد أبا خيثمة بشيراً إلى أبي بكر فلما رآه قال: ما وراءك يا أبا خيثمة؟ قال: خير يا خليفة رسول الله، قد فتح الله علينا اليمامة، فسجد أبو بكر شكراً له.

وقد قتل من بني حنيفة أكثر من سبعة الأف.

وقال زيد بن طلحة: قتل يوم اليمامة من قريش سبعون، ومن الأنصار سبعون، ومن سائر الناس خمسمائة.

وفي البخاري عن قتادة قال: ما نعلم حيّاً من أحياء العرب أكثر شهيداً وأعز يوم القيامة من الأنصار.

وقال قتادة: حدثنا أنس أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون، وفي جسر أبي عبيد سبعون ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ.

قتل الأسود العنسي

وفي مدة مرض رسول الله ﷺ قُتل الأسود العنسي، واسمه عبهلة، وكان يشعوذ ويري الجهال الأعاجيب، ادعى النبوة، وكاتبه أهل نجران، وسار الأسود من نجران إلى صنعاء فملكها، وصفا له الملك باليمن.

واجتمع جماعة من المسلمين واتفقوا على قتله، واجتمعوا بامرأته وكان الأسود قد قتل أباها.

فقالت: والله إنه أبغض الناس إلي، ولكن الحرس محيطون بقصره، فانقبوا عليه البيت، فواعدوها على ذلك ونقبوا عليه، فدخل فيروز الديلمي فقتله واحتز رأسه، فخار خوار الثور، فابتدر الحرس الباب، فقالت زوجته: هذا النبي يوحى إليه.

فلما طلع الفجر أمروا المؤذن فقال: أشهد أن محمداً رسول الله، وأن عبهلة كذاب.

وكتب أصحاب النبي ﷺ إليه بذلك، فورد الخبر من السماء إلى النبي وأعلم أصحابه بقتل الأسود، ووصل الكتاب بقتله في خلافة أبي بكر فكان كما أخبر.

رؤيا النبي

وفي الصحيح قال عبيد الله بن عبد الله: سألت ابن عباس عن رؤيا رسول الله فقال ابن عباس: ذكر لي أن النبي ﷺ قال: **«بينا أنا نائم رأيت أنه وضع في يدي سواران من ذهب فقطعتهما وكرهتهما، فأذن لي فنفختهما فطاراً، فأولتهما كذابين يخرجان»**.

قال عبيــد الله: أحدهما العنســي الذي قتله فيروز، والآخر مســيلمة الكذاب.

موت فاطمة

وفي هذه الســنة وهي الأولى من خلافة أبي بكر ماتت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ، وهي بنت تسع وعشرين سنة.

جمع القرآن

وفي هذه الســنة أمر أبو بكر زيد بن ثابت بجمع القرآن لما رأى كثرة من قتل من القراء يوم اليمامة. كما في البخاري عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر جالس عنده.

فقــال أبو بكر: إن عمر جاءني فقال إن القتل اســتحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى إن استحر بالقراء في المواطن فيذهب كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

قال زيد فقال لي أبو بكر: إنك رجل شــاب عاقل لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه.

قال زيد: قلت كيف تفعلان شيء لم يفعله رسول الله ﷺ؟

فقال أبو بكر: هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني، وفي رواية فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعســب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبــة: ١٢٨] خاتمــة براءة، فكانت الصــحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثــم عنــد عمر حتى توفــاه الله، ثــم عند حفصة بنت عمر.

الحج

ولما دخل شهر ذي الحجة أمَّر أبو بكر عمر بن الخطاب على الحج، فخرج بالناس سنة إحدى عشرة فحج بالناس، واشترى في حجته تلك مولاه أسلم.

إلى الشام وفلسطين

وفي السنة الثالثة عشر بعث أبو بكر الجنود إلى الشام، بعث عمرو ابن العاص إلى فلسطين، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة ـ رضي الله عنهم ـ إلى الشام، وخرج أبو بكر مع يزيد يوصيه، ويزيد راكب وأبو بكر يمشي.

فقال له يزيد: إما أن تركب وإما أن أنزل.

فقال: ما أنا براكب ولا أنت بنازل، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله.

ثم مضوا ونزلت الروم بثنية جلق بأعلى فلسطين في سبعين ألفاً قائدهم تذارق أخو هرقل، فكتب عمرو بن العاص إلى أبي بكر يخبره ويستمده، فكتب أبو بكر إلى خالد وهو بالحيرة يأمره أن يمد أهل الشام بمن معه من أهل القوة، ويستخلف على ضعفة الناس رجلاً منهم، وقال له: إذا التقيتم فأنت أمير الجماعة.

فسار خالد بأهل القوة، ورد الضعفاء والنساء إلى المدينة، واستخلف على من أسلم بالعراق من العرب وغيرهم المثنى بن حارثة الشيباني.

ثم سار خالد حتى أغار على غسان بمرج راهط، ثم سار حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد، فصالح أهل بصرى حين رأوا كثرة العسكر على الجزية، وفتحها الله

للمسلمين، وكـانت أول مدينة فتحت من مدائن الشام.

وقعة أجنادين

ثم ســاروا جميعاً مدداً لعمرو بن العاص إلى فلســطين، فســمع الروم باجتماع المســلمين، فانكشــفوا إلى أجنادين، وكان ذلك في السنة الثالثة عشر للهجرة فسار المسلمون إليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم الله المشركين، وقتل المســلمون منهم في المعركة ثلاثة آلاف، واتبعوهم يأسرون ويقتلون، فخرج فل الروم إلى إيلياء وقيســارية ودمشــق. وكانت وقعة أجنادين هذه أول وقعة عظيمة كانت بالشام وكانت في جمادى الأولى قبل وفاة أبي بكر بأربع وعشرين ليلة.

ثم ســاروا إلى دمشق فحاصروها، فبينما هم كذلك أتاهم آت فأخبرهم أن هــذا الجيش قد جاءكم مــن قبل ملك الروم، فنهض خالد بالناس على تعبئــة حتى لقوهم، فهزمهم الله، ورجع النــاس وقد ظفروا، ويقال لهذه الوقعة «يوم مرج الصفر».

ثم رجعوا إلى دمشق فحاصروها وضيقوا عليها، فكان المسلمون يغيرون، فكلمــا أصاب رجل منهم شــيئاً جاء به يلقيه في القبض، لا يســتحل أن يأخذ منه قليلاً ولا كثيراً، فســأل صاحب دمشق بعض عيونه عن أعمالهم وســيرتهم فوصفهم له بهذه الصفة في الأمانة، ووصفهم بالصلاة في الليل وطول القيام، فقال: هؤلاء رهبان الليل أسود النهار، لا والله مالي بهؤلاء طاقة، ومالي في قتالهم خير، فراود المسلمين على الصلح.

موت الصديق

بعد ســنوات حافلة بعمل الخير، قضاها الصديــق عابداً، تقيّاً، ورعاً، زاهداً، مجاهداً بنفســه وماله في سبيل الله، باذلًا جهده في خدمة الإسلام

والمسلمين، توفي ـ رضي الله عنه ـ.

وكان قد استحم في يوم بارد، فحمَّ [حمّ: أصابته الحمى]، واستمرت تلك الحمى خمسة عشر يوماً، ولما اشتد به المرض، وشعر بدنو أجله قال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ:

اغسلي ثوبيَّ هذين وكفنيني بهما، فإنما أبوك أحد رجلين، إما مكسو أحسن الكسوة، وإما مسلوب أسوأ السلب. وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس.

الخلافة لعمر

وأوصى بالخلافة من بعده لعمر ـ بعد أن استشار كبار الصحابة ـ، كما أوصى عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ، وأن يلصق لحده بلحده.

وكانت وفاته ـ رضي الله عنه ـ ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وله ثلاث وستون سنة. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام، ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ولما توفي ارتجت المدينة بالبكاء، وصلي عليه في مسجد رسول الله، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن وقد جعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ.

براءة ذمته

قالت عائشة: لما مرض أبو بكر قال انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي.

فلما مات نظرنا فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه، وإذا ناضح كان يسقي بستاناً له، فبعثنا بهما إلى عمر، فبكى عمر وقال: رحمة الله على

أبي بكر، لقد أتعب من بعده تعباً شديداً.

ولما احتضر قال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا بنية إنا ولينا أمر المسلمين، فلم نأخذ لنا ديناراً ولا درهماً، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبق عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير، إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر.

أبناؤه

وكان له ـ رضي الله عنه ـ من الولد ستة، ثلاثة بنين: عبد الله وهو أكبرهم وعبد الرحمن وهو شقيق عائشة ومحمد، وثلاث بنات: عائشة وأسماء وهي أكبرهن وأم كلثوم، ماتت وهي في بطن أمها.

من فضائل أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ

اختـــار الله ـ عــز وجل ـ نبينا محمداً من بين ســائر البشــر، واختار لصحبته خير الرجال وأعظمهم، فقاموا بالرســالة ونشــروا الدين، وحموا حمى الإسلام.

فضل الصحابة

كل مؤمـــن فللصحابة عليه فضل، وكل خير فيه المســلمون من الإيمان والعلم والعبادة والسعادة إنما هو ببركة ما فعلوه، بلغوا الدين وجاهدوا في سبيل الله، وهم أكمل الأمة عقلاً وعلماً وفقهاً وديناً، أولئك قوم اختصهم الله لخدمـــة دينه والقيام بأمره. ومكّن لهم ففتحوا البلاد وحكموا العباد في مــدة لا يبلغ فيها الرضيع أن يُفطم. فمـــن كان محبّاً فليحبهم، ومن كان مفاخــراً فليفاخر بهم، ومن كان مكاثــراً فليكاثر بهم، فدينهم هو الدين، وعلمهم هو العلم، واتباعهم ســنة، واقتضــاء أثرهم ديانه. يقول محمود شــيت خطاب ـ رحمه الله ـ: تتبعت وفيات أصحاب رسول الله ﷺ في كتب التراجم المطبوعة والمخطوطة فوجدت أن أكثر من اثنين وثمانين بالمائة منهم ماتوا شهداء.

وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أفضل الصحابة وأعظمهم منزلة، وأعلاهم مكانة، وأســبقهم للإسلام. استخلفه رسول الله ﷺ على الصلاة التي هي عمود الإســلام، واســتعمله النبي ﷺ على أول حجة حجت من المدينة. وهو رفيقــه في مكة، وصاحبه في الغار، ووزيره في المدينة، وخليفته من بعده، تنقل معه في مراحل الرسالة، وحظي بمحبة النبي ﷺ.

بشارته بالجنة

وهو أحد العشـــر المبشرين بالجنة، في الحديث أنه ﷺ قال: «**أبو بكر في الجنــة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وابن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة ابن الجراح في الجنة**» [رواه الترمذي].

ومن فضائله ما رواه سعيد بن المسيّب قال: أخبرني أبو موسى الأشعري، أنه توضأ في بيته، ثم خرج فقلت: لألزمنَّ رسول الله ﷺ، ولأكونن معه يومي هذا، قال: فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ.

فقالوا: خرج ووجه هاهنا.

فخرجت على أثره، أســـأل عنه، حتى دخل بئر (أريس)، فجلست عند البـــاب، وبابها من جريد، حتى قضى رســـول الله ﷺ حاجته، فتوضأ، فقمت إليه فإذا هو جالس، على بئر (أريس) وتوســـط قُفَّهَا، وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر، فسلمت عليه، ثم انصرفت فجلست على الباب، فقلت: لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم.

فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت:

من هذا؟

فقال: أبو بكر.

فقلت: على رِسْلِكَ.

ثم ذهبت فقلت:

يا رسول الله! هذا أبو بكر يستأذن!

فقال: «**ائذن له وبشره بالجنّة**».

فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل. ورســـول الله ﷺ يبشرك بالجنة،

فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ، معه في القُف [القف: الدكة التي تجعل حول البئر] ،ودلى رجليه في البئر - كما صنع النبيّ - وكشف عن ساقيه. . . [رواه البخاري].

ودخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فقال: «**أنت عتيق الله من النار**» [رواه البخاري].

وعن أنس بن مالك قال: إن النبيّ ﷺ صعد أحداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم فقال: «**اثبت أحد، فإنما عليك نبيّ وصديق وشهيدان**» [رواه البخاري].

وعن جبير بن مطعم قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول الموت - قال ﷺ: «**إن لم تجديني فأتي أبا بكر**» [رواه البخاري ومسلم].

وفي الحديث عن النبي ﷺ «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لا تخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله - عز وجل - صاحبكم خليلاً**» [رواه البخاري ومسلم].

وقد دعا رسول الله ﷺ لأبي بكر بالمغفرة فقال: «**يغفر الله لك يا أبا بكر**» ثلاثاً، ثم قال ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي**» مرتين [رواه البخاري].

ورعه وتقواه

نزلت الآيات تشهد لأبي بكر أنه أتقى الناس جميعاً بعد رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ١٧-٢٠].

وذكر أكثر من واحد من أهل العلم، أنها نزلت في أبي بكر، فعن هشام

ابـــن عروة عن أبيه قال: أعتق أبو بكر ســـبعة كلهم يُعذب في الله: بلالاً، وعامر بن فهيرة، والنهدية، وابنتها، وزنيرة، وأم عبيس، وأمة بني المؤمل.

قال سفيان: أما زنيرة فكانت رومية وكانت لبني عبد الدار، فلما أسلمت عميت، فقالـــوا: أعمتها اللّات والعزى، فرد الله إليها بصرها، وأما بلال فاشتراه وهو مدفون في الحجارة، فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه.

فقال أبو بكر: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته.

ورعـــه

وكان أبو بكر شديد الورع في مأكله ومشربه، ومدخله ومخرجه.

وقد كان له مملوك يغِل عليه، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك:

مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟

قال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟

قال: مررت بقوم في الجاهلية، فرقيت لهم فوعدوني فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني.

فقال: أف لك كدت تهلكني.

فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج.

فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء.

فدعا بعس من ماء فجعل يشرب، ويتقيأ، حتى رمى بها.

فقيل له: يرحمك الله! كل هذا من أجل هذه اللقمة؟

فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها... سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل جســد نبت من ســحت فالنار أولى به**» فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة.

المسابقة إلى الخيرات

وكان أبو بكر سباقاً إلى فعل الخيرات والمبادرة إليها، فلا يسبقه في هذا الميدان أحد.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح منكم اليوم صائماً**»؟

قال أبو بكر: أنا.

قال: «**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**».

قال أبو بكر: أنا.

قال: «**فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟**».

قال أبو بكر: أنا.

قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟**».

قال أبو بكر: أنا.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**» [رواه مسلم].

بذل ماله في سبيل الله

كان أبو بكر جواداً سخيّاً، ينفق في سبيل الله إنفاق من لا يخاف الفقر.

ومن تلك المواقف ما ذكره عمر بن الخطاب حيث قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت:

اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً.

قال: فجئت بنصف مالي، فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**».

قلت: مثله.

وأتى أبو بكر بكل ما عنده.

فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**».

فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.

فقلت: لا أسبقك إلى شيء أبداً. [رواه أبو داود].

أبو بكر التاجر

عندما أسلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ كان صاحب ثراء وغنى وكان في بيته أربعون ألف درهم، فخرج إلى المدينة حين هاجر، وما له غير خمسة آلاف درهم كل ذلك ينفقه على الرقاب والعون على الإسلام.

وعن إنفاقه وفضله على أهل الإسلام قال رسول الله ﷺ: «**ما لأحد عندنا يد** [أي عطاء] **إلا وقد كافأناه، إلا أبا بكر فإن له عندنا يداً، يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر**» [رواه الترمذي].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر**» فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله. [رواه أحمد].

وإنفاق أبي بكر لم يكن نفقة على النبيّ ﷺ في طعامه وكسوته، فإن الله ـ تعالى ـ أغنى نبيه عن مال الخلق جميعاً، بل كان مال أبي بكر معونة للنبيّ ﷺ على إقامة الإيمان والدعوة إلى الإسلام ونشر الدين.

وكان أبو بكر ﷺ في إنفاقه لا يطلب سمعة، ولا يرجو من أحد جزاء ولا شكوراً، بل يطلب رضا الله ـ تعالى ـ وحده، فقد كان إنفاقه في بداية الدعوة لتخليص من آمن والكفار يؤذونه، أو يريدون قتله، مثل إعتاقه سبعة من الضعفاء منهم بلال.

فقال له أبوه؛ أبو قحافة: يا بنيّ أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أعتقت قوماً يمنعونك!

فقال: يا أبت إني أريد ما عند الله.

علمه وفقهه

الصديـق هو أعلم الأمة بعد نبينا محمـد ﷺ، فقد كان أفهم وأعرف الصحابة لأمور الدين، وقد حج بالناس في عهد رسول الله ﷺ، ومناسك الحج من أدق المناسك والعبادات.

وكان رسول الله ﷺ يستشيره، وكان إذا استشار الصحابة بدأ به، وكان يقدم رأيه على رأي غيره. وقد كان لمَّاحاً، سـريع الفهم، فعن أبي سـعيد الخدري قال: خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: «**إن الله ـ تبارك وتعالى ـ خيَّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله**».

فبكى أبو بكر، وقال: نفديك بآبائنا وأمهاتنا.

فعجبنا لبكائه أن يخبر رسـول الله ﷺ عن عبد، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا.

فقد عرف أبو بكر بذكائه، وفهمه عن رسـول الله ﷺ، أن رسـول الله ﷺ إنما ينعى نفسه، ويخبر عن قرب وفاته.

وكـان عمـر إذا ورد عليـه الخصم نظـر في كتاب الله، فـإن وجد فيه ما يقضي به بينهم قضى، فإن لم يكن في كتاب الله، وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك سنة قضى بها، فإن أعياه أن يجد في القرآن والسنة، نظر هل كان لأبي بكر فيه قضاء، فإن وجد أبا بكر قضى بقضاء قضى به، وإلا دعا رؤوس المسلمين فإذا اجتمعوا على شيء قضى به.

وكان ابن عباس يفتي بكتاب الله، فإن لم يجد فبما في سـنة رسول الله ﷺ، فـإن لم يجد أفتى بقـول أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ مقدماً لهما على غيرهما.

وكان أبو بكر عالماً بالأنساب مرجعاً فيها، حتى أن جبير بن مطعم وكان

أعرف الناس بأنساب قريش بل والعرب قاطبة أخذ عنه.

كما عرف عن أبي بكر أنه كان غاية في علم تعبير الرؤيا، وفي ذلك قال محمد بن سيرين ـ وهو أشهر الناس في تفسير الرؤى ـ: كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبي ﷺ.

تواضعه

كان أبو بكر متواضعاً، شديد التواضع، لم يترفع، ولم يصعر خده للناس، رغم أنه كان من أغنياء قريش، وأقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأن ابنته كانت أحب زوجات النبيّ ﷺ إليه.

وعندما أصبح خليفة رسول الله ﷺ، وحاكم المسلمين، لم تبطره السلطة، ولم يغيره السلطان.

ومن صور تواضعه ـ رضي الله عنه ـ أنه عندما بعث أسامة بن زيد إلى الشام، خرج يودع الجيش ويشيعهم وهو ماش، وأسامة راكب.

فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله! والله لتركبن أو لأَنْزِلن.

فقال: والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما عليّ أن أغبر قدميَّ في سبيل الله ساعة.

إلى السوق

ولما ولي الخلافة أصبح غادياً إلى السوق، وعلى رقبته أثواب، يتجر فيها، فلقيه عمر وأبو عبيدة، فقالا:

إلى أين تريد يا خليفة رسول الله؟

قال: السوق!

قالا: تصنع ماذا، وقد وليت أمر المسلمين؟

قال: فمن أين أطعم عيالي؟

قالا: انطلق.. حتى نفرض لك شيئاً.

فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة، وما كسوه في الرأس والبطن.

حب رسول الله له

كان رسول الله ﷺ يحب أبا بكر حبّاً لا يحبه أحداً من العالمين، فقد كان صديقه، وصفيه قبل البعثة، وقد زادت هذه المحبة، وقويت تلك الصداقة عندما جاء الإسلام، وكان أبو بكر أول من آمن به من الرجال، وكانا بعد لا يفترقان في سفر ولا حضر.

قال العلماء: صحب أبو بكر النبيّ ﷺ من حين أسلم إلى حين توفي، لم يفارقه سفراً ولا حضراً، إلا فيما أذن له ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الخروج فيه، من حج وغزو، وشهد معه المشاهد كلها، وهاجر معه وترك عياله وأولاده، رغبة في الله ورسوله، وهو رفيقه في الغار، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة ٤٠].

ومحبة رسول الله ﷺ لأبي بكر لا تحتاج إلى دليل، فإن الأحاديث التي يصرح فيها رسول الله ﷺ بحب أبي بكر كثيرة، فعن أبي عثمان قال: حدثنا عمرو بن العاص: أن النبيّ ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟

قال: «**عائشة**».

فقلت: من الرجال؟

فقال: «**أبوها**».

فقلت: ثم من؟

قال: «**ثم عمر بن الخطاب**»... فعد رجالًا [رواه البخاري].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيّ ﷺ قال: «**لو كنت متخذًا**

خليلًا، لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي» [رواه البخاري].

وقال ﷺ: **«إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟»** مرتين، فما أوذي بعدها [رواه البخاري].

ثناء الصحابة عليه

قال علي: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

وقال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: وَلِيَنا أبو بكر فخير خليفة، أرحمه وأحناه علينا.

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم.

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن عمر بن الخطاب قال: أبو بكر سيدنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ. [رواه البخاري].

وصعد عمر المنبر فقال: ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، فمن قال غير ذلك بعد مقامي هذا فهو مُفْتَر، عليه ما على المفتري.

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنّا نقول على عهد رسول الله ﷺ: إذا ذهب أبو بكر، وعمر، وعثمان، استوى الناس، فيبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكره.

وعن سالم بن أبي الجعد، قلت لمحمد بن الحنفية: لأي شيء قدِّم أبو بكر حتى لا يذكر فيهم غيره؟

قال: لأنه كان أفضلهم إسلاماً حين أسلم، فلم يزل كذلك حتى قبضه الله.

خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

عمــر بن الخطاب أمير المؤمنين، وفاروق هذه الأمة، أبلى في الإســلام بلاءً حسناً، وله المواقف المشهورة.

استخلفه أبو بكر على المسلمين عندما دنت وفاته، وبويع له بالخلافة يوم مات أبو بكر، وكان أول كلام تكلم به حين صعد المنبر أن قال: اللهم إني شديد فليني، وإني ضعيف فقوني، وإني بخيل فسخني.

أيهــا الناس القوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق، والضعيف عندي قوي حتى آخذ له الحق.

وهو أول خليفة دعي بأمير المؤمنين، وأول من وضع التاريخ بعام الهجرة، وضعه في الســنة السابعة عشر، وهو أول من جمع الناس على إمام واحد في قيام رمضان، وأول مــن حمل الدرة لتأديب الناس، وكان نقش خاتمه «كفى بالموت واعظاً يا عمر».

وحج بالناس عشــر حجج متواليــات، وحج بأزواج النبي ﷺ في آخر حجة حجها.

وكان فــي أيامه فتوح الأمصار، فقد فتحت دمشــق صلحاً على يد أبي عبيدة وخالد.

ثم فتح الله الروم وطبرية وقيســارية وفلســطين وعسقلان، وسار عمر بنفسه ففتح بيت المقدس صلحاً.

وفتحت أيضاً بعلبك، وحمص، وحلب، وقنسرين، وأنطاكية، وجلولاء، والرقة، وحران، والموصل ،والجزيرة، ونصيبين، وآمد، والرها، وفتحت

القادسية، والمدائن على يدي سعد بن أبي وقاص.

وزالت دولة الفرس وانهزم يزدجر ملك الفرس ولجأ إلى فرغانة والترك. وفتحت أيضاً كورة الأبله على يد عتبة بن غزوان، وفتحت كور الأهواز والجابية على يد أبي موسى، وفتحت نهاوند واصطخر، وأصبهان وبلد فارس، وتستر وسوس، وهمذان والنوبة والبربر، وفتحت أذربيجان وبعض أعمال خراسان، وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص غرة محرم سنة عشرين، وفتح عمرو أيضاً الأسكندرية وطرابلس الغرب وما يليها من الساحل.

وفي أيام عمر مُصرت البصرة سنة سبع عشرة والكوفة، ونزلها سعد بن أبي وقاص.

وفي سنة ثمان عشرة أصاب الناس مجاعة عظيمة، وسمى عام الرمادة لكثرة ما هلك فيها من الناس والبهائم جوعاً، فاستسقى عمر بالعباس فسقي، وفيها كان طاعون عمواس فيه مات خمسون ألفا، منهم أبو عبيدة ومعاذ وغيرهم من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

وكثر المال في دولته إلى الغاية حتى عمل بيت المال، ووضع الديوان، وفضل أهل السابقة على غيرهم، ورتب لرعيته ما يكفيهم، وفرض للأجناد.

ولما استخلفه أبو بكر كره بعضهم إمارته، وقال له طلحة: تولي علينا فظّاً غليظاً، ما تقول لربك إذا لقيته؟ فقال أبو بكر: ساندوني. فأجلسوه، فقال: أبالله تخوفوني؟ أقول: يا رب استخلفت عليهم خير أهلك. وحلفت بالله ما تركت أحداً أشد حبّاً له من عمر، وستعلمون إذا قارفتموها وتنافستموها.

وقال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب مصر حين قال: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وابنة شعيب حين قالت: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين، وأبو بكر حين استخلف عمر.

مقتل عمر ـ رضي الله عنه ـ

كان الخليفة الفاروق ـ رضي الله عنه ـ ملازماً للحج في سني خلافته، وكان من سيرته أن يأخذ عماله بموافاته كل سنة في موسم الحج ليحجزهم بذلك عن الرعية ويحجز عنهم الظلم ويتعرف أحوالهم عن قرب، وليكون للرعية وقت معلوم ينهون إليه شكاويهم.

قال سعيد بن المسيب: لما صدر عمر من منى أناخ بالأبطح، ثم كوم كومة بطحاء، ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء ثم قال: اللهم كبر سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط.

ثم قدم المدينة فخطب الناس، فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل.

وروي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ لما انصرف من حجته التي لم يحج بعدها أتى ضجنان ووقف فقال: الحمد لله ولا إله إلا الله، يعطي من يشاء ما يشاء. لقد كنت بهذا الوادي أرعى إبلاً للخطاب، كان فظاً غليظاً يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت. وقد أصبحت وليس بيني وبين الله أحد أخشاه. ثم تمثل بهذه الأبيات:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغن عن قيصر يوماً خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له
والجن والإنس فيما بينها ترد

أيـــن المـلـــوك الــتــي كــانــت لـعـزتـهـا
مــن كــل صــــوب إلـيــهــا وافـــد يـفـد
حـــوض هـنـــالــك مـــورود بـــلا كـذب
لا بــد مــن ورده يــومــاً كـمــا وردوا

وعن حفصة بنت عمر وأسلم مولاه عن عمر أنه قال: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك.

قالت حفصة فقلت: أنى يكون هذا؟ قال: يأتيني به الله إذا شاء. [رواه البخاري].

الرؤيا

وفي الصحيحين ولفظه لمسلم عن معدان بن طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة فذكر نبي الله، وذكر أبا بكر، ثم قال: إني رأيت كأن ديكاً نقرني ثلاث نقرات، وإني لا أراه إلا لحضور أجلي. وإن أقواماً يأمرونني أن أستخلف عليكم، وإن الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته ولا الذي بعث به رسوله ﷺ. فإن عجل بي أمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض. وإني قد علمت أن أقواماً يطعنون في هذا الأمر أنا ضربتهم بيدي هذه على الإسلام. فإن فعلوا ذلك فأولئك أعداء الله الكفرة الضلال. ثم إني لا أدع بعد شيئاً أهم عندي من الكلالة(١)، وما راجعت رسول الله ﷺ ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ فيها حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: «**يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء**»، وإن أعش أقض فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأه.

---

(١) الكلالة: أن يموت الميت وليس له وارث من والد أو ولد.

ثم قال: اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، وإني إنما بعثتهم عليهم ليعدلوا، وليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم، ويقسموا فيئهم، ويرفعوا إليَّ ما أشكل عليهم من أمرهم. ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين البصل والثوم، فلقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخا. فما كانت إلا الجمعة الأخرى حتى طعن عمر.

قتل عمر

وروي أن عمر خرج يوماً يطوف بالسوق، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة، وكان نصرانياً أو مجوسياً، فقال: يا أمير المؤمنين إن المغيرة أثقل عليَّ غلتي، فكلمه يخفف عني.

قال: فما صناعتك؟ قال: نجار حداد نقاش. قال: ما أرى خراجك كثيراً.

قال: بلغني أنك تقول لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح لفعلت. قال: نعم. قال: فاعمل لي رحى. فقال: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب. ثم انصرف عنه فقال عمر: لقد توعدني العلج آنفاً.

وفي حديث عمرو بن ميمون في البخاري: فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة، وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما فإذا رأى خللاً قال استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدم فكبر، قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل ونحو ذلك في الركعة الأولى، حتى يجتمع الناس.

فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه

حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، فمات منهم تسعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

فتناول عمر عبد الرحمن بن عوف فقدمه للصلاة، فأما من كان يلي عمر فقد رأى الذي رأيت، وأما نواحي المسـجد فإنهم ما يدرون ما الأمر، غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة.

فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس، انظر من قتلني. فجال سـاعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة ابن شـعبة. فقال: الصنع؟ قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفاً.

ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل مسلم، قد كنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة.

ثـم احتمل إلى بيته فانطلقنا معه، فكأن النـاس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فأتى بنبيذ فشـرب منه فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشـرب منه فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت.

النصيحة

وجاء رجل شـاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله، قد كان لك من صحبة رسول الله وقدم الإسلام، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة.

فقال: وددت أن ذلك كفافاً لا لي ولا علي.

فلمـا أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض فقال: يا ابن أخي ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك.

الدين

ثـــم قال لابنه عبـــد الله: يا عبد الله انظر ما عليَّ من الدين؟ فحســـبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه.

فقال: إن وفى مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فســـل في بني عدي بن كعب، فإن لم يف فسل في قريش، ولا تعدهم إلى غيرهم، وأد عني هذا المال.

القبـر

وانطلق إلى أم المؤمنين عائشـــة فقل: يقرأ عليك عمر السلام. ولا تقل أمير المؤمنين فإني لســـت اليـــوم للمؤمنين بأمير، وقل: يســـتأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

فسلم ثم استأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكي.

فقـــال: يقـــرأ عليك عمر بن الخطاب الســـلام، ويســـتأذن أن يدفن مع صاحبيه.

فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه اليوم على نفسي.

فلما أقبل قيل: هذا عبد الله قد جاء.

قال ارفعوني. فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟

قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت.

قـــال: الحمد لله، ما كان شـــيء أهـــم من ذلك إلي، فـــإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلِّم وقل: يستأذن عمر، فإن أذنت فأدخلوني، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين.

الوصية بالخليفة

فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف.

قال: ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذي توفي رسول الله وهو عنهم راض، فسمى علياً وعثمان وطلحة والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء - كهيئة التعزية له - فإن أصابت الإمارة سعداً فذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة.

وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم.

وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلتهم عن رضاً منهم، وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم.

وأوصيه بذمة الله وذمة نبيه ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم.

الوفاة

قال عثمان بن عفان يروي اللحظات الأخيرة في حياة عمر: أنا آخركم عهداً بعمر، دخلت عليه، ورأسه في حجر ابنه عبد الله بن عمر، فقال له:

ضع خدي على الأرض!

قال: هل فخذي والأرض إلا سواء؟

قال: ضع خدي بالأرض لا أم لك - في الثانية أو في الثالثة - ثم شبك بين رجليه فسمعته يقول:

ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي.

حتى فاضت نفسه.

ودفن مع صاحبيه رسول الله ﷺ، وأبي بكر في غرفة عائشة، وكان استأذنها قبل وفاته في أن يدفن هناك، فسمحت له.

وقد امتدت خلافته عشر سنين وأربعة أشهر وأياماً؛ كانت سنوات عامرة بالطاعة والعدل وكثرة الفتوحات.

دفن عمر

طعن عمر ـ رضي الله عنه ـ يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة. ودفن يوم الأحد صبيحة هلال المحرم، ونزل في قبره عثمان بن عفان، وعلي وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وكان عمره يوم توفي ثلاثاً وستين سنة، وصلى عليه صهيب الرومي. وكان له من الولد ثلاثة عشر: تسعة بنين، وأربع بنات.

من فضائل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

كان عمر حريصًا على إقامة العدل، وإنصاف الناس، وأداء الحقوق، وقد بيَّن سياسته تلك في أول خطبة خطبها بعد أن تولى الخلافة حيث قال:

أما بعد فقد ابتليت بكم وابتليتم بي، وخلفت فيكم بعد صاحبيَّ [أي بعد رسول الله ﷺ وأبوبكر] فمن كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، ومن غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة، فمن يحسن نزده حسناً، ومن يسيء نعاقبه ويغفر الله لنا ولكم.

وكان الفاروق يسأل دائماً عن رعيته، وأوضاعهم ومعاشهم، إذا جاءت شكوى أو سمع عن عامل له شيئاً، أرسل إلى العامل، فجاء فاستجوبه، أو بعث محمد بن مسلمة للنظر فيما سمع، وكان ابن سلمة ثقة، وخبيراً في أمور الولاة.

أمانة الحكم

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يتفقد أحوال المسلمين بنفسه، فيغيث من يحتاج إلى غوث، ويعطي من يحتاج إلى عطاء، ويطعم الجائع، ويواسي المريض، ويرفع الظلم عن المظلوم.

خرج مرة في سواد الليل، فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتاً، ثم دخل بيتاً آخر، فلما أصبح طلحة، ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء، مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟

قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى.

فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرات عمر تتبع؟!

وكان عمر يقول: والذي بعث محمداً بالحق، لو أن جملاً هلك ضياعاً، بشط الفرات، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب.

القوي الأمين

كان عمر شديد الحرص على مال المسلمين، شديد الخوف من أن يدخل عليه منه شيء، وفي ذلك يقول: إني أنزلت نفسي بمنزلة والي اليتيم من ماله، إن أيسرت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف.

قال أبو بكر العبسي: دخلتُ حين الصدقة، مع عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، فجلس عثمان في الظل، وقام علي على رأسه يملي عليه ما يقول عمر، وعمر قائم في الشمس، في يوم حر شديد، عليه بردتان سوداوان، متزر بواحدة، وقد وضع الأخرى على رأسه، وهو يتفقد إبل الصدقة، فيكتب ألوانها، وأسنانها.

فقال عليّ لعثمان: أما سمعت قول ابنة شعيب في كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

وأشار بيده إلى عمر فقال: هذا هو القوي الأمين.

وكان عمر بعيداً عن البذخ والأسراف، صوناً لمال المسلمين، قال عبد الله بن عامر بن ربيعة: خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى مكة، فما ضرب فسطاطًا ولا خباء حتى رجع، وكان إذا نزل يلقى له كساء، أو نطع على الشجر فيستظل به.

وأنفق في حجة حجها ثمانين درهماً من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة، ثم جعل يتأسف ويضرب بيده الأخرى ويقول: ما أخلقنا أن نكون أسرفنا في مال الله ـ تعالى ـ.

زهــده

من أكثر الصفات التي اشتهر بها عمر الزهد، فقد كان عمر شديد الزهد في الدنيا، شديد الإعراض عنها.

قال طلحة بن عبيد الله: ما كان عمر بن الخطاب، أولنا إســلاماً، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا في الدنيا، وأرغبنا في الآخرة.

وقــال معاوية: أما أبو بكر فلم يرد الدنيــا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن.

بين عمر وابنته

ورأت ابنته حفصة خشونة ملبسه ومأكله وهو أمير المؤمنين فرقت لحاله. فقالــت له حفصة: يا أمير المؤمنين لو اكتســيت ثوبــاً هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك، فقد وسع الله من الرزق، وأكثر من الخير.

فقال: إني ســأخاصمك إلى نفسك، أما تذكري ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش، وكذلك أبو بكر؟ فما زال يذكرها حتى أبكاها.

فقال لها: أما والله لأشــاركنهما في مثل عيشــهما الشديد، لعلي أدرك عيشهما الرخيّ. [رواه أحمد].

عام الرمادة

وتقرقــر بطن عمر وكان يأكل الزيت عــام الرمادة، وكان قد حرم على نفسه السمن، فنقر بطنه بإصبعه وقال: تقرقر ما تقرقر، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس.

وعمر إنما زهد في الدنيــا ونعيمها الزائل رغبة في نعيم الآخرة الباقي، فقد كان يقول: والله ما نعبأ بلذات العيش، أن نأمر بصغار المعزى فتسمط لنــا، ونأمر بلباب الحنطة فيخبز لنا، ونأمر بالنبيذ فينتبذ لنا في الأســعان،

حتى إذا صار مثل عين اليعقوب، أكلنا هذا، وشربنا هذا، ولكنا نريد أن نستبقي طيباتنا، لأنا سمعنا الله تعالى يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وكان زهد عمر يتبدى في طعامه وملبسه، ومسكنه، ومركبه.

فعن أبي عثمان قال: رأيت عمر بن الخطاب يرمي الجمرة، وعليه إزار مرقوع بقطعة جراب.

وقال أنس: لقد رأيت بين كتفي عمر أربع رِقاع في قميصه.

خوفه من الله

كان عمر شديد الخوف من الله ـ تعالى ـ، مع ما أكرمه الله ـ عز وجل ـ به، وأنه من المبشرين بالجنة، كان يقول: لو نادى منادٍ من السماء: يا أيها الناس لا يدخل النّار إلا رجل واحد، لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل.

وعن عبد الله بن عامر قال: رأيت عمر أخذ تبنة من الأرض فقال: ليتني كنت هذه التبنة، ليتني لم أخلق، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أك شيئًا، ليتني كنت نسياً منسياً.

وكان عمر دائم المحاسبة لنفسه، شديداً عليها، يخاف أن تورده المهالك، قال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب وقد خرجت معه، حتى دخل حائطاً، فسمعته، وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط يقول:

عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، بخ بخ، والله لتتقين الله بنيّ الخطاب، أو ليعذبنك.

هيبته ونفور الشيطان منه

كان عمر شديداً في الحق، لا يخاف فيه لومة لائم، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ: **«رحم الله عمر؛ يقول الحق وإن كان مرّاً، تركه الحق وما له من صديق»**.

وجاء في نهاية حديث آخر طويل في صحيح البخاري عن خوف الشيطان منه: قال رسول الله ﷺ: **«إيهاً يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً قط إلا سلك فجّاً غير فجك»** [رواه البخاري].

تواضعه

كان عمر شديد التواضع، ومن أوضح صور ذلك التواضع عندما قدم عمر بن الخطاب الشام، وهو خليفة المسلمين وقد دانت له الشام، والجزيرة وغالب الأمصار! فلقيه الجنود، وعليه إزار وخفان وعمامة، وهو آخذ برأس راحلته، يخوض الماء، قد خلع خفيه وجعلهما تحت إبطه.

قالو له: يا أمير المؤمنين! الآن تلقاك الجنود، وبطارقة الشام، وأنت على هذه الحال؟

قال عمر: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نلتمس العز من غيره.

ومما جرى له مع العباس ـ رضي الله عنهما ـ حيث كان للعباس ميزاب، على طريق عمر، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزاب، صب ماء بدم الفرخين، فأصاب عمر، فأمر عمر بقلعه، ثم رجع عمر فطرح ثيابه ولبس ثياباً غير ثيابه، ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس فقال: والله إنه للموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ.

فقال عمر للعباس: وأنا أعزم عليك، لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ. ففعل ذلك العباس. [رواه أحمد].

وأُسْتُفْتِيَّ عمر في مسألة، فقال: اتبعوني. حتى انتهي إلى عليّ بن أبي طالب.

فقال: مرحباً يا أمير المؤمنين.

فذكر له المسألة، فقال: ألا أرسلت لي؟

فقال: أنا أحق بإتيانك.

علم الفاروق

كان عمر عالماً، فقيهاً، واسع المعرفة، غزير العلم، عميق الفهم لكتاب الله وسنة رسوله، وكان رسول الله ﷺ قد رأى رؤيا، فسرها أن عمر سيكون من أهل العلم.

فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت كأني أُتيت بقدح لبن، فشربت منه، وأعطيت فضلي عمر بن الخطاب»**.

فقالوا: ما أولته يا رسول الله؟

قال: العلم.

وعن قبيصة بن جابر قال: والله ما رأيت أحداً أرأف برعيته، ولا خيراً من أبي بكر، ولم أر أحداً أقرأ لكتاب الله، ولا أفقه في دين الله، ولا أقوم بحدود الله، ولا أهيب في صدور الرجال، من عمر بن الخطاب، ولا رأيت أحداً أشد حياء من عثمان بن عفان.

اهتمامه بأمور المسلمين

كان عمر شديد الاهتمام بأمر الرعية، وتفقد أحوالهم، وقضاء حوائجهم. فعن زيد بن اسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر إلى السوق، فلحقته امرأة شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين! هلك زوجي وترك صبية صغاراً، والله ما ينضحون كراعاً، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت عليهم الضيعة، وأنا ابنة خفاف بن أيمان الغفاري، وقد شهد الحديبية مع رسول الله ﷺ.

فوقف معها، ولم يمض، وقال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير، كان مربوطاً في الدار، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً، وجعل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها خطامه.

فقال: اقتاديه.. فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها!

قال: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أب هذه وأخاها، حاصرا حصناً زماناً ففتحاه، ثم أصبحنا نستفيء سهامهما. [رواه البخاري].

وعن ابن عمر قال: قدمت رفقة من التجار، فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبد الرحمن: هل لك أن تحرسهم من السرق؟

فباتا يحرسانهم، ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبي، فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك.

ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه، فعاد إلى أمه، فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان من آخر الليل، سمع بكاءه فأتى أمه فقال لها:

ويحك إني لأراك أم سوء، مالي لا أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟

قالت: يا عبد الله أبرمتني منذ الليلة، إني أريغه عن الفطام فيأبى.

قال: ولم؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطم.

قال: وكم له؟

قالت: كذا وكذا شهراً.

قال: ويحك لا تعجليه.

فصلى الفجر، وما يستبين الناس قراءته، من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤساً لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين.

ثم أمر منادياً فنادى: أن لا تعجلوا صبيانكم على الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام.

وكتب بذلك إلى الآفاق أن يفرض لكل مولود في الإسلام.

خلافة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ

بويـــع لعثمـــان ـ رضي الله عنه ـ يوم الســـبت غرة المحرم ســـنة أربع وعشرين، بعد دفن عمر بثلاثة أيام باجتماع الناس.

وفي البخاري من حديث المســـور: إن الرهط الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشـــاوروا فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن، فلما صلى الناس الصبح اجتمع أولئـــك الرهط عند المنبر، فأرســـل عبد الرحمن إلى مـــن كان خارجاً من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد وكانوا قد وافوا تلك الحجة مع عمر، فلما اجتمعوا تشـــهد عبد الرحمن وقـــال: أما بعد يا علي فإني نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل لي على نفســـك سبيلاً.

فأخذ بيد عثمان وقال: أبايعك على ســـنة الله ورســـوله والخليفتين من بعده. فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون، وهو أقرب العشرة إلى رسول الله ﷺ بعد علي نسباً، وفضائله ـ رضي الله عنه ـ كثيرة.

الفتوح

كان عهـــد عثمان ـ رضي الله عنه ـ عهد فتوحات إســـلامية عظيمة براً وبحراً، منها ما كان في توطيد الفتوحات الســـابقة ومنها ما فتح من أرض جديدة، فقد فتحت في خلافته الأســـكندرية ثم نيســـابور، ثم طبرســـتان وسجســـتان وكرمان، ثم الأســـاورة في البحر، ثـــم إفريقية، ثم حصون قبرص، ثم ساحل الأردن، ثم مرو.

وفي أيامه قتل يزدجر ملك فارس في مرو، وغزا معاوية القسطنطينية، وفتحت أرمينية.

وفي أيامه ركب معاوية نائب الشام البحر بالجيوش فافتتح قبرص، ووقعت معركة ذات الصواري وسميت بذلك لكثرة صواري السفن التي قاتلت فيها. وسار نائبه على مصر عبد الله بن أبي سرح بالجيوش إلى إفريقية، وامتد ملك المسلمين حتى بلغ المحيط.

وافتتح عبد الله بن عامر بن كريز عامله على البصرة من أرض فارس مدينة جور وغيرها، وافتتح المسلمون في أشهر معدودة نحواً من عشرين مدينة. ولم تكن تلك المعارك بالسهلة بل كانت في الشدة والقوة، والصعوبة، وزاد من ذلك أن غالب الفتوحات في مناطق بعيدة جداً عن المدينة وحواضرها.

كثرة الأموال

وكثر المال والخراج على عثمان، وأتاه الخراج من النواحي. واتخذ الخزائن العظيمة بالمدينة. وكان يقسم بين الناس فيأمر للرجل بمائة ألف درهم. واتسعت الدنيا وكثرت الأموال حتى كانت الفرس تشترى بمائة ألف، وكان البستان يباع بالمدينة بأربع مائة ألف، وكانت المدينة عامرة كثيرة الأموال والخيرات والناس، ويجبى إليها خراج الممالك، وهي دار الأمان وقبة الإسلام، فبطر الناس بكثرة الأموال والنعم، وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا، فأخذوا ينقمون على خليفتهم لكونه يعطي المال أقاربه ويوليهم الولايات الجليلة، فتكلموا فيه وكان قد صار له أموال عظيمة وله ألف مملوك، فآل الأمر إلى أن قالوا: هذا لا يصلح للخلافة، وهموا بعزله بغياً وعدواناً.

المنحرفون

ثـــم اجتمع المنحرفون عـــن عثمان وحاصروه فـــي داره بالمدينة، وعلى الكوفيين الأشـــتر النخعي، وعلى المصريين ابن عديس وعمرو بن الحمق، وعلى البصريين حكيم بن جبلة، فسير إليهم عثمان ـ رضي الله عنه ـ المغيرة بن شـــعبة وعمرو ابن العاص ليدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فردوهما أقبح رد ولم يســـمعوا كلامهما، فبعث إليهم علياً فضمن لهم ما يعدهم به عثمان، وكتبوا على عثمان كتاباً بإزاحة علتهم والسير فيهم بكتاب الله وسنة نبيه، وأخذوا عليه عهداً بذلك ثم نقضوا العهد بعد ذلك.

وهجمـــوا على المدينة وكان عثمان يخـــرج فيصلي بالناس وهم يصلون خلفه شـــهراً، ثم خرج من آخر جمعة خرج فيها فحصبوه حتى وقع على المنبـــر ولـــم يقدر أن يصلي بهم، فصلى بالناس يومئذ أبو أمامة بن ســـهل بن حنيف، ثم حصروه ومنعوه الصلاة في المســـجد، وكان يصلي بهم ابن عديس تارة وكنانة بن بشر أخرى وهما من الخوارج على عثمان.

وفي مسند أحمد أن عثمان قال يوم الدار حين حصر: إن النبي ﷺ عهد إليَّ عهداً فأنا صابر عليه، فكانوا يرونه ذلك اليوم.

الرؤيا

وروي أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ أعتق عشرين مملوكاً، ودعا بسروايل فشدها عليه ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ البارحـــة في المنام ورأيت أبا بكر وعمـــر ـ رحمة الله عليهما ـ وأنهم قالوا: اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة.

ثم دعا بمصحف فنشر بين يديه فقتل وهو بين يديه. ويذكر أن الدم نضح على هذه الآيـــة ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧﴾ [البقرة: ١٣٧]

قال وإنها في المصحف ما حكت.

نصرة الصحابة له

وأرسل علي ابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوا عنه، وبعث الزبير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه محمداً، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم، فصدوهم عن الدار، فرمي بالسهام، واشتبك القوم وجرح الحسن وشج قنبر وجرح محمد بن طلحة. وكان معه في الدار جماعة يريدون الدفع عنه، منهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن الزبير، والحسن، وأبو هريرة، ومحمد بن حاطب، والمغيرة بن الأخنس، ويومئذ قتل المغيرة قبل عثمان.

المنع من القتال

قال أبو هريرة: إني لمحصور مع عثمان في الدار قال فرمي رجل منا، فقلت: يا أمير المؤمنين الآن طاب الضرب، قتلوا منا رجلاً، فقال عثمان: عزمت عليك يا أبا هريرة لما رميت سيفك، فإنما يراد نفسي، وسأقي المؤمنين بنفسي.

قال أبو هريرة: فرميت بسيفي فلا أدري أين هو الساعة.

وقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمعة لثمان أو سبع خلت من ذي الحجة يوم التروية، سنة خمس وثلاثين للهجرة.

وهي أول مصائب الإسلام وخرومه، لأن المسلمين استضيموا في قتله جهرة، وبقتله فتح باب الفتنة إلى يوم القيامة. قال حسان بن ثابت:

من سره الموت صرفاً لا مزاج له
فليأت مأسدة في دار عثمانا
ضحوا بأشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

صبرا فداء لكم أمي وما ولدت
قد ينفع الصبر في المكروه أحيانا
لتسمعن وشيكا في ديارهم
الله أكبر يا ثارات عثمانا

وقتل ـ رضي الله عنه ـ وهو ابن ثمانين سنة. وقال قتادة: ابن ست وثمانين، ودفن ليلاً بموضع يقال له حش كوكب، وهو اسم بستان لرجل من الأنصار.

وتفرقت الكلمة بعد قتله. وماج الناس واقتتلوا للأخذ بثأره حتى قتل من المسلمين تسعون ألفا.

من فضائل عثمان بن عفان - رضي الله عنه -

هجرته إلى الحبشة:

لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية، فأوثقه رباطًا، وقال: ترغب عن ملة آبائك إلى دين مُحْدَث؟ والله لا أدعك أبداً، حتى تدع ما أنت عليه.

فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً، ولا أفارقه.

فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه.

وعندما كانت الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، كان عثمان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، أول المهاجرين، فعن أنس قال: أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان.

وقال النبي ﷺ: «**إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط**».

تبشيره بالجنة

كان عثمان أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة:

فعن أبي موسى أنه كان مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة، فجاء رجل يستفتح، فقال النبي ﷺ:

«**افتح له وبشره بالجنة**».

ففتحت، فإذا أبو بكر، فبشرته بالجنة.

ثم استفتح رجل آخر.

فقال: «**افتح له وبشره بالجنة**».

فإذا عمر، ففتحت له وبشرته بالجنة.

ثم استفتح رجل آخر، وكان متكئاً فجلس، فقال:
«**افتح له وبشره بالجنة، على بلوى تصيبه أو تكون**».
فإذا عثمان، ففتحت له، وبشرته بالجنة، وأخبرته بالذي قال.
فقال: الله المستعان. [رواه البخاري].

وعن سعيد بن زيد قال: قال النبيّ ﷺ: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة**» والآخر لو شئت سميته، ثم سمى نفسه. [رواه الترمذي].

وعن قتادة: أن أنس بن مالك حدثهم: أن النبي ﷺ صعد أحداً، و أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم فقال: «**اثبت أحد، فإنما عليك نبيّ، وصديق، وشهيدان**» [رواه البخاري].

ذو النورين

كان رسول الله ﷺ قد زوج ابنته رقية من عتبة بن أبي لهب، وزوج أختها أم كلثوم عتيبة بن أبي لهب، فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

قال أبو لهب لابنه عتبة: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته!
ففارقها، ولم يكن دخل بها.

وكذلك قال أبو لهب لابنه الآخر عتيبة، فطلق أم كلثوم، ولم يكن دخل بها.

وبعد طلاق رقية من عتبة، تزوجها عثمان بن عفان وولدت له غلاماً سماه عبد الله، وبه كان يكنى، وعندما بلغ الغلام ست سنين توفي، وكان موته سنة أربع من الهجرة.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، كانت رقية مريضة بالحصبة، فتخلف عثمان ليكون إلى جانبها في مرضها، وكان تخلفه بأمر من رسول الله ﷺ، وتوفيت ـ رضي الله عنها ـ يوم وصل زيد بن حارثة مبشراً بانتصار المسلمين في غزوة بدر.

وقد ضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسهمه، وأجره، فكان كمن شهدها فهو معدود في البدريين إذا حسبوا.

وبعد أن توفيت رقية ـ رضي الله عنها ـ، زوجه رسول الله بابنته أم كلثوم، وهي أيضاً بنت خديجة، وكانت أصغر سنّاً من رقية، وكان نكاحه إياها في ربيع الأول من سنة ثلاث من الهجرة، ولم تلد منه، وتوفيت سنة تسع. وقال رسول الله ﷺ: «**لو أن لنا ثالثة لزوجنا عثمان بها**».

عثمان كاتب الوحي

كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ من كتاب الوحي، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو مسند فخذه إلى عثمان، وإني لأمسح العرق من جبين رسول الله ﷺ وإن الوحي لينزل عليه، وإنه ليقول:

«**اكتب عثيم فوالله ما كان الله لينزل عبداً من نبيه هذه المنزلة، إلا كان عليه كريماً**».

عثمان من أهل بيعة الرضوان

في الحديبية دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلِّغ عنه أشراف قريش أنه جاء معتمراً ولم يجئ محارباً فأعتذر خوفاً من سطوة قريش عليه.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحربهم، وإنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

فخـــرج عثمان إلى مكة واحتبســـته قريش عندها، وطـــال الاحتباس ـ ولعلهم كانوا يتشاورون ـ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتِل، فقال رسول الله ﷺ حين بلغته تلك الإشاعة: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**» [رواه مسلم].

ثم دعـــا أصحابه إلى البيعة، فاندفعوا إليـــه يبايعون على أن لا يفروا، وبايعته جماعة على الموت.

ولمـــا لم يكن قتل عثمان محققاً، بل كان بالإشـــاعة، بايع النبي ﷺ له على تقدير حياته، فوضع رســـول الله ﷺ يده اليمنى على يده اليســـرى، وقال: «**اللهم هذه عن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك**» [رواه مسلم].

وقد أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة، وهذه هي بيعة الرضوان التي نزل فيها قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وبعد أن جاء عثمان بايع بنفسه.

جمع القرآن

لما زاد القتل في القراء أيام حروب الردة، وخاف عثمان ـ رضي الله عنه ـ ضيـــاع القرآن، أمر زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع، والعســـب وصدور الرجـــال، فكانت الصحف عنده حتـــى توفي، ثم عند عمر حتى قتل، ثم عند حفصة.

ولما أرســـلت حفصة ـ رضي الله عنها ـ الصحف التي كانت لديها إلى عثمان أمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وســـعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم.

ففعلوا حتى إذا نسخ عثمان الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوه، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

إنفاقه في سبيل الله

رزق الله عثمان ـ رضي الله عنه ـ مالاً وفيراً وتجارة طائلة، سخرها لخدمة الإسلام ونفع المسلمين فقد انفق عثمان في سبيل الله أموالاً طائلة، وبذل بذلاً لايستطيعه إلا من استصغر هذه الدنيا وما فيها، وطلب رضا الله ـ تعالى ـ، ومن ذلك:

تجهيز جيش العسرة

وهو جيش غزوة تبوك التي وقعت في السنة التاسعة من الهجرة.

وكان عثمان قد جهز عيراً للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدق بها، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار، ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير و مئة فرس غير النقود.

وقد أنفق عثمان في ذلك الجيش نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها، وقيل جاء عثمان بألف دينار في كمه، فنثرها في حجر رسول الله ﷺ فقلبها في حجره، وهو يقول: «**ما ضرَّ عثمان ما عَمِل بعد اليوم**» [رواه الترمذي].

بئر رومة

لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكان لرجل من بني عفار عين يقال لها: (رومة) وكان يبيع منها القربة بمد، فقال رسول الله ﷺ: «**تبيعها بعين في الجنة؟**».

فقال: ليس لي يا رسول الله عين غيرها، لا أستطيع ذلك.

فبلغ ذلك عثمان، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبيّ

ﷺ فقال: أتجعل لي مثل ذلك الذي جعلت له ـ عيناً في الجنة ـ إن اشتريتها؟

قال: «نعم».

قال: قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين.

قال أبو هريرة: اشترى عثمان من رسول الله ﷺ الجنة مرتين، يوم رومة، ويوم العسرة.

توسعة مسجد رسول الله

ودعا رسول الله ﷺ يوماً إلى شراء أرض لتوسعه مسجده، فبادر عثمان، فاشترى الأرض ووسع بها المسجد النبوي الشريف.

فعن قتادة قال: كانت بقعة إلى جنب المسجد فقال النبي ﷺ: «**من يشتريها ويوسعها في المسجد له مثلها في الجنة**». فاشتراها عثمان فوسعها في المسجد.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في الدين عمر، وأصدقهم حياء عثمان**» [رواه الترمذي].

كثرة عبادته

كان عثمان مثالاً للمسلم التقي النقي، لا يقول إلا ما يرضي الله، ولا يفعل إلا ما يحب، لا يجده الله حيث نهى، ولا يفقده حيث أمر، نهاره صيام، وليله قيام، وإذا دعا داعي الجهاد، أنفق من ماله ما يعجز عنه الآخرون، وخرج بنفسه مجاهدًا في سبيل الله، فعثمان الذي ذاق حلاوة الإيمان، وهب نفسه كلها، وماله جله، ووقته جميعاً، ـ شبابه وكهولته ـ لله ـ تعالى ـ، ولسان حاله يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فعن ابن سيرين قال: كان عثمان يحيي الليل كله بركعة يجمع فيها القرآن.

وقال عثمان ـ مدافعاً عن نفسه ـ حين بلغه ما قاله عنه ابن عدس البلوي: كذب والله ابن عدس، لولا ما ذكر ما ذكرت ذلك، إني والله لرابع أربعة في الإسلام، و أنكحني رسول الله ﷺ ابنته، ثم توفيت فأنكحني ابنته الأخرى، ما زنيت ولا سرقت في الجاهلية ولا في الإسلام، ولا تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ﷺ، ولا أتت جمعة إلا ولنا عتق رقبة منذ أسلمت، إلا أن لا أجد تلك الجمعة، فأجمعها في الجمعة الثانية.

تواضعه

كان عثمان متواضعاً شديد التواضع، مع أنه كان غنيّاً واسع الغنى ـ، له حسب رفيع ونسب عال وكان صهراً للنبي ﷺ، حيث تزوج بنتين من بناته، وكان حسن المظهر، وقد آلت إليه الخلافة وسطوة الحكم، ومع تلك المنح الربانية ظل دائماً هو عثمان المتواضع، الذي لا تبطره الدنيا، ولا يغيره بهرجها، ولا تطغيه زينتها.

فعن الحسن قال: رأيت عثمان نائماً، في المسجد ورداؤه تحت رأسه، فيجيء الرجل فيجلس إليه، ثم يجيء الرجل فيجلس إليه، فيجلس كأنه أحدهم.

وزهد في الدنيا وهو من أغنى الأغنياء، وإن الدنيا لتجري بين يديه، ولو أراد لذات الدنيا الفانية ما استعصت عليه، ولكنه ادخر طيباته ليوم تشخص فيه الأبصار، فكان بسيط الملبس والمأكل والمظهر والمسكن.

فعن عبد الله بن شـــداد بن الهاد قال: رأيت عثمان بن عفان يوم الجمعة على المنبر، عليه إزار عدني غليظ، ثمنه أربعة دراهم، أو خمســة دراهم، وربطة كوفية ممشقة [أي ملاءة مصبوغة من الكوفة].

وسُئل الحسن عن القائلين في المسجد فقال: رأيت عثمان بن عفان يقيل في المســجد وهو يومئذ خليفة، ويقوم وقد أثر الحصى بجنبه، فيقال: هذا أمير المؤمنين.. هذا أمير المؤمنين.

وعن ميمون بن مهران قال: أخبرني الهمداني، أنه رأى عثمان بن عفان وهو على بغلة، وخلفه عليها غلامه نائل.

وعن الحسن وقد سأله رجل: ما كان رداء عثمان؟

فقال: قطري.

قال: كم ثمنه؟

قال: ثمانية دراهم!

قال: ما كانت قميصه؟

قال: سنبلاني.

قال: كم ثمنه؟

قال: ثمانية دراهم!

قـــال: ونعلاه معقبتان، مخصرتان، لهما قبلان [أي أكلتهما الأرض من كثرة الاستعمال فأصبح وسطه كل منهما رقيقاً مستدقّاً].

ذكر خلافة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ

لما جرت الفتنة وقتل عثمان، قام علي بن أبي طالب فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسـول الله ﷺ فقالوا له: إن هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر ولا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله منك.

قال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيراً خير من أكون أميراً.

قالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك.

قال: ففي المسـجد، فإن بيعتي لا تكون خفية، ولا تكون إلا عن رضى المسلمين. فدخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايع الناس.

وحين طارت الأخبار بقتل الشهيد عثمان، حزن عليه المسلمون، ولاسيما أهل دمشق، وأتى البريد بثوبه بالدم فنصب على منبر دمشق، ونعاه معاوية إلى أهلها فبكوا، وتعاقدوا على الطلب بدمه وكانوا ستين ألفا.

وآلى رجال منهم لا يأتون النسـاء ولا يغتسلون من جنابة إلا من احتلام حتـى يقتلوا قتلته ومن عرض دونهم. وتخلـف عن بيعة علي معاوية في أهل الشام وأظهروا له الخلاف ونسبوه إلى الإعانة على قتل عثمان والرضى بها، وقد برأه الله من ذلك.

واجتمع ناس إلى علي فقالوا: إن هؤلاء القوم قد اشـتركوا في قتل هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم.

ثـم إن طلحـة والزبير ـ رضي الله عنهما ـ ندمـا وعظم عليهما قتله، فخرجا هاربين إلى مكة من غير أمر علي، فاجتمعا بعائشـة ومن معها من

بني أميـــة، وجمعوا جمعاً عظيماً، واتفق رأيهـــم على المضي إلى البصرة وقالوا: معاوية بالشام قد كفانا أمرها.

فلما بلغه خبر الزبير وطلحة وأم المؤمنين وأنهم يريدون البصرة لمشـــاهدة الناس والإصلاح بينهم تعبأ للخروج نحوهم، واشتد على أهل المدينة الأمر وتثاقلوا، فســـار علي نحوهم في أربعة آلاف من أهل المدينة فيهم أربعمائة ممن بايع تحت الشـــجرة فالتقى هو وطلحة والزبير ومن معهما عند البصرة فجرت وقعة الجمل المشهورة بلا علم ولا قصد لأن الفريقين باتا على صلح وســـلام، فاندس قتلة عثمان في المعسكرين وأنشبوا الحرب بينهما فجأة في الصباح، فكل معسكر ظن أن الغدر جاء من المعسكر الآخر.

والتحم القتال من الغوغاء وخرج الأمر عن علي وطلحة والزبير، وقتل من الفريقين نحو عشـــرين ألفا، وقتل طلحة وانهزم الزبير فلحقه عمرو بن جرموز بوادي السباع فقتله.

عائشة

وكانت عائشة راكبة الجمل وهي في هودج وقد صار كالقنفذ من النشاب، وتمت الهزيمة على أصحاب عائشة. ولما كثرت القتلى عند الجمل وقطع على خطامه أيد كثيرة. قال علي: اعقروا الجمل، فعقر فســـقط. فبقيت عائشة في هودجهـــا إلى الليل، وأدخلها محمد إلى البصرة ثم أمر علي عائشـــة بالرجوع إلى المدينة وأن تقر في بيتها، فســـارت وشـــيعها الناس، وجهزها علي بما احتاجت إليه، وكانت بعد ذلك إذا ذكرت مسيرها هذا بكت حتى تبل دموعها خمارها وتقول: يا ليتني كنت نســـياً منسياً، ولوددت أني مت قبل ذلك بعشرين سنة.

واستعمل علي على البصرة عبد الله بن عباس، وسار إلى الكوفة فنزلها،

واستحكم له الأمر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان، ولم يبق خارجاً عنه إلا الشام، وأرسل علي جرير بن عبد الله إلى معاوية يطلب منه البيعة ويدخل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار، فماطله معاوية وامتنع من مبايعته، فسار علي إلى الشام في سبعين ألفا من أهل العراق، وسار إليه معاوية وعمرو بن العاص في أهل الشام ستين ألفا وقيل مائة وعشرين ألفا فالتقوا بصفين بناحية الفرات.

ودخلت سنة سبع وثلاثين والجيشان بصفين، ومضى المحرم ولم يكن بينهم قتال.

فلما دخل شهر صفر تنابذوا، وبات علي يعبئ الكتائب ويقول: لا تقاتلوهم إلا أن يبدؤوكم، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم لا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم. فاقتتلوا أياماً، وكانت بينهم وقعات كثيرة قيل كانت تسعين وقعة، وقتل من الفريقين أكثر من سبعين ألفا، وقتل من جند علي عمار بن ياسر من السابقين الأولين البدريين من نجباء الصحابة.

وقد تواترت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال لعمار «**تقتلك الفئة الباغية**»، ولما قتل عمار أمسك عمرو بن العاص عن القتال وتابعه على ذلك خلق كثير، فقال له معاوية: لم لا تقاتل؟ قال: قتلنا هذا الرجل، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقتله الفئة الباغية**»، فدل على أنا نحن البغاة.

فقال له معاوية: اسكت، فوالله ما تزال تدحض في بولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى ألقوه بيننا، وإنما دفعنا عن أنفسنا فقتل.

فبلغ ذلك علياً فقال: إن كنت أنا قتلته فالنبي ﷺ قتل حمزة حين أرسله

إلـــى قتال الكفار. ولما قتل عمار حمل علي في اثني عشـــر ألفا، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض.

وتخلف جماعة من ســـادات الصحابة عن القتال في الفتنة، منهم سعد بن أبي وقاص، وســـعيد بن زيد، وأبو اليســـر، وزيد بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وابن عمر، وأســـامة بن زيد، وصهيب الرومي، وأبو موسى الأشـــعري، ورأوا أن الســـلامة في العزلـــة وقالـــوا: إذا كان غزو الكفار قاتلنا.

ولما سئم الفريقان تداعوا إلى الخصومة، ورفع أهل الشام المصاحف على رؤوس الرماح وقالوا: ندعوكـــم إلى كتاب الله، فرضي الفريقان، فحكم علي وأهل الكوفة أبا موسى، وحكم معاوية عمرو بن العاص، ورجع علي ومـــن معه إلى العراق، ومعاوية ومن معه إلى الشـــام. ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل واتفقا على أن يخلعاهما معا ويختار المسلمون خليفة يرضون به، وقد عينوا يومئذ عبد الله بن عمر بن الخطاب. ثم اجتمعا بالناس فبدأ أبو موسى فخلع علياً ثم قام عمرو وقال: قد خلعت علياً كما خلعه وأثبت خلافة معاوية فرضي أهل الشام بذلك ورجعوا فبايعوا معاوية.

الخوارج

ولما جرى التحكيم غضب خلق كثير يزيدون عن عشرة آلاف من جيش علـــي وقالوا: لا حكم إلا لله، وكفروه واعتزلوه، وهم الخوارج. وشـــقوا عصا المسلمين ونصبوا راية الخلاف وسفكوا الدماء، وقطعوا السبيل، فبعث إليهم علي عبد الله بن عباس.

قال ابن عباس: فدخلت عليهم فلم أرى قط قوماً أشـــد منهم اجتهاداً، جباههـــم قرحة من الســـجود، وأيديهم كأنها ثفـــن الإبل، وعليهم قمص

مرحضة مشـــمرين، مسهمة وجوههم من السهر، فسلمت عليهم؛ فقالوا: مرحبا يا ابن عباس ما جاء بك؟

قلت: أتيتكـــم من عند المهاجرين والأنصار ممن عند صهر رســـول الله وعليهـــم أنزل القرآن وهم أعلـــم بتأويله منكم، فقالـــت طائفة منهم: لا تخاصمـــوا قريشـــاً فإن الله عز وجـــل يقـــول ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. فقال اثنان أو ثلاثة لنكلمنه.

فقلت: هاتوا ما نقمتم.

فقالوا: ثلاثاً إحداهـــن أنه حكم الرجال في أمر الله، وقد قال الله ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وأنه قاتل ولم يسب ولم يغنم فإن كانوا مؤمنين ما حل لنا قتالهم وســـبيهم، وإن كانوا كفاراً حل لنا قتالهم وسبيهم. ومحا عن نفسه من إمرة المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فإنه لأمير الكافرين.

فقلـــت: أما قولكم حكم الرجال في دين الله فأنا أقرأ عليكم في كتاب الله مـــا ينقض قولكم، إن الله صير مـــن حكمه إلى الرجال في ربع درهم ثمن أرنب، وتلا قوله ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ إلى قوله ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائـدة: ٩٥] وفي المرأة وزوجهـــا ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النســاء: ٣٥] فنشـــدتكم الله هل تعلمـــون حكم الرجال في إصـــلاح ذات بينهم وحقـــن دمائهم أفضل أم حكمهم في ثمن أرنب وبضع امرأة؟

قالوا: بل هذه.

قلت: خرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

قلت: وأما قاتل ولم يغنم أفتســـبون أمكم عائشة؟ فوالله إن قلتم ليست أمنا لقد خرجتم عن الإســـلام، وإن قلتم لنسبينها ونستحل منها ما نستحل

من غيرها فقد خرجتم عن الإسلام، أخرجت من هذه؟

قالوا: نعم.

قلت وأن قولكم محا نفسه عن إمرة المؤمنين فإن النبي ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيل ابن عمرو، فقال: يا علي اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا ما نعلم أنك رسول الله، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال: امح يا علي، واكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فوالله لرسول الله خير من علي.

فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم، فخرج علي بمن معه عليهم ورام رجعتهم فأبوا إلا القتال، فقاتلهم بالنهروان فقتلهم، ولم ينج منهم إلا القليل.

ذم الخوارج

وتواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بوصفهم وذمهم والتحريض على قتالهم، ففي الصحيحين عن سويد بن غفلة قال قال علي ـ رضي الله عنه ـ: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فوالله لئن أخر من السماء أحب إلي من أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة**».

وفيهما عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج في هذه الأمة ولم يقل منها قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر الرامي سهمه فيتمارى إلى نصله وإلى رصافه فيتمارى في فوقه هل علق بها من الدم شيء**»

وفـــي رواية لهما عنه «آيتهم رجل إحدى يديه أو إحــدى ثدييه مثل ثدي المرأة أو قال البضعة تدردر، يخرجون على خير فرقة من الناس».

تأليه علي

وقيل لعلي إن هنا قوماً على باب المســجد يزعمون أنك ربهم، فدعاهم فقــال لهم: ويلكم إنما أنــا مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشــرب كما تشــربون، إن أطعت الله أثابني وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا، فأبوا.

فلما كان من الغد غدوا عليه فجاءه قنبر: فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام.

قال: أدخلهم. فقالوا: كذلــك، فلما كان اليوم الثالث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث القتلة فأبوا إلا ذلك. فقال: يا قنبر ائتني بفعلة معهم مرورهم، فخد لهم أخدوداً بين المسجد والقصر.

وقال لهم: احفروا فأبعدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخــدود وقال: إني طارحكم فيهــا أو ترجعوا. فأبوا أن يرجعوا. فقذف بهم فيها حتى احترقوا وقال:

لمــــا رأيــــــت الأمــــــر أمــــــرا مــــنـــكــــراً
أوقـــــــدت نــــــاري ودعــــــــوت قــنــبــــرا

وفي الصحيح أن ابن عباس لما بلغه تحريقهم قال: لو كنت أنا لم أحرقهم لقول النبي ﷺ: «لا تعذبوا بعذاب الله» ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ علياً قول ابن عباس فقال: صدق ابن عباس.

ذكر مقتل علي ـ رضي الله عنه ـ

في وسـط هذه النزاعات والحروب التي جـرت، اجتمع ثلاثة نفر بمكة من بقايا الخوارج، هم: عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكـر التميمي، اجتمعوا بمكة وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة ويريحوا العباد منهم.

فقال ابن ملجم: أنا لكم بعلي، وقال بر: أنا لكم بمعاوية، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فاتعدوا بينهم ليلة سـبع عشرة من رمضان سـنة أربعين، ثم توجه كل رجـل منهم إلى المصر الذي يريده، فقدم عبـد الرحمن بن ملجم الكوفة عازماً على قتل علي، واشترى سيفاً لذلك بألف، وسقاه السم.

وروى عن الحسـن أنه سمع أباه في ذلك السحر الذي ضرب فيه يقول: يا بني إني رأيت النبي ﷺ الليلة في نومي فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من اللأواء واللدد. فقال: ادع الله عليهم.

فقلت: اللهم أبدلني خيرا منهم، وأبدلهم بي من هو شر مني.

ثم انتبه وجاءه مؤذنه للصلاة فخرج، فاعتور الرجلان ابن ملجم وشبيب بن بجرة الأشـجعي؛ فأما شبيب فوقعت ضربته في النطاق وأما ابن ملجم فضربه في رأسه، وذلك صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة من رمضان. وفي رواية فلما ضربه ابن ملجم قال: الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك.

قال علي: فزت ورب الكعبة، لا يفوتنكم الكلب، فشد الناس عليه من كل جانـب فأخذوه، فلما أخذ قال علي: احبسـوه، فإن مت فاقتلوه ولا

تمثلوا له، وإن لم أمت فالأمر إليَّ في العفو أو القصاص.

وقبر أول ليلة العشر الأواخر من رمضان. واختلف في موضع قبره فقيل دفن في قصر الإمارة بالكوفة، وقيل دفن في رحبة الكوفة، وقبل دفن في نجف الحسين موضع بطريق الحيرة، واختلف في سنه يوم مات فقيل: سبع وخمسون وقيل ثلاث وستون.

ولما بلغ عائشة قتل علي قالت: لتصنع العرب ما شاءت، فليس أحد ينهاها.

خلافته

وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وستة أيام. وقيل أربعة عشر يوماً. وكان ـ رضي الله عنه ـ يسير في الفيء بسيرة أبي بكر الصديق، وإذا ورد عليه مال لم يبق منه مالاً إلا قسمه، ولا يترك في بيت المال إلا ما يعجز عن قسمه في يومه ذلك، ويقول: يا دنيا غري غيري.

ولم يستأثر من الفيء بشيء ولا يخص قريباً بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات.

وإذا بلغته عن أحدهم خيانة كتب إليه: ويا قوم ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧] ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٥ـ ٨٦] إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى نبعث إليك من يتسلمه منك. ثم يرفع طرفه إلى السماء ثم يقول: اللهم إنك تعلم أني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك.

وثبت عن الحسين بن علي أنه قال: لم يترك أبي إلا ثمانمائة درهم فضلت من عطائه كان يعدها لخادم يشتريها لأهله.

وأما تقشــفه في لباسه ومطعمه فأشهر من أن يذكر، وأما فضله وسابقته وجهاده الكفار مع رسول الله ﷺ فأشهر من ذلك.

قال أحمد بن حنبل وإســماعيل القاضي: لــم يرو في فضائل أحد من الصحابة ما روي في فضائل علي بن أبي طالب.

وقيل له ألا تستخلف؟ فقال: لا، أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ.

وقــال بعضهم: إن نحن فقدناك ولا نفقدك بايع الناس الحســن، فقال: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

وصيته للحسن والحسين

ثم دعا الحسن والحسين فقال: أوصيكما بتقوى الله وحده ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها، قولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضعيــف، وكونا خصمــاً، وللمظلوم عونــا، ولا تأخذكما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال: هل سمعت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعــم. قال أوصيك بتوقيــر أخويك، ولا تقطعن أمــراً دونهما. ثم قال: أوصيكما به فإنه أخوكما وابن أبيكما فاعرفا حقه وأكرماه.

وهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الذين أوصى رســول الله ﷺ باتباع ســنتهم كما في حديث العرباض بن سارية أنه ﷺ قال: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشــدين المهديين من بعدي عضوا عليهــا بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»**.

من فضائل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ

بشارته بالجنة

بشر رسول الله ﷺ عشرة من الصحابة بالجنة، عرفوا بـ «العشرة المبشرين بالجنة»، ومنهم عليّ بن أبي طالب.

والأحاديث التي ورد فيها تبشير عليّ بالجنة كثيرة.

عن زيد بن أبي أوفى أن النبيّ ﷺ قال لعلي: **«أنت معي في قصري في الجنة، مع فاطمة ابنتي وأنت أخي ورفيقي»** ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [رواه أحمد].

عن جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى نخيل امرأة من الأنصار، فقال: **«يطلع عليكم رجل من أهل الجنة»** فطلع أبو بكر، فبشرناه، ثم قال: **«يطلع عليكم رجل من أهل الجنة»**، فطلع عمر، فبشرناه، ثم قال: **«يطلع عليكم رجل من أهل الجنة»**، وجعل ينظر من النخل ويقول: **«اللهم إن شئت جعلته عليّاً»**، فطلع عليّ. [رواه أحمد].

زوجاته وأولاده

كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ هي أول زوجة تزوجها عليّ، وقد كانت حيية شديدة الحياء، عذبة الحديث، لا تقول إلا طيباً، ذات خلق رفيع، نقية السيرة والسريرة، هذا بجانب أن رسول الله ﷺ كان شديد الحب لها، فقد قال ﷺ: **«فاطمة بضعة مني»** وعلي يحب كل ما أحبه رسول الله ﷺ، كما أن زواجه منها يعتبر برّاً لرسول الله ﷺ، الذي ضمه إليه منذ صغره، وعامله كأبنائه، وطالما أحسن إليه، وأفاض عليه من حبه وعطفه،

لكل ذلك رغب علي في الزواج من فاطمة.

وكان عمر عليٍّ عندما تزوج فاطمة خمس وعشرين سنة، وعمرها هي خمس عشرة سنة، وقد بنى بها بعد موقعة بدر.

أولاده من فاطمة

وقد رزق الله ـ تعالى ـ علياً من فاطمة: الحسن والحسين، ويقال محسن، وزينب وأم كلثوم، وظلت فاطمة امرأته الوحيدة، حتى توفاها الله ـ تعالى ـ سنة إحدى عشرة من الهجرة.

وقد أكرم الله ـ تعالى ـ علياً فجعل منه ومن فاطمة ذرية النبيّ، فبقية بناته ﷺ ليس لهن عقب، ومن ولدت مات ولدها صغيراً، والحسن والحسين ابنا عليّ هما سبطاه ﷺ وليس له سبط غيرهما، وهما سيدا شباب أهل الجنة، فعن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**» [رواه الترمذي].

وكان النبيّ ﷺ يحب الحسن والحسين حبّاً شديداً، قال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هما ريحانتاي من الدنيا..**» [رواه البخاري].

وعن أسامة بن زيد عن النبيّ ﷺ أنه كان يأخذه والحسن ويقول: «**اللهم إني أحبهما، فأحبهما**» [رواه البخاري].

زوجاته بعد فاطمة

وبعد وفاتها تزوج بزوجات كثيرة، منهن من توفيت في حياته، ومنهن من طلقها، وتوفي عن أربع، وقد رزق منهن ثمانية أولاد، وخمس عشرة ابنة، فيكون مجموع أبنائه، أحد عشر ذكراً، وسبع عشرة بنتاً.

ومن النساء اللاتي تزوجهن بعد فاطمة: خولة بنت إياس، وليلة بنت مسعود، وأم البنين بنت حزام، وأسماء بنت عميس، والصهباء أم حبيب،

وإمامــة بنت أبي العاص، وأم ســعد بنت عــروة، وأم محيَّاة بنت امرئ القيس.

شجاعته

يُذْكَر عليّ كواحد من أشــجع العرب، فقد اشتهر بهذه الصفة، ولا أدل على شجاعته من نومه في فراش رسول الله ﷺ، يوم هجرته، وهو يعرف أن قريشاً قد أجمعت أمرها، وقررت قتل رسول الله ﷺ.

ومن المواقف التي تثبت شــجاعته، ورباطة جأشــه، موقفه يوم الخندق حيث بارز عمرو بن عبد ود ـ أحد أبطال بني عامر ـ الذي عرف بشجاعته، وقوته، وأنه ما نازل أحداً مهما كانت قوته إلا صرعه. فقتله علي ـ رضي الله عنه ـ

وقد شــهد عليّ بدراً، وأحداً، والخندق، وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ، إلا تبوك، فإن رسول الله ﷺ خلفه في أهله، وكان في كل المشاهد والمعارك البطل الجسور، والمقاتل الجريء، والفارس الذي لا يشق له غبار، ما قاتل أحداً إلا قتله، وما بارز فارساً إلا صرعه، وما خابت ضربته يوماً، ومــا خرج من معركة إلا وهو مثقل بالجراح، ليس منها واحدة في ظهره ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

خلافة الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ

لما مات علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بايع الناس ابنه الحسن، ثم سار إلى معاوية، وسار معاوية بجيش الشام لصده، ولما تقارب الجمعان علم الحسن أن لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثرهما، ورأى أن الصالح في جمع الكلمة وترك القتال، فكتب إلى معاوية يراسله أنه يصير الأمر إليه، واشترط عليه أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان في أيام أبيه وأن يكون ولي العهد من بعده وأن يمكنه من بيت المال ليأخذ منه حاجته، ففرح معاوية وأجاب إلى ذلك وبعث إليه برق فقال: اكتب ما شئت فيه فألتزمه، والتزم معاوية كل ما كتب واشترط، وخلع الحسن نفسه وسلم الأمر إلى معاوية. فلما اصطلحا دخل معاوية الكوفة وسمي ذلك العام عام الجماعة، ووقع مصداق ما أخبر به ﷺ بقوله في الحسن: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**».

الصلح

ولما جرى الصلح بين الحسن ومعاوية قال له معاوية: قم فاخطب الناس واذكر ما كنت فيه. فقام الحسن فخطب فقال: الحمد لله الذي هدى بنا أولكم، وحقن بنا دماء آخركم. ألا إن أكسى الكيس التقي، وأعجز العجز الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون كان أحق به مني أو يكون حقي تركته لله وإصلاح أمة محمد ﷺ وحقن دمائهم.

ثم سار الحسن إلى المدينة بأهله وحشمه فأقام بها حتى مات ـ رضي الله عنه ـ.

محبة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ

وعقيدة المسلم الكف عما شجر بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ والترضي والترحم عليهم، فلهم قدم صدق في الإسلام، وهم من حمل راية هذا الدين ومن قام به خير قيام.

في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو انفق مثك أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه**» [رواه مسلم].

وسُئل الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: ما تقول فيما كان من علي ومعاوية ـ رحمهما الله ـ؟

فقال: ما أقول فيهما إلا الحسنى ـ رحمهم الله أجمعين ـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في العقيدة الواسطية: ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم، منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص، وغُيرِّ عن وجهه الصحيح.

والصحيح فيه: معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإمامجتهدون مخطئون.

وقال الإمام الطحاوي ـ رحمه الله ـ: ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من سيبغضهم وبغير الحق يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين واحد وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

وقد كان بين الرسول والخلفاء الأربعة من الموالاة والمحبة والألفة ما نشأ عنه مصاهرة بينهم وبين أولادهم وأحفادهم.

وهذا مما يزيد المحبة والترابط بينهم ويؤكدها، وأن ما تزعمه بعض الفرق الضالة يخالف الواقع عقلاً وشرعاً.

ومن تلك النماذج أن النبي ﷺ تزوج ابنة الصديق ـ عائشة ـ رضي الله عنهما ـ وكانت أحب نساءه إليه.

وتزوج ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ.

وتزوج ﷺ رملة بنت أبي سفيان ـ رضي الله عنها ـ.

وتزوج عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بنتا الرسول ﷺ رقية، وأم كلثوم، وسمي بذي النورين.

وتزوج عمر ـ رضي الله عنه ـ أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب فولدت له رقية وزيد.

الأحفاد

ولازالت المحبة مستمرة في الأحفاد والأسباط يتصاهرون فيما بينهم، ومن ذلك:

أن طلحة بن عبيد الله؛ تزوج أم كلثوم ابنة أبي بكر ـ رضي الله عنهم ـ.

وتزوج الزبير بن العوام؛ أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهم ـ.

وتزوج الحسين بن علي؛ حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنهم ـ.

وتزوج جعفر الصادق؛ أم فروة ـ وهي أم جعفر الصادق ـ ـ رضي الله عنهما ـ.

وتزوج عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، فاطمة بنت الحسين بن علي ـ رضي الله عنهم ـ.

وتـزوج عمرو بن الزبير بن العوام برقية بنت الحسـين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ.

وتزوج زيد بن عمر بن عثمان بن عفان، سكينة بنت الحسين بن علي ـ رضي الله عنهم ـ.

وتزوجت رملة بنت علي بن أبي طالب، بمعاوية بن مروان ـ رضي الله عنهم ـ.

وتزوج الوليد بن عبد الملك، زينب بنت الحسـن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ.

التسمية

وكان هؤلاء الخلفاء الأربعة وأحفادهم وأسباطهم يسمون بأسماء بعضهم بعضاً تقديراً واحتراماً، وتأسياً وقدوة بهم.

فمـن أولاد علـي بـن أبـي طالب مـن أسـماهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: أبو بكر، وعمر، وعثمان.

والحسن بن علي له من الأبناء: أبو بكر، وعمر.

ومحمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) له ابن أسماه: عمر.

وللحسين ابناء منهم: علي، وأبو بكر، وعمر.

والحسـن ـ رضي الله عنه لـه من الأبناء: أبو بكر، وعمر، والحسـن ويلقب (بالمثنى).

وعلي بن الحسين زين العابدين: سمى ابنته عائشة، وسمى عمر.

ولموسى الكاظم بن جعفر الصادق: أبو بكر، وعمر، وعلي، وعائشة.

فهذه آثار المحبة واضحة بينه في المصاهرة والتسمي بالأسماء، وقبل ذلك في الكتاب والسـنة ولاءً ونصره. رضي الله عنهم وأرضاهم وجمعنا معهم في دار كرامته.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.. طويت أيام مشرقة، وصفحات مضيئة من حياة الرسول ﷺ وسيرته. وهي حياة أمة، وقيام دعوة، وتبليغ رسالة.. اخَتصَرتْ عمره الشريف في ورقات، واخَتزَلَتْ دعوته المباركة في أسطر.

ولا نزال بفضل الله نتفيأ ظلال دعوته، ونسير على طريق ممهده، ونجاد ووهاد وفجاج معبدة.

إن من كتب ويكتب عن الرسول ﷺ ودعوته، إنما هو مصداق الآية الكريمة: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤].

وإن فاتنا في هذه الدنيا رؤية الحبيب ﷺ وتباعدت بيننا الأيام.. فأدعو الله ـ عز وجل ـ أن نكون ممن قال فيهم الرسول ﷺ: «**وددتُ أنَّا قد رأينا إخواننا**»، قالوا: ألسنا إخوانك يا رسول الله؟، قال: «**أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**» فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟، فقال: «**أرأيت لو أن رجلاً له خيلٌ غرٌ محجلةٌ بين ظهري خيل دُهم بُهم ألا يعرف خيله؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**فإنهم يأتون غُراً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض**» [رواه مسلم].

اللهم ألحقنا به، وأوردنا حوضه، وارزقنا شفاعته، وأكرمنا بجواره. واجعلنا ممن يتلمس أثره، ويقتفي سيرته، وينهل من سنته ﷺ.

كما أدعوه وهو الجواد الكريم، البر الرحيم، أن يجمعنا معه في جنات عدن، ووالدينا، وذرياتنا، والمسلمين.

الفهرس

المقدمة ٥
دعوة الأنبياء ٧
نوح ـ عليه السلام ـ ٨
إبراهيم ـ عليه السلام ـ ٩
موسى ـ عليه السلام ـ ١٠
عيسى ـ عليه السلام ـ ١١
محمد ﷺ ١٣
محمد رسول الله ﷺ ١٤
الرحمة المهداة ١٤
معرفته ١٦
تعظيمه ١٧
شبه جزيرة العرب ١٨
أقسام العرب ١٨
قصة بلقيس ١٩
الغساسنة ١٩
إبراهيم ـ عليه السلام ـ في مكة ٢١
إبراهيم وهاجر ٢١
دعاء الأب ٢٢
من الخضراء إلى الجرداء ٢٣
لطف اللطيف ٢٤
إبراهيم يزور ابنه ٢٥
بناء الكعبة ٢٨

البناء والدعاء ٢٨
نداء إبراهيم ٢٩
أصحاب الفيل ٣١
عبد المطلب ٣٢
العقاب ٣٢
ذرية إسماعيل ٣٤
أديان العرب في الجاهلية ٣٦
عمرو بن لحي ٣٧
انحراف العرب عن الحنيفية ٣٩
غلو النصارى ٤١
كثرة الأصنام ٤٢
خرافات ٤٣
دين قريش ٤٤
بقايا شريعة إبراهيم ٤٥
لا حساب ولا جزاء ٤٥
الاصطفاء ٤٧
قلوب العباد ٤٧
نسبه الشريف ٤٩
قصي بن كلاب ٤٩
عبد مناف ٤٩
قريش ٤٩
اسم نبينا ٥٠
عبد الله ٥٠
عبد المطلب ٥٠
هاشم ٥٠
قريش ٥١

نسل الأنبياء ٥١
ولادته ﷺ ٥١
بدعة المولد ٥٢
موت أبيه ٥٣
آيات ليلة مولده ٥٣
رضاعته ٥٤
مرضعته حليمة ٥٤
بركته ٥٥
بعد الرضاعة ٥٦
تهيئته لحمل الرسالة ٥٧
شق الصدر ٥٧
كفالة جده ٥٨
وفاة جده ٥٨
خروجه إلى الشام ٥٩
حرب الفجار ٥٩
حلف الفضول ٦٠
خروجه في تجارة خديجة ٦١
زواجه ﷺ من خديجة ٦٢
رعي الغنم ٦٢
التجارة ٦٣
الزواج ٦٣
أبناؤه ٦٥
بناته ٦٥
من فضائل خديجة ٦٦
وفاء النبي ﷺ ٦٦
حفظ العهد ٦٧

تعبده في غار حراء ٦٩
حفظ الله لنبيه ٦٩
هجر الأصنام ٧٠
الوقوف بعرفة ٧٠
ترك ما يذبح لغير الله ٧٠
خلق الرسول ﷺ ٧١
شهادة أبي سفيان ٧٢
بناء الكعبة ٧٣
وضع الحجر ٧٤
نور الصبح وبداية البشارات ٧٦
صفته في التوراة ٧٧
موقف الملوك من رسالته ٧٧
الملأ الأعلى ٧٨
حال الكهان ٧٨
حجب الشياطين ٨
شهادة أن محمداً رسول الله ٨٠
معنى شهادة أن محمد رسول الله ٨١
طاعته ٨١
التصديق ٨٢
النهي ٨٢
بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٨٣
الرؤيا الصادقة ٨٣
غار حراء ٨٣
أول الوحي ٨٤
ورقة بن نوفل ٨٥
الجزاء والثواب ٨٥

الوحي ٨٧

من المعجزات ٨٨

حمل الرسالة ٨٨

تنزل الوحي ٨٩

شدة الوحي ٨٩

ثقل الوحي ٩٠

أقسام الوحي ٩١

حرصه على تلقي القرآن ٩٣

في الصدور والسطور ٩٣

استراق السمع ٩٤

الاستماع ٩٥

الخوف مما جرى ٩٥

الشهب ٩٦

الكهان ٩٧

الإيمان ٩٧

التبليغ ٩٨

الرعيل الأول ٩٩

دعوة الأقارب ١٠١

أبوبكر ١٠١

خديجة ١٠٢

علي بن أبي طالب ١٠٢

الخمسة الأوائل ١٠٣

السابقون الأولون ١٠٤

إبلاغ الرسالة ١٠٥

السخرية ١٠٦

بلاء الأنبياء ١٠٧

صبر الرسول على الأذى ١١٢
الاستهزاء ١١٢
أبو لهب ١١٣
أذى قريش ١١٤
طلاق ابنتي الرسول ١١٥
أبو جهل ١١٦
أول شهيدة ١١٦
شدة الأذى ١١٦
صد الناس عن الإسلام ١١٧
عتبة بن ربيعة ١١٨
وضع سلى الجزور ١٢٠
موت أبي طالب ١٢٠
رفيق السوء ١٢١
سبب عداوة أبو جهل ١٢١
عقبة بن أبي معيط ١٢٢
أسلوب المداهنة ١٢٤
الوليد بن المغيرة ١٢٤
الآيات المعجزات ١٢٦
أمية بن خلف ١٢٧
الأسود بن عبد يغوث ١٢٧
قريش واليهود ١٢٨
أسئلة اليهود ١٢٩
الاختبار ١٢٩
أبو طالب وأبو لهب ١٣١
أبو لهب ١٣٢
جدال قريش ١٣٤

انشقاق القمر ١٣٤
الصفا ذهباً ١٣٥
التوحيد أولاً ١٣٦
الأصل ١٣٦
أذى المسلمين ١٣٨
الرسول وأبو بكر ١٣٨
خباب ١٣٩
أبو فكيهة ١٣٩
شدة الأذى ١٣٩
الهجرة الأولى إلى الحبشة ١٤١
الهجرة الثانية إلى الحبشة ١٤٣
مطاردة قريش لهم ١٤٣
دين الإسلام ١٤٦
الفجور ١٤٧
من أذى وجدال قريش ١٤٩
حصب جهنم ١٤٩
عيسى ـ عليه السلام ـ ١٥١
سيد قريش وثقيف ١٥١
أبو معيط ١٥٢
عند الصفا ١٥٣
المستهزئون ١٥٣
تكبر المشركين ١٥٤
تنزل الآيات ١٥٥
عزم الصديق على الهجرة ١٥٧
جوار ابن الدغنة ١٥٧
صلاة أبي بكر ١٥٨

من معجزات الرسول ﷺ ١٦٠
الروم وفارس ١٦١
الدعاء ١٦١
إسلام حمزة بن عبد المطلب ١٦٣
سبب إسلامه ١٦٣
الهداية ١٦٤
إسلام عمر بن الخطاب ١٦٥
الفاروق ١٦٥
إلى دار الأرقم ١٦٦
القوة في الحق ١٦٧
رقة من عمر ١٦٨
مساومة قريش ١٧٠
المساومة ١٧١
الحصار في الشعب ١٧٢
المقاطعة ١٧٢
الخوف على الرسول ١٧٣
النبي يدعوا ١٧٤
نقض الصحيفة ١٧٥
الاجتماع ١٧٥
معجزة ١٧٦
عام الحزن ١٧٨
موت خديجة ١٧٩
سودة بنت زمعة ١٨٠
الدعوة المنصورة ١٨١
استهزاء قريش ١٨٢
الاسم الخالد ١٨٣

من معجزات الرسول ﷺ ١٨٦
خروجه إلى الطائف ١٨٨
رؤساء ثقيف ١٨٨
النبي مع عداس ١٩٠
النبي في وادي نخلة ١٩١
رأفة النبي ﷺ ١٩١
العودة إلى مكة ١٩٢
الإسراء والمعراج ١٩٣
الإسراء بالروح والجسد ١٩٤
السماء الدنيا ١٩٤
السماء الثانية ١٩٤
السماء الثالثة ١٩٤
السماء الرابعة ١٩٤
السماء الخامسة ١٩٥
السماء السادسة ١٩٥
السماء السابعة ١٩٥
فرض الصلاة ١٩٥
مما شاهده ١٩٦
موقف قريش من الإسراء ١٩٨
موقف أبو جهل ١٩٨
موقف أبي أبكر ١٩٩
الدعوة في موسم الحج ٢٠٢
قبائل دعاهم الرسول ٢٠٣
أبو ذر القفاري ٢٠٣
الإعلام المضاد ٢٠٥
ضماد الأزدي ٢٠٧

بيعة العقبة الأولى ٢٠٨
هداية الأنصار ٢٠٨
يثرب وسكانها ٢٠٩
يوم بعاث ٢٠٩
البيعة ٢١١
سفير الإسلام ٢١١
إسلام أسيد ٢١٢
إسلام سعد بن معاذ ٢١٣
عودة مصعب ٢١٤
بيعة العقبة الثانية ٢١٦
العباس يتكلم ٢١٧
الرسول ٢١٧
تبين الأمر ٢١٨
النقباء ٢١٩
موقف الشيطان ٢١٩
تأكد الخير ٢٢٠
عبادة الأصنام ٢٢١
الهجرة إلى المدينة ٢٢٣
الرضا ٢٢٣
الرؤيا ٢٢٣
هجرة أبو سلمة ٢٢٤
أم سلمة ٢٢٥
عبد الله بن جحش ٢٢٧
صهيب بن سنان ٢٢٨
هجرة الفاروق ٢٢٨
استمرار الهجرة ٢٢٩

قريش والمهاجرون ٢٣٠
كتاب عمر لهشام ٢٣١
المشاورة في دار الندوة ٢٣٣
دار الندوة ٢٣٣
التشاور في الأمر ٢٣٤
رأي أبو جهل ٢٣٤
هجرة النبي ﷺ ٢٣٦
الإعداد للهجرة ٢٣٦
الترتيب للهجرة ٢٣٧
شجاعة علي ٢٣٧
علي في فراشه ﷺ ٢٣٨
خروج النبي ﷺ ٢٣٨
حال قريش ٢٣٩
من الدار إلى الغار ٢٤٠
وفاء أبي بكر ٢٤١
البحث عن الرسول ٢٤٣
لا تحزن إن الله معنا ٢٤٣
البقاء في الغار ٢٤٤
حب مكة ٢٤٤
حال مكة ٢٤٦
بيت الصديق ٢٤٧
تخلف علي لرد الودائع ٢٤٧
الطريق إلى المدينة ٢٤٨
معجزة في الطريق ٢٤٩
معجزة أخرى ٢٥١
الفأل الحسن ٢٥١

خيمة أم معبد........................ ٢٥٣

من صفاته ﷺ........................ ٢٥٤

الركب القادم........................ ٢٥٥

وصوله ﷺ إلى المدينة........................ ٢٥٧

النزول بقباء........................ ٢٥٨

الدخول إلى المدينة........................ ٢٥٩

المرء مع رحله........................ ٢٦٠

ثلاث أسئلة........................ ٢٦١

القول الحق........................ ٢٦٢

مشهد مؤثر........................ ٢٦٣

التاريخ الهجري........................ ٢٦٣

بناء المسجد النبوي........................ ٢٦٤

وصف المسجد........................ ٢٦٥

فضل المسجد........................ ٢٦٦

حجر النبي ٢٦٦

تنبيه........................ ٢٦٦

الزوجة عائشة........................ ٢٦٧

رد الودائع........................ ٢٦٨

أذى المشركين........................ ٢٦٨

المؤاخاه بين المهاجرين والأنصار........................ ٢٦٩

مثل رائع........................ ٢٧٠

المعاهدة مع اليهود........................ ٢٧١

موت أبي أمامه........................ ٢٧١

رفع الآذان........................ ٢٧٢

وباء المدينة........................ ٢٧٤

قصة سلمان الباحث عن الحقيقة........................ ٢٧٦

دخول الكنيسة ٢٧٦
من فارس إلى الشام ٢٧٧
إلى الموصل ٢٧٨
إلى عمورية ٢٧٩
سلمان مع الرسول ٢٨٠
إعانة الرسول له ٢٨٢
موقف اليهود من النبي ﷺ ٢٨٢
من أسباب الهداية ٢٨٢
قصة ابن الهيبان ٢٨٣
قصة الأعرابي ٢٨٥
شهادة اليهودي ٢٨٥
صفات الرسول ﷺ ٢٨٦
عداء اليهود والمنافقين ٢٨٧
إسلام مخيريق ٢٨٨
أشد اليهود حسد ٢٨٩
إذكاء الشر ٢٩٠
أقسام الكفار ٢٩١
الأذن بالقتال ٢٩٢
المرحلة الأولى ٢٩٢
المرحلة الثانية ٢٩٣
ثمرة الجهاد ٢٩٥
أداب الإسلام في القتال ٢٩٦
الاستعداد ٢٩٧
البعوث والسرايا ٢٩٩
أهداف الغزوات ٣٠٠
غزوة الأبواء ٣٠١

أول سهم رمى ٣٠١
سرية سيف البحر ٣٠١
سرية بواط ٣٠٢
غزوة العشيرة ٣٠٢
سرية نخلة ٣٠٣
أول قتل وأول أسير ٣٠٤
قبلة المسلمين ٣٠٦
حكمة تحويل القبلة ٣٠٧
حسد اليهود ٣٠٨
فرض صيام رمضان ٣٠٩
صلاة العيد ٣٠٩
غزوة بدر الكبرى ٣١٠
سببها ٣١٠
هروب القافلة ٣١١
المسير ٣١٢
موقف الأنصار ٣١٣
استكشاف أمر قريش ٣١٤
إرسال العيون ٣١٤
هروب أبو سيفان ٣١٦
النزول ببدر ٣١٦
العريش ٣١٦
ترتيب المقاتلة ٣١٧
موقف قريش ٣١٧
عيون قريش ٣١٨
فشل المساعي ٣١٨
حال المسلمين ٣١٩

الشيطان يناصرهم........................ ٣٢٠
ترتيب الصفوف........................ ٣٢٠
الدعاء........................ ٣٢٠
المبارزة........................ ٣٢١
الهجوم........................ ٣٢٢
بث الحماس........................ ٣٢٣
مدد السماء........................ ٣٢٣
قتل أبي جهل........................ ٣٢٤
ابن مسعود يعتلى أبا جهل........................ ٣٢٥
أمية بن خلف........................ ٣٢٦
الشجاع حمزة........................ ٣٢٦
معجزة........................ ٣٢٧
معجزة أخرى........................ ٣٢٨
القتل والأسر........................ ٣٢٨
بعد المعركة........................ ٣٢٩
الشهداء........................ ٣٢٩
مصعب بن عمير........................ ٣٣٠
العوده بعد النصر........................ ٣٣١
قتل عقبة........................ ٣٣٢
الوصية بالأسرى........................ ٣٣٢
الاستشارة في أمر الأسارى........................ ٣٣٤
رأى عمر وسعد........................ ٣٣٥
الغدر........................ ٣٣٦
العاص بن الربيع........................ ٣٣٧
سهيل بن عمرو........................ ٣٣٧
عمر بن أبي سفيان........................ ٣٣٧

السائب بن يزيد ٣٣٨
الوليد بن الوليد ٣٣٨
من شهد بدراً ٣٣٨
من ضرب له بسهم ٣٣٨
زواج عثمان ٣٣٩
وصول خبر بدر إلى مكة ٣٤٠
مقتل أبو لهب ٣٤١
من نتائج المعركة ٣٤١
غزوة بني سليم ٣٤٢
غزوة السويق ٣٤٣
صلاة العيد ٣٤٣
غزوة غطفان ٣٤٥
حفظ الله الرسول ٣٤٥
سرية القردة ٣٤٦
غزوة بني قينقاع ٣٤٧
جرأه اليهود ٣٤٧
الجلاء ٣٤٨
قتل كعب بن الأشراف ٣٤٩
تأليب المشركين ٣٤٩
الإذن بقتله ٣٥٠
دخول المسلمين ٣٥١
الله أكبر ٣٥٢
غزوة أحد ٣٥٣
جمع الأموال ٣٥٤
إغراء الشعراء ٣٥٤
الفاسق ٣٥٥

إعلام الرسول ﷺ ٣٥٥
مسير قريش ٣٥٦
رؤيا الرسول ٣٥٦
محبة الجهاد ٣٥٦
حب الجهاد ٣٥٨
المنافقون ٣٥٨
اليهود ٣٥٩
الحراسة ٣٥٩
بث الحماس ٣٦٠
المبارزة ٣٦١
القتال ٣٦١
النعاس ٣٦٢
خيل المشركين ٣٦٣
مصاب رسول الله ٣٦٤
قتال الملائكة ٣٦٥
شجاعة طلحة ٣٦٦
أبو بكر يصف الحال ٣٦٧
مصعب بن عمير ٣٦٨
أنس بن النضر ٣٦٨
إلى الشعب ٣٦٩
مداوة الرسول ٣٧٠
مداواة الجرحى ٣٧٢
إصابة عين قتادة ٣٧٣
الصبر والاسترجاع ٣٧٣
صفية ٣٧٤
ثلاث قتلى ٣٧٤

دفن الشهداء ٣٧٤
شهداء أحد ٣٧٧
الرؤيا ٣٧٩
أجساد الشهداء ٣٨٠
غزوة حمراء الإسد ٣٨١
لا يخرج إلا من شهد أحداً ٣٨١
قصة معبد الخزاعي ٣٨٢
من أحداث السنة الثالثة ٣٨٣
زواج أم كلثوم ٣٨٣
زواج الرسول بحفصة ٣٨٣
زواج الرسول بزينب ٣٨٤
الحسن بن علي ٣٨٤
تحريم الخمر ٣٨٤
بعث الرجيع ٣٨٥
الغدر ٣٨٥
قتل خبيب ٣٨٦
قتل زيد ٣٨٧
سرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة ٣٨٨
غزوة بني النضير ٣٩٠
الغدر ٣٩٠
قطع النخيل ٣٩١
الجلاء ٣٩٢
غزوة بدر الثانية ٣٩٤
غزوة دومة الجندل ٣٩٥
تزوج النبي بأم سلمة ٣٩٦
الاسترجاع عند المصيبة ٣٩٦

غزوة المريسيع ٣٩٨
جويرية بنت الحارث ٣٩٨
دعوي الجاهلية ٣٩٩
الولاء والبراء ٣٩٩
الرحيل ٣٩٩
حادثة الأفك ٤٠١
الوصول إلى المدينة ٤٠٢
أم مسطح ٤٠٣
إلى بيت أبيها ٤٠٤
الاستشارة ٤٠٤
أبو أيوب ٤٠٥
زينب ٤٠٦
الشدة والضيق ٤٠٧
فتنة أخرى ٤٠٧
غم عائشة ٤٠٨
الفرج ٤٠٨
اعتذار الأب والأم ٤٠٩
الوحي يتنزل ٤١٠
قصة مسطح ٤١١
إقامة حد القذف ٤١٢
حال الأبوان ٤١٢
سنة الابتلاء ٤١٢
من أخلاقها ٤١٤
غزوة الخندق أو الأحزاب ٤١٥
الجموع ٤١٦
الشورى ٤١٧

حفر الخندق ٤١٧
قول ابن كثير ٤١٩
الهمة في العمل ٤١٩
فوت وقت الصلاة ٤٢٠
حفر الخندق مع شدة الجوع ٤٢٠
البشارات ٤٢١
نقض العهد ٤٢٢
التثبت من الأمر ٤٢٣
ثلث الثمار ٤٢٤
قريش والخندق ٤٢٥
شعار المسلمين ٤٢٦
الخدعة في الحرب ٤٢٧
الدعاء ٤٢٨
جنود لم تروها ٤٢٩
رحمة الرسول ورأفته ٤٣٠
تأديب يهود بني قريظة ٤٣١
بعث أبا لبابة ٤٣٢
عاقبة الغدر ٤٣٣
موت سعد بن معاذ ٤٣٥
مكانه سعد ٤٣٦
الشهداء ٤٣٧
قتل أبي رافع سلام أبي الحقيق ٤٣٨
غزوة بني لحيان ٤٤٠
سرية محمد بن مسلمة ٤٤١
غزوة الغابة ٤٤٣
سرية زيد بن حارثة ٤٤٥

سرية كرز بن جابر ٤٤٥
غزوة سيف البحر ٤٤٩
عمرة الحديبية ٤٥٠
القصواء ٤٥١
رسل قريش ٤٥٢
عروة بن مسعود ٤٥٣
تعظيم البدن ٤٥٤
حرمة البيت ٤٥٤
عثمان بن عفان ٤٥٥
بيعة الرضوان ٤٥٦
سهيل بن عمرو ٤٥٧
أبو جندل ٤٥٩
موقف عمر ٤٦٠
نحر الهدي ٤٦١
رأى أم سلمة ٤٦٢
نزول سورة الفتح ٤٦٢
التوحيد ٤٦٣
من معجزات الرسول ٤٦٤
العودة ٤٦٤
أبو بصير ٤٦٤
مكاتبة الملوك والأمراء ٤٦٦
إلى النجاشي ٤٦٦
حامل الكتاب ٤٦٦
إلى المقوقس ٤٦٧
حامل الكتاب ٤٦٧
إلى كسرى ٤٦٨

حامل الكتاب.......................... ٤٦٨
إلى قيصر.......................... ٤٦٨
حامل الكتاب.......................... ٤٦٩
من صفات النبي ﷺ.......................... ٤٦٩
أمر دحية.......................... ٤٧٢
إلى الحارث الغساني.......................... ٤٧٢
حامل الكتاب.......................... ٤٧٢
إلى أمير بصرى.......................... ٤٧٣
إلى صاحب اليمامة.......................... ٤٧٣
حامل الكتاب.......................... ٤٧٣
إلى ملك البحرين.......................... ٤٧٣
إلى ملكي عمان.......................... ٤٧٤
حامل الكتاب.......................... ٤٧٤
غزوة الغابة.......................... ٤٧٦
غزوة خيبر.......................... ٤٧٨
المنافقون.......................... ٤٧٨
حصون خيبر.......................... ٤٧٩
المبارزة.......................... ٤٨١
الحصار.......................... ٤٨٢
زواجه ﷺ بصفية.......................... ٤٨٣
أهل فدك.......................... ٤٨٤
العذر.......................... ٤٨٥
العودة إلى المدينة.......................... ٤٨٥
غزوة ذات الرقاع.......................... ٤٨٦
قصة الأعرابي.......................... ٤٨٦
الصلاة والحراسة.......................... ٤٨٧

الرحمة ٤٨٨
سرايا المجاهدين بعد خيبر ٤٨٩
عمره القضاء ٤٩٢
الطواف بالبيت ٤٩٣
غزوة موتة ٤٩٥
وداع الرسول لهم ٤٩٥
التقاء الجيوش ٤٩٦
جعفر ٤٩٧
عبد الله بن رواحه ٤٩٨
خالد بن الوليد ٤٩٨
نهاية المعركة ٤٩٩
الشهداء ٥٠٠
غزوة ذات السلاسل ٥٠١
فتح مكة ٥٠٢
صلح الحديبية ٥٠٢
قصة رملة ٥٠٤
خطبة الرسول ٥٠٤
الولاء والبراء ٥٠٥
حاطب بن أبي بلتعة ٥٠٧
إسلام العباس ٥٠٩
قوة المسلمين ٥١٢
يوم الرحمة ٥١٣
دخول مكة ٥١٤
تطهير الكعبة ٥١٦
في جوف الكعبة ٥١٦
أذان بلال ٥١٨

صلاة الفتح ٥١٨
خطبته بعد الفتح ٥١٩
اجتماع الناس للبيعة على الصفا ٥٢٠
إسلام أبي قحافة ٥٢٠
بيعة النساء ٥٢٠
الأذان ٥٢٢
إقامة الحدود ٥٢٢
هدم الأصنام ٥٢٣
هدم العزى ٥٢٣
هدم سواع ٥٢٣
هدم مناه ٥٢٤
غزوة حنين ٥٢٦
استعاره دروع صفوان ٥٢٨
من مكة إلى حنين ٥٢٩
حراسة المسلمين ٥٢٩
التحذير من المشابهة ٥٣٠
إلى حنين ٥٣٠
شجاعة الرسول ٥٣٢
تراجع المسلمين ٥٣٢
محاولة قتل الرسول ٥٣٣
هزيمة هوازن ٥٣٤
القتلى ٥٣٥
الغنائم ٥٣٥
الشهداء ٥٣٦
سرية أبي عامر الأشعري ٥٣٧
الغنائم ٥٣٨

الشيماء ٥٣٩
حليمة السعدية ٥٣٩
غزوة الطائف ٥٤٠
هدم ذي الكفنين ٥٤٠
حصار الطائف ٥٤١
العودة ٥٤٢
الدعاء لثقيف ٥٤٣
انتظار مجئ هوازن ٥٤٣
عطاء أبي سفيان ٥٤٣
حكمة توزيع الغنائم ٥٤٤
تقسيم الغنائم ٥٤٥
وجد الأنصار ٥٤٦
عدله وحلمه ٥٤٨
وفد هوازن إلى النبي ﷺ ٥٤٩
رد السبي ٥٥٠
موقف الأعراب ٥٥٠
العمرة ٥٥١
عروة بن مسعود ٥٥١
وفد ثقيف ٥٥٣
التوحيد ٥٥٣
كعب بن زهير بين يدى النبي ﷺ ٥٥٥
في السرايا والبعوث في سنة تسع ٥٥٨
سرية عيينة ٥٥٨
سرية علي ٥٥٩
عدي بن حاتم ٥٥٩
قدوم عدي ٥٦١

من علامات النبوة ٥٦١
غزوة تبوك أو العسرة ٥٦٣
حال النصرانية ٥٦٤
الجزية ٥٦٤
نفقة أبو بكر ٥٦٥
بذل الصحابة ٥٦٥
نفقة عثمان ٥٦٥
لمز المنافقين ٥٦٦
تصدق بعرضه ٥٦٦
موقف المنافقين ٥٦٦
كن أبا خثيمة ٥٦٨
البكائين ٥٦٨
المسارعة إلى الخير ٥٦٩
الجوع والمشقة ٥٧٠
العطش ٥٧٠
صلح صاحب أيلة ٥٧١
من المعجزات ٥٧١
إلى دومة الجندل ٥٧٣
المناديل ٥٧٤
أحداث في غزوة تبوك ٥٧٥
مكيدة المنافقين ٥٧٥
موت ذي البجادين ٥٧٦
هدم مسجد الضرار ٥٧٧
دخول المدينة ٥٧٩
المتخلفون عن غزوة تبوك ٥٧٩
قصة كعب ٥٨٠

سؤال النبي ٥٨٢
النهي عن الحديث معهم ٥٨٣
فتنة أخرى ٥٨٤
البشارة ٥٨٥
الصدق منجاة ٥٨٦
عام الوفود ٥٨٨
وفد بني عامر ٥٨٨
وفد عبد القيس ٥٩٠
وفد بني حنيفة ٥٩١
وفد طئ ٥٩١
وفد كنده ٥٩٢
وفد زبيد ٥٩٢
وفد الأشعريين ٥٩٢
وفد الأزد ٥٩٢
وفد بني الحارث ٥٩٤
وفد مزينة ٥٩٤
وفد بني سعد ٥٩٥
تواضع النبي ﷺ ٥٩٥
العودة إلى الديار ٥٩٧
التوحيد ٥٩٨
وفد تجيب ٥٩٨
وفد بني فزارة ٦٠٠
وفد بني عذره ٦٠١
وفد بلي ٦٠١
وفد خولان ٦٠٢
وفد بني عبس ٦٠٢

وفد النخع ٦٠٢
أحداث في العام التاسع ٦٠٤
وفاة إبراهيم ٦٠٤
حجة الوداع ٦٠٦
الإحرام ٦٠٧
الطواف بالبيت ٦٠٨
السعي ٦٠٨
إلى الأبطح ٦٠٩
إلى منى ٦٠٩
إلى عرفة ٦٠٩
خطبة عرفة ٦٠٩
المزدلفة ٦١٢
رمى الجمار ٦١٢
إلى الكعبة ٦١٣
إلى منى ٦١٤
العودة ٦١٥
وجع النبي ﷺ ٦١٦
وصية الجيش ٦١٧
علامات قرب الإجل ٦١٧
قبل خمس ليال ٦١٨
اشتداد المرض ٦١٨
العدل بين الزوجات ٦١٩
الصلاة ٦٢٠
الوصية بالأنصار ٦٢١
فاطمة ٦٢١
الصلاة ٦٢٢

قرب الأجل ٦٢٢
وفاته ﷺ ٦٢٣
موقف أبو بكر ٦٢٤
خطبة أبو بكر ٦٢٤
سقيفة بني ساعدة ٦٢٦
في سقيفة بني ساعدة ٦٢٦
خطبة أبو بكر ٦٢٧
البيعة ٦٢٨
الخطبة ٦٢٨
غسله ﷺ وتكفينه ودفنه ٦٣٠
حفر القبر ٦٣١
الدفن ٦٣١
زوجات النبي ﷺ ٦٣٣
خديجة ٦٣٣
سودة ٦٣٤
عائشة ٦٣٤
صفية ٣٣٤
زينب ٦٣٥
أم سلمة ٦٣٥
زينب بنت جحش ٦٣٦
جويرية ٦٣٦
رملة ٦٣٧
صفية ٦٣٧
ميمونة ٦٣٨
المطلقات ٦٣٨
مارية وريحانة ٦٣٩

أولاده ﷺ ٦٤٠
القاسم ٦٤٠
زينب ٦٤٠
رقية ٦٤٠
أم كلثوم ٦٤٠
فاطمة ٦٤٠
عبد الله ٦٤١
إبراهيم ٣٤١
صفاته ﷺ الخلقية والخُلقية ٦٤٢
منطقة ﷺ ٦٤٤
مدخله ومخرجه ٦٤٥
مجلسه ﷺ ٦٤٦
جلسائه ﷺ ٦٤٧
طعامه ﷺ ٦٤٩
تواضعه ﷺ ٦٥٠
حياؤه ٦٥١
بيته ﷺ ٦٥٢
فصاحة لسانه ٦٥٢
كرمه وجوده ٦٥٣
شجاعته ٦٥٣
بلاغته وفصاحته ٦٥٤
وإنك لعلى خلق عظيم ٦٥٦
ذكر الردة ٦٥٧
من معجزات النبوة ٦٥٧
انقاذ جيش أسامة ٦٥٨
قتل أهل الردة ٦٥٩

الوصية ٦٦٠
مقتل مسيلمة ٦٦٠
في المدينة ٦٦٢
قتل الأسود العنسي ٦٦٣
رؤيا النبي ﷺ ٦٦٣
موت فاطمة ٦٦٤
جمع القرآن ٦٦٤
الحج ٦٦٥
إلى الشام وفلسطين ٦٦٥
وقعة اجنادين ٦٦٦
موت الصديق ٦٦٦
الخلافه لعمر ٦٦٧
براءة ذمته ٦٦٧
أبناؤه ٦٦٨
من فضائل أبي بكر ٦٦٩
بشارته بالجنة ٦٧٠
ورعه وتقواه ٦٧١
المسابق إلى الخيرات ٦٧٣
بذل ماله في سبيل الله ٦٧٣
أبو بكر التاجر ٦٧٤
علمه وفقهه ٦٧٥
تواضعه ٦٧٦
إلى السوق ٦٧٦
حب رسول الله له ٦٧٧
ثناء الصحابة عليه ٦٧٨

خلافة عمر بن الخطاب	٦٧٩
مقتل عمر	٦٨٢
الرؤيا	٦٨٣
قتل عمر	٦٨٤
النصيحة	٦٨٥
الدين	٦٨٦
القبر	٦٨٦
الوصية بالخليفة	٦٨٦
الوفاة	٦٨٧
دفن عمر	٦٨٨
من فضائل عمر بن الخطاب	٦٨٩
أمانة الحكم	٦٨٩
القوى الأمين	٦٩٠
زهده	٦٩١
بين عمر وابنته	٦٩١
عام الرمادة	٦٩١
خوفه من الله	٦٩٢
هيبته ونفور الشيطان منه	٦٩٢
تواضعه	٦٩٣
علم الفاروق	٦٩٤
اهتمامه بأمور المسلمين	٦٩٤
خلافة عثمان بن عفان	٦٩٦
الفتوح	٦٩٦
كثرة الأموال	٦٩٧
المنحرفون	٦٩٨

الرؤيا ٦٩٨
نصره الصحابه له ٦٩٩
المنع من القتال ٦٩٩
من فضائل عثمان بن عفان ٧٠١
هجرته إلى الحبشة ٧٠١
تبشيره بالجنة ٧٠١
ذو النورين ٧٠٢
عثمان كاتب الوحي ٧٠٣
عثمان من أهل بيعة الرضوان ٧٠٣
جمع القرآن ٧٠٤
انفاقه في سبيل الله ٧٠٥
بئر ردمة ٧٠٥
توسعة مسجد الرسول ٧٠٦
كثرة عبادته ٧٠٦
تواضعه ٧٠٦
ذكر خلاف علي بن أبي طالب ٧٠٩
عائشة ٧١٠
الخوارج ٧١٢
ذم الخوارج ٧١٤
تأليه علي ٧١٥
ذكر مقتل علي ـ رضي الله عنه ـ ٧١٦
خلافته ٧١٧
وصيته للحسن والحسين ٧١٨
من فضائل علي بن أبي طالب ٧١٩
زوجاته وأولاده ٧١٩

أولاده من فاطمة ٧٢٠
زوجاته بعد فاطمة ٧٢٠
شجاعته ٧٢١
خلافة الحسن بن علي ٧٢٢
الصلح ٧٢٢
محبة الصحابة ٧٢٣
الأحفاد ٧٢٤
التسمية ٧٢٥
الخاتمة ٧٢٦
الفهرس ٧٢٧